"ديجافو.. نمرة تسعة!"

أحمد يوسف شاهين

رواية

"ديجافو.. نمرة تسعة!"

Dejavu ..no. 9!!

"ديجافو.. نمرة تسعة!"
no. 9!! ..Dejavu

رواية
د. أحمد يوسف شاهين

الطبعة الأولى 2013
(c) دار ميريت
6 (ب) شارع قصر النيل، القاهرة
تليفون / فاكس: 25797710 (202)
www.darmerit.net
merit56@hotmail.com

الغلاف:
المدير العام: محمد هاشم
رقم الإيداع:
الترقيم الدولى:

د. أحمد يوسف شاهين

"ديجافو.. نمرة تسعة!"

no. 9!! ..Dejavu

رواية

دار ميريت
القاهرة 2013

إهـــــداء

إلى مصر.. التي حتماً ستعود كما عرفناها..
إلى الشوارع والبيوت التي سبحت على صوت
أجراس الكنائس وترنمت بترديد الآذان
وإلى الذين فهموا المعنى الحقيقي لثورة يناير ،
دون أن تتوه منهم البوصلة

أحمد يوسف شاهين

رسالة "مصطفى المصري" – 24 يناير 2026، القاهرة

المكان: سجن طرة، عنبر المحكوم عليهم بالإعدام..

الزمان: الرابع والعشرين من يناير عام 2026، السابعة وثماني عشر دقيقة مساءاً..

أنا.. من تطلقون عليه "الفرفور"، "العيل السيس"..

لكن ليس تماماً كما تفهمون، هذا هو ما أخشاه، أن تفهموني خطأً..

أنا شاب في أواخر الخمسينيات..!!

لا ليس هذا هو المدخل الصحيح أيضاً..

لماذا أتصبب عرقاً في هذا البرد؟ أمسح العرق بطرف كمي، شهيق عميق.

أنا؟ خائف من الموت؟ لابد أنكم تمزحون!!

لا عليكم، لنبدأ ثانية..

أنا فرفور من نوع خاص، نوع لا تعرفونه الا إذا كنتم تنتمون إليه. أما إذا كنتم ممن يطلقون علينا وعليهم هذا اللقب، فأنتم لا تميزون بيننا. من هم ومن نحن؟ اقرأوا كلماتي جيداً وستفهمون.

في ذلك.. قال "مارتن لوثر كينج": أسوأ مكان في الجحيم محجوز لهؤلاء الذين يبقون على الحياد في أوقات المعارك الأخلاقية العظيمة، وأنا، المناضل الثوري "الفرفور"، الذي بُحَّت حنجرته من الهتاف، ورجاه أهله عديد المرات أن يعود من الميدان، وتمزق معطفه من الرصاص، أنا.. كنت محايداً بامتياز. هكذا ظننت!!.

حسناً، هذه هي المعلومات الأساسية في رأيي!!

تعلمون الآن تقريباً كل شيء: الزنزانة باردة ورطبة كما يجب أن تكون، يتسلل إليها ضوء منكسر كنفسٍ يائسة بعد ضياع الأمل، يتكسر من خلال ظلال القضبان الكئيبة على وجهي وعلى هذه الوريقات التي أعطاني إياها السجان، استجابة لتوسلاتي المتكررة. وربما أعطاني إياها رغبة منه في إراحة رأسه من هذا الصداع الذي أسببه له بالإلحاح في طلبي. يفترش الظلام من حولي الأرض كخيمة مسافر رمادية تم طيها استعداداً للرحيل. البدلة الحمراء الأنيقة التي ألبسها واسعة ولكنها تمكنني من الجلوس في وضعية القرفصاء، وهي على كل حال ازدادت اتساعاً منذ ارتدائي لها خلال تلك الفترة القصيرة. لن يطول بي الحال معها ولا حالها معي على أية حال، لذا فلن أتذمر بشأن مقاسها ولا نظافتها فهذا عبث لا طائل من ورائه، وأنا أحتاج تفكيري ومجهودي من أجل ما هو أهم.

حزين لأنني سوف أعدم؟ لست أعرف. أمن المفترض أن أحزن؟ راح كثيرون أفضل مني، ونجا كثيرون أنا أفضل منهم،

فهل يعني هذا أن أفرح؟. هل أنا مصدوم؟ هل الصدمة شديدة لدرجة أنني لا أعرف ماذا أقول؟ لا يبدو لي ذلك ولا أظن أنكم تعتقدون فيه، مازال عقلي يعمل بكفاءة للأسف، وليته دخل في غيبوبة كما يفعل في بعض الأحيان.

سأتحمل نظراتكم الغريبة، اتهاماتكم التي تبعثها عيونكم التي تقول في قسوة: "محكوم عليه بالإعدام؟ يا ساتر يارب، أحفظنا من المجرمين دول يا رب". سأتحمل ابتساماتكم الساخرة التي تنتظر مني أن أقول أنني بريء، وعقولكم التي ترفض تصديقي قبل أن تسمعني. تعرفون تلك اللحظة رغم ما يبدو على وجوهكم من براءة تصطنعونها، كلكم لابد وأنه مر بذلك في فترة ما من حياته: الندم ومحاولة القاء اللوم على غيره، الندم بعد فوات الأوان، بعضنا يعيش خائفاً من هذه اللحظة، مرعوباً من أن يعيشها. يدفعه ذلك لاتخاذ قرارات "مريحة". خير القرارات هي الاختيار الآمن. الذي يتجنب التصادم، خير العقاقير هي المسكنات، هكذا علمونا، لن أحكم عليهم بشيء، ولن أخطيء الخطأ الذي أتشدق بلعنه طوال الوقت وألقي اللوم عليهم. لست مؤهلاً لذلك ولا أعرف ماذا كانت الظروف تحتمه وقتها. هم كانوا ربما على حق، لكن، على الأغلب لا!! . أنا غالباً في الدرك الأسفل من النار فلا تطيلوا عذابي بأن تصموا آذانكم عني، وتحكموا علي مسبقاً.

لم أكن يوماً نهماً للقراءة أو الكتابة.. أنا طالب مجتهد سواء في المدرسة أو في الجامعة. لا أترك شيئاً للصدفة وأحيط

بالموضوعات إحاطة واسعة دون كلل ولا اختصار. أقرأ الصحف يومياً وأعشق الأفلام الكوميدية والسياسية والقراءة لكبار الكتاب، لكنني لا أعرف ما إذا كان ذلك يجعل مني مثقفاً أو مختلفاً عن أي إنسان آخر، لكنني على الأقل أعرف شيئاً واحداً: هو أنني لم أتجنب طول الوقت ما أخجل منه فيما بعد، على الأقل ليس طول الوقت. بل كنت مقتنعاً تارة، مرغماً تارة ومنجرفاً تارة مع نظريات الاختيار الآمن، وتجنب التصادم، وتفضيل المسكنات على أي جراحة.. حتى انتهى بي الحال إلى الإعدام الذي يرون أنني أستحقه، وأعلم أنهم مخطئون، لكنني لا أجد نفسي متحمساً للدفاع عن نفسي.

أنا أستحق!!

ألا لعنة الله على ذلك كله.. !! من الآن وصاعداً سأتوقف عن الإيمان بذلك كله، سأتكلم بلا خوف أو حسابات، حتى لو لم يكن ذلك يفيد في أي شيء.

ليس الفجر ببعيد. المشنقة تتأهب لي كعروس تتزين لزوجها، لكن هذا لا يخيفني ولا يقلقني.

تعبت من الخوف ومن المسكنات. تعبت من الناس ومن الحياة، فليكن الإعدام في تلك اللحظات مكافأة لي على الفهم، أم هو مكافأة للفهم على انضمامي لجانبه؟

عسى أن تفهم يا ولدي، عسى أن تفهموا جميعاً..

مصطفى المصري، زنزانة رقم 1، طرة، 24-1-2026

السادس من يناير 2025..
غرفة العناية المركزة مستشفى "تشاريتيه"، برلين.

هذه إذاً هي الغيبوبة التي تفنن الكثيرون في شرح الإحساس بها والمشاعر التي تنتاب المستيقظين منها؟

عشرات من الأفلام السينمائية، وخيال مؤلفين، ووصف مطول، وجماهير تنبهر وتصفق فتلتهب أكفها انبهاراً.. حسناً، دعني أخبرك شيئاً عن فترة ما بعد الاستيقاظ: هو شعور مبهم لا تستطيع له وصفاً!!.

تشاهد نفسك كما يشاهدك الغرباء، وكل ما حولك ومن حولك لحظتها غريب. تنظر في المرآة المعلقة على حائط قريب، فترى وجهاً يحدق فيك من فوق جسد هزيل يرتدي زياً للمرضي وتتصل به خراطيم المحاليل والمجسات، فتدرك فوراً أنك في مستشفى، وأنك هنا للعلاج من فقدان مطول للوعي، وتتذكر فوراً من تكون، وتفهم أن حالتك لم تعد خطيرة، وأن الناظر إليك في إرهاق وتأمل هو أنت. يختلط في عينيك للحظات ضجيج الألوان الزرقاء الباهتة والخضراء الصافية التي تميز غرف المستشفيات، بضجيج صياح يرتفع بالألمانية من خارج الغرفة، فتفهم أنها الممرضة التي ألقت عليك نظرة ذاهلة بعينين يملؤهما الاندهاش، فيرتفع على إثر صياحها وقع أقدام تهرول

نحو حجرتك فتفهم في يسر أنهم الأطباء، وأنك المقصود، ولا تتعجب وتسأل نفسك في بلاهة كما في الأفلام: "من أنا؟ ماذا أفعل هنا؟ من هؤلاء؟ ماذا يريدون؟ يا الله.. كيف أفهم الألمانية؟".

الطبيب الشاب ربت على كتفي في حذر كأنه يخشى أن أنكسر كالزجاج، وتأمل وجهي في سعادة ودهشة وهو يسألني بالإنجليزية عما أحس وهل أفهم كلامه، فأجبته بألمانية أدهشته أنني أحس بالعطش. ضحك ورفع حاجبيه وقال شيئاً عن المعجزة التي تحققت فقلت بالعربية بصوت خافت: "ماذا حدث؟". سارعت بترجمتها له، فقال وهو يختلس النظر لعلاماتي الحيوية من نبض وضغط على جهاز دءوب يسجلها في نشاط سخيف، أنني يستحسن ألا أنفعل الآن، فلسوف يبلغون سفارتي والطبيب المسئول عني، وأصدقائي الذين اتصلوا يسألون عني منذ عدت للوعي بالأمس. تعجبت فقال أنني صحوت بالأمس لكنني غبت بعدها ساعات طويلة عن الوعي ثانيةً، حتى ظن هو شخصياً أنها الصحوة الأخيرة. لم تمض ساعة، حتى كنت أشرب الماء على مهل وطبيب عجوز انتهى من فحصي مطولاً، يجلس قبالتي مع شاب مصري يرتدي حلة أنيقة، قدم لي نفسه على أنه من السفارة المصرية في برلين. أعدت كلامي بالعربية وبالألمانية على السيدين اللذين كانت تختلط دهشتهما بنظرات الشك والسعادة في تبادل أدوار مثير للعجب. مصطفى المصري، طبيب، من الإسكندرية، عمري 40

سنة، متزوج من "إسراء مراد" وعندي ولد واحد. أنهيت كلامي ونظرت لهما بملل كأني أسأل، هل يحتاجان لأي دليل آخر على أنه ليس بي شيء؟. صمت الاثنان وتبادلا نظرات مبهمة. قال الطبيب في جدية وهو ينظر في عيني ليرى أثر كلماته عليَّ، أنني لابد وأن أكون على علم بما حدث جيداً، وأنه ليس من المعتاد أن يخبر أحداً بتلك التفاصيل إلا بعد أن يكون قادراً على استيعابها، وبعد أن يقرر الطبيب النفسي الذي سوف يفحصني الليلة استعدادي لذلك. لكن حالتي أفضل مما يجب أن تكون عليه، وعلى كل حال فهو – أي الطبيب العجوز ذاته – الذي سوف يحدد متى وكيف يخبرني بالتفاصيل الهامة، وكل ذلك يشجعه ألا ينتظر أكثر من ذلك.

لم أستشعر الخطر الذي أراد أن يوحي لي به، فاستحثثته على أن يتحدث. تبادل نظرة أخرى مع الشاب المصري، ثم قال في بساطة: "سيد "مصطفى".. لقد فقدت وعيك في غيبوبة كاملة، وحضرت إلينا من مصر لتعالج على نفقة الحكومة المصرية. حالتك كانت ولا زالت مثيرة للاهتمام، لكن أكثر ما يستوقف النظر فيها، هو أننا نجحنا في الحفاظ على جسدك وعقلك في حالة جيدة، لمدة طويلة. طويلة جداً في الواقع". سكت برهة متردداً، ثم بدا وكأنه حسم أمره فقال: "لذلك، سيد "مصطفى"، لابد وأن تعرف أن سنك لم يعد 40 عاماً كما تظن، كان كذلك عندما حضرت إلينا، هذا صحيح، لكنك فقدت الوعي

لمدة أربع عشرة عاماً تقريباً. نحن الآن في برلين بألمانيا، والعام هو 2025، يناير"

* * *

لكن الدهشة لم تصبني كما توقعا، وكأني في مكان ما من أعماقي أدركت أن كل هذا طبيعي ولا غرابة فيه. لم أصرخ ولم أولول ولم أدر حول نفسي أتساءل عن أهلي ولا عملي ولا زوجتي. كل ما دار في ذهني ساعتها ثلاثة أشياء: أنت، "هريدي"، والتساؤل المبهم، الذي يلح على عقلي فلا أستطيع تشكيله أو صياغته. سؤال يدق على رأسك عن شيء ما، هناك شيء ناقص أو غير صحيح. لا تعرف أساساً إن كان شيئاً أو شخصاً أو موقفاً أو نظرة هنا أو هناك. كل شيء يذكرك بأشياء أخرى، تتسارع في ذهنك فتسأل نفسك ما إذا كانت لحظة من "الديجافو"، أو الإحساس الزائف بأنك رأيت وسمعت ذلك قبلاً، في مكان ما، أو زمن ما، أم أن كل ذلك جديد عليك. حياني الشاب المصري وتمنى لي السلامة باسم السفارة، ووعدني بالسؤال عني في الأيام القادمة، ثم تبادل بضع جمل مع الطبيب الألماني عن أمبولات "إنسولين" يود صرفها من المستشفى، فقلب الطبيب شفتيه وقال ممتعضاً أن الأمر زاد عن حده وأنه يجب أن تكون هناك "روشتة" جديدة ومريض جديد يحضر بنفسه للكشف عليه، وإلا اضطرت المستشفى لرفض الصرف. أكد له المسئول أن الروشتة جديدة وأنها لمريض آخر، فتدخلت سائلاً إذا ما كانا يقصدانني، فضحكا معاً وقال الشاب المصري

أنه يطلب الحقن لنفسه، قالها بالعربية ففهمت سبب عناد الطبيب لأنه لابد وأنه أدرك زيف الروشتات وضاق بها ذرعاً، لكن المصري حياه بسماجة وانصرف. كان انصرافه مقترناً بنظرة اخترقت ظهره من عيني الطبيب العجوز، نظرة لا تحمل الود الكافي، بل وأحسست أنها تحمل احتقاراً ما. سألته في بساطة عن أول ما تبادر إلى ذهني: هل قصرت السفارة في علاجي أو الإنفاق اللازم؟ نفى ذلك بشدة، لكنني لم أسكت. قلت له أنني لم أحس بينهما تعارف مسبق، كما أنتظر ممن كانوا يتابعون حالتي كما قال، بل وكأنه يراني ويراه لأول مرة. قال وهو يبتسم أن الأمر ليس كما أظن، وأنني يجب أن أريح عقلي قليلاً الآن. قام من مكانه وأكد عليَّ ألَّا أتوانى عن طلبه لو أحسست بأي ضيق نفسي في الأيام القادمة، وأمر الممرضات بإحضار الصحف لي بناء على طلبي.

كانت أيامي الأولي في المستشفى فرصة لالتقاط أنفاسي. من ماذا؟ لا أعرف، لكنني بالتأكيد استشعرت ضغطاً ما. لم أكد أبحث عن أخبار مصر أو صحفها على الانترنت، حتى دق الباب يوماً، وطالعني وجهه. هو هو، أكثر امتلاءاً بقليل، لكنه ضحك بشدة لمرآي وقال في تلقائية: "عُمْر الشقِي بَقي صحيح!! يخرب عقلك يا مصطفى!! حمد الله على السلامة". كان هذا "عزمي". أنت تعرفه كما تعرفه مصر كلها، وأنت على وجه الخصوص، لكنك ربما لم تكن قبل هذه اللحظة تعرف تاريخنا معاً. بعد السلام بادرته بسؤال عن أمك، فقال بعد صمت أنني

يجب أن أسكت الآن عن هذه الأفكار حتى أتعافى، لكنني أصررت على سؤالي، فتغير وجهه وقال في ضيق: "انت كنت ميت يا مصطفى. مايغركشي إنك حاسس نفسك دلوقتي كويس، بس انت فعلاً كنت ميت بالنسبة للناس كلها. "إسراء" تزوجت يا مصطفى، ذلك الطبيب اللبناني الذي تعرفه طبعاً. أما "أدهم"، فهو بخير. تفاصيل زيادة نعرفها معاً عندما نعود لمصر بإذن الله".

تابعت سؤاله عن "هريدي" و"شاهي" و"ندى" فتلون وجهه، وقال أنني لا يجب أن أشق على نفسي بكل الأخبار دفعة واحدة، لكن ارتياحاً ما ظهر على ملامحه برغم ذلك وهو يضحك بعدها ويتعجب من ذاكرتي وقال: "إذا كان فقدان الذاكرة كده، أنا أريد أن أطلع في العلالي وأفقد الذاكرة أنا كمان. أنا لست أذكر ماذا تناولت على الفطور، وأنت ما شاءالله عليك، كأنك كنت معنا طوال الوقت". سألته عما يقصد بالطلوع في العلالي فسكت وغير الموضوع، لكنني لم ألحظ في حينها. قال أنني يجب أن أعتبر نفسي الآن أدخل حياة جديدة، لا مكان فيها لأي منغصات من حياتي السابقة، ولا مجال فيها لتأنيب الضمير ولا البكاء على أي شيء فات. سألته ماذا يقصد ثانية، فضرب مثالاً بزواج أمك من غيري، لكنني، ولسبب ما، أحسست مع توتر نظرته التي خفضها إلي الأرض، أنه يُخفي عني شيئاً. لم أهتم لحظتها بسؤاله مرة أخرى عن هريدي" والآخرين، فلقد كان السؤال الحائر، ذلك الغموض الذي يحتل خلفية تفكيري دون أن أستطيع

الإمساك بتلابيبه لأتفحصه في النور، لا يزال هناك، يشغلني كنهه وصداعه عن التركيز، وكان خبر زواج أمك يشعرني بالغضب الهلامي الذي لا أدري أبعاده، هل هو اقتناع بحتمية الغضب أكثر منه شعور حقيقي به؟ هل "فهمت" أم "شعرت"؟ وهل هو غضب عارم أم جرح صغير؟.

جاءنا الطبيب في مروره اليومي، فعرفته بـ"عزمي" واكتشفت أنني لا أذكر أشياء كثيرة أخرى. مع ذلك كنت لا آبه بذلك كثيراً. تعود في مثل هذا الموقف إلى حال الطفل، لا تقلق كثيراً على ما تعرفه إلا عندما تحتاج إليه، لكن عندما تريد أن تعرف شيئاً، يعود شغفك بعد أن كان قد انطفأ، وتعود رغبتك في التعلم من كل كلمة، ومن كل نظرة ومن كل موقف. رأيت نفس النظرة المتشككة في وجه الطبيب عندما صافح "عزمي"، بادره بسؤال بارد عن حال "مصر" فأصخت السمع لما سيقوله "عزمي"، أنا نفسي كنت أود أن ألقي عليه نفس السؤال لولا أن دخل علينا الطبيب. قال "عزمي"، بعد أن سدد للطبيب نظرة متحدية، أن الأمور أفضل، وأن المجتمع قد استقرت اوضاعه الآن. سأله الطبيب وهو يختلس النظر لوجهي كأنه أدرك شغفي بمتابعة حديثهما وانتابه القلق من ردة فعلي، عن الانتخابات القادمة وعن توقعه لما سوف يكون، لكن "عزمي" ابتسم ونظر إلي وكأنه يريد أن يوحي له أنه يفهم مغزى سؤاله الذي بدا وكأنه تغيير لدفة الموضوع بعيداً عن سؤال آخر محذوف، سؤال أوجب وأكثر أهمية. كنت أستمع إلى كل كلمة وأحللها على

عشرات الأوجه. الأمور أفضل؟ ربما يكون "كلاماً عاماً"؟ "عزمي" ليس ممن يمسك العصا من المنتصف، لم يكن كذلك أبداً. لكنني كنت أعلم أن معطياتي لابد وأنَّها تختلف الآن عما مضى، فانتابتني الحيرة كيف أفسر كلامه وعلى أي وجه أقبله. خرج الطبيب وخرجنا أنا و"عزمي" إلي الحديقة الخاصة بالمستشفى. نفس النظام ونفس الأناقة ونفس المرضى الذين يهربون إلي تدخين السجائر مع ذويهم الذين حضروا لزيارتهم وقت الاستراحة. جلسنا على مقعد بين الحشائش فسألته: "الأمور في مصر "أفضل"؟ طيب فهمني حصل إيه يا عزمي؟". تنهد في قوة وقال لي: "طيب انت الأول حاسس بإيه من موضوع "إسراء"؟ أنا ضايقتك؟ دع أمر البلد الآن جانباً أرجوك، هذا الطبيب كان يتخابث عليَّ، هو في باله أحكام مسبقة عننا، وعني أنا بالذات، أكيد أنه عرفني رغم ما لم يبد عليه. كما قلت، دعك من كلامي معه. لست أعلم يا "مصطفى"، انت فاكر إيه وناسي إيه، بل أنت نفسك لا تعلم بعد. لذلك أرجوك تمهل على نفسك، لا أريد لكلمة مني أن تصدمك أو تضايقك. كل ما فعلته أنت، أو فعله بك الآخرون، انتهى الآن. أنهاه البعد، والتقادم والسنون". قلت في هدوء: "أنا أريد أن أفهم، وعندي استعداد أن أتقبل أي شيء غريب تقصه عليَّ بعد 14 سنة كاملة. أشعر أن لا شيء سوف يدهشني. اخفِ عني ما شئت، لكن لا تنسَ أنني سوف أعود بعد أيام لمصر. عندها لابد وأن أعرف كيف أتعامل مع أي شيء يحدث، وكأنني أفهمه وأفهم

سببه. إذا كان على موضوع "إسراء"، فعندي شعور غامض بالارتياح. ستظن أنني جننت؟ حسناً، أظن أنني أيضاً سأتفق معك، لكن ارتياحي هادىء، غير هستيري لو أنك تفهم ما أعنيه."

هنا قال لي في بساطة: "والله يا مصطفى أنا شايف كده برضه، وربما تندهش لو قلت لك أنني لو مكانك لشعرت بنفس الشيء. أنا حتي اليوم أسأل نفسي لماذا تزوجتها يا أخي".

* * *

ولدي العزيز..

لا داعي للمقدمات الطويلة. فقط أريد أن أعوض غيابي عنك، والذي تعلم أنت الآن أنه لم يكن بيدي. لا مفر من أن أبدأ معك قصتي كيفما عشتها بذاكرتي التي استيقظت معي بعد الغيبوبة، وليس ذنبي أنني تذكرتها بشكل عجيب. كلي ثقة مع ذلك، أن مثلك قادر على أن يقرأ فيفهم، ويفهم فيتدبر.

لماذا تزوجت أمك؟ أظن أنها البداية الصحيحة، على الأقل من وجهة نظري التي أعتنقها، هذه هي البداية، وربما كانت هي بداية النهاية..

أسوأ شيء يا ولدي أن تفهم من كلامي أنني أريد أن أعيب علي والدتك أو أذم في عشرتها معي، أو أقسو عليها بالنقد في أذنيك. لا هذا مرادي ولا هذا ما أقبله. عشت بين جدك وجدتك سنيناً قبل مولدك وأنت تعرف طباع جدك الصعبة، رغم طيبة قلبه التي ربما لم تقتنع بها وأنت بعد صغير، لكن لابد وأنك فهمت

الآن مثلما فعلت أنا بعد سنين. عشت بينهما وأدركت مدي تأثير تعبيرات وجه أمي علي نفسيتي ونفسية أختي. كنت أعرف أنهما متوافقين، لكن أمي من طيبتها لم تستطع إخفاء عواطفها، ولم تتوحد مع مواقف أبي تجاهنا، فأدركنا مبكراً أنها كانت لا توافقه شدته، وربما كانت تفضل أن يعاملنا بشكل آخر. كانت رغماً عن ذلك تؤكد لنا باستمرار ـ عندما يضيق بنا الحال من قواعده وأوامره التي تكبل أحلامنا الطفولية في اللهو أو عدم الانضباط كما كان يسميه أبي ـ أنه يفعل ذلك من حبه لنا و"من خوفه عليكم، بس دي طريقته بقي". هكذا تكون لدي شعور الولد الطبيعي تجاه أبيه في جيلنا: الرهبة المغموسة بالاحترام وعدم القدرة علي تجاوز آرائه. كنت لا أقوي علي معارضته، وما أكثر معارضتي في تلك السن، حاولت بحجج المراهقين وفذلكاتهم، لكن أبي لا يستمع إلا لمنطقه هو. حاولت بثورة الشباب فلم أصل لشيء، فالاعتراض علي منطقه أصلاً صعب. هو واسع الصبر في الجدل ومتعدد الحج والدفوع، لكنه ضيق الصبر في المعارضة جداً، يبدأ في الزفر في ضيق مع جملتك الأولى، وغالباً ما يسفه من كلامك قبل أن تصل للثانية. عندها تفقد أعصابك ومنطقك وتنحى منحى فرعياً، فتنتهي كلامك مرغماً قبل أن تبدأ، وتخسر النزال فيزهدك فيما هو قادم، ويزيد الطين بلة ـ كما كنت أحدث نفسي ـ أنه يكون في نهاية الأمر دائماً علي صواب: تسير الحوادث كما حذر منها حين لا نطيعه، وساعتها يغضب غضبا شديدا ويصفنا بغير المطيعين و"مبتسمعوش

الكلام"، ويفرغ ثورته علي أمي متهماً إياها أنها سبب دلعنا وأنها ستكون سبباً في فسادنا، وأن ذلك الفعل أو هذا سيقودني أن أصبح مثل ابن زميله الذي يكبرني بأعوام سبعة، والذي لم ينجح في دراسته، وكان حديث الزملاء والإسكندرية بمغامراته واختياراته الخرقاء، ثلاثة سنوات في الثانوية العامة، ومثلها في أول عام بالجامعة، ثم كلية أخرى، ثم مدخن شره، ولسان سليط وخطبة فاشلة لفتاة من أسرة كريمة فسدت علاقتهما بتبجحه واستهتاره اللذين كانا دائماً ما يشار إليهما على ألسنة النسوة من صديقات أمي والرجال من أصدقاء أبي دون أن تعرف ملامحاً مفهومة، ودون أن تقابل اسئلتك بغير الزجر والتوبيخ. ثم كانت نهايته أن اكتفي –بعد توسطات عديدة- بوظيفة بسيطة ووضع هامشي في شركة قطاع عام. كانت الشفاه الممطوطة والعيون المتعاطفة والوجوه المشفقة تحضر في سخاء إلى أي مجلس يأتي فيه ذكره أو ذكر أبيه "المسكين" أو أمه "إللي معرفتش تربيه"، فأدهش أولاً من إشفاق الجميع على من لا أراه إلا مبتسماً، بشوشاً واثق الخطوة، وثانياً من الأم التي "تربي"، وأعود فأفكر في بيتنا، وفي أبي.

أبي الأستاذ الجامعي المتميز، والذي درس بألمانيا وتحمل مسئولية أسرته وإخوته بعد وفاة أبيه، فكبروا في كنفه وصار لكل كيان منهم بيتاً مستقلاً، ولكل بيت منهم كيان، كان باستمرار يحذرني من أن أصير إلى مصير ابن زميله، ويربط حتمية ذلك المصير بإقدامي على مخالفته. أو يقول في إشفاق وهو يهز

رأسه في مرارة، أنني سأصير مثل إبن خالة أمي، الذي يكبرني بعشرة أعوام. ذلك الذي يصدق أي شيء، فتراه ينشر الشائعات ويتحمس للخرافات: من أول أن المسيخ الدجال ظهر بالشرقية منذ أسبوع وأن الأهالي تحفظوا عليه والحكومة ترفض الإعلان عن ذلك، مروراً بأن أمريكا تحارب الإسلام وأن هناك عشرة ملايين أمريكان دخلوا إلي الإسلام الشهر الماضي، وانتهاءاً بالسبب الحقيقي لأزمات السلع أو تعيين ذلك الوزير بالذات، وغيرها من الأمور التي كان يبدأها دائماً بقوله: "بيقولوا إن كذا.." وينهيها بالتأكيد علي الخبر ودعمه بشواهد لا يعدم لها وسيلة. شجار أبي مع "أيمن"، إبن خالة أمي النحيل كان دائماً ما تُشعِله هذه القصص فيرفضها أبي علي طول الخط، خاصة ما تعارض منها مع ما تعلنه الحكومة، أو ما قد يثير بلبلة ما، لكن بالتدريج صار مجرد وجوده بيننا مع أبي في نفس المجلس يثير غضب أبي فيبدأ الحديث المتحفز والردود الصادمة بلا سبب أحياناً. أبي كان – وبعد أن يرحل مصدوماً وكاظماً غيظه وسط اعتذارات أمي – يُعلن دائماً أن هذا هو نوع التفكير الخاطيء الذي يعتمد الشائعة واللا منطق ولا يُعمِل الفكر. كنا ، أنا وأختي، نرى فيما بيننا، أن الناس تقول أشياء والحكومة دائماً تخفيها، وعلى عكس أختي التي لا تصرح برأيها أبداً أمامه، كنت أنا. "ما يمكن يكون صح؟" قلتها لأبي مرة فثار واستشاط غضباً، اتهمني أنني لا أفكر بأسلوب صحيح، لكنه لم يكن ليتمادى ويعقد حتمية ما للفشل لمن يفكر على هذا النحو، لأن "أيمن" كان

طبيباً ولم تعلق به وصمة الفشل كابن زميله، ربما باستثناء زواجه الفاشل الأول، لكنني مازلت أظن أن أبي لم يعلم بالتفاصيل مثلما عرفتها أنا من حديث أمي مع جدتي إبان أحداث الطلاق، ولم تقص عليه أمي كل التفاصيل المُخزِية التي حدثت ـ ربما خجلاً وتفادياً لتأكيد فكرته عن أخيها ـ وكيف أن الزوجة لم تُراعِ زوجها وطال لسانها علي أهله مراراً حتي صار فراقها حتمياً تؤيده كل الأطراف بما فيها أهلها أنفسهم.

لكن أبي لا يقتنع، ومنذ متي اقتنع إلا بما في رأسه؟ لكننا في قرارة أنفسنا كنا نعرف أنه علي حق. دوماً علي حق بشكل مستفز، طاغٍ، كلنا بجانبه مهمشون. والحق أننا لم نفهم ذلك في حينه، والحقٍ أن أمي أيضاً لم تفهمه. هكذا النساء يا ولدي. ربما يحببنك كثيراً ويُشِدنَ بك من أعماق قلوبهن، يمنحنك عقولهن لتبني فيها وترتبها كيف تشاء، لكن لا يقبلن من بنائك إلا ما توافق مع قلوبهن. لطالما اشتكت أمي لأهلها من صعوبة ألفاظه معها رغم أنها لا تحوي سباباً أبداً. أبي أعظم أب في هذه الدنيا، أراد أن يحمينا ويحميها من الناس ومن الدنيا، لكنني لم أفهمه. لماذا ضيقت أنا الواسع فتحيرت بين تركه أو إدراكه كله؟ ربما ظننت أنت بأني أردتك أن ترد لي ندمي على ذلك بأن تلتمس لي العذر وتكيل لي صاعه بمثله، لكنني لم أفهمه وكفى، لذا لم أرد لك أن تقع فيما وقعت فيه، واحترزت لذلك مع أمك كثيراً.

لكن مسألة الطباع أورثتني قلقاً على نفسي لم ينتهِ. هذا شيء آخر حاولت علاجه في نفسي فلم أكن أبداً صعباً مع الناس

ولا غليظ القول. البعض رأي في هدوئي رغم ذلك نصلاً أكثر حدة من سكين السباب والشتائم. كان يلوم أمي بتلك الكلمات مشيراً للإنطباع الذي تسرب إلينا أنا وأختي من بين أصابعه ومن بين خلجات أمي دون أن يقصدا، الإحساس أنه "الوِحش الوحيد اللي في البيت" كما كان دائماً ما يتندر بذلك، لم تشكُ لي من ضيقها بتلك الجملة كما كانت تفعل عندما يعنفها في بعض الأمور، لكن دأبت تلك الجملة وذلك الموقف يطارداني طويلاً، كما طارد أبي فشل ابن زميله في تحمل مسئولية دراسته ومسئولية أسرته الصغيرة التي كونها بزواجه من المتسلطة الكاملة التي حملت فيما بعد لقب زوجته، وكما لم يُرِد أبي لي أن أشب مثل "أيمن"، لم أرد لك أبداً أن تشب مثلنا، اتفقت مع أمك حتي قبل أن تولد علي ذلك: يجب ألا تحس أننا مختلفان علي شيء يتعلق بك، لو عاقبتك سأدعمها، لو استحسنت كلامك سأوافق عليه ولو نظرت إليك بلوم وأنت تحبو ثم يممت وجهك نحوي بعينيك البريئتين تستطلع مكنوني بذكاء الطفل الذي لا يقدره أحد، لن تجد مني سوي نفس النظرة، أردت لك ألا تشب مثلي، ربما أردت أن أجنبك أن تفهمني مثلما فهمت أنا جدك، ربما تري أنت أنني خشيت علي صورتي في عينيك أن تتأثر سلباً وأن أصير أنا الآخر "الوِحش الوحيد اللي في البيت"، لكن كلنا يتمني لابنه أن يكون أفضل، ولقد أيقنت أن الطريق لذلك لابد وأن يبدأ بنا. شيء من ذلك افعله الآن، إلا أن أمك ليست حاضرة لتشاركني نظرتي نحوك من خلال سطور رسالتي. لذا،

أحاول أن أكون موضوعياً، أذكر الحقائق فقط، وأتركها لتقلبها بين يديك، تزنها، وتقيسها، وتعرف قيمتها فتحفظها في سويداء قلبك، أو تلقي بها في ظلمة النسيان. ربما نسيت أنا في طريقي إلى ذلك أنني ربما سلبتك، كما حدث معي، حقك في أن تكون مختلفاً. أنا تركت الاختيار وعشت برد الفعل، وتغلبت لدي رغبتي في صبغ حياتك بألوان حياتي، وسكبت على "إسراء" نفس الإهاب، حرصاً عليك وخوفاً، فوقعت في ذات المحظور الذي خشيت عليك منه، والذي هربت منه طويلاً، فإذا به ينتظرني في آخر الطريق هازئاً ومبتسماً في سخرية مقيتة. ربما كان أفضل ما حدث لك هو أن عشت بعيداً عني، فاحرص وأنت تقرأ رسالتي ألا تعيشها محاولاً تعويض ما فاتك منها من آلام، بل تعلم منها ولا تنسى ما احتوت عليه من آثام. أطلق لحريتك قيدها في أن تشعر أنني أخطأت، وتلعنني في سرك، لا تقلق من غضبي، فسأظل أباك الذي يسعده أن تكون أفضل منه، وأن تعيش ولا تقترف أخطاءه لأنك جبنت عن أن تضعها مع مثيلاتها من الآثام في نفس السلة المهملة في زاوية ضميرك.

وافقت أمك علي ذلك وبرغم مشاكلي واختلافي معها في نقاط أخري، فلقد حافظت علي تلك النقطة، لكنك ربما تتعجب لو أنني قلت لك أن هذا لم يضف لها رصيداً عندي في خلافي معها، أعرف أنني مقنع، وعقلي من الأشياء القليلة التي أثق في رجاحتها في حياتي، أعرف تأثيري علي الآخرين عندما تكون أمور معينة علي المحك. أمك صدقتني وأطاعتني من باب أن هذا

أمر طبي له علاقة بعلم النفس أو شيء من ذلك. لذلك فعندما يتحدث مثلي فيجب احترام ذلك، لكنها أيضاً أرادت تصديقه لأنها توسمت فيه مصلحتك وليس لأنها أرادت طاعتي. هناك فارق كبير بين الدافعين يا ولدي. سوف تشب وتحب وتتزوج، سيسعدك اهتمام حبيبتك بولدك، لكنك سيسعدك أكثر أن يكون اهتمامها به هو اهتمام بولدك أنت أو ولدكما، شعرة تفصل بين هذا وذاك، لكن شتان ما بين الاثنين. بعد كل تلك السنوات، اكتشفت أنها تركتني عند أول محطة ورحلت. لم تكن هي محطة غيبوبتي، ولم أقصد رحيلها مع ذلك اللبناني. أمك رحلت عني قبل ذلك بكثير. لم أكن أنتوي أن اصارحك بما فعلت، ولا ما فعل أهلها معي. العهد عهد، والاتفاق اتفاق، وكما راعينا وحدتنا أمامك بالنظرات والهمسات، كان أولى أن نحفظ ذكرياتنا ومرارتنا التي عشناها معاً ونحجبها عنك. لكن ما حدث، قد حدث، وصار من حقك ومن المهم لك أن تعرفه، فستكون نسخة مني شئت أم أبيت. ربما ستعتبرها نعمة أو نقمة، لكنك سوف تتعايش مع ذلك كما رفضته أنا سنيناً ثم تقبلت أنني صرت نسخة من أبي الذي كنت لا أفهمه، لكنني خسرت أكثر مما كسبت بتأخر الفهم. المهم يا ولدي أنك وإذ تجد نفسك على هذه الحال، هي مني وأنا منها، وتذكر ذلك جيداً، كن نفسك مع ذلك!! نفسك الأفضل، وليست نفسك الأخرى، الغريبة عنك وعني. ساعتها، واعلم أنني صادق، ستكون خسرت كل شيء. لن أقول لك فوراً ما أخذته علي أمك، ربما أخبرك به في سياق كلامنا هنا. لكنني

أتمني ألا تأخذه علي أنه سلبيات وتغضب لها، انس أننا والديك، وتذكر أننا زوجان، مثلنا المئات بل الألوف والملايين، بيوت كثيرة قامت علي ما يشبه الحب ويلبس لباسه، بيوت كثيرة منها استمرت، وكان يمكن لنا أن نكون مثلهم، لكن الله أراد لنا أن ننظر في المرآة ونفزع مما رأينا: الثورة أغضبت أناساً كثيرين من بعضهم، أعرف أصدقاء فسخوا خطوباتهم بعد خطاب "مبارك" العاطفي، أزواج طلقوا زوجاتهم أو زوجات تركت البيت وذهبت لأهلها بعد التنحي، لكننا لم نفعل شيئاً من ذلك، للحق كانت أمك صبورة، لكن الخلاف كان عميقاً، نظرنا لأنفسنا وللمرآة وأجلنا الفراق، شرخ المرآة كان أوضح من أن نتجاهله، وكان أقوي من أن يتجاهلنا. شيء آخر: لا تؤذِ نفسك بتأنيبها. لا تضيع وقتك بالحكم عليَّ أو علي نفسك. لم أعد أصدق مسألة التحيز لرأي واحد، لذا لا أدَّعي أنني كنت بريئاً، ولا أن ظروفاً ما كانت مسئولة عن ذلك كله. عشرتنا كانت طيبة وثمرتنا هو أنت، نسختنا التي لابد وأن تكون أفضل، نسختنا التي نحبها لأنها تحمل أخطاءنا وليس حسناتنا فحسب، إبني الذي يحمل ما أحبه وأكرهه في نفسي ونفس أمه.

متي بدأت ألحظ حقيقة أبي وأندم على الكثير؟ لا أعرف، قبل أم بعد أن اكتشفت طيبته وكم هو يحبنا؟ قبل أم بعد أن فهمت أن أشواك القنفذ تغطي صلدته الرخوة، وأن تحت رماد اللامبالاة واللااكتراث تقبع نار القلب وأجيج الحب؟ أم عندما نظرت خلفي فوجدت أن كل ما صارت إليه حياتي من إيجابيات، كانت وليدة

الجواهر، التي حاول حشرها في فمنا "بمعلقة خشب" كما كان يصفه جدي في حديثه معي عندما يراني مهموماً من توبيخ جدك لي وأنا بعد صغير. أو أن كل المآسي التي عانيت منها كانت هي المصائر المحتومة التي وصفها، والسبايا المنهكة التي خلفتها حربي مع نصائحه، فصارت عبئاً ثقيلاً على كاهلي أنوء بحمله أينما ذهبت؟ يشرب جدي قهوته في استمتاع لازلت أذكره وهو يمصمص شفاه سارحاً في الفراغ الممتد أمام شباك غرفة الجلوس في منزله بمصر الجديدة، يؤكد على أمر "الملعقة الخشب"، ثم ينظر لـ"أيمن" النحيل المتحمس الذي يقول في إصرار أن عليَّ أن أحترم أبي وأتأكد من أنه يحبني، وألَّا أسمح لأسلوبه معي رغم ذلك أن يقلل من ثقتي بنفسي، أبحث في عينيه عن ما يخالف ذلك من قناعته في نفسه، فأنا أشهد الجدل بينهما وأسمع رأي أبي فيه وأري اعتذار أمي له بعيني رأسي، لكنه لا يُظهر سوي عصبيته المعهودة وهو يتحدث في حماس، وأنا لا أقتنع لأني أريد من يهديء من روعي ويخبرني أنني علي حق، وأنني يجب أن أغضب، ويجب أن أرفض ذلك الأسلوب، وفي عقلي لم يتكون الفاصل بعد بين الأسلوب والشخص، أو بين القول والنفس التي وراء القول، فأظل بعد كلام جدي و"أيمن" ثائراً أسعي لطبطبة أمي وأستمع في شغف من يطلب ذلك، لحديثها الذي كان يطمئنني أني لست مخطئاً وأن أبي "هو اللي عصبي"!

كيف بدأ الأمر؟ تذكر أنني لم أكن هنا عندما حدث ما حدث. فاتتني الفرصة لأرصده أو أفهم ما جري وهو مازال يحدث. أعلم أنك تعرف، لكنني لا أعرف ما إذا كنت قد فهمت. عشت الثورة بمقدماتها ومنذ اندلاعها وحتي تسعة شهور ويزيد بعد التنحي، وأعرف الفرق بين المعرفة والفهم. هو كالفارق بين ما قيل بعدها وبين ما حدث، وهو كالفارق بين ما كنت أظنه وبين ما فهمت. لكنك بيدك وحدك أن تفهم من مآل أمورنا ما ينفعك في هذه الأوجه، ما يجب عليك أن تستمسك به وما تحذر من أن يطفو علي السطح فتغرق أنت. أليس كل هذا الخطاب يهدف أصلاً إلي ذلك؟ إن نسيت أنت فأنا لا أملك ترف النسيان.

* * *

قلت لـ"عزمي" ونحن نجلس متجاورين في الطائرة، وبعد أن تصفحت الصحف المصرية: "أنا بالفعل لا أفهم شيئاً. الأمور جيدة أم غير جيدة؟ مرة تطمئنني ومرة أشعر أنك أنت نفسك غير مطمئن".

تنهد في قوة، خلع عويناته وفرك عينيه وقال: "شوف، هل تذكر "محمود السمان"؟ عظيم. نعم، هو بعينه. الواقع أن الأمور تغيرت كثيراً منذ رحيلك إلي الغيبوبة، لكن دعني أسألك، مادمت مصراً على ألا تنسى الماضي وتصمم على أن تفتش به: ماذا تعتبره شيئاً جيداً من منظورك؟".

-"لا أفهمك"

-"يعني، أنت كنت معنا في الثورة، وكنت معنا في محمد محمود، عاصرت كل شيء تقريباً. لديك حالة خاصة جداً، كونك ابتعدت عن كل شيء. لم يتلوث عقلك بكل هذا الزخم الذي عشناه، ولم تتشتت نفسك بين ما تتمناه وما ترجوه وما هو ممكن وما هو واقع، وبين ما يحدث بالفعل. الآن تعود وأنت تظن أنك ستجد الأمور على وجه من اثنين، إما أموراً جيدة مشجعة تبعث على التفاؤل، وإما أموراً سيئة محبطة لا تمت بصلة لكل ما أردناه وعشناه. بطل ثوري عظيم مثلك، لابد وأن نظرته العميقة للأمور سوف تربط هذه النهاية الحالية ببراءة وطموحات البدايات. لديك إذن ميزة كبيرة، استخدمها وقل لي، ماذا تظن أن الأمور آلت إليه؟"

قلت في دهشة: "أنا.. بطل ثوري؟"

ابتسم في بساطة لا تعرف التكلف وقال: "هذا الجزء لم تتذكره بعد؟ نعم، ستجد ذلك واضحاً جداً في كل خطوة تخطوها من الآن فصاعداً. إفاقتك من الغيبوبة أيضاً ذاع صيته، ولن أتعجب لو وجدنا الكثيرين في انتظارك في المطار لدي وصولنا" قالها وتوترت نظرته مرة أخرى فسألته بتلقائية عما إذا كان ذلك أمراً جيداً أم سيئاً، فقال وهو يتكلف ابتسامته هذه المرة: "على حَسَبْ. من الأفضل لك أن تكون هادئاً في أيامك الأولى، على الأقل حتى تستجمع شتات فكرك وتستقر مشاعرك. سأحاول أن أدبر لك لقاءات سريعة مع "شاهي" و"عماد" وآخرين. لقاءك مع هؤلاء سوف يعطيك إحساساً بالألفة مع حياتك الجديدة كما

قال الطبيب. المهم: لم تخبرني بعد، هل وضعت تصوراً للأفضل؟"

كنت مشوشاً وتركيزي يخفت مع أثر الصداع الذي يتصاعد مع صوت طنين الطائرة المنتظم. اعتذرت له عن الإجابة لكنه قدر موقفي والتزم الصمت وهو يواصل مطالعة جريدة مصرية أمامه. حاولت اختلاس النظر للعناوين فلم أجد فيها ما يلفت النظر، اجتماعات وزراء، مشاكل للسيطرة على الأسعار، انتصارات رياضية، مهرجانات سياحية. لا شيء يبعث على السرور ولا الحزن، ولا رابط يربط الأخبار مع دهشة ما أو ملحوظة ما. قررت الاسترخاء، أغلقت عيني واستسلمت لنوم هادىء، برغم الصداع، ابتعدت الموجودات مؤقتاً، وارتاح صدري لوقت قصير من الهم المطبق عليه. انزوى عقلي في ركن النوم المظلم البعيد عن الطنين، ولم أكن أعلم أنها راحة قصيرة إلّا عندما هزَّ "عزمي" كتفي برفق وهو يوقظني بابتسامة قائلاً: "وصلنا يا بطل، ياللا اربط حزامك. إياك أن تكون قد نسيتني؟".

* * *

مطار القاهرة.. ليل العاشر من يناير 2025..

هواء القاهرة البارد في شتاء بدا قارساً. لسبب ما كنت أصف الشتاء في القاهرة دائماً بأنه أكثر قسوة من "برلين". "عزمي" و"هريدي" كانا يسخران من مقولتي هذه فيقولان

أنني فقط نسيت القاهرة عندما عدت من البعثة بعد سنوات خمس كاملة قضيتها واضطررت لقطعها ولم أكن تمنيت العودة. كانت أفضل سنوات عمري كما كنت أعتقد وقتها، لكنني تأقلمت مع واقعي المتشتت بين رغبتي في النجاح وبين رفضي لأن أكون واحداً من الساخطين على حال البلد وقتها. كان ذلك منذ عشرين عاماً، أما اليوم فإنني لا أعرف كيف أحدد شعوري. لا أعرف ما إذا كنت سعيداً أم خائفاً أم حزيناً. كأنني مقبل على رحلة لمكان جديد، كنت أعرفه وألم بتفاصيله، لكنني الآن أشعر أنني أزور مكاناً يشبهه، مكان لا يعرفني، أو هكذا أخشى. فقط مازال شعوري بالبرودة لم يتغير.

ألقى ضابط الجوازات نظرة طويلة على جواز السفر الخاص بـ"عزمي"، ثم ابتسم في ضيق واضح وناوله إياه كأنه مُرغَم، وانتقل إلي جواز سفري. لم يكد يفعل حتى انتقلت نظرته من أوراقي بين يديه إلي وجهي في ذعر. أخذت نظرته تنتقل بيننا في دهشة وهو يحك ذقنه الطويلة، وينظر حوله بين حين وآخر كأنما يبحث عَمَّن يستنجد به في لهفة. وضع الجواز في جيبه وأشار لمجند يقف بعيداً برأسه، ثم أمرنا بالانتظار في ود حاول جعله حقيقياً. يبتعد في جد إلي ما خلف "كشك" الجوازات ويغيب خلف باب أبيض عتيق. أسأل "عزمي" عما حدث فيقطب جبينه ويطلق سبة بذيئة، ثم يخبرني أنَّه لا يدري بالضبط ماذا يحدث. نَمَّت نظرته عن دهشة وقلة حيلة وغضب لا حدود لهما، واستمر نفس التعبير على وجهه وأنا أواصل الابتعاد بين

حارسين انقضا عليَّ بالأصفاد واقتاداني وهما يسحبانني منها في قسوة. كان "عزمي" يبتعد عن نظري، ولكنني كنت أصارع شيئاً آخر غير الدهشة والغضب، فقد كنت بأفكاري في مكان آخر، غير الذي يقتادونني إليه. دقَّ جرس الهاتف المحمول لأحد الضباط المصاحبين لنا، فرد في لهجة رسمية وباحترام شديد لمحدثه. اختلطت كلماته التي أكد معها إتمام المهمة، بأصوات رصاص خافت في الخلفية، من بعيد، لا أعلم من أين جاء ولماذا. كانت السيارة الأمنية تسير بي وهم يعصبون عيني، بينما كنت لا أرد عليهم وهم يمطرونني بأسئلتهم. عدت لذكرى ألحت عليَّ في إصرار.. عدت إلى ذلك اليوم..

* * *

عندما أتذكر الفارق بين ما كنت عليه قبل وبعد أن أنخرط مع "هريدي" و"عزمي" و"باسم" و"شاهي" و"أكرم" والبقية الباقية من 6 أبريل في وقفاتهم ونقاشاتهم، أجد أنني لم أرَ قبلها، أن الثورة قادمة. فقر وبطالة ومشاكل؟ تخلف في السلوكيات وانعدام في الضمير؟ نعم، لكن ما دخل النظام في ذلك؟ لو أن الناس كانت أقل عدداً ولو أنهم كانوا أكثر تحضراً ورقياً، لو أننا نربي أبناءنا بشكل سليم، الصدق، الإخلاص في العمل، الموضوعية، لكان حالنا أفضل. كانت تلك هي الأحاديث التي أتداولها مع "إسراء"، و"فؤاد" فيؤمنان على هذه الكلمات، ويضيف "فؤاد" أنَّ "الناس ماتجيش إلا بكده" عندما ألمح إلى البطش الأمني. يهز زملائي في القسم رءوسهم

موافقين، لكن "هريدي" يهز رأسه مخالفاً ومتمتماً بأن النظام مسئول عن كل شيء. لكنني لم أرَها أخطاء حكومة، ربما هناك إهمال، أو بطء في التغيير، لكنني كنت أراها أخطاء الناس أنفسهم، لم أربط أبداً بين أي من ذلك وبين الحكومة. أزمات؟ نعم، سوء إدارة؟ بالتأكيد. وساطة ومحسوبيات؟ ليس الكل كذلك. صدقني لو أن أحداً عرفني قبل زواجي لجزم بأن كل ما صرت فيه من مال وشهرة ونجاح، سببه زواجي ومصاهرتي تلك العائلة. ولوصمني بالوصولية. بهذا كنت أرتاح إلي أي "خدمة" أتلقاها - ولم أكن أصلاً أقتنع بأنها كذلك – بدون تأنيب الضمير المنتظر. حقي، لكنني أحصل عليه كما ينبغي أن يحصل عليه أي مواطن.

غيري، يا "أدهم"، كان يحصل علي كل ذلك مثله دون وجه استحقاق، غيري كان يسرق ويقتل ويكذب ويفعل أي شيء في سبيل الظفر بأي مكسب مهما بلغت تفاهته. هل كان مطلوباً مني أن أمنعهم؟ هل كان ذلك من الممكن أصلاً؟ اكتفيت بعملي وإتقان ما أجيده، وظننت أن هذا كافٍ. بالطبع لم أسأل نفسي هو كافٍ لماذا ولأي هدف؟ لتأمين حياتي أم لتجنب المواجهات أم لمصير هاديء، ليس مصير "عزمي" ولا من علي شاكلته، ولا مصير المعارضين الذين كانوا يتساقطون طوال الوقت، وهم يطالبون بحقوق غيرهم. بحثت عن حقي، وقلت لنفسي أن المؤمن القوي خير من المؤمن الضعيف، طبقتها علي نفسي وظننت أن "تكييف" وضعي هو القوة، التي تضمن حقي. تسألني عن

الذين لا يحصلون عليه؟. ظلم، زحمة، سمها ما شئت، لكنني لم أكن مستعداً لمثاليات أن تسلبني حياتي، ولا لكلام الكتب أن يحولني لصوت ينادي فيهز الناس رءوسهم آسفين ومؤمنين عليه، ثم ينصرفون لحال سبيلهم تاركين صاحبه خلف قضبان "اليوتوبيا". أعترف أنني لم أفكر ملياً في ذلك من قبل. لا أعرف لماذا.

ماذا أيضاً كانت البلد تشكو منه؟ كل الناس كانت محبطة، لكن – مثلي بشكل أو بآخر - كلهم كانوا متعايشين مع الوضع. فيما بعد اكتشف الكل فيما اكتشفوا، أنهم لم يكونوا راضين مطلقاً كما كانوا يقنعون به أنفسهم. حتي الذين ألقوا بهموم سوء أحوال المعيشة علي القدر وتصاريفه، و"آدي حال الدنيا حنعمل ايه"، كان كثيرون منهم في الصفوف الأولي للميدان. لذلك فأنا لم أكن مختلفاً هذه المرة عن الناس، لكنني كنت أريد أن أتميز عن "نفسي": لم ألحق بهؤلاء الذين فهموا مبكراً أن الحال "مائل"، ولا هؤلاء الذين حاولوا أن يفعلوا شيئاً، ولا هؤلاء الذين توقعوا أن يؤدي هذا الشيء أو الأشياء الأخري إلي ثورة. ربما لذلك كان حماسي الشديد للثورة؟ ألذلك لم أتوانَ عن النزول والمشاركة بكل شيء؟ هل كنت أعوض مافاتني وأتحسب أن يفوتني شيء جديد؟. "خالد سعيد" جديد أو "باسم" جديد، صورة لوجه مبتسم تذكرني وتنغزني في قسوة لتقول لي في صمت: "لقد حدث ما حدث مرة أخرى، ولم تكن أنت هناك". سوف أحدثك عن "باسم" في حينه. كنت أتمنى لو كان حياً،

لكنه قدره وقدري، أو ربما حظه الذي لم يسعَ هو لأن يكون أفضل أبداً، بل تقبل كل ما كان يعيشه بشجاعة، بل واعتبر أن واجبه أن يظل معدوماً محارباً من أجل غيره، نمط آخر لم أفهمه في حينه أبداً.

رغم غضب أمك وتحذيرات وضيق خالك الذي نقلته لي بشكل غير مباشر، لم يردعني شيء، وكنت سعيداً جداً بذلك كله. كانت الثورة لحظة اختيار، آثرت ألا يفوتني منها شيء كما فاتني الكثير من قبل، اختياراتي طاردتني كلها في لحظة: الكلية، اختيارات الصمت، "ندى"، تقاعسي عن الوقوف بجانب "هريدي" عندما احتاج إليَّ، قراري بالزواج، مشاكل المستشفى، وأمور أخري كثيرة، كنت أظنها انتهت للأبد بهذا الاختيار الذي كان قلبي يرقص له من فرط طبيعته الحاسمة المتمردة، ظننتني تغيرت واقتلعت "نفسي" من داخلي، لكنني كنت واهماً. لكن دعني أقص عليك الأمر من نقطة فاصلة، ومن منظور أوضح.

* * *

الثلاثين من يناير 2011

جلسنا جميعاً نفترش أرض صينية الميدان، وجوه كثيرة لم أكن أعرفها.. كثيرون عرفتهم أثناء أيام الاعتصام منذ الخامس والعشرين من يناير، ومنهم من لم أحلم يوماً بأن أجالسهم. "ندى"، حبيبتي السابقة التي تركتها تفلت من يدي وكنت أعتقد

أنها لم تتمسك بي بالشكل الكافي. لقاؤنا في الميدان منذ أول يوم كان باسماً وكاننا نسينا أننا افترقنا على دمع، فالتقينا على ابتسامات وأكف تدفع نفس الحجارة، وحنجرتين تهتفان بنفس الأهازيج. كنت كلما نظرت ناحيتها تلاقت عينانا فابتسمنا، لكننا لم نتكلم مباشرة إلا نادراً. تحجرت عيناها على خاتم الزواج في يدي لوهلة، لكنها عادت لوجهها الجاد وهي تقول لي في بساطة: "صليت ولا لسه؟ إحنا حنجمع الضهر والعصر، ولو فضلنا عايشين لحد المغرب نجمع تاني معاه العشا". أجفل من شجاعتها فأهم بالتوضيح بشأن الخاتم، لكنه تضع يدها قرب فمي لتمنعني من الكلام وتقول في مرح: "هو إحنا هنا، هو ذات الـ "إحنا" إللي سبناها في البيت؟ ياللا نصلي مفيش وقت".

كلما نظرت لـ"هريدي" في لحظات الاستراحات بين الكر والفر داعبني وقال شيئاً مثل: "منور يا "مصطفى"، انت شكلك كده طالع رحلة مش ثورة!! إيه يا عم الشياكة دي؟". أبتسم ولا أحر جواباً، لكنه يقول لي في صوت خفيض وهو يتقاسم معي بعض ثمرات البلح: "خد دول ومتاكلهمش كلهم، خللي شوية في جيبك محدش عارف إحنا داخلين على إيه".

معنا أيضاً "محمود السمان" الملتحي ذو الوجه المريح والعوينات الطبية السميكة والجسد النحيل والذي يعمل طبيباً بالإسكندرية. ذات الـ"محمود" المتزمت والكاره للمسيحيين والمحرض ضدهم في الكلية والداعي لعدم "الاختلاط" مع البنات، والذي زارني في منزلي ليدعوني للمسجد لحفظ القرآن

فطردته أمي والذي أخبرني عن سفر "عزمي" للقاهرة منذ سنوات، وذات الـ"محمود" الذي تعرفه مصر كلها اليوم. سآتي على ذكر ذلك لاحقاً بالتفاصيل. يجلس معنا الآن ليطمئن على أن "شاهي" تناولت وصفته من اللمون والعسل الدافئين لعلاج احتقان حلقها، فتجيبه بالإيجاب وتمتن لسؤاله. هو كما يطلق على نفسه "ملتزم"، نعرف كلنا أنه من الإخوان. تعرف ذلك من علامات كثيرة ليس من بينها القالب الثابت في بعض العقول عن أن أي متدين يكون بالضرورة من الجماعة، تلمح ذلك من صمته، من كلماته، من حرصه على الابتسام في كل كلامه، من طريقة إبداء رأيه في أي أمر من منطلق "قضية" يؤمن بها. قلت لنفسي أنه ربما ظل ذلك الفصيل هو من القلائل الذين مازالوا يؤمنون بقضية، ربما لذلك سهل عليهم الانضمام للثورة وإدراك "قضيتها" بسرعة دون الخوض في معارك "الوجاهة" و"الانتماءات" وتساؤلات "هوية المعتصمين" ونواياهم. نحن كنا كذلك، وظننت أن "محمود" أدرك ذلك دون حاجة لشرح، أظهر كذلك على مدار الأيام ويوم الجمل الشهير، أن إيمانه لم يهتز. يعرف تماماً لماذا نزل للميدان، يعرف أنه سيظل به، يعرف مطالبه ويؤمن بها. سألت نفسي: أي من الأمرين يؤدي للآخر، الإيمان بالله والإيمان بالقضايا النبيلة؟ "محمود" في نظري، وملتحون كثيرون يشبهونه، كان يؤمن بالاثنين معاً.. لا يرى تعارضاً فيمن يؤمن بالله ومن يؤمن بالخير للناس. أنا، و بالتأكيد عزمي كنا نعرف أنه أساساً من الجماعة الإسلامية.

"عزمي" لم يتحدث في ذلك وقتها، لكنه بدا عليه أنه لم يبتلع "محمود" وحديثه وقتها كثيراً. لم أرَ فارقاً بين انتماء وانتماء، بل لم يخطر على بالي أن أصرح بهذا وقتها، ومن منا كان ليفعل في مثل هذه الأجواء المفعمة بالإخلاص والخطر؟. أهذا هو "محمود السمان" الذي تعرفه أنت؟ تصور يا أدهم؟ هو بعينه!! كيف حدث ذلك، ولماذا؟ يبقى اللغز مستعصياً عليَّ حتى وأنا أكتب إليك الآن. لكنني الآن أرى أنني ربما كنت ساذجاً في تقديري له، وربما أيضاً لم أكن الوحيد. "إسلام بلا مسلمين". قالها لي تعليقاً على الناس في الغرب. "الأمريكان والأوروبيين دول ناس آمنوا بكل اللي ربنا قال لنا عليه. لايغرنك حكاية حقوق الإنسان وحقوق الشواذ دي. مش هي دي الحكاية. ولو ده مضايقك يا سيدي، ماتبص لباقي الصورة: تشتغل تاخد على قد شغلك، تقع ولا تترفد من شغلك فيه دولة تقف جنبك وتديك إعانة بطالة. كل شيء بالورقة والقلم، مفيش حاجة اسمها مقاييس الأيزو المصرية بتاعتنا: كل شيء بتصرف، كل شيء مشي حالك. طيب أهو الحال وقف أهو، وده كله ليييه؟ عشان احنا سبنا كلام ربنا من زماااان"

توتر عزمي ولم أستوعب ساعتها السبب وقال بصوت خافت: "هي المسألة مش محتاجة كل ده يا "محمود" علشان ننسبها للدين. هذه ليست ثورة لنصرة الإسلام، هي ثورة إسلامية، لكن مش محتاجين نسميها كده، لأنها كده لوحدها، بيك أو من غيرك". ربما لا تعلم ذلك يا ولدي، لكن "عزمي" الذي

أقص عليك حكايته هو "عزمي" آخر تماماً غير الذي عرفناه صغاراً، هو شخص آخر، هو"أنا" الذي تمنيت كثيراً أن أكون، ورجوت الأقدار أن تمنحني شجاعته، لكن هذا تغير بداخلي مع الوقت، وهو كالعادة، موضوع آخر.

زامت "شاهي" ساعتها في عصبية مكتومة وهي تقول بصوتها الناعم بينما تنشغل في عقص شعرها على شكل ذيل حصان وتتخذ وضع القرفصاء في جلستنا: "والله يا "عزمي" أنا لم أفهم أنه يقصد أن يعطيها هوية إسلامية. أظن كده ولا إيه يا "محمود"؟ تسمح لي أقول لك يا "محمود"؟ لكن مع ذلك أنا مع "عزمي" في إننا ضد أي شعارات دينية دلوقتي. ما انت معانا من أول يوم.. إحنا مش بنقول عيش حرية عدالة اجتماعية؟ ده ماله ومال الدين دلوقتي؟"

توتر "محمود" بشكل بدا أنه أدهشها وقال: "يعني إيه (ماله ومال الدين)؟ خليني أقوللك بالراحة.. عيش.. حرية.. عدالة اجتماعية.. أنا مش هقول لك الآيات اللي نزلت في كل حاجة من الحاجات دي، ومش هقول لك أد إيه غير المسلمين الذين يكفرهم البعض، ماشيين على الآيات دي كأنها دستورهم، أنا بس حقول لك إننا من كتر الناس دي ما لعبت في دماغنا، وأنا هنا قصدي الناس اللي ماسكين البلد دي، بقى عندنا حساسية من أي حاجة ليها دعوة بالدين، مع إن التعاليم هي هي. هم ماشيين على فطرة العدل والحرية.. وبيسموها حقوق

إنسان.. وإحنا اسمها عندنا كلام ربنا، أليس أولى بأن نتبعه إذن؟"

قاطعه عزمي: "أرأيت؟ التعاليم "هي هي"!! كلامك هو، أليس كذلك؟ إذن العنوان أو التصنيف مش مهم!! هي بضاعة يا "محمود"؟ أراك كمن يقول: لماذا تشترون من المحل الفلاني، ونحن بمخزننا كل شيء؟ ثم يعني نحن أبسط من أن تحتاج كل هذا المجهود لاستمالتنا يا "محمود". يعني مسألة الناس غير المسلمين الذين يكفرهم البعض والنغمة دي، كل هذا لن يقنعنا أنك تقبلهم أو أنك ليبرالي بأفكارك مثلاً. محمود، صديقي العزيز، أرجوك سيبك من جو "المراجعة الفكرية" بتاع زمان ده. خليك على طبيعتك. الصح صح. لا ينبغي أن يكون "الصح" له عنوان، أو بطاقة شخصية"

تدخل صحفي ضئيل الحجم عرفناه وهو يتلقى الرصاص معنا أيام الجمعة 28 يناير الشهير.. وهو يبتسم ابتسامة واسعة قائلاً: "طيب، أعرفكم إن بكره الجرايد كلها بتتكلم على مفاوضات النائب مع مندوبين الأحزاب، ومنهم الإخوان على فكرة يا "محمود"، إيه رأيك الجماعة بتعمل كده ليه؟ هم ماوصلهمشي اللي إحنا عاوزينه ولا ليهم هدف معين؟"

توترت "ندى" وهي تزوم بفمها الصغير بينما تتراقص مقلتاها في ضيق وهي تقول موجهة حديثها للصحفي الشاب قائلة: "بقوللك إيه يا "عماد"، متوقعشي والنبي وبطل شغل الكُهن ده.. روح اعمل أحاديثك الصحفية مع نائب رئيس

الجمهورية ولا الجماعة ولا مكتب الإرشاد لو تقدر، ورينا شطارتك لو تعرف توصل لحد فيهم.."

ضجت الجلسة الصغيرة بضحك الحاضرين بينما "عماد" يواصل المشاكسة.. ضمت "شاهي" ياقة معطفها الصغير حول رقبتها وانكمشت في هدوء وهي تهمس بصوت مبحوح: "والمسيح الحي انتوا هتجيبولي نكسة، البرد لسه ماراحشي وأنا كنت قلت لنفسي متتكلميش كتير علشان زورِك يخف، مش عارفة أعمل إيه في الدور الرِزل ده..". حانت التفاتة من "محمود" بعيداً عن جلستنا فانصرف بانتباهه عننا فابتسم "محمد عزمي" وهو ينظر لها بطرف عينه ويقول بخفوت وبلهجة ذات مغزي: "لمون وعسل يا "شاهي"، خدي لمون وعسل علي شوية ميه دافية". ضحكت رغماً عنها وهي تقول في اندهاش: "يخرب عقلك يا محمد، انت مابتنساش حاجة خالص؟". أجابها في سخرية: "لأ، أصل أنا قلبي مابيتحملشي الانفلونزا لما بتستهبل قوي كده".

* * *

القاهرة.. ليلة وصولي بعد الغيبوبة، وبعد اقتيادي من المطار..

نزعوا العصابة عن عيني أخيراً..

كنا قد دخلنا في دهاليز. لا أعرف كيف أدركت ذلك، لكنني اشتممت رائحة عطنة وبدا لي أنني انتقلت من أضواء الشارع

الليلية، إلي ظلام دامس كما أمروني بأن أخفض رأسي. أصوات استغاثات بعيدة لا أعلم مصدرها، أقدام ثقيلة تحيط بي وتأمرني بمواصلة السير لكنهم يحدثونني باحترام ما. عندما نزعوا العصابة بهرتني أضواء الغرفة الأنيقة. أجلسوني على أريكة جلدية مريحة وبهرني أثاث الحجرة الأنيق، طابعها العربي المزدحم بالآرائك والفناطس، مكتبة كبيرة على الجدار المواجه وحواجز قصيرة على شكل "مشربيات" داكنة، تحيط بمكتب عريض، ازدان بالملفات من كل نوع، علم مصر على حامل قصير، وبعض التحف الثمينة وكرسي فخم يتوسط الخلفية.

تركوني وانصرفوا. ساعة أو أكثر مرت علي وأنا وحدي. عندما ولج ذلك المسئول الكهل إلي الحجرة، انتابني شعور غامض بأني أعرفه. نظر إليَّ في صرامة أجبرتني على الوقوف لنتواجه لدقيقة كاملة بالنظرات. نظرته لم تكن واثقة، عرفت ذلك رغم أنه كان يتظاهر بالعكس، وبالثقة المشوبة بإحساس التكبر، والنظرة الفوقية المغموسة بالصلف، كانت مقلتاه المتأرجحتان في جنون وقلق بين عينيَّ وفمي وملبسي، تبحثان عن شيء ما، أو كلام ما. أمرني بالجلوس وأمر الضابطين المرافقين له، واللذين اقتاداني إلي هنا بإعطائي جواز سفري مرة أخرى. جلس خلف مكتبه ورحب بي في كلمات مقتضبة فلم أرد. سألني بصوت خلا من التعاطف الذي حاول صبغ صوته به: "صحتك عاملة إيه الآن يادكتور؟"

قلت في تلقائية: "أنا الحمد لله تمام."

عدنا للصمت فقال وكأنه يقرأ من كتاب مفتوح كلاماً قاله عشرات المرات، أنهم يأسفون لهذا الموقف، وأن اسمي كان على قوائم ترقب العودة من السفر. مجرد إجراء روتيني لكل من ترعاهم الدولة من الخارج. لابد وأنك تعرف نظم الكمبيوتر هذه يا دكتور، لا تفرق بين المهم والأهم. أحياناً يضعون البيض كله في سلة واحدة. قالها وضحك ضحكة وقور سمجة. قلت معقباً في لوم، وأنا أتحسس معصمي المؤلمين، بعد صمت وجيز هذه المرة، أنَّهم قيدوني بالأصفاد وكادوا يسحلونني في المطار مثل المجرمين. رفع حاجبيه متصنعاً الدهشة وقال في لهجة ودود غير مقنعة وهو يتفرس في ملامحي أنه سوف يجازيهم، ثم سألني بغتة لماذا بالضبط أدهشني ذلك، هل لأنني بطل ويجب تكريمي، أم لسبب آخر؟. لم أعرف ماذا أقول سوي أن رددت سؤاله بصوت مرتفع فضاقت عيناه، وقال في بطء: "دكتور مصطفى، هل أفترض أنك تذكرني أم أن الحقيقة غير ذلك؟". أجبت بدهشة حقيقية أنني لا أنكر أنني ينتابني شعور أننا رأينا بعضنا قبلاً، لكنني لست متأكداً بعد. قام من خلف مكتبه ودار حوله بلهفة وجلس قبالتي وعيناه تواصلان سبر غور مخي، وسأل في لهجة أفلتت منه متحمسة: "لا أعرف ما إذا كنت تذكر الثورة، تلك الأحداث التي حدثت عام 2011، أم لا. أنت كنت متحمساً بشدة وقتها، لك أيضاً بطولات عديدة، وكل شيء مسجل في سجلات خالدة. لكن عموماً، أنت تعرفني، وأنا أعرفك، ليس فقط بحكم عملي ومتابعتي لمثل تلك الملفات، لكن أيضاً بحكم

المعرفة القديمة. الدنيا تغيرت كثيراً يا دكتور، للأسوأ قليلاً وللأفضل من وجوه عديدة. لكن الفوضى هي أكثر ما يقلقنا، ولن نسمح بها بالطبع. كل ما أتمناه حينما تتذكرني أن تعلم يقيناً، أنني لم ولن أوذيك، وأنني لن أحمل ضدك أي ضغينة".

الثورة؟

أذكرها طبعاً، لكن عن أي جزء يتحدث؟ لماذا يبدو لي كلامه مليئاً بالألغاز؟

سرحت لأتذكر..

* * *

لن أعيد عليك أياً مما تعرفه، فقط أريدك أن تعرف شيئاً مهماً عندما تقرأ أو تسمع عن الفترة التي تلت يناير، أن ما حدث لم يكن مجرد سيولة أو فوضى أو غير ذلك من ما تمتلىء به التقارير أو الكتب، وأننا لم نفسد البلد ولم نتسبب في هذا اللغط الذي حدث، كل ذلك كان محتوماً يا ولدي. كنا جميعاً كمن دأبوا على الجلوس في نفس المنزل في الظلام. فجأة جاء من أنار النور فرأي كل منا الآخر. من يجلسون في الصالون ويحتسون الشاي في هدوء ويتحدثون في القيم والفن والقضايا الكبري ومشاكل العمال، ومن يجلسون في ركن مهمل وسط أكوام القمامة. من يفردون سيقانهم في استرخاء وينامون ساعة القيلولة، وأولئك الذين يكدون لتنظيم البيت طوال الوقت فلا يحسنون إلا إفساد نظامه أكثر فأكثر. رأي الكل بعضه فنفر الكل من الكل، وقرر كل أن البيت يجب أن يظل كما كان عليه، لكن أياً

من الناس لم يتفق على وصف الحالة التي كان عليها قبل أن ينير النور ونرى بعضنا ونبصر عيوبنا وميزاتنا، تلك الحالة التي أصر كل واحد أنها هي "الأصل". اعلم أيضاً يا ولدي، أن الناس تغيرت كثيراً بعد انتهاء الثورة. كنا نظن أننا نضجنا، لكن الحقيقة أننا كنا قد انتقلنا إلي طور المراهقة المبكر. تماماً مثل ابنك الذي يشب عن الطوق بعد أن كان عمره لا يتجاوز الست أو السبعة سنوات، وبعد أن كان لا يفقه مما حوله إلا من خلال عينيك، ثم يصير اثني عشر ربيعاً. يظن أنه يفهم كل شيء، يصر علي الخروج من عباءتك. يعاقبك علي أنك جعلته حبيس اختياراتك قبلها، ربما أيضاً يعاقب نفسه بذلك من دون أن يدري، لا تعرف كيف تشرح له أنك كنت تحميه من الوقوع في الحفرة، يصر علي أنك أخرت تطوره وشخصيته بذلك كثيراً. الأسوأ أنه يمشي إلى الحفرة بقدميه، ويتجاهل صراخك وتحذيراتك. كلما نبهته زاد إصراراً، كلما نصحته رفض نصحك واتهمك بأنك تعمل ضده ولا زلت تريد إعادته لعباءتك وسيطرتك. يعتصرك الألم علي ما يجري عليه في كل حفرة يخطو إليها هانئاً واثقاً مغروراً. متأكد أنت أنه سيكبر، لكنك تتمني ان تجنبه الزلل، وتسأل نفسك ماذا يكون الأفضل؟ هل يتعلم بتجنب الخطأ أم بالخطأ نفسه؟. لكن المشكلة أن كل طرف كان يظن نفسه الأب، ويعامل الآخر علي أنه الإبن الغر الساذج.

يذكرني هذا بي، وبموقفي من الثورة. ربما رغبت نفسي ألَّا أحسب حساباً لخطواتي ولو لمرة في حياتي، فتحمست للثورة

والخروج عن قالب المألوف؟ هل رأيتها إذاً تمرداً، ولم أقنع بها حقيقة؟ هل كانت لحظة صراخ من الظلم، فلما زال ظلمي الخاص عدت أدراجي كالأرنب الخائف، وكأي جبان أصيل؟ رأيتها وجيهة فدعمتها وأفرحني أنني أختار بنفسي ولا أبحث عن التعليمات و"الكتالوج"، أم خرجت للميدان مقتنعاً؟ لكنني أتركك لتحكم، فهذا الكلام كله أساساً لك أنت.

* * *

عندما انفض الميدان، وابتعدت أغنية "محمد منير" عن أسماعنا، وخفت صوت هتافات السقوط، وبدأت نسائم الحرية تهب على أرواحنا، لم أعد أتردد على الميدان في مليونيات الجمع الشهيرة لألتقط أنفاسي من السهر والقتال المتواصل. ظللت متابعاً جيداً رغم أن "هريدي" كان يلومني في بعض الأحيان على غيابي، ورغم ان "أكرم" كان يتصل بي لإطلاعي على التطورات أولاً بأول أملاً منه في استثارة حماسي للنزول معهم، وهم دائماً ينزلون.

جاء فجأة، ذلك اليوم المشهود لاقتحام أمن الدولة. تعرف تلك المشاهد، لكن ما يعنيني منها هو أنني انتابني قلق عارم عليكم. كنت أعلم أن الحال قد تجمد في المستشفى كسائر حال البلد، وأن اللبناني قد رحل، وأن "صلاح الكواوي" قد زج به في السجن إثر قضية فساد بدت مضحكة مقابل ما أعرفه ويعلمه الكثيرون عنه. لكنني اتصلت بأمك فور إذاعة النبأ والكل مشغولون بالشماتة في الداخلية أو الإلحاح في التيقن من الخبر.

جاءني صوتها مرتعشاً باكياً وقالت أن أخيها "فؤاد" قد اختفى منذ الأمس وأنه اتصل وأنبأها أن غيابه سوف يطول بسبب الظروف، وأنها لا يجب أن تسأل عنه أو تشغل نفسها بمصيره. أمرها بحزم انتقل إليها في صورة فزع أن تحمل حقائبها فوراً وتسافر إلي أي مكان داخل مصر حتى لو اضطرت أن تقيم هي وأنت في فندق لحين استقرار الأمور، لأنه لن يستطيع أمن الدولة كله أن يحميهم، ولا نفوذه المتوغل في كل بقعة أن يفعل لهم شيئاً الآن. بكت وقالت أنها لا تدري ماذا تفعل واستحلفتني بالله أن أتصرف. عدت للفيلا وإليكم وإلي الإقامة معكم. لم يكن من الممكن أن أترككم وحدكم في هذه الظروف أبداً. تحت إلحاح "إسراء" وامتنانها ودموع اعتذاراتها المتتالية لي، عدت أيضاً للعمل بالمستشفى. كان مرضانا من النوع الذي لا يحتمل الانتظار، فعادوا فور أن استقرت الأوضاع قليلاً، ولم تنقطع أصوات الطنين من غرفة الانتظار وإن خفت في أيام دون غيرها بعد ذلك أبداً. كان "فؤاد" قد ظهر وأخبرني في اتصال كان ممتناً لي فيه للغاية، أنه قد تم ترتيب أجازة له بأمن الدولة بموافقة الداخلية لكنه سوف يظهر ثانية عندما تهدأ الأمور. سألت في سذاجة عن كيفية ذلك والجهاز قد تم حله واستبدال الضباط كلهم؟. قال في سخرية أنني لا يجب أن أصدق كل ما يقال وأن "البلد تِهدا بس وكل اللي عمل حاجة حنعرف نجيبه". شكرني على رعايتي لإسراء رغم تحفظه على "تكسير" أوامره لها بالسفر والاختفاء، فتعجبت من قدرته على الاحتفاظ بوقاحته

في هذه الظروف، كدت أن أخبره بذلك، لكنني أجبته في ثقة قدرت رغم صمته أنها لم تعجبه بأن هذا نهائي، وأنني طالما عدت للمنزل فسأتولى الأمر بطريقتي.

لكنه عاد بعدها بأسابيع قليلة، سمجاً كما هو، متكبراً كما كان. كان غيابه عن المنزل قد أصبح حدثاً عادياً وصار ترددك أنت وأمك على والدتها متكرراً للبقاء بجانبها والاشتراك في لعن الثورة والثوار وبالطبع نهش لحمي بالكلام لنزولي الذي لم تغفره لي أمك رغم وقوفي بجانبها في غياب "فؤاد". استمرت حياتي على ماهي عليه، لكن ميدان التحرير لم يهدأ. اتصل بي "أكرم" وألح عليَّ أن أحضر اجتماعهم للتحضير لمليونية الجمعة، لأن الآراء منقسمة وهو يخشى من اندفاع الجميع نحو مليونية لا لزوم لها. كنت قد بدأت أمل من المليونيات المتتالية، وكذلك كان كثيرون. لم أستجب بالطبع لكنني وعدته ولم يكن في نيتي الحضور. "هريدي" جاء بعدها مباشرة في ترتيب الاتصالات، دعاني طبعاً للنزول معهم لأهميتها القصوى. عقب فشل تلك الجمعة، اتصل مرة أخرى ليلومني بشدة على غيابي، وكان ذلك قبيلة نزولنا لشارع "محمد محمود" بأسابيع. تلك الأيام التي كانت آخر مرة لي وأنا بكامل وعيي، إذ دخلت في غيبوبتي بعدها مباشرة، ليلة الرابع والعشرين من نوفمبر.

لكن دعني أكمل لك ما حدث حتى تلك اللحظة. عندما صدرت وثيقة "السلمي"، أحسست فوراناً مفاجئاً قد انتشر في أوساط كل من أعرفهم. بيتنا وبيت العائلة حيث "فؤاد" وحماتي في

ناحية، و"إسراء" وأنت في ناحية أخرى، كانا يمران بالطقوس اليومية المعتادة. الكل يلعن في الثورة وفي اليوم الذي قامت به ويذكر الثوار بكل سوء، "فؤاد" يؤكد بشكل غامض مراراً أنهم عائدون، فلم أعد من كثرة التكرار أهتم كثيراً بمن "هم" ولا من أين يعودون!!. مع كل إخفاق للمليونيات، كان انتفاخ أوداج "فؤاد" يزيد، وقلق "إسراء" من المستقبل يغطي على شماتتها وسخريتها من "البلطجية إللي عاملين فيها ثوار"، ويضاعف من سخطها المكتوم عليَّ كأنها لم تنسَ نزولي أول يوم في الثورة ولا تركي للمنزل طوال الشهور التي سبقتها. كان عملي يزيد في المستشفى لأسباب لا يعلمها إلا الله، وكأنَّ الظروف تجمعت ضدي دفعة واحدة وبتناغم عجيب: عمل متراكم يجذبني بعيداً عن جو منزل مشحون بالكراهية وضيق الأفق، واتصالات دائمة من أصدقاء يلومونني على عدم نزولي بكلمات يمتزج فيها اللوم بالعشم بالتفهم لمشاغلي. كانت مشاركتي معهم في يناير قد منحتني "رصيداً" بات من الصعب استنزافه لأمور بسيطة مثل تلك، فكانت المحادثات لا تنتهي بقطيعة مثل التي ضربوها مع آخرين تخلوا عنهم. لكن فورتي وحماسي كانا قد خفتا عن تلك الأيام الجميلة. لا أعرف لماذا، هل هو قصر نفسي؟ أم انشغالي بالعمل لأثبت ذاتي بعد أن أثبت لنفسي شيئاً أو سجلت موقفاً ما؟ هل هو كثرة اللغط بشأن المليونيات مرة أخرى أم اشتياقي لدور رجل المنزل المسئول عن أم وطفل، الرجل الذي لم يعد يليق به أن يزج بنفسه في شيء غير محسوب؟

* * *

القاهرة، يناير 2025، مازلت مقبوضاً عليَّ..

تنبهت من شرودي فوجدتني لازلت جالساً معه وهو يحدق فيَّ باهتمام فجفلت. لكنه ربت على كتفي بود بدا لي متناقضاً مع روح الجلسة كلها. تذكرت آخر جملة نطق بها فسألته عن أية "ملفات" يتحدث، فأشار إشارة مبهمة بيده وتجاهلني مواصلاً: "الجدع اللي اسمه "محمد عزمي" سوف تجده في انتظارك عندما تخرج من هنا، هناك أيضاً سيارة خاصة سوف توصلكم إلي منزل عائلتك في التجمع الخامس. هذه إجراءات لضمان سلامتك فالطريق إلي هناك ليست آمنة كما تعلم. مشاكل عادية لكننا لن نخاطر بسلامتك. لو صادفكم كمين من جماعة الحق سوف يكون خلاصكم منهم صعباً بدون حراستنا. حاول أن تسترخِ يا دكتور".

كان رأسي يصدع بعشرات الأسئلة بالطبع. هممت بطرح تساؤل ما، لكنه أوقفني بإشارة هادئة وأخرج بطاقة من جيب بذلته الرسمية، ناولها لي وهو يقول: "مصر تحتاج إلي أمثالك يا دكتور كثيراً هذه الأيام. سأعتبر أن عودتك هذه الأيام هي إشارة لطيفة جداً من القدر، إشارة تفاؤل لك ولنا بالطبع. هذا هو الكارت الخاص بي، تستطيع الاتصال بي في أي وقت. عموماً سوف نتصل نحن بك عن قريب. أمثالك هم من نعتمد عليهم في إصلاح أمور كثيرة، في مواجهة الفوضى والسيولة الفكرية إذا

كنت تفهم ما أعنيه". قام ليضغط زراً أسفل مكتبه، دنت مني نظرة إلى كوب على مكتبه رشق به أقلاماً ذهبية أنيقة، وأحاط بها منديل هو أقرب إلى الـ"بندانة" الحمراء، فشعرت نحوها بألفة غريبة للحظة، لكنني لم أتوقف عندها كثيراً، وعدت لأطالع البطاقة، وبينما اسمه المنقوش عليها بحروف زاهية يملأ مجال نظري وضغطي يهبط فجأة مع كل حرف أقرأه من الاسم، قرأته بصوت مرتعش: "اللواء أكرم الشاهد".

* * *

"أكرم"؟ أهذا هو "أكرم"؟..

السيولة والفوضى؟ جماعة الحق؟

ماذا يحدث؟

لا أعرف الآن، هذا مؤكد. لكنني أذكر على الأقل ما حدث قبل الغيبوبة..

* * *

كان أكثر ما أصابني وقتها غرابة، أنني توقفت عن اتباع بوصلة "هريدي". الثورة كانت حدثاً جللاً يا أدهم، لا أعرف ما إذا كان مثلك قادراً على تصوره وأنت عشت الكثير مما يخيل لك أنه يشبهه، ولم تعاصر زمناً كانت فيه شيئاً لا يخطر على بالنا من الأساس، ولا نصدق حدوثه من الأصل. وحده قرار النزول للشارع والصراخ والكر والفر وتلقي الرصاص يخلق منك إنساناً جديداً، روحاً صافية بلا جسد مثقل بالخطايا والذنوب، ومع كل قرار كنت أتخذه كنت أتعلم شيئاً جديداً: لقد كان

"هريدي" والآخرون على حق، هم دائماً على حق. قلت لهم أننا لن نتجمع عدداً يكفي يوم الخامس والعشرين فقال لي أننا سوف "نسد عين الشمس"، رجوته أن نهرب يوم الثامن والعشرين فأصر على البقاء وقال أن الشرطة ستنكسر وسوف ننتصر عليهم مهما فعلوا، استحلفته أنه "كفاية كده مش حيمشي مهما قعدنا هنا"، لكنه ابتسم وهز رأسه كانه يشفق على طفل وقال ساخراً: "حبيب قلبي، أنا عمري قلت لك حاجة في الثورة دي وطلعت غلط؟، والله فاضل له "هبابة" ويقع، وحتشوف". كان على حق كل مرة، لذلك توقفت بعدها عن النقاش، أدركت أنه يسبق تفكيري وأن كلهم – من على شاكلته – يدركون أبعد مما أفعل، فقررت أن أستمع لهم دون تفكير، دون نقاش وقلت لنفسي أنهم سيكونون دائماً على حق، وأن بوصلتهم مضبوطة عليه. لكنني توقفت عن اتباعها بعد زمن. حتى "أكرم" صديق "هريدي" الشجاع، ذلك الذي لم أرَّ أغرب منه في الاندفاع نحو الحشود المدججة بالخراطيش والسلاح، حتى هو بدأ يغير من لهجته، وارتحت أكثر لكلامه. نعم، هو نفس الـ "أكرم" الذي قابلته بعد اقتيادي من المطار.

كنا قبيلة اعتصام "محمد محمود" كما قلت، واتصل بي "أكرم" بصوته الأجش وأدبه الجم الذي لا تستطيع تصوره وأنت ترى بطولاته في الميدان. كنت في استراحة بعد الكشف على عدد كبير من المرضى، أرشف الشاي وأستعد لجولة جديدة من الكشوفات والعمليات، فرددت عليه بمزاج رائق لكنه استنجد

بي في كلمات موجزة. قال أنني يجب أن "ألحق" "هريدي" و"عزمي" والجميع، لأن الأمور تتطور بسرعة نحو الهاوية. قَصَّ عليَّ أن الشباب قرروا الاعتصام في "محمد محمود" بعد التعدي على أسر الشهداء المعتصمين في الميدان، وأن الإخوان والسلفيين قرروا النزول أيضاً للاعتراض على وثيقة السلمي، وأن قوات الشرطة وقوات أخرى تحاصرهم الآن. كاد يبكي وهو يصف كيف أن "هريدي" بعنده سوف يقود كل شيء للهلاك، وأنه إذا كانت المليونيات السابقة قد مرت على خير "نسبياً"، فالأمر هذه المرة لن يسلم. أرسل لي على بريدي الالكتروني بعض الروابط من تصريحات الحكومة بالإصرار على وثيقة السلمي، ودلل بها على تصعيد متعمد. للحق فقد داخلني خوف مبهم على "هريدي" و"عزمي" و"شاهي" والآخرين. أنهيت المكالمة وحاولت الاتصال بهم مراراً. حين ردَّ عليَّ كان بالفعل "راكباً رأسه" كما وصفه "أكرم". قال لي أنني لا أفهم، وأن الوضع متأزم وإذا لم ننزل جميعاً فقل على الثورة السلام. حاولت تهدئته، وتذكيره بالتعقل لكنه انقلب عليَّ فجأة. قال لي أنني "جبان"، "سلبي" وسأظل سلبياً وأنه تعب مني ومن محاولة إقناعي. التزمت الصمت وتركت له فرصة لأن يخفف من حدة حديثه، لكنه أغلق الخط وتركني مذهولاً أحدق في شاشة الهاتف وغضبي يتزايد. فزعت على رنين آخر، وكان "عزمي" يصرخ فيَّ على الخط ويطلب حضوري سريعاً. فكرت للحظة أن أخبره عن مكالمة "هريدي"، لكنني خجلت من نفسي أن أبدو

بمظهر الغاضب في ظرف دقيق كهذا. فكرت خمس دقائق، لكنني لم أقوَ على أن أغضب من "هريدي"، ولا على التخلي عن الجميع. لسبب ما عدت إلي بوصلته التي كنت قد هجرتها لراحة بالي، لسبب ما تلاشى أثر "أكرم" وصوته الأجش من عقلي فجأة. ألغيت مواعيد الكشف وأجلت العمليات لبعد الغد، وسط ذهول الممرضات، واستقللت مترو الأنفاق، وكنت في "محمد محمود" بعد أقل من الساعة.

كان ذلك هو السبت 19 نوفمبر 2011..

محطة مترو الأنفاق بميدان التحرير..

هذه المرة سيكون اعتصاماً نظيفاً.. ناجحاً.. أعرف ذلك لأني أعرف أن الذين ينزلون الآن إلي الميدان هم شباب 25 يناير وثوار 28 يناير. سيكون البلطجية ضيوفاً غير مرغوب فيهم، وسيلفظهم الثوار. هذه المرة حزب الكنبة معانا، هذه المرة الناس فهمت. كانت الناس قد ضجت من الثورة لأنها "وقفت حال البلد"، لكن نفس الناس فهمت أن الذي "وقف الحال" ليس الثورة، لكن الذين أصروا على إبقائها في حالة "ثورة" والذين أخرجونا مرة أخرى للشوارع نندد بتأخير نقل السلطة واستمرار بقاء العسكر في السلطة. بالأمس، ورغم أنني لم أنزل، إلا أنها كانت مليونية بطعم يناير، سلمية كما يجب أن تكون، حماسية كما ينبغي لها، محترمة كما اعتدناها. نحن الذين نزلنا فيها، لم يندس بيننا أحد ولم يظهر عناصر الظلام الذين لا نعرفهم ليشيعوا الفوضى ويظهروا – وحدهم دون غيرهم، ولا

تسلني كيف – على الكاميرات والشاشات، ليمصمص الناس شفاههم ويقولوا في قنوط: "آدي يا سيدي الأشكال، اتفرج: بقى ده منظر ثوار ده؟". لا.. هذه المرة نحن الثوار، هذه المرة نحن الثورة. عدنا وعادت. لن نفشل ولن نوصم بما ليس في جعبتنا ثانية.

لكن لم تكد قدماي تهبطان بسلام على رصيف المحطة مغادراً المترو حتى توترت حواسي في قوة، فقد شممت الرائحة بوضوح: هذا غاز مسيل للدموع ولا شك. دعك من أن المكان والزمان لا يسمحان بتصور آخر، فهذا ليس بالتأكيد دخان طعام يطهى في منزل من المنازل وليس بخوراً أيضاً ولا دخان عربة "بطاطا". نحن أسفل ميدان التحرير وعلى بعد أمتار قليلة منه، أي دخان هنا ليس له معنى آخر، حتى لو كان الأول من نوعه منذ شهور. نحن غداة بدء دعاوى الاعتصام، والشباب ثائرون من الأمس بسبب إعلان الوثيقة، وكانت جمعة الأمس قد شهدت العديد من خطب الجمعة المدوية في مساجد كثيرة للتعبير عن القلق والغضب لما استشعره الكثيرون من احتمالية التلكؤ العسكري في نقل السلطة، وخطباً أخرى كثيرة تجرم الاعتراض على السلطة وتندد بفكرة الاعتصام، كذلك شهد الأمس خطباً مدوية بميدان التحرير، لكنها نددت أيضاً بالاعتصام. "أحمد هريدي": فوجئت به وقد لمحته عن بعد، يهتف ضد العسكر وكثيرون معه، كلانا ليس مسيساً ولا منتم لتيار ما، لكن هتافات الميدان تملأنا قوة وحماساً، لأنها تقول ما في قلوبنا بدون تردد

ولا خوف، ربما نثبت لأنفسنا أن الممنوع ليس مستحيلاً كما يبدو، أو أن الصعب ليس بهذه الصعوبة لكنه يلبس رداء الخوف، أو نرتدي نحن ثياب الخوف منه، هذه الثياب التي تنزعها هتافاتنا عنا فتعري خوفنا وتفضح جهلنا، ربما ترى أنها تعوض فينا نقصاً ما، وتنتحل بذلك صفة الطبيب النفسي أو "فرويد" ذاته، الذي أرجع كل تصرفات الإنسان للطب النفسي. لكننا على كل حال اختلفنا ساعتها، وقد حاولت أن أهدئ من روع "أحمد". كان يقنع الجميع ممن بدا عليهم أنهم ينزلون لأول مرة، بجدوى الاعتصام ويبشرهم أن الإسلاميين معنا، وأنها أول مرة منذ يناير نتوحد فيها على كلمة سواء. ألححت عليه أن يستمع إليَّ، خَلَّص ذراعه من يدي التي أمسكت به محاولة احتواء حماسه، أشاح ناحيتي في عنف وقال: "انت عاوز تِرَوَّح، رَوَّح، بس ماتقولشي إن الاعتصام غلط. قول إنك تعبت، إنك زهقت، إنك بعت القضية، لكن شغل "حرام عليكو" و"هتخربوها" و"كفاية بقى" دا مش عليَّا. ولا انت بقيت منهم؟ جرى لك إيه يا "مصطفى"؟".

لكنني لم ألتفت لصياحه بي. أعرف من يقصد بـ"منهم"، لكنني أعلم أنه غير جاد في اتهامه لي. لا يمكن أن نسيء فهم بعضنا أبداً، ثم أنني أدخر قوتي اليوم. الكثيرون سيعتصمون الليلة ثم تخور قواهم بعد يومين أو ثلاثة، ساعتها سنبدأ في التصايح على الجالسين في المنازل، لماذا لا ينزلون معنا. ساعتها سنبدأ في لوم من يصيبه الإرهاق، لكنني أعرف أفضل

من ذلك. ليست أول ليلة ولن تكون الأخيرة. سألعبها بذكاء وليس بعاطفة. "أحمد" يستطيع أن يلعبها كما يشاء، بعاطفة محرقة ملتهبة كعادته، لكنني أدخر نفسي لما هو قادم. أعرف تماماً ماذا أريد.

* * *

خرجت من عند اللواء "أكرم" أتصبب عرقاً. أظن أنه لاحظ توتري لكنه لم يعلق. التقطني "عزمي" في سعادة واطمأن عليَّ بلهفة. في الطريق من المكان القصي عن أصوات ضرب الرصاص مررنا بميدان السيدة زينب. تلفت الضابطان الجالسان بالمقعد الأمامي حولهما في توتر لم أجد له مبرراً. كانت السياج الأمنية تحيط بنا منكل جانب، وكنا نمر من ممر ضيق بدا وكأنه تم إخلاؤه خصيصاً للعربات، وقد وقف على أوله عسكري حراسة ملتحٍ، أوقف السيارة وتفرس في وجوهنا أنا وعزمي الجالسين بالخلف، قبل أن يتلقي بضع كلمات صارمة من السائق ويسمح لنا بالمرور. نسمات الفجر العليل تهب من نوافذنا ومشهد مهيب للمصلين الذين يفترشون الميدان بشكل لم أرَ له مثيلاً من قبل. بدا لي أن الأعداد لا يستوعبها الميدان، وفي وسط جلال الموقف تمتمت تلقائياً بالحمد والحوقلة وسألت "عزمي" ما إذا كانت صلاة العيد مثلاً، فابتسم وقال لي أن العيد لن يكون قبل ثلاثة شهور أو أكثر. رأيت على جانبي الطريق عشرات من لابسي الجلابيب البيضاء والملتحين الذين انشغلوا بالإمساك بدفاتر صغيرة وأقلام ووجهوا انتباههم بالكامل نحو

المصلين الذين سجدوا معاً إثر نداء الإمام. كان تركيزهم كاملاً مع المصلين حتى أن السائق اضطر للتوقف حتى لا يدهس أحدهم. تبادلا السباب والصوت العالي والكلمات الغاضبة حتى بدا مشهداً غريباً وسط كل هذا الورع. سألت "عزمي" مرة أخرى عمَّن يكون هؤلاء، اختلس النظر إلي سائق السيارة، لكزني بمرفقه في يسر وقال: "بعدين أقول لك".

كنا قد تركنا الميدان من خلفنا، لم يكد المصلون يفرغون من سلامهم ذات اليمين وذات اليسار، حتى قاموا وهم يسلمون على بعضهم، شحب تركيزي معهم للحظات، لكنني لمحت في مرآة السيارة مشهداً عجيباً. فجأة غشى المشهد غاز كثيف، والعشرات يجرون في كل مكان. سباب وصراخ، وعصي غليظة تنهال علي البعض ممن مازالوا يجلسون مفترشين الأرض.

وهذا أعادني إلي الذكرى مرة أخرى..

* * *

السبت 19 نوفمبر.. 2011.. مساءً بعد أن تركت الاعتصام وعدت لفيللا المعادي إليك وإلي أمك..

ضميري كان مرتاحاً وأنا أفتح باب شقتي في العاشرة مساءاً ليطالعني وجهك الصغير وأنت تتقافز نحوي في سعادة مركزاً نظرتك على يدي التي ما إن وجدتها خاوية حتى انطفأت بسمتك. يبدو أنك كنت تنتظر شيئاً. دائماً ينتظر الأطفال شيئاً، يمتلكون ناصية الدهشة بامتياز حصري لا يشاركهم فيه أحد.

حالي بعد الغيبوبة يا "أدهم" كان كذلك. لكن دهشة الكبار مختلفة. حال لا يمنعهم للأسف من التعايش، والتفاعل مع الحادثات. حال لا يدفعهم لترك كل شيء والتأمل والوصول إلى قرار، وبلوغ اليقين. ملأني العجب كثيراً من الإصرار في وجه "هريدي"، ومن الأعداد الهائلة التي نزلت للميدان، وإلي غيره، ومن ردود أفعال أبي، وأمي، وأمك وخالك. لكن في كل مرة، كنت لا أفعل شيئاً. بدا لي أنني أتفاعل، أشارك، أعارض وأنفعل وأتشاجر مع ذاك أو تلك. لكنني لم أضف جديداً يليق بدهشتي، فلم أبكِ من الإحباط، ولم أرقص من الفرح. وكأنني كنت في كل حال أنتظر شيئاً غامضاً، شيئاً يحدث من تلقاء نفسه، شيئاً تفرضه الأيام والساعات، أو تجود به الأقدار المنصفة. أتعلم ماذا استحق دهشتي بالفعل ولم ينالها إلا متأخراً؟ إنها حقيقة أن غيبوبتي لم تكن سوى "استراحة"، فاصل إعلاني رتيب، انتهى كما بدأ، ثم عاد "البرنامج" بنفس المحاورين، ونفس الضيوف، ونفس المشاهد الوحيد، "المندهش"!

ولكن، عودة لتلك الليلة. رأيت نظرتك التي كانت تنتظر شيئاً وفكرت: ألم أكن أنا الآخر بالفعل أنتظر شيئاً فلم أعُد به؟ أم تُراني عدت وتركته؟. تغافلت عن لوم نفسي وعن التفكر في معنى إحساسي، لكن نفسي لم تقتنع. صحوت فجراً على صوت بكائك يقتحم ظلمة الحجرة التي تماسكت ككيان غامض مع دفء صمت النوم، وقد اعتلى قلبي حجر ثقيل يعلو صوت احتكاكه بصدري على صوتك: "أترى مايزال الشباب معتصمون؟"..

وخاطر أكثر إزعاجاً: "لِمَ تذكرت هذا الآن؟ أتراه بكاءك الذي أعاد لذاكرتي مشهد خيبة أملك لأنني لم أحضر لك الحلوى أو الألعاب أم أنه ذكرني بخطأ تركي للاعتصام؟ أتراني أشعر أنني مقصر في شيء؟ هل هذا هو الأهم عندي من الاعتصام ذاته؟ هل قضيتي هي "القضية"؟ أم موقفي منها؟.. ماذا حدث لكلماتي: "أريد أن أدخر جهدي" ؟. لسبب ما قطعت حبل أفكاري، بيدي لا ببكائك، سرحت بفكري فيما ظننته أكثر أهمية: هل تسير أمور الاعتصام على خير؟..

لذا فليس من العسير تخيل شعوري المفزع وأنا أجري مع الجموع التي خرجت من عربة المترو في الصباح التالي، أكاد أصطدم بهذا وذاك، وأوزع كلمات الأسف على من أقابلهم ولا أتفادى الاصطدام بهم، وتتسارع دقات قلبي ولهاث أنفاسي اللذين كادا يغطيان على صوت أفكاري المتلاحقة، وأنا أعدو نحو الدرج الصاعد إلي أعلى، بينما أشق طريقي بصعوبة بالغة وسط الفارين من رائحة الغاز وأصواتهم التي يحذرون بها الصاعدين أمثالي: "محدش يطلع.. فيه غاز بيتضرب في الناس في كل حتة".

لكني استمررت في طريقي أركض غير عابيء بشيء، أذرف دموعاً حارقة تملأ مقلتاي. تفاديت الاصطدام بعمود إضاءة في أول الشارع بصعوبة. سمعت صوت إطلاق

الخرطوش، وأحسست أن معطفي تخترقه شظايا المقذوفات، وآذاني تملأها صرخات الحشود.

أين أنت الآن يا أحمد؟

* * *

القاهرة، يناير 2025، بعد انصرافي من عند اللواء "أكرم الشاهد"، الثامنة و40 دقيقة مساءً..

وصلنا إلى منزل أبي وأمي في التجمع الخامس. ودعنا الضابطين في احترام شديد، ورفض "عزمي" بأدب أن يوصلاه إلي أي مكان. صعد معي إلي الشقة. عندما صرنا وحدنا، بدأ يفتح النوافذ ليدخل الهواء، وانشغلت بالرد على مكالمات أهلي التي انهالت على الهاتف الأرضي. كنت لا أحس مثلهم بالحزن والألم للفراق، فبالنسبة إلي أنا لم أغب سوى ساعات. كل ما حدث خلال هذه السنوات يبقى بالنسبة لي زمناً لم أعشه، والأهم من ذلك، أنه زمن لم أفهمه.

كان "عزمي" قد انتهي من إعداد الشاي ببطء وخطوات رتيبة كعادته. تأكد من نظافة الأطباق وغسلها مرتين، وأخرج لفافة طعام كانت بحوزته ووضع محتوياتها في الأطباق بعد أن غسل يديه بعناية. ملأ الثلاجة بأشياء لم أفهم كنهها، وطمأنني بأنه سوف يمر عليَّ في الغد بعد الظهر. أثناء جلوسنا لنرتشف الشاي، سألني عما إذا كاوا قد أهانونني في التحقيقات لكنني

قلت أنه لم تكن هناك تحقيقات، فهز رأسه كأنه فهم وامتقع وجهه قليلاً. سألته إن كان سوف يقابلني بـ "هريدي" و"شاهي" قريباً فأكد أنه سيحاول، لكنني مرة أخرى أحسست أنه يخفي شيئاً. ترددت قليلاً قبل أن أسأله عنها لكنه قرأ ترددي، وربما أعطاه ذلك الفرصة ليهرب من الشك في عيني تجاه رده بشأن "شاهي" و"هريدي"، فقال محذراً كانه يلقي بخبر هام: "ندى اتجوزت يا مصطفى، فبلاش تسأل عليها وتدور كتير. متخليش "إسراء" تؤذيك مرتين، كفاية إللي حصل لك وفوق لنفسك وبلاش مشاكل".

عندما استفسرت عن الغاز والمشهد الغريب عند المسجد، قال لي أن هؤلاء هم حراس الصلاة. قال أن هذا أمر متبع من حكومة "السمان" منذ فترة، بغرض الحفاظ على الصلاة. شباب الجماعة يصطفون دائماً حول المصلين ويمسكون بدفاترهم لتسجيل ملاحظات سبق الإمام في الركوع أو السجود للحفاظ على "وحدة الصفوف"، كما يمسكون فوراً بأي من الأشخاص الذين قد يتباطأون في السجود أو القيام منه. وسط ذهولي أجابني أن ذلك أمر بات عادياً، كما أن "فوات الصلاة في المسجد" هو تهمة شنيعة، وأنه هو شخصياً يضطر لدفع مبلغ ثابت لإمام المسجد أسفل منزله وللملاحظ من جماعة الحق حتى لا يبلغوا عنه، لأن الصلاة تفوته كثيراً. سألته عن كيفية حصر الناس الذين تفوتهم الصلاة في حي مثل "السيدة زينب" على ضخامته وكثرة عدد سكانه، فقال أن هذه هي مهمة "ملاحظي

المنازل"، وهم مجموعة أخرى تحصي عدد الرجال وتبلغ عمن لا يشاهدونه يذهب للمسجد. النساء معفيون من هذا الأمر. أما الغاز، فالحكومة تخشى دائماً التظاهرات التي قد تحدث أحياناً بعد الصلاة في هذه التجمعات الكبيرة. يطلقون الغاز كنوع من استباق الحدث، فلا أمان أبداً لـ "شباب الجامعة" وعناصر "الملاحدة" المنتشرين في كل مكان. هؤلاء إما يهجمون على الملاحظين ليمنعوهم من القيام بعملهم اعتراضاً على المبدأ، أو يقوم بعضهم من الأكثر تطرفاً بالاعتراض على قيام صلاة الجماعة طالما لم تسمح الحكومة بأداء طقوس العبادات الأخرى كلها، مثل البهائيين وغيرهم!!

كان هذا كله كثيراً على استيعابي دفعة واحدة. أحس بدهشتي فقال أنها تغيرات بسيطة، ربما لا يحس بها الناس الذين عاصروها من فرط أن تعودوا عليها، ومن دبيبها الخافت في حياتهم والذي أخذ يعلو تدريجياً، حتى إذا صار صخباً، لم يعد يُدهِش أحداً. أكد لي أنه يقص عليَّ ما حدث، وليس رأيه شخصياً. عندما قلت له أنني أريد أن أفهم المزيد، قال لي أن الوقت تأخر، سيعود لمنزله الآن وسيعاود المجيء إليَّ غداً كما وعدني. سيكون معه "عماد" صديقنا الصحفي وربما "شاهي" أيضاً. سوف يطلعانني على كل ما أريد. قال أيضاً أنه من المهم جداً أن أعصر مخي لأتذكر جيداً كل ما حدث، هو لن يستطيع أن يساعدني في ذلك، لكنه أراد مِنِّي أن أتمهل على نفسي عندما أتذكر كل شيء، وأن أخبره بكل ما أتذكره، وألا يتردد في أن يثق

في كتمانه لأي أمر مهما كان غريباً، وألَّا أتحدث كثيراً مع أحد لأن "العين عليَّ". هكذا أخبرني وقال ألَّا أسأل الآن كثيراً، إذ لابد وانه لمح أسئلة غزيرة في عيني. أعطاني جهاز هاتف محمول وكتب لي رقمه وأخبرني أن أتصل به في أي وقت. قام وقبلني في ود واحتضنني. أحسست بقلقه الخفي رغم إقباله البادي عليَّ، وانصرف. دق جرس المحمول بعد دقائق معدودة، فترددت حتى فاتتني المكالمة وشعرت بضيق مبهم. عاد ليدق في إلحاح، رددت فجاءني صوت "عزمي" ضاحكاً: "فينك من زمان؟ حبيت بس أتأكد إن النمرة عندك، لئلا تنسى تسجلها. تصبح على خير يا سيدي".

برغم حديثه المربك، استطعت أن أستوعب جزءاً منه. إذن فهناك حكومة إسلامية ما، وهناك معارضة قوية من مجموعة شباب الجامعة ومجموعة الملاحدة، يبدو الاسم واصفاً لحال صاحبه رغم وقعه المر، في الثانية، والطبيعي أكثر من اللازم في الأولى.

هناك أيضاً قمع وحشي، وهناك مكالمات محمول لا ألحق بها وتصيبني بالضيق. أين رأيت هذا من قبل؟.

وكان لابد أن أتذكر الباقي.. من ذكريات يناير ونوفمبر و"محمد محمود"..

* * *

شارع "محمد محمود"، نوفمبر 2011..

وجدته، ووجدتهم. بدأ الضرب الحي من كل اتجاه. هذه تفاصيل تجدها في كل مكان، فلا داعي لها هنا. يكفيك أن ذكرياتي الخاصة منها هي أغلى ما عندي. "هريدي" وهو يحتضنني فور أن رآني ويقبل رأسي ويعتذر وسط دموعه التي أقسم لي عدة مرات بمزاحه الذي لا يفارقه أنها من الندم على نهره لي، وليس بسبب الغاز. صوت البائع المتجول ذى الثياب الرثة وأقمشة واقي الغاز البسيطة التي لا يبدو عليها أية قدرة على صد الأذى وهو ينأى بموضعه بجانب حائط قريب، ويسابق صوته أصوات عربات الإسعاف المندفعة في المكان لنقل الجرحى، ويفسح لها الشباب وللموتوسيكلات الطريق على الصفين، بينما ينادي على بضاعته بصوت يختلط فيه الأمل المنعش باليأس المطبق: "احمي حياتك بجنيه، اشتري حياتك بجنيه". "أيمن" ابن خالة والدتي، أصيب إصابة بالغة، قيل أنها غلى ايدي بلطجية مجهولين قبل أن يبدأ ضرب الخرطوش، ونقلوه للمستشفى الميداني بالميدان، ومنها إلى مستشفى قريب. اتصل بي أبي ينهرني بشدة على ما أفعل فور أن علم من أمي ما حدث، لكنني سايرته وأنهيت المكالمة كالعادة. "أكرم" الذي حضر بعدها بساعة وأخذ يجري ملوحاً بعلم مصر وسط الحشود وبين كتلة الأمن وكتلة المعتصمين في شجاعته المتهورة المعهودة، وهو يربط رأسه بـــ "بندانة" حمراء وهو يصرخ في الجنود فلا تصيبه طلقاتهم بشكل لم أفهمه حتى الآن قائلاً، وهو يشير إليها تارة وإلي قلبه تارة بكف غليظ غير ممسك

بالعلم: "أنا خدت رصاصة في قلبي ورصاصة في البندانة دي قبل كده، اضرب كمان، يسقط يسقط أعداء الثورة". كان يستدير ليشجعنا على الإمساك بقنابل الغاز وهي تسقط وسطنا، أو يركض سريعاً لإعادتها مع اتجاه الهواء نحو من ألقاها علينا، وينادي على حاملي زجاجات الخل ليعطوها للفتيات في الخلف ليقمن بتوزيعها، بينما يجري "عزمي" و"شاهي" مع من يصوبن الحجارة نحو الجنود، و"هريدي" يهتف بـ"أكرم" أن يحترس، و"ماتقرفناش بالبندانة المخرومة بتاعتك دي، خرم كمان وحتوحشنا يا كبير"، وتحت الوابل تضحك "شاهي" وهي تقول له: "اتركه، هو الخرم ده اللي بيحميه، العساكر صعبان عليهم يخرموها تاني".. فيتحمس "أكرم ويخلعها ويربط بها يده بالاستعانة بأسنانه ويزيد تلويح العلم في شجاعة.

* * *

دائماً ما ينطلق رنين المحمول في وقت غير مناسب..

أنا معتاد على ذلك، لكنني – وبرغم ذلك كله - لا أحبذ فكرة غلق الصوت أو اختيار وظيفة "صامت"، لأنني أنسى بعد ذلك أنني أخرسته، فتفوتني مكالمات هامة. أفاجأ بعدها ب23 مكالمة "مفقودة". أراه تعبيراً دقيقاً رغم أنه ترجمة حرفية مخلة بالمعنى الأصلي. Missed call معناها أن المكالمة فاتتك، لا يوحي هذا بالمعنى نفسه الذي يوحيه لفظة "مفقودة" من أنها شيء ثمين فاتك، بينما يتفقان في معنى أنها "لا تعود"، وأنا أخشى دائماً "الذي لا يعود"، أخاف من الندم، من ضياع

الفرصة، من تأنيب الضمير على التفريط فيما كان سانحاً، ربما لذلك، لكن على نطاق صغير، أحبذ ما يوحي به إلي تعبير "مفقودة" بالعربية؟

ينطلق رنين محمولي دائماً وأنا أطبب مريضاً، وأنا ألقي محاضرة في الجامعة، أو أشرع في إعمال المشرط الجراحي في نسيج مريض. تعودت أن يصيبني هذا بالتوتر، فبعض المكالمات فعلاً "مفقود"، ومنها ما تأسف لفقدانه. بعضها قد تُلام بسببه من زوجة تراك مهملاً رغم أنك تؤدي عملك، وتنسى أن بعض الأولويات هي أولويات بحكم الواجب أو نسج الظروف، غير أن أشهر المرات التي رن فيها محمولي لم تكن تلك اللحظة، بل كان يوم الخامس والعشرين من يناير، مساءاً. كنت وقتها أواجه مراسل الـــ CNN وهو يوجه لي سؤالاً في قلب الميدان. لسبب ما لفت شكلي نظره. أعرف تماماً لماذا أو هكذا أظن، ملبسي يبدو عليه الرقي. كان البرد شديداً، والملابس الشتوية عموماً "أشيك" من الصيفية. تبدو ملابس الشتاء احتفالاً بالـ"حشو" في داخلها، على عكس ملابس الصيف التي تبدو "ضرورة" لستر الجسد. ربما لولاها لما ارتداها الناس. تبدو ملابس الشتاء كأنها احتفال بفخامة من يرتديها فهي تنجح لحد كبير في إخفاء تشوهات القوام و"كرش" الشخص أو بروز أجزاء بعينها، بينما يبدو اللباس الصيفي وكأنه اتفق مع بعضه على أن يفضح صاحبه بإبراز عيوبه. ملبسك الشتوي يبدو صديقاً يحتضنك في محبة وهو يرى فيك ما لا يراه الناس من مزايا، بينما لباسك

الصيفي كبائع لئيم خدعك ببيعك مرآة ترى نفسك فيها بصورة لاتتفق إطلاقاً مع ما يراه الناس على صفحتها من صورة فاضحة لك. لذا لم يكن غريباً أن نتفق أنا و"هريدي" على حبنا للشتاء، وأن يبدو ذلك الشغف امتداداً طبيعياً لشغفنا بصحبة بعضنا. فكرت مرة أنَّ الثورة ذاتها لم تكن لتكتمل روعتها ولا لتستدير دائرة بهائها لولا أن كانت في الشتاء، حيث برودة الجو ودفء الصدور، والأنفاس والحناجر المتلاحمة. سواء في ذلك ثورة يناير، أو نوفمبر أو غيرها من الثورات التالية التي تعرفها أكثر مني.

كان "أحمد هريدي" يسير بجانبي في التظاهرة الحاشدة، وكنا نستعد لقضاء ليلتنا الأولى، قبل أن تهاجمنا قنابل الشرطة وخراطيم المياه. "أحمد" كان هو أول من لاحظ وجود المراسل. كنت لحظتها أتحدث عبر الهاتف مع "إسراء" والتي كانت تقول في لهجة آمرة تلخص ما تود أن تقوله: "خلاص كفاية كده. انت مش نزلت وعملت اللي نفسك فيه؟ رَوَّح يا "مصطفى" كده مينفعش، ممكن تفهمني هتستفيد إيه من اللي بتعملوه ده؟ "فؤاد" اتصل واتضايق جداً من اللي حكيتهولو، بيقوللي: "مصطفى" ميعملشي كده، أنت نسيت إن عندك ولد صغير؟" أجبتها بأن هذا ليس عملاً محدد بزمان ومكان. هذا واجب. "بدل ما أخوك ده بس عمال يدينا إحنا الأوامر بتاعته، خليه يقول للعساكر يبعدوا عننا، نفسهم ومنى عينهم إننا نروح؟ ماهم السبب في اللي الناس حاسة بيه، بذمتك دي بقت عيشة؟"

جاءني صوتها بعد زفرة قنوط قصيرة: "يا "مصطفى" سيبك من الكلام ده، انت مالكشي فيه. سيبك من العيال دول. دي ناس فاضية ماوراهاش حد ولا ليهم حد. انت واحد محترم وعندك شغلك في الجامعة ومستشفى خاص". قالت المقطع الأخير بلهجة ذات مغزى لم يفتني، فأجبت في برود: "قولي لأخوكي إن المستشفى اللي هو مشارك فيها مش هتقف عليا، الشغل ماشي بيا ولا بغيري، لكن إحنا كلنا حنبات هنا، وكل شيء under control".. قلتها بإنجليزية سليمة، ساعتها أحسست بـ"أحمد" يلكزني بمرفقه في جانبي برفق وهو يقول: "ماشية معاك. الراجل اللي هناك ده مراسل وباين عليه إنجليزي ولا أمريكاني. هو سمع "أندر كونترول" بتاعتك دي وبيشاور للكاميرا مان عليك".

بعد ان أنهى حديثه معي، أحسست وكأنه يوجه حديثه لـ"فؤاد و"إسراء"، فعندما نظر إلي الكاميرا سمعته يقول أنه التقط شاباً من وسط المظاهرات بشكل عشوائي، وأكد علي أنه لا يميزه عن الكثير من الشباب الآخرين شيء، ثم بدأ في وصف ملابسي غالية الثمن، وحذائي باهظ السعر، وهاتفي المحمول الذي ينتمي لأحدث جيل من الهواتف، ولغتي الإنجليزية السليمة، والتي مكنتني من التفاهم معه بها دون مترجم ولا "لكنة" غريبة، واستنتج المراسل معنيً في غاية الخطورة عندما قال لمحدثته عبر الفضاء الألكتروني: "سيدتي، إن هؤلاء الناس لن يمكن خداعهم بسهولة. إنهم يتظاهرون لقضية نبيلة

يؤمنون بها حقاً. إنها ليست مظاهرة جياع أو رعاع، هؤلاء الناس جادون" !!

كان هذا يوم الخامس والعشرين، 2011

لكنني الآن في نوفمبر من العام نفسه، وسط الميدان ألمح آلافاً من الناس يهرولون في مشهد فزع رهيب. البشر يتدافعون في سحابة من الرعب تطاردها سحابة من الغاز الحارق للأنوف. بالكاد ترى المشهد وسط تحركك الدائم لتفادي الاصطدام أو الدهس، بينما يندفع العشرات هرباً نحو مدخل شارع "محمد محمود". أصحاب المحلات يسارعون بغلق "المتاريس" على واجهاتهم، بينما يدوي صوت الرصاص الذي لا ترى له مصدراً واضحاً، من كل اتجاه. صراخ، عويل، سباب، والناس الذين "لا يمكن خداعهم بسهولة" يبدو عليهم وأن الخدعة قد تمكنت منهم، فوقعوا في فخ ما. هذه الخواطر التي تسيطر عليك ولا تدري هل مصدرها تأنيب ضمير خفي لأنك تخليت عنهم ونمت الليلة في بيتك، أم أن المشهد نفسه خدعة كبيرة. وجوه "الذين لا يمكن خداعهم بسهولة" نفسها تغيرت. لم يكن من بيننا هؤلاء الذين يمتازون بالوجوه الشرسة والجباه التي تحمل آثار إصابات قديمة لا تخلو من اشتباه بضلوع في إجرام، لم تكن أسمالهم بالية إلى هذا الحد. لست أرفض الفقر، لكن هذا ليس فقر الشريف النبيل، لكنه مظهر الخبيث، عندما يضاف إلى خبثه وسوء طويته العوز، بكل قبح منظره، وعندما يمتزج مع

الهمجية ويبعث في نفسك إحساس "الحاجة اللي مش صح" كما يعبر عنها "أحمد".

تهنا من بعضنا تحت النيران ووسط سحب الغاز الخانقة، سقط شاب واثنان ثم خمسة، لكنني جريت مع الجارين، اندفعت مع القطيع الأهوج، يد على أنفي تنتقل بينه وبين "فرك" العين من إثار الغبار والغاز الحارق، ويد قابضة على المحمول الذي بدأ – بالطبع – في ممارسة هوايته المفضلة في إطلاق الرنين. وهل هناك وقت غير مناسب أكثر من الآن؟

لم أكن وحدي مستنداً على حائط مدخل المكتبة الشهيرة في أول "محمد محمود"، أمام الجامعة الأمريكية. بعض الناس كانوا يسحبون جسداً آخر أصيب بطلق حي، وثلاثة كانوا يسعلون بشدة وهم يستندون على الحائط، وقد علا دوي الانفجارات المكتومة على كل شيء، وبدأ البعض ينظم نفسه لتوفير الإرشادات للقادمين هرولة من أول الشارع للاختباء في زواياه وخلف سياراته، أو في حماية متاريس لا أعرف من أقامها ولا أهتم. نحن في فوضى مهولة واحتمال إصابتي أعلى من أي احتمال آخر. فما عساني أفكر سوى في الاحتماء، ولنرَ بعدها من يفعل ماذا. آخرون تحلقوا حول سيارة للأمن المركزي هرب العساكر منها وولوا كل اتجاه منذ دقائق، أفزعهم اندفاع الناس نحوهم من أول الطريق.. فأفسد تدافع الناس أي قيمة لتواجد السيارة في هذا المكان. لكن أخواتها تتحلق حول الميدان وينطلق منها عشرات الغرابيب السود نحونا، فيدفعونا

بهراواتهم أكثر وأكثر نحو مدخل الشارع. يكاد الناس يدوسون فوق بعضهم من شدة الرعونة والفزع. شابة يبدو عليها الحماس وقعت أرضاً ولم ألمحها تنهض ثانية. لم يستطع، بل وربما لم يحاول أحد أن يمد لها يداً. هو حدث يمتزج فيه الرعب الحيواني بشهوة البقاء في سلاسة مخيفة.. لا تطلب غير ذلك. فيما بعد سيعلق أحدهم أمامي على ذلك قائلاً: "أمال يوم القيامة هيبقى عامل إزاي؟. ربنا يرحمنا برحمته". لكنه لم يكن يقصد ما قال ولا ما فهمت أنت..

زحفت أرضاً إلى مدخل البناية القديمة وقد سارع العديد من شبابها بإغلاقها من الداخل بأقفال عديدة، وبدأ محمولي يرن في سماجة للمرة الثانية. أخرجته وأنا ألهث في إرهاق.. وقد عزمت على الرد هذه المرة ولو كانت "إسراء" فلن أرحمها. سأضرب بكل قواعد اللياقة عرض الحائط وأوجه لها اللوم بكل صنوف التقريع التي أعرفها، كل الجمل التي تعتبرها هي "بيئة"، وكلام "مش لطيف"، ستكون في صدارة حديثي، ولبه وقلبه. لن أترك لها فرصة للتحدث أو الهجوم بل سأزين كلامي بما لذ وطاب من "مستنقع الحديث وشر الكلم". هناك طريقتان لتنجح هذه الطريقة: إما أن تعرف هي أن الوضع متأزم ولذا فأنا لي عذري، وهذا لن يكون الحال أبداً مع خريجة الجامعة الأمريكية وسليلة عائلات البزنس التي تزوجتها. أي وضع هذا الذي تأزم؟ هي لا تقدر المشكلة ولا القضية أساساً: "لماذا أنت هناك؟ نزلت تعمل ايه عايزة أفهم حالاً؟ رُدْ على سؤالي يا أستاذ وبلاش كلام فارغ،

أنا ليا حق عليك تاخد رأيي قبل ما تنزل. طيب، ولما أنت عارف إني مش هوافق بتتصرف من دماغك بمناسبة إيه؟". دوامات الحوار لن تنحرف كثيراً عن ذلك. وإما أسلوب الصاعقة: سأقول ما أريد وأغلق الخط. دعها في صدمتها بضع ساعات. ستعرف أخبار ما يحدث بالتأكيد، ووقتها لن تستطيع لومي، أو لن يكون للومها لي معنى ولا أثر يؤنبني. العذر معي ويكفي كرماً مني، أنني سوف أرد عليها.

لكن المتحدث لم يكن "إسراء"..

أتاني صوت أخيها، اللواء "فؤاد"، مقتضباً عبر السماعة، يقول في غضب وبلهجة آمرة مكتومة: "متقفلشي موبايلك تاني يا دكتور، سمعتني؟"

-"حضرتك سامع اللي حواليا وعارف بيحصل لنا إيه هنا ولا أشرح لك؟"

-"بلا حضرتك بلا زفت، يعني إيه عارف ولا مش عارف؟ انت ناسي أنا مين؟ هو فيه حاجة بتحصل من غير ما نعرفها؟ سمعت اللي بقول لك عليه ولا لأ؟ انت فين دلوقتي؟"

حاولت قدر الإمكان أن أحمل قدراً من الاستفزاز في صوتي وأنا أجيب: "لأ دا حضرتك إللي المفروض تقوللي أنا فين وبعمل إيه، هو فيه حاجة بتحصل من غير ما تعرفوها؟"

- "اسمع يا دكتور، أنا مش هكرر الكلام تاني. إسراء حاولت تطلبك من الصبح ولا ميت مرة ، موبايلك كان مقفول. أنا متابعك وعارف إنك في "محمد محمود" دلوقتي و..."

غطى دوي طلقات متتالية على الجزء الأخير من حديثه، فقلت في سخرية: "ما شاء الله يافندم، يعني صوت رصاص وقنابل وصريخ حواليا، وأنا لسه نازل الصبح وأنا موبايلي كان شغال وبعدين بقى خارج الخدمة، أكيد علشان في المترو طبعاً، ومكملتش ساعتين وفيه مصيبة بتحصل في الميدان وفي "محمد محمود"، يبقي هكون فين يعني، في أفغنستان؟.. ما طبعاً...."

- "سامعني ولا لأ..؟.. ألو.. ألو.."

- "سامعك يا "فؤاد" بيه، فيه حاجة تانية؟"

- "يا دكتور اسمعني، مش المفروض أقول لك الكلام ده، لو سمحت اجري لآخر الشارع، ادخل في شارع "الريحاني" ولما تقرب من الوزارة سوف تأخذ أي مواصلة من اللي بيهربوا من الشارع وتبعد من المنطقة دي، بالليل يبقى لنا كلام لو لمينا العيال دي النهارده"

- "يبقى لنا كلام لما تلمني معاهم، هم الناس دي تبعك؟"

- "يا دكتور اعقل واسمعني، دول بلطجية بيتخانقوا مع بعض، انت ابن ناس ومحترم وإحنا في الآخر أهل. أنا بقوللك تمشي قبل ما الشارع يتسد من الناحيتين وتبقى مصيبة وماقدرشي أعمل لك حاجة. الحكاية دي طولت ولا قصرت حتخلص. مالكش دعوة بالصيع دول وامشي دلوقتي.."

- "أصحابي معاهم يا مراد بيه، وأنا أصحابي مش صيع ولا بلطجية.."

- "الموضوع أكبر من كده يا دكتور. مفيش وقت أشرح لك أي حاجة. ألو.. ألو.."

وعند هذه الكلمات، انقطع الاتصال، وتدافع العديد من الشباب من خارج مبنى البناية، ففتح لهم الشباب بداخلها الباب ليسمحوا لهم بالدخول، لكن قنبلة غاز انفجرت عند المدخل، فسارع شاب ممن يلتفحون بـــ "كوفية" فلسطينية إلي الصياح بزملائه أن يخرجوا للشارع مرة أخرى وأن يتجهوا يساراً، وخرجت معهم..

وهكذا، وتحت وطأة النيران، والغاز الحارق والدخان الكثيف، ومع يأسي من أن أجد "أحمد" وسط هذا الزخم العابث من الفوضى، وجدت نفسي في سيارة أجرة تهرب من نفس ما أهرب منه، تماماً كما قال "فؤاد بيه"..

وعندها، وكما هو متوقع منه، رن المحمول مرة ثالثة، لكنها لم تكن زوجتي أيضاً هذه المرة..

كنت قد شارفت على الوصول لمنزلي، وعيناي تنتقلان بين شاشة العداد التي بدت لي الأرقام على سطحها وكأنها تسابق ريح الشتاء الباردة التي تصفر من خلال فتحات النافذة، وبين ملامح طريق "النصر" المؤدي للمنزل، حينما جاءني صوته عبر المحمول في إجهاد وهو يسألني: "انت فين يا "مصطفى"؟".

-"ارتحت يا أحمد؟ أهو الاعتصام قلب غم أهو، انت اللي فين دلوقتي؟ أنا في الشارع بس بعيد عن وسط البلد "

تنهد في قوة، كأنه فهم أنني بعيد تماماً عنهم، كأنه استوعب إحراجي من الاعتراف بأنني ذاهب لأبيت في منزلي. صمت لحظة ثم تابع بهدوء متجاهلاً ذلك كله وهو يقول: "أنا لسه في "محمد محمود"، معلش ماكنتش عارف أرد، ادعيلي يا "مصطفى". إن شاء الله هنطلع منها منتصرين. الدنيا هديت دلوقتي مش عارف ليه. البوليس كان كابس على الشارع من أوله ومن آخره، حتى المخرج الخلفي اتسد دلوقتي بعد ما كنا بننقل المصابين في التاكسيات من خلاله. فيه ناس اتنرفزت وحرقوا عربية أمن مركزي. لما الغاز زاد قوي، الشرطة انسحبت، بس مش بيتهيألي إننا صعبنا عليهم، يمكن الهوا من ستر ربنا كان شايل الغاز وبيرميه عليهم فاتخنقوا؟ عموماً، الغاز المرة دي مش نافع معاه حاجة، أنا بكح حاجات سودا طول الوقت. مستشفى إيه يا عم؟ انت بس ضروري تيجي بكره، دا لو مجيتشي دلوقتي يا "مصطفى". أنا مش عايز أعرف انت فين ولا مشيت ليه ولا مشيت أساساً ولا لأ. الساعة عشرة دلوقتي والأعداد بتزيد. إحنا لأول مرة من يولية اللي فات نقنع الناس تنزل معانا وهم أصلاً مكبرين دماغهم، الحقيقة لازم توصل يا "مصطفى" وانت مهم. محتاجينك يا أخي شكلك حيخم الناس. شكلك محترم هنعمل لك إيه. سلام بقى عشان فيه حوار مع جماعة هنا عايزين يعتصموا معانا وبنقنعهم. فيه ناس عمالة تيجي من مصر كلها يا "مصطفى"، طلبة وعمال يومية ومثقفين وعلى قد حالهم، بس كلهم مشتركين في حاجة واحدة،

صعبانة عليهم البلد دي من اللي بيتعمل فيها ورافضين ان الشرطة ترجع تاني لأيام 28 يناير واللي كرروه النهارده. ماوحشكش الجو ده يابني؟ دي مصر يا "مصطفى"، مصر اللي انت طول عمرك عايزها فوق، وإللي احنا بس اللي عارفين قيمتها، هستناك. الجماعة هنا بيسلموا عليك. "محمد عزمي" بيقوللك هات شاش وقطن و"أنتيبيوتك" معاك. حقن آه طبعاً. و"شاهي" بتسلم عليك وبتقوللك فين الرجالة، هاهاها، أيوه والله مش أنا اللي باقول، أنا برضه هقوللك كلام حنين كده؟.. خليني ساكت وحياة أبوك.. سلام مؤقت"..

* * *

يناير 2025

صحوت قرب الظهر وأنا أشعر بانتعاش. تلقيت اتصالات مفعمة باللهفة والحبور والدموع من أهلي. بكت أختي كثيراً، وكاد زوجها أن يفعل، فرحة بعودتي، بينما أخبراني أن "أيمن" ابن خالة والدتي سوف يزورني قريباً للاطمئنان عليَّ ريثما يستطيعون السفر من الإسكندرية ورؤيتي بأنفسهم. سألتني أختي عما فعلت من الأمس فأجبت إجابات مبهمة ولم أذكر ما أنا فيه، ولم أعلم لماذا فعلت ذلك. قلت لها أنني متعب قليلاً ويبدو أنني لم أتذكر كل الناس بعد، لذلك ستسعدني زيارة "أيمن" بكل تأكيد. قالت أنني لا يجب أن أقلق بشأن ذلك، وأن "أيمن" يتوقع ذلك بالفعل، فقلت لها أنني أعلم بما حدث مع "إسراء"، فجعلها

ذلك تطلق تنهيدة ارتياح، وقالت أن هذا تقريباً هو أهم شيء، لكنها رفضت الإجابة عن سؤالي:"لماذا تقريباً؟". غيرت دفة الحديث، ولم أعارضها أو أقاوم.

جهزت إفطاراً بسيطاً وجلست لأتناوله في شرفة الشقة وأنا أتأمل التغيرات التي طرأت على الشارع، وأسترجع حوادث الأمس القريب. "أكرم"؟ ما الذي حدث؟ ثائر عظيم مثله يصبح على رأس جهاز أمني بهذا الحجم؟ لسبب ما أحسست بغصة وأنا أفكر في احتمالية أن يكون هذا هو مكافأة الدولة له بعد سنوات من نجاح الثورة. هل نجحت الثورة أساساً؟ تذكرت كلام "عزمي"، أنني أرى أفضل منهم لأنني لم أتشتت مثلهم في ما صار من حوادث وما انقسم عليه الناس من آراء. تذكرت أنني بطل، وأن كل شيء مسجل في سجلات المجد والفخر. إذن فهناك تقدير ما لما فعلناه. انقبض قلبي وأنا أحاول أن أتذكر أبعد من ذلك فلم أستطع. أحاطت بالصور سحب سوداء من الفراغ، وأحسست برغبة مفاجئة في القيء. جذبت نفساً طويلاً وهدأت من روعي. دق جرس الباب فطالعني وجه الضابطان وقالا أنهما حضرا لاقتيادي لتناول القهوة ولمناقشة بعض تفاصيل حياتي القادمة.. سألت عمَّن سأقابله فقالا أنني سوف أقابل "أكرم" بك بالطبع، لكن الاجتماع سوف يكون في قصر الاتحادية، وسوف أحظي بشرف لقاء دكتور "حسام المنزلاوي" والرئيس "محمود السمان" شخصياً، لقاء رئاسي كما ابتسم أحدهما في فخر وهو ينظر إلي منتظراً أن أرقص من الفرحة!!

في السيارة تذكرت "عزمي"، فاتصلت برقمه الذي أحسن تقدير أنني سأنسى تسجيله، وسجله على هاتفي لحسن الحظ باتصال الفجر، وأخبرته أنني في اجتماع هام. قال كأنه يتفهم إذا ما كنت سأقابل "أكرم" مرة أخرى وأشار ألا أرد إلا بنعم أو لا إذا كان بجانبي أحد. قلت "نعم، بالضبط"، فوجم للحظات وقال أنه سيعاود الاتصال بعد ساعتين، وإلا أتصل أنا به وأخبره أين أنا وسيحضر مع "عماد" لمقابلتي. أغلقت الخط وداهمني شريط أفكاري مرة أخرى..

"حسام المنزلاوي" و"محمود السمان"؟ ما الذي أتي بهذا مع ذاك في جملة واحدة؟

تذكرت أن "عزمي" قال أن حكومة "السمان" فعلت كذا وكذا، لكنني احتجت أن يصفو ذهني وأسمع اسم "السمان" كاملاً لأتذكر..

يااااااه...

هذا جزء هام آخر.. لكنه وياللغرابة.. يبدأ من ذكريات بعيدة للغاية..

* * *

تزوجت أمك لأنني تعجلت.. وتعجلت لأنني لم أثق في أنني سوف أتزوج، ولم أثق في ذلك لأني لم أشعر يوماً أنني أمتلك ميزة ما تؤهلني للزواج أو تجعلني جديراً بفتاة أحلامي!

بالطبع تتوقع مني شرحاً!

آسف لاستطرادي واستدراكي الدائم. أنا لم أكن يوماً كاتباً محترفاً وفي الأغلب لن أكون.. لا مزاجي ولا حبل المشنقة يسمحان. لكن أريدك أن تعرف أنني بي خصلة غريبة. بطبعي أحب ألا يفوتني أي جديد، لكنني لا أحب أن أكون مثل الآخرين، ولا أحب الاستعجال. أعرف أنك تقول أنها خصال متناقضة، لكن تمهل، سأشرح لك. لدي شعور ما خفي طويته طول عمري بين ضلوعي، ربما أيضاً وقت الغيبوبة، أنني مازلت صغيراً.. أن عمري مازال به بقية.. وأنه يسع أموراً كثيرة، كنت أسمع وأقرأ عن "مشكلة الشباب في الزواج والعمل"، فلا أحس أنني المقصود، هذا يحدث للآخرين فقط، أنا مختلف، ثم هذا للشباب، هؤلاء الذين يخطئون ولا يستمعون لكلام آبائهم، وأنا مطيع، مهذب، سمها قهر التربية المنزلية أو الأصل الطيب، لا فارق هناك فالمنتج واحد.. أو هكذا ظننت!

هكذا لم أتحمس مثل أقراني لمثل ما يتحمسون: حاول "عزمي" مراراً أن يسألني لماذا لم أتعلم قيادة السيارة حتي الآن، وكنا في الجامعة، فأجبته: "وما حاجتي لها؟ أذهب لجامعتي سيراً وأعود سيراً. في الأجازات في "القاهرة" ليس هناك أفضل من التاكسي، وأهو أريح من السواقة!".

لكنني كنت أبحث عن مبرر، لا يُظهرني بمظهر المتخلف عن أقراني الذين تعلم معظمهم القيادة وبعضهم اقتني سيارات ابتاعها لهم أهلهم. أبي لن يستطيع أن يبتاع لي واحدة، أعرف أنه لن "يقدر"، وبالتأكيد لن "يثق" أن يعيرني سيارته أو

أقودها له في هذا المشوار أو ذاك، هذا هو الأمر، عدم ثقة أو عدم "استنضاج"، لا أعرف ولا أهتم، أو أهتم ولكنني أخشي معرفة الإجابة.. أعرف أن الأمر سيحال بيني وبينه فأعزف عنه بنفسي ولا أطلبه وأدَّعي التميز بذلك ولذلك، نوع من الـ"بيدي وليس بيد عمرو" جربته كثيراً في حياتي وكنت أظنه أكثر راحة وهدوءاً لي. ضحك "أحمد هريدي" كثيراً وقتها وعلق تعليقاً ساخراً ما.. لكنني "جززت علي أسناني وتظاهرت بالضحك" فلمعت عيناه ورأيتهما مركزتين علي أسناني، فتراجع بسرعة وغَيَّر الموضوع، ولم تكن تلك المرة الوحيدة التي أحسست فيها أنه يفهمني، ربما بأوضح مما أفعل أنا. عزوفي عما يفعله أقراني امتد إلي هواياتهم.. فاحتقرت الأغاني الشبابية في أول التسعينيات زمناً لأنني لا أحب أن أكون مثل الباقين، ثم سارعت للتعرف عليها عن قرب لأنني خشيت أن يفوتني الجديد، وصار لي مطرب أو اثنين مفضلين، وطبعاً وضعت لمستي التي تقضي بأن "أختلف". فدخلت في مناقشات حامية الوطيس دفاعاً عن رأيي، بل وأخذت أسوق أدلة علي تفاهة بعض أغاني "زمان"، مضموناً أو لحناً، دون جدوي بالطبع، لكن الأمر كان بالنسبة إلي تحول لأمر شخصي، كنت أدافع عن ذوقي وذوق جيلي وأفكارنا كلها وأربط كل ذلك ببعضه بحماس المراهقة المتأخرة، بشكل لا يحتمل كل هذا الحماس في الحقيقة. لكن هذا كان دأبي. كنت أدافع عن حقي في إثبات رأيي في شيء واحد سنحت لي الفرصة فيه، شيء واحد "أفهم فيه أكتر" ولا سلطان لمنطق

أبي وحججه عليَّ فيه، هذا ذوقي فسأدافع عنه، وبرغم أن أبي – "السميع" القديم للموسيقي والذي يحتفظ بكل تسجيلات أم كلثوم لديه ويطارد إصداراتها في "صوت القاهرة" لدي كل سفر للقاهرة – حاول معي كثيراً أن يناقشني في ضعف المقامات وفقر المضمون وتشابه الألحان، إلا أنني لم أضعف ولم أنثني، حتي يئس مني وتحول للتحقير من ما أسمع وأحب. لكنني لم أكن بحاجة لطاعته مرغماً هذه المرة، هذه حياتي وذوقي وأنا حر فيهما، فلم أضطر لترك الاستماع للأغاني برمتها كما أفعل في أي نقاش آخر، لكنني دأبت علي البحث عن اختياراتي الخاصة بعد ذلك بنفس الطريقة: هذه حياتي فسوف أختار منها ما يناسبني، وافق اختياري مزاج أبي أو لم يفعل. وكنت لا أعلم أن ذلك سوف يمتد للزواج وسوف يؤثر في حياتي كثيراً بعدها!

كان "عزمي" يضحك كثيراً مني عندما أشير له بالتوقف عن الكلام وهو يواصل قيادة سيارته ال 128 يقوم بتوصيلنا لمنزلنا في آخر نزهتنا معاً وقد شارفت أغنية "شريط" عمرو دياب علي الانتهاء وبدأ صوته يختفي في خلفية الموسيقا، فأشير له منبهاً أن يركز علي هذا المقطع بالذات وأشرح له ما به من اختلاف في الأداء عن غيره من المقاطع السابقة وكيف أنه أداه بشكل جميل ظلم معه هذا الأداء جداً. لا زلت أذكر وجهه وهو يركز ناظريه على الطريق، يمسك بالمقود بكلتا يديه كانه يخشى أن يفلت منه، يعدل من وضع معطفه الرياضي الشتوي الأبيض ذو الأكمام الحمراء مثل معاطف "البيسبول" ولاعبي

"الجولف" والذي تمنيت سراً ان أمتلك مثله يوماً، يناول "هريدي" في الخلف منديلاً ورقياً التقطه من صندوق صغير أمامه بسرعة، ثم يضحك وهو يهز رأسه ويقول في دهشة: "انت بتاخد بالك من حاجات غريبة". يضرب "أحمد هريدي" كفاً بكف وينظر للسماء مخاطباً إياها وقائلاً بصوت خفيض ساخر، حرص علي أن يصل أسماعنا: "عليه العوض". يضحك "عزمي" في قوة لتعليق "هريدي" ويزداد تشبثه بالمقود ويقول شيئاً عن انتباهه الذي سيتشتت ويذهب بنا في "داهية"، بينما يواصل الأخير قائلاً أن "عمرو دياب" نفسه لم يلحظ ذلك الأداء وأنها "جت معاه كده". يضيف في سخط أن شخصيته ليست بهذا البريق، وأنه على المستوى الشخصي تفاجئه من هؤلاء النجوم أشياء كثيرة غريبة كلما أشرف على تنظيم حفلاتهم بالكلية. قالها بإحباط لم أفهمه "انتوا طبعاً بتيجو تتفرجو بس، لكن أنا عارف الناس دي كويس".

حتي في مظهري، وحديثي، أردت دائماً أن أكون مختلفاً. في الكلية ازدانت دفعتي بكل صنوف الطلبة: الآتون من الأرياف والمراكز القريبة من "الإسكندرية" أو مدن الصعيد البعيدة بخشونتهم وسلوكهم المتحفظ ونظرتهم لنا أننا "فرافير" وهو تعبير مهذب عن معانٍ أخري تتهمنا في رجولتنا، وبالإحساس الذي قام بيننا في تعاملاتنا معهم ففرض ثمنه في صورة عدم ارتياح متبادل، غذاه علي جانبهم ارتياب التكبر والشك في انتمائنا لأبناء الأساتذة الذين تسبقهم سمعة "الفرفرة" وشبهة

"الكوسة" ومظاهر الاستعلاء، وعلي جانبنا - ودون أن يقصد أغلبنا - تكرار الصد المهذب وهز الرءوس الفارغ، وجسدته فيما بيننا حملقة العيون المجهدة وتنقلها في شغف بين وجوهنا وياقاتنا المنشاة. كان هناك أيضاً أبناء المدينة المنتمين للعائلات المسيحية الثرية المعروفة ذوي المستوي الاجتماعي المرتفع والتعامل الراقي والملبس الباهظ المفتقر أحياناً إلي التناسق والمغالي فيه.. وأبناء أصحاب المهن القريبة من الطب كالصيادلة أو البعيدة كالمحامين بادعاءاتهم العراقة وفهم الحياة وإصرارهم علي إيضاح الفارق بين الكلية والحياة الحقيقية وكيف أنهم يفهمونه جيداً.. وأبناء أساتذة الجامعة - وأغلبهم من الفرافير الحقيقيين - سواء منهم هؤلاء الأساتذة غير المنتمين لكليتنا وهم الأقرب لقلبي وقلوب "العامة" من الطلبة.. أو هؤلاء المنتمين لأساتذتنا والذين كان معظمهم يتعالي علينا بمظهره وسيارته ولغته الممطوطة التي اكتسبت صفرة الخواجات حقاً أو ادعاءً.. والذين أغلقوا علي أنفسهم فلم يسمحوا لــ"العامة" أو لمثلنا ممن تاهوا بين "العامة" وغيرهم، أن يصبحوا جزءاً من دائرتهم المحدودة. تفضحهم دائماً نظرة أو همسة أو ابتسامة متقنة مجمدة علي شفاه تتوق للاسترخاء ثانية، وكلها أمور لم تكن تختلف كثيراً عن معاملة "العامة" لي ولأمثالي من "الفرافير" المحسوبين علي الفرافير. كنت مع ذلك لا أحب ارتداء الجينز ولا التيشيرت، وفي وسط الطلبة المحافظ في التسعينيات كان يكفي أن تضيف لهذين

سيارتك الخاصة وأختك السافرة لتكون "فرفوراً" بامتياز، بل إن تصنيفك لم يكن وقتها ليخرج عن هذا أو عن كونك مسيحياً، وفي الحالتين أنت هدف لذوي اللُحَي يرمقونك في كراهية ويراقبونك في شغف ثم يحكمون حصارهم عليك عندما تخطيء الخطأ المنتظر. لكنني لم أكن ذا أخت سافرة، وزهدت في الجينز لا خوفاً من أحد.. لكنني كالعادة اردت أن أكون مختلفاً، بل واحسست أنني أرتاح اكثر لمظهر طالب المدينة أوالمركز الذي يحمل تاج الكفاح علي رأسه. عندما ظهرت التعبيرات الشبابية اشمأزت نفسي منها، فلم أُقبِل كثيراً علي "طَحن" و"رَوشَنَة" وغيرها من أيقونات الحوار الشبابي المعتاد، لكنني – وكما حدث معي في الأغاني- أقبلت عليها بعد قليل، حتي لا يفوتني القطار، وكالعادة أبدعت فيها وأضفت إليها من عندي.

لكننا كنا كذلك حتى في تنشئتنا. نحن الذين قيل لنا أن "إللي أكبر منك بيوم يعرف عنك بسنة"، قبل أن نكتشف أنها الاستثناء وليست القاعدة أبداً، وأن الأصغر مننا هم من علمونا وعرفونا ما لم نكن نعرف. نحن الذين نشأنا على القناة الأولى أو الثانية، وعدم اللعب في الشارع، وعلى عدم لبس القميص على اللحم، وعلى الكتابة بالرصاص "علشان الأستيكة تنفع لو غلطت"، وعلى شراء اللبان لتجميع الصور بداخله والفوز بجائزة مستحيلة كاستحالة إيجاد "جادون" العجلة في أغطية زجاجات المياه الغازية، وعلى مشاهدة "بقلظ"، وعلى التفنن في إضاعة الوقت في الأجازة الصيفية لأننا لا يمكن أن نخرج للهو من

منازلنا كل يوم، وعلى النوم في العاشرة وربما في الحادية عشرة ليلاً، لأن السهر "عيب". نحن الجيل الذي لو شطبته من أجيال طلاب الجامعة، لما أحس بغيابه عن كتب التاريخ أحد، لم نكن من ذوي البناطيل الـ"تشارلستون" وتصفيفات الشعر المميزة، ولا جيل البنات المرتديات الـ"ميني جيب"، ولا من هؤلاء الذين انفتحوا على الانترنت والمحمول و"الأنتمة"، بل كنا متحفظين قلباً وقالباً. كانت لتكون معجزة لو أنني نشأت مختلفاً عن ذلك كله، بل كنت أدهش من قدرة غيري على ذلك، وأحسدهم بداخلي، وأرمقهم بنفس تتوق إلى أن تكون مثلهم.

ربما حدث معي نفس الأمر في مسألة الارتباط. فلقد أردت أن أكون مختلفاً، لم أدخل أبداً قصة حب.. فعلاً. لا في الثانوي ولا في الشهور الأولي في الجامعة. صدقني لو فعلت لأخبرتك، أبي لم يفعلها معي حتي اليوم، لكنني كنت لأفعلها معك. كان كل من معي يصادقون هذه أو يحلمون بتلك، وكنت أراهم تافهين وضائعين. كان معيار الصح والخطأ عندي قد انحصر في كلام أمي: "خلص مذاكرتك الأول وبعدين انت حر تعمل اللي انت عايزه"، ثم تضيف في حنان لأتفهم الموقف وهي تُشير للجانب الأهم: "لما تتخرج وتقبض مرتب، بابا هيوافق علي جوازك طبعاً، حتي ممكن تبقي بتصرف علي نفسك علشان يوافق، إحنا مانقدرش نصرف علي بيت تاني"، كما انحصر المعيار في شخصية أبي التي لم تتحدث معي في مثل هذه الأمور ولم أكن لأتخيل أن يفعل. ثم، لست أنا الذي ينزلق إلي الحب الذي أراه

ضعفاً وبه احتمالات للفشل أيضاً. الحب يجب أن يكون ناجحاً وأنا لا أفشل مثل الآخرين، ولا أمر بتلك المراحل الكئيبة التي بدأت تحدث من حولي في تلك الفترة: "فلان وفلانة سابوا بعض، هي اللي سابته. فلان وفلانة "فركشوا". أتخيل نفسي وأنا "فركشت"، أو "فلانة" تركتني والناس يتحدثون عن فشلي، فأحجم أكثر وأكثر، هذا "الفشل" ليس لي وليس أنا، متي إذن أحب وأتزوج وكيف؟ لم أكن أعرف ولا أريد أن أعرف. لكنني عندما أعود الآن وأري الأمر أسأل نفسي في شغف: هل كان هو كلام أمي الذي أقنعني بالانتظار أم هو إصراري أن أكون مختلفاً، أم أنه صادف في نفسي هوي ما؟ هل هو كلامها أم ارتياحي للإحجام عن المحاولة والدخول في التجربة، لأنه يكفيني شر القتال مع أبي، وهل يقبل أن أُحِب وأُدَله في الحب ولا أذاكر وأتفوق كما رسم لي طريقي وأعاده علي مسامعنا أنا وأختي عشرات المرات وغذاه في نفوسنا؟ هل أتحمل أن أصارحه بأني مرتبط بفلانة فيرفض ويتهمني بلعب العيال؟

ربما يبدو ذلك كله، تميزي وسعيي للاختلاف، يبدو طبيعياً مع شخص يجلس الآن في جلسة مختلفة، مع أناس مختلفين، ليناقشوا أموراً وطنية عليا.. في قصر الاتحادية، مع الرئيس، ومستشاريه وكبير أجهزة الأمن..

وربما لهذا كله تتفهم أنت الآن لماذا قبلت ما طلبوه مني..

* * *

قصر الاتحادية.. 11 يناير 2025.. الواحدة إلا الربع ظهراً..

"محمود السمان" بنظراته الحادة خلف قناع وجه من الطيبة والهدوء النفسي الغريب، حسام المنزلاوي بنظراته التي تشي بالرضا عن وضعه المميز كمستشار للرئيس، لا أدري لأي شئون يكون فيها جراحاً مستشاراً للرئيس، لكن هذا ما قيل لي، وأنا بوجهي الذي لا يشي إلا عن ترقب، ويبدو أنه لا يكفيهم.

لم أكن وحدي في الاجتماع. عشرون أو يزيدون من الأفاضل، عرفوا أنفسهم كمحامين، ورجال إعلام، ومفكرين وشخصيات ذات ثقل واحترام. لكن نظراتهم كانت مثبتة على "السمان"، و"حسام" الجالسين في الصدارة، وعلى "أكرم" الجالس في الخلف ويبدو له مهابة ما تعكسها نظرات الوجل في العيون رغم أنه لم ينبس طول الوقت ببنت شفه.

تحدث "السمان" عن الفكر الحر وخطر استخدام التعبير ذاته على تطور الشعوب. قال أن الناس تعلم بفطرتها ما يفيدها وميز الخبيث من الطيب، أما المثقفون فيختلط عليهم الأمر باستمرار. بدا أنه يتحدث عن أمر ما لم أستوعبه، لكن كانت كل جملة تقربني من المفهوم والمخيف الذي ينتظرني، كما سأشرح لك. شرح المطلوب ووصفها بالمهمة الوطنية. أنبأتني هزات الرءوس المتحمسة من حولي أنه أمر هام، لكنني لم أقتنع أنني استمعت لكل ما أحتاج لمعرفته.

كنت أود في نهاية الاجتماع أن أقول أنني أزهد في ذلك كله. ما قيمة المجهود الذي نبذله في سبيل أمر غير مضمون العواقب؟ يبدو أمراً غريباً من شخص شارك في الثورة وينعته الناس بالبطل؟ انتظر قليلاً قبل أن تحكم عليَّ. انتظر واصبر، واستمع لكل الحكاية. لم تكن الثورة مضمونة لكنني كنت بها، لكن ماذا فعلت بها، هذا شأن آخر. "السمان" وهو يجلس في وسط الاجتماع يلقي بتصوراته ونواهيه يمنة ويسرة، و"حسام" وهو يؤمن على كلامه كالفأر المبلل، كل هذا أشعرني بالضيق لسبب ما. حينما أتى على ذكر "هتلر" وما قام به من حرق اليهود فصفق الحاضرون وبشرهم بأن الخلافة ستعود ونخلص العالم منهم، وعندما أتي "حسام" على ذكر الزواج واختلس نظرة إليَّ أظنها قد أصابتني بغصة ما، رغم أنني لم أفهمها، تذكرت كالعادة لقطات من الماضي، وكالعادة سأخبرك بها..

* * *

أبي يجلس في موقع متوسط في صالة المنزل علي مقعد وثير كبير.. بجانبه منضدة خشبية أنيقة عليها الصحف وكوب الشاي العملاق وعويناته للقراءة و"ريموت" التلفاز.. ياويلنا لو اقتربنا من الصحيفة، فأبي لابد أن يقرأها أولاً. محاولاتنا الأولية لقراءتها باءت بالافتضاح والتقريع الفظيع، فهو "لايستطيع قراءته لو لمسته يد قبله"، انطبق هذا علي قراءة صحيفة الأمس، أو حتى أول أمس لو تبقي بها مقال يهمه وأجله

للغد أو بعد الغد، حتي تنتقل الصحيفة من أعلي المنضدة إلي الكوم أسفلها، ساعتها نقرأها كما نشاء.. لكنها يجب أن تعود لمكانها ولا تُلقَي في أي مكان، وإلا عُدنا للتقريع الفظيع. لكنني زهدت في قراءة الصحيفة، فكنت أقرأ الصحف بعدها بأسبوع، ساعتها تكون قد استقرت في الكوم السفلي منذ أيام، واكتفيت بقراءة الكتب التي تعج بها مكتبتنا، وانتهت قراءتها منذ زمن، فلا يعيرها أبي اهتمامه. زهدت أيضاً في مشاهدة التلفاز نفسه، وتركت أمي وأختي يصارعان في مسألة تقليب القنوات التي احتكرها أبي، فينالان التقريع تارة علي فساد ذوقهما في اختياراتهما، وينجحان تارة عندما يعلن أبي يأسه منهما أو يقوم ليقرأ في مكان آخر. أسمع تقريعه وعصبيته معهما وردودهما المنكسرة المستسلمة حتي مع نجاح سعيهما، فأقتنع أكثر بصحة جلوسي بعيداً، وانهماكي في شأن آخر، ربما لا أتوق إليه إلا في تلك الأوقات. مثلما آثرت اجتناب الصفوف الأولي في ذلك، تجنبت نفس الصفوف في أموري كلها، أو الغالب منها، إلا الصف الأول في الفصل، وفي الجامعة، وفي نتيجة الامتحانات. يوماً ما كنا نلعب لعبة من اللاتي انقرضن بعد جيلنا العجيب، نجلس حلقة وتكون هناك قرعة ما، من يصبه الدور ملزم بالإجابة عن أسئلة عشرة متتالية وليس من حقه الامتناع. فيما بعد قلت لهريدي أنني لاحظت أن كل هدف اللعبة أن يستطلع كل جنس علاقات الجنس الآخر العاطفية، لا أكثر ولا أقل. كنت "شاطر الشلة" الذي لا يفتقر للناحية الساخرة في حديثه، الممل

إذا جلس في جلسة كبيرة بها من لا يعرفهم، لكنه تفلت منه برغم ذلك "قفشات" تنفرج لها القسمات في دهشة أكثر منها تفاعل، وتتسمر بعدها العيون علي وجهه الذي سرعان ما يستعيد "مللـه" في إخلاص، "شاطر الشلة"، الذي لا يرتبط بأحد ولا يعيش قصة ككل من حوله. وأصابني الدور في القرعة وكنت أتوق إليه من داخلي.. جاء السؤال فنفيت أي علاقة حب لي مع أحد. أمام عيني السائلة المندهشة والتي تفيض خبثاً ولمعة اقتنص آخر دوره في الأسئلة العشرة وسألني: "ولماذا تري أن هذا ليس وقته؟"، قلت كلاماً كثيراً عن دوري في الحياة وأن أهلي "يصرفون عليا" وانني عندما أحصل علي شهادتي "أبقي أعمل إللي أنا عايزه".. لم يكن هذا كلامي، فلقد كنت أتوق إلي أن أجيبه انني معجب جداً بصديقة السائلة، أطيل النظر إليها من بعيد في الردهة الواسعة أثناء تلكؤي المقصود في دخول قاعة المحاضرات كل يوم، فتبتسم وتنظر للأرض بسرعة، أتلمس الحجج للاقتراب من المجموعة المحيطة بها فتتظاهر بعدم ملاحظتي لكنها تفسح لي مكاناً لألج منه فتصبح وقفتي إلي جانبها. أطيل الوقوف في المجموعة فلا أجد ما أقول، تسألني عن أمور عامة فأتلعثم وأنهي الإجابة كمن يفر من الأسد، ويفتح أحدهم موضوعاً علمياً فأنطلق لربع الساعة أسهب وأشرح وأقارن وأحلل. بعد انتهاء اللعبة سألني "هريدي" وقد كان حاضراً: "انت كنت بتتكلم جد؟".. لما أعدت شرح كلامي الأجوف في حماس مصطنع، غمز بعينه

وقال:"عَلَي بابا؟" سارعت بالنفي في عصبية خشية افتضاح أمري، فقال قولة صدمتني:"انت حر يا مصطفي، خلاص مادام ده رأيك انت حر، وماتقلقش أنا عارف انك لا بتحب دي ولا دي، ولا ليك في الكلام ده.." ثم ابتسم وسألني بشكل صعقني: "أظن انت كده مبسوط؟". ساعتها أدركت أنني أتعامل مع الأمر بصفته فخاً سيقلل مني أو يساويني بالآخرين، سأكون عرضة للرفض أو القبول، ثقتي بنفسي علي المحك لكنني لا أدرك هذا، كشفني أمام نفسي وكأن كل ما يهمني مظهري أن أكون مختلفاً، وأنني كنت أري الأمر كما أري المذاكرة: لا مجال إلا للنجاح.. أريد أن أكون الأول.. ولو أنني تمهلت وفكرت كيف أن السماء لم تسقط فوق رأسي عندما كنت متأخراً في ترتيب دفعتي بعد كل هذا التاريخ الناصع من التفوق والنبوغ، لو أنني لاحظت ساعتها أن الفشل – الذي هو بمقياسي فشل – لم يقتلني ولم يقعدني محطماً، ربما لم أكن لأقدم علي أمور كثيرة في حياتي. ربما لم أكن لأتصرف كما تصرفت، ربما كنت تمسكت بالميدان أكثر، ربما كنت اتخذت القرار الصائب في تلك اللحظة الرهيبة التي سوف تأتي في مكان ما في هذه الرسالة، ولما خجلت من أن أتمسك بالأمل في روحي الجديدة بعد أن قبضت عليها فاستحالت بتخاذلي جمراً يحرقني.. وربما لم أكن لأتزوج ممن تزوجتها، أو علي الأقل ليس بهذه الطريقة، لكنني تناسيت قاصداً تلك اللحظة واقتنعت أنني أجبت الإجابة الصحيحة، وساعدني "هريدي" فلم يتكلم في الأمر ثانية رغم أنني علي يقين أنه كان يفهمني

ويعرف أبي وطباعه جيداً. لا أعرف ما إذا كان يجب أن ألومه علي ذلك أم لا، لكنني واثق بأن صمته وتجاهله للموقف أبقانا أصدقاء لفترة طويلة بعدها، علي الأقل حتي حصل ما حصل.

لكنني بدلاً من ذلك الإحجام، وعندما تخرجت، نظرت للأمام وتعاملت بشكل عملي مع الموقف، كعادتي جنحت إلي النمط الذي "يضمن" لي النجاح و"يتجنب" الفشل أو العثرة، ذلك الذي يعاني منه الآخرون. كان متاحاً أمامي أن أكون طبيباً مقيماً بالجامعة وبقسم الجراحة العامة.. "نيابة جراحة" كما يطلقون عليها، أوائل الدفعة ممن سبقوني لم تستهوهم الفكرة فتقدموا بأوراقهم لقسم آخر، تركوا لي الفرصة، إلا واحد، سبقني في التقدم لنفس القسم. وبرغم أنني لا أحب أن أشعر أنني مُجبَر، أن أكون الثاني في مكان ما، لكن بعد أن نفذت الأماكن الخاليات أو كادت، قلت لنفسي: لكن هذا قسم راقٍ، مكان لا يدخله إلا الأوائل، فليكن. لاحظ أنني سعيت أن أكون الأفضل والمختلف أيضاً هنا.. لكنني اعتبرت قبولي بالمكان الثاني خطوة جيدة، لأنني تعاملت بواقعية مع الأمر.. هنالك بدأت نقطة الزواج تؤرقني: هذا قسم شديد التنافسية، وأنا من أنا في التنافسات، أغرق فيها فلا أري غيرها في حياتي، وأبعد عنها كل ما قد يشوش عليها من ملهيات أو حتي أمور حياتية عادية، قالها لي هريدي وهو يلطم خديه مزاحاً: "قلنا حتدخل طب وتنسي نفسك في المذاكرة، قوم تدخل جراحة كمان؟ يابني انت كدا عمرك ماحتتجوز أبداً.. وتتجوز ليه انت حتبقى فاضي من العمليات والكشف، وبكره تقرف من الستات لما تكشف عليهم كمان"..

ينهره "عزمي" في رفق ويطمئنني، لكنه يشاركه وجوب أن أبحث "ضرورى عن واحدة كويسة وبنت حلال.. على الأقل قبل ما تتشغل في النيابة". كان هذا قبل أن ينشغل عنا "عزمي" كثيراً بشئون الجماعة ومشاكلها، وكنا نراه في أوقات متقطعة فقد صار نادر الحضور في السكاشن أو المحاضرات، وصار يعتمد عليَّ في التحصيل المتأخر آخر العام برغم أن أبي صار ينفر من حضوره لمنزلنا مثلما كان من ذي قبل، فصرنا نتقابل في الكلية أو كيفما اتفق. وكانت هذه الجلسة بعد نجاحنا وأثناء الامتياز وقد هدأت أمور الجماعة عن ذي قبل، لكن ذلك اليوم كان قبل أن أزور "عزمي" في مسجد الكلية لأستشيره في أمر "إسراء".. بعام كامل كما سوف أقص عليك.

كنت في أيام الكلية قد ساورني نفس القلق.. بدأت أفتح عيني على من حولي، عندما أبحث عن قصة حب فأنا ابحث عن شيء آخر غير الذي يبحث عنه الآخرون، فكما أسمع ما لا يسمعون وألحظ "حاجات غريبة"، أبحث عن الحب الأسطوري وعن الجمال الخارق وعن البنت غير المكررة وعن العشق الأسطوري، وكانت بنات دفعتنا يتنافسن على الظهور أمامي، فهمت ذلك متأخراً كالعادة، قالها هريدي لي مرة عندما مرت إحداهن - وكنت قد تعمدت سؤالها عن معلومة عادية في المحاضرة عما إذا قيلت بشكل ما أم بغيره – مرت بنا في الكافيتيريا الشهيرة بالكلية واتجهت نحونا وسط نظرات الاستنكار من اثنين من زملائنا من "الجماعة الإسلامية" يقفان بعيداً.. أجابت عن سؤالي وشكرتها فخفضت رأسها بحياء

واستدارت دون كلمة منها ولا مني.. قال هريدي ساخراً: "وانت يوم ما "تحكحك" مع واحدة تسألها في العلم؟ ياختييييييي.. بس باين عليك عاجب يا مان!!".. هنا استنكرت كلامه وادعيت أنني لم أقصد وأنني لا أشعر نحوها بشيء.. أردت كالعادة أن لا أكون مثل الآخرين، أنا أحب ويصبح لي قصة؟ "مش أنا".. قلتها ليس بغرور، لكنني قلتها باستنكار.. أجابني بقنوط ساخر:"طيب خليك قاعد جنبي.. آدي دقني".. كان هذا هو آخر شيء قاله قبل أن يشتبك في الدفاع عني مع الشابين الملتحيين الذين قصدانا لينهرانا عن فعلتنا في الحديث إلي "الأخت" التي مرت منذ قليل.. وحاولا إفهامنا أن تلك خلوة شرعية، رغم أننا كنا وسط مئات الطلبة في الجامعة ورغم أنني تقريباً لم ارد عليها إلا بـــ"شكراً"!! عبثاً حاولنا محاورتهما، وبصعوبة لم يتطور الأمر، فقد كان "عزمي" غائباً عن جلستنا، وهو الوحيد الذي كان يمكن أن يصدهم عنا.

حاولت بعدها مع أخريات، لكنني لم أكن أحاول محاولة من يعرف الحب، بل محاولة من يشتريه. كنت أتحدث باحترام وبجدية زائدة، غالباً في موضوع علمي أو محاضرة، كم من أعين منهن زاغت في وجهي بحثاً عن ابتسامة أو لمحة رغبة أو همسة بها حنين، كم منهن حاولت أن تتحدث في أمور أخري، لكنني ما إن يخرج الأمر عن العلم والكتاب حتي أتوه.. أصمت.. أهز رأسي موافقاً أو أغرق في الحيرة، ساعتها ظننت بنفسي أنني "ماليش إلا في المذاكرة". شكوت لأمي فضحكت وأعادت

نظريتها عن "خلص دراستك وابقي اعمل اللي انت عايزه".. لكنها ذكرتني بأنني أحب الرسم و"التأليس" علي أغاني الكلمات وكتابة الشعر. قالت أن هذا ليس بشخص مالوش إلا في المذاكرة، وأنني عندما أقابل البنت المناسبة التي أحبها فعلاً سوف أكتشف أنني "ليا في حاجات كتير" وأن الكلام ساعتها سوف يخرج مني متدفقاً لا أعرف من أين جاء ولا كيف أوقفه. لم أقتنع وواصلت محاولاتي ثم توقفت عنها خوفاً من افتضاح أمري، فأنا لست مثل الآخرين، ثم إن الأمر قد يشغلني فعلاً عن دراستي مثل ما يشغل الغارقين في قصص الحب من حولي!!

إلي أن تذكرت كلام أمي عندما قابلت "ندي".. أخت أحمد هريدي.. لكن هذه قصة أخري.. أظن أن وقتها سوف يجيء في تلك الرسالة بعد قليل..

لذلك الهاجس الذي سيطر علي أنني من طول ما أردت أن أكون "مختلفاً" سأصبح "متخلفاً" عن الآخرين، وهذا مما لا أطيق أيضاً، فما إن بدأت النيابة، حتي بدأت أبحث بجدية عن الفتاة المناسبة لأنهي هذا الأمر.. قدرت أنني سوف "تسرقني السكينة": نيابة ورسالة وماجستير ثم دكتوراه.. "حتلاقي نفسك بقيت أربعين سنة ولسه بتدور.. وساعتها حتاخد أي واحدة وخلاص".. قالها "عزمي" وهو يقصد أن اختيار البنت المتدينة التي تعرف دينها سيكون أصعب مع تقدم السن.. وأمَّن "هريدي" علي كلامه قاصداً البنت "اللي تفتح نفسك وتهشتكك بعينيها وترتاح جنبها يا عم".. لكنني فهمتها علي طريقتي:

"سأضطر أن أختار رغماً عني.. كاختيارات الطاعة التي ألفتها في بيت أبي، بل واختياري سيكون اختيار من فاته القطار.. اختيار عادي غير "مختلف"، أو اختيار العزوف عن الأمر كله كالعادة، وهذا ما لا أطيق لأنه، عَلَى تميزه في البداية، إلا أنه في نهايته، وبعد سنوات من العزوبية الاختيارية وحسد أصحابي المتزوجين وراحة البال والحرية، هو فشل آخر، ثم اختيار مُجبر آخر، وهذا ما لا أحتمل. صديق أبي وجارنا المقرب، أستاذ للفيزياء بالجامعة. عاش سنوات في أمريكا وأخري في روسيا. درس الفيزياء وبرع في شرحها لنا ببساطة. حديثه كان جاذباً لي ولأختي عندما يزورنا في ليالي الشتاء، دون استئذان بالطبع، يهبط علينا ويجلس بالساعات، يحكي حكايات عن أيام بعثته وعن البنات التي عرفها، فينظر له أبي نظرة محذرة يظننا لا نلحظها، فيدير دفة الحديث للحديث عن "هتلر" وعن كلام الناس عنه في روسيا في الستينيات، وعن أينشتاين ورأي الأمريكان فيه، يضحك ضحكته المجلجلة الصافية وهو يشيد باهتمامي "أصلك انت ألماني طبعاً فأكيد يعجبك الكلام ده"، يمتدح احتفاظي باللغة لكن أبي يعاجله مقاطعاً بالتنويه بأنه لولا اهتمامه بإجباري علي القراءة بالألمانية كل صيف لنسيت اللغة "من زماااان". يشيد أبي بمجهوده منذ أن عدنا من البعثة منذ سنوات وكنت أتحدث الألمانية كأطفالها وأكتبها كأهلها، عن الكتب التي ابتاعها وعن الاسطوانات التي أحضرها في بعثاته قصيرة المدي في السنوات التي تلت عودته، وعنى "لو كان

عليه هو ماكانشي قرا ولا كلمة وماكانشي فِضل منها في دماغه حاجة، دا إحنا ياما اتخانقنا خناقات لرب السما علشان يقرا ألماني". تلمح أمي نظرة الضيق علي وجهي والإحباط للإشادة التي اختطفت من يدي اختطافاً، فتقول: "بس هو برضه برافو عليه، كان بيقرا وبيسمع علي طول".. ينهرها أبي ويتحول الأمر لسجال علي التشكيك في دوره، بينما إحباطي يزيد وجارنا – الذي تعود علي عصبية أبي المفرطة وتناولها ببساطة – يغمز لي ويقول مهدئاً فأبتسم من مقصده وأسلوبه: "لأ هو مصطفي ماعملش حاجة.. لولا أبوه ماكانشي فلح طبعاً.. خلاص يا مدام.. خلاص". جارنا هذا لم يكن متزوجاً، أمي وزوجات أصدقاء أبي الذين كانوا أيضاً أصدقاء جارنا هذا كُنَّ يفتحن معه الموضوع ويمتدحنه ويتبرعن بالترشيحات، لكنه كان يقول أنه لم تُخلق بعد من تتحمله وتتحمل مزاجه، فكيف لها أن تراعِ نظافة البيت ونظامه وكيف لها أن تفوقه مهارة في أعمال المنزل وهو الماهر فيها والعاشق للترتيب، "عك.. كل اللي فالحين فيه يا مدام هو العك، ماتزعليش مني أنا مش قصدي عليكم".. كان يقولها ويضحك، لكن أمي كانت لا تقتنع وتقول في ثقة ونحن نتناول عشاءنا معاً ككل ليلة بعد أن يرحل: "هو أصله كِبِر خلاص.. دي كلها حجج، ما كان أدامه الجواز سنين بس هو اللي قعد يأجل، حيلاقي منين واحدة ترضي بيه دلوقتي وهو داخل علي سن كبير وممكن يعيا ولا يتعب؟ مين تتجوز واحد وهي عارفة إنها ممكن تعمل له ممرضة؟ إلا لو واحدة عجوزة

وتعبانة وهو مش حيعوز كده هو كمان، بس هو اللي عمل كده في نفسه، ربنا يكرمه".

* * *

قال "محمود السمان" بعد أن انتهى من شرح "المهمة الوطنية"، وهو ينظر إليَّ في ترحيب زائف: "دكتور مصطفى، حمدالله على السلامة، شفاك الله شفاء لا يغادر سقماً. أعلم أنك حديث عهد بالأحداث الجاريات، لكنني أعلم أنك لن تتأخر بعلمك وعملك عن خدمة الأمة". سألت نفسي في عجب: هل يتذكرني حقاً، أم هي ضرورات الجلسة وحاجته إليَّ لتي لم أفهمها بعد؟ نظر للحضور نظرة شاملة وقال في مرح: "يوماً ما يا أيها الحضور الكريم، كنا زملاء في دفعة واحدة بالكلية.. وكنا زملاء في ثورة شبابنا العظيم منذ أربعة عشر عاماً، ساعتها كانت بطولاتي التي تعرفونها، لا تفوقها سوى بطولات قلائل منهم الدكتور "مصطفى المصري".. قالها فالتهبت أكف الحاضرين بالتصفيق، ونظر لي "أكرم" نظرة متشككة، بينما ربت بعضهم على كتفي وهم يرددون "بسم الله ما شاء الله" دون انقطاع، وبعضهم يكبر ويحوقل في إخلاص، بينما عيونهم تتلمس الرضا في وجه "السمان" و"حسام". تابع "السمان" بعدما أوقف عاصفة تصفيقهم بإشارة من يده قائلاً: "دكتور "مصطفى" عالم كبير في مجاله، وعقلية منظمة، وسيفيدنا كثيراً في مواجهة هجمة العلمانية والملاحدة على بلادنا. تعلمون جميعاً أننا غيرنا من استراتيجيتنا مؤخراً. دكتور "حسام" سيوضح

لكم أكثر.. ألقى "أكرم" نظرة كراهية على "حسام" لم تخطئها عيني، لكنني تذكرت قولته لي " كل ما أتمناه حينما تتذكرني أن تعلم يقيناً، أنني لم ولن أوذيك، وأنني لن أحمل ضدك أي ضغينة"، فربطت لسبب ما بين ذلك وبين دوري الذي بدا وقد رسم "السمان" و"حسام" ملامحه في ذلك الأمر ببراعة، واعتبرت أن "أكرم" ربما لا يوافق كثيراً على تلك "المهمة".

لكنني سرحت مع كلامه في طيف آخر من ذكرياتي..

* * *

تبدو ذكرى "محمود السمان" جزءاً لا ينفصل عن أقصوصتي عليك..

كما اخترت أنا الطب استسلاماً لمقولة "انت مجموعك عالي وأكتر درجات جايبها في الأحياء والانجليزي" التي قالها أبي ساعة كتابة رغبات التنسيق، كذلك فكرت علي نفس المنوال ساعة قرار الزواج. كنت أحب الفيزياء جداً، لكنني لم اطق الاختيار "غير المختلف" لكلية مثل العلوم، ما أكثر طلبة العلوم وما أبسط مناظرهم وما أكثر ما تدفع للرثاء، وما هو مستقبلهم؟ عالم في العلوم؟ كم واحد منهم سيكون كذلك؟ قررت أن درجاتي بالفيزياء برغم عشقي لها لم تكن درجات عالية، ليست عالية بمقياس أنها لم تصل للدرجة النهائية، لو كنت تفهم ما أعنيه. صممت في باديء الأمر أن أتقدم لكلية أبي، وبررت ذلك برغبتي في أن أكون "معيداً" فاحمرت عيناه وحذرني من الاعتماد عليه

في الكلية. تراجعت بصمتي، فقال أنني "أستسهل"، وتلك خصلة سيئة جداً أبدأ بها حياتي. كان رأي ابي أن أكون طبيباً، وأنني لو كنت جديراً فسوف أكون "معيداً" في أي كلية. لم يلاق الاقتراح هوى في نفسي، لكن كل دفوعي كانت قد انهارت، لذلك ولشخص مثلي يبحث عن الكمال في الاختلاف، أو عن الاختلاف كمبرر للإحجام عن المعارك، كان اختيار الشيء الذي جربت التفوق فيه ونجحت، والكلية التي يُشار بالبنان لخريجيها: "الدكتور راح، الدكتور جه"، أكثر ضماناً. وكما اخترت تخصص الجراحة العامة، لأنها قسم الأوائل برغم أنني عشقت جراحة الجهاز الهضمي، كما فعلت ذلك كله اخترت أسس زواجي فبحثت عن حديث الرسول صلي الله عليه وسلم عن الأسباب التي تنكح من أجلها المرأة ووجدت أن المال والحسب والجمال أمور مقبولة للاختيار علي أساسها. أعطاني هذا مسوغاً شرعياً لأن أنتقي منه ما أحب. بحثت عن عزمي وقد انغمس أكثر وأكثر في أمور الجماعة الإسلامية حتي لم يعد يخرج معنا ولم نعد نراه كثيراً مثل ما كنا نفعل. كانت أي حملة يقودها ذوي اللحي في الجامعة تراه علي رأسها، منع الاختلاط في "السكاشن" أو التنديد بالمسيحيين وإلقاء الخطب العصماء عن فضل الصلاة أو خطر السلام علي "الأجنبية"، التجمهر حول مكتب العميد للسماح بترك المحاضرات في أي وقت للصلاة، وبالطبع تأديب ذلك الطالب المسيحي الذي شاع عنه أنه يحب طالبة مسلمة. ذلك الموقف الأخير بالذات انتهي فقط لنتيجة

واحدة: البنت تركت الكلية لأنها وعلي حد تعبير زميلاتها الذي استقيته من "ندى": "ماكانتشي عارفة ترفع راسها في الكلية بعد إللي حصل، وأبوها عِرِف لأن أخوها طالب في علوم. حضروا إلى "الإسكندرية" وسحبوا ورقها من الكلية وقالوا حيحولوها كلية تانية. من أسبوع، واحدة صاحبتنا اتصلت بيها رد أبوها ورفض يديها السماعة وقال لها دي في بيت جوزها! بعدها بيومين واحدة تانية، زميلتها من بلدهم، أكدت الموضوع وقالت إنهم قعدوها في البيت وأخوها ضربها كذا مرة، واتخطبت لواحد قريبهم وحيتجوزوا كمان شهر". كنت أري هذه الأفعال وأري "عزمي" ضالعاً فيها بقوة وأعجب: كيف انتقلت وقفات "الحبيبة" في الكلية إثر ذلك إلى أماكن قصية، بعيدة عن العيون، وكيف لم يثر هذا حفيظة هؤلاء الذين انتفضوا قبلاً؟ ثم: أهذا هو"عزمي" الودود الهاديء الضاحك!! أعجب لهذه القسوة ولا يساورني شك في أنه يتظاهر. لا أعرف من أين جاء لي هذا الإحساس، لكنني كنت أنظر في عينيه وهو يلقي خطبته علينا في مدرج الجامعة قبل المحاضرة، أبحث فيهما عن مزحة ما، أو عن معني آخر أو عن "عزمي" الذي أعرفه، وسط العيون المرتعدة سواء من يمين القاعة الذي احتله البنات أو من يسارها الذي قبع به الأولاد بعد الفصل القسري، يجلجل صوته بنغمة لم أعهدها فيه، طنطنة وتفخيم للكلمات ونطق سليم – ربما أكثر من اللازم – للضاد والذال. استشهادات تلقائية من القرآن، واحتقار واسع لجمهور كبير من الناس "البعيدين عن

شرع الله، المغتربين عن سنة رسوله".. أنا الذي يجلس أول صف دائماً حيث يجلس أكثر الناس حرصاً علي المتابعة والظهور في الصورة مع المحاضر، لعله يحفظ وجوهنا وأسماءنا، نظرت لوجهه الذي كان يشبهه يوماً، أنظر من مجلسي إليه لأعلي وهو يكاد يلتصق بالـ"بنش" الخشبي ويدقق النظر في الصفوف الأخيرة، عروقه نافرة ووجهه محمر ونظرته فيها الترهيب واللوم لتأخرهم في الجلوس والاستماع إليه. وهو مازال يلتقط أنفاسه ينتظر أن يهدأ "الجمهور" لبدء موعظته. بادرته في همس: "يعني يا "عزمي" حسب كلامك عن المجتمع اللي إحنا فيه يبقي إحنا كفرة بقي؟ حتي إحنا؟ أصحابك كمان؟".. تجمد وجهه – ولدهشتي، وكأنني نسيت أنه يضحك ويبتسم مثلنا – كتم ابتسامة صارعت تقاطيع وجهه من بين شعر لحيته الكثيف وقال في هدوء وبصوت لم يسمعه سواي:"انتوا مش بتصللوا؟ خلاص ربنا حيهديكم إن شاء الله حنعمل ايه يعني؟ أصحابي يعني حارميهم؟". "عزمي" بشخصيته المسالمة وطاعته العمياء لأمه وأبيه كان يختلف بالنسبة لي عن "هريدي". "هريدي" متمرد بطبعه، دائم الانتقاد لأبيه وأمه ودائم الخلاف معهما، كما أنه يشغل نفسه بأمور كثيرة جداً في الحياة. لم تكن الدراسة يوماً ما هي محور حياة "هريدي": "أنا أصلي كده كده حطلع إيه؟ آه ماشي قوللي ذاكر في ثانوية عامة أديني ذاكرت ودخلت هندسة عشان ألاقي شغلانة ويبقي اسمي مهندس، لكن وبعدين؟ معيد في الجامعة؟

استحالة! لا المستوي ولا الظروف ولا الكوسة ماشية، يعني حتخرج وأدور علي شغل؟ ويبقي تفرق إيه الجيد جداً عن المقبول؟ ممكن تِفَهمني؟ أنا عارف إني بتخرج وبشتغل أي شغلانة عشان أعرف أتجوز وأفتح بيت.. ده لو لقيت شغل". فيما بعد صدقت نبوءة "هريدي" عن نفسه فظل عاطلاً كما سأقص عليك لفترة ليست بقصيرة. لكنني وبرغم صداقتنا الطويلة، لم أكن لأشكو له من أمور معينة. هو لن يفهم أبداً حيرتي في تنفيذ أمر لأبي أو سلوك مسلك ما أضطر له لأنني أتفادي الصدام، لأنه هو نفسه تصادمي بامتياز. لو كان مكاني لسلك سلوكاً غيري، ولن يتفهم وجهة نظري المهادنة التي تبحث عن حل يوافق كرامتي بيني وبين نفسي. "هريدي" سوف يفهمني لكنه لن يريحني. سندور في فلك ثابت: يريدني أن أنسف الأمر من أساسه، بينما أنا أريده أن يخبرني كيف أتصرف لإتمامه دون أن أنال جرحاً في كبريائي. ثم أن هناك عامل آخر: "ندي". هي أخت "هريدي" كما تعلم، وكنا في تلك الأيام قد افترقنا. كما هو نوع نادر من البشر، فإنه لم يتأثر بما حدث علي الإطلاق، بل إنني تجنبته زمناً وهو لم يفعل. حتي تواجهنا بعدها، كما ستعرف بعد قليل. لكنني قدرت أولاً أن "عزمي" سوف يفهمني في مسألة "إسراء" أكثر، ويبحث معي عن حل. الإثنان نوع من الأصدقاء الذين لا تحتاج معهما إلي توضيح إحساسك كثيراً. تبدأ فيكملون لك كلماتك، تهم بوصف إحساسك فيصفونه معك، يهزون رءوسهم متفهمين حيرتك ثم يكملون عنك المائة

متر الأخيرة من سباق العدو الذي تلهث جاهداً للفوز به، والأدهي أنهم يفعلون ذلك عنك دون أن تطلب. لكن كلاً منهما يصلح لسباق علي مقاسه، ولتنافس يرغب في خوض مثله ويؤمن بجدوي الفوز فيه لك، أو لهم لو كانوا يتسابقون عنك وباسمك.

بحثت عنه وسألت أحد "الإخوة" الذين كانوا يكنون لي احتراماً خاصاً. أدركت هذا الاحترام حين دعاني للانضمام لدروس الجماعة الإسلامية في مسجد قريب بعد صلاة العشاء، وقد صار هذا المسجد هو معقلهم ومعقل الإخوان بتبادل لم أستوعبه. كنا بعد سنوات من شبهة من يلتحي في الشارع، لكن شيئاً ما كان يحدث دائماً ليذكرك بهذا الجو. يوماً ما حضر هذا الأخ ويُدعَي "محمود السمان" لمنزلي في أجازة الصيف، وكان وجهه واسمه مألوفاً لدي من المحاضرات: نحرص علي تحية بعضنا باحترام ينبع من مهابة التفوق ورهبة التدين علي ناحيتي وناحيته علي الترتيب. ناقشني علي باب المنزل وألح عليَّ في الحضور، لكن رفضي كان صبوراً كإلحاحه وأشد. أبي لن يسمح بذلك وأكثر ما يرعبه هو وأمي هو ذلك الجو الذي يشيع في الجامعة. الطلاب ذوي اللحي ينتهون بالرفت من الجامعة وضياع السنوات والاستبعاد وربما الاعتقال. لطالب متفوق مثلي هو الكابوس بعينه، ولأستاذ جامعي مثل أبي يكون طرفاً في مسائل فصل الأولاد عن البنات في السكاشن ومنع دخول المنقبات للجامعة وإقامة الآذان وسط المحاضرة وفي المدرج، ذلك أيضاً

من المحظورات، ولأمي التي عاصرت أحداث "الجمعية الشرعية" بأسيوط، إثر قضاءها أجازة قصيرة مع أختها هناك. مقتل عساكر الشرطة صبيحة العيد في 81، جو حظر التجوال وقلقها علي ولدها ابن العاشرة الذي خرج لصلاة العيد وتأخر، هو كابوس ومحظور معاً. سمعت أمي "محمود" وهو يلومني "مش عايز تيجي تحفظ القرآن؟"، فخرجت له بإسدال الصلاة ونهرته عن الإسهاب غير المبرر رغم أنني رفضت عرضه كثيراً. دعمت ذلك بأن قالت له أن "مصطفي بيحفظ في البيت، هو ضروري يعني ييجي معاكم؟ وهو مينفعش نحفظ القرآن غير في الجامع؟" لكنه كان جريئاً وقال لها أنني طالب متفوق وأن انضمامي لهم سيعطي مثالاً حسناً عن الإسلام. لم أكن أحفظ القرآن في البيت وباءت محاولات أبي معي بتحفيظي سورة "البقرة" بالفشل، أعزوه لعندي وعدم دعم أمي للفكرة، لكن أمي لم تجد علي ما يبدو وسيلة أخري للتعبير عن ذلك المعني الذي صرحت به فيما بعد وناقشته أمام أبي الذي استشاط غضباً لما سمع بما حدث: "هو مين قاللهم إن إحنا مش بنحفظ قرآن ولا بنصلي ونصوم؟". كانت أمي علي حق في مسألة التزامنا بالصلاة، لكنني آثرت أن ألا أخسر ذلك "الأخ" الذي يحترمني كما لمست. كان هناك سبب آخر في الواقع لهذا الحرص على ألا أخسره. كنت قد تابعته في سني الجامعة الأولى حينما كان لا يزال يرتدي الألوان المزركشة والبنطال الجينز ويطيل الحديث إلى الفتيات اللواتي كن يبدين وكأنهن لا يستلطفن حديثه. كان

سريع البديهة وخفيف الظل بشكل ملحوظ، لكنه كان محبوباً في وسط الشباب فقط، لكن ملابسه غير المتسقة مع خشونة لهجته الصعيدية، وتعبيراته افظة كانتا تنفران منه البنات بوضوح. رأيته وهو يتقرب إلى "ندى" أخت "أحمد"، ورأيته وهو ينظر إليه في ضيق ثم يصطحب أخته للمنزل إذ حضر لتوصيلها ويعنفها طول الطريق وهي تدافع عن نفسها في انفعال وشى به احمرار أنفها الجميل. فيما بعد ستصارحني "ندى" بأنها رفضته بغلظة لم تستطع التحكم فيها ونهرته بكلمات أفلتت منها لفزعها أن يكون مثل ذلك "الصعيدي القفل" زوجاً لها. قالت أنه لم يعطها رغم ذلك فرصة للندم إذ ابتسم فكشف عن أسنان صفراء وقال لها أن تفكر مرة أخرى، لكنه وللحق لم يعاود المحاولة. كنت الوحيد، كالعادة، الذي ربط بين هذا وبين اختفائه بعد ذلك لأسابيع ثلاثة من الكلية. قال أصدقاؤه في "السكشن" أنه عاد لبلده، وأن الكلية "صعبة عليه" وأنه ربما يفكر في أن يبحث عن كلية أخرى قبل أن يتورط بضياع سنين أخرى من عمره. عاد بعد ذلك وقد تزمت مظهره وطالت لحيته وانكسرت نظرته كثيراً. عندما تغيرت أحوال "محمود" قدرت أنه كان مصدوماً مما حدث، ولم أستغرق كثيراً في التناقض بين صدمة مؤقتة، وبين حال دائم انتهى إليه بأن صار من "الإخوة" الذين طاردونا في كل مكان في الكلية بعظاتهم وتحريماتهم. حافظت على ودي معه وعلي مظهري أمامه وصارحته فيما بعد بالكلية أنني يجب أن أطيع والدي في منعه لي من الانضمام إليهم. تناقشنا كثيراً

في الأمر وفي "طاعة المخلوق".. لكنني لم أعدم وسيلة لإقناعه، لكنني خرجت من الحوار وقد حفظت مهابتي في قلوب الإخوة واحترامهم لي. كان "محمود السمان" وقتها، بنظراته العميقة وصوته الجهوري ورنين كلماته وقلبه الذي لا يعرف الخوف، قائداً ما له وضع خاص، لكن ظهور "عزمي" الهادىء الوقور، بسمته الذي يدخل القلوب، وندرة كلماته على عمقها الذي يشي بثقل ديني وقراءة واسعة، وبروزه في أوساط الملتحين غيَّر من ترتيب القيادات، فصرنا نسمع كلمة "الأمير" مقترنة باسم "عزمي"، بينما تواري هذا الأخ حتي لمحته ذلك اليوم فدلني علي "عزمي" حتي وجدته.

وسط العيون التي تفيض بالشك وبعضها بالكراهية، جلسنا أنا و"عزمي" في طرف المسجد الذي نجحت جهود الإخوة في إقامته في ركن مهمل من اركان الكلية، قريب من حمامات العمال والطلبة برائحتها العطنة. كانت مسورة بسور خشبي لا يزيد عن النصف متر ومفروشة بالحصر البالية التي لا نعلم من أين جاءت وتتوسط مقدمتها سجادة صلاة مائلة باتجاه القبلة.. يجلس عليها "عزمي" وهو يصغي لي باهتمام بينما عيناه مغلقتان كأنه يستوعب ما أقول وشفتاه تتمتمان بشيء غمض علي فهم كهنه. ظروفي، ما أتوقعه في حياتي، "إسراء" ومدي تأثير ارتباطي بفتاة مسلمة ومن عائلة محترمة وميسورة علي مستقبلي، لن أستغل أحداً ولكنني سأصاهر وهم سيصاهرون، سنصبح واحداً. هناك الكثير لأحسن منه في نفسي ونفسها،

وبهذه النية سوف أكسب هدايتي وهدايتها، ورضا أبي وأمي لأنني لن أرهقهما فيما بعد بأي دعم مادي لمستقبلي، "انت عارف هم مابيبقوش فاهمين الدنيا عايزة أد إيه فلوس، زمن بقي غير الزمن". قلتها وأنا أعلم أنني أضرب وتراً حساساً لديه، أمه هي البديل المكافيء لأبي لديه، مشاكله شبيهة وردود أفعاله مثلي بل تكاد تفوقني استسلاماً، لابد أنه سيوافقني الآن. فتح عينيه وفاجأني: "يعني انت حتتجوز بنت واحد في أمن الدولة يا مصطفي؟ وجاي تاخد مني الإذن؟". وأخت مين؟". الحقيقة أن "فؤاد" شقيق أمك بدأ مثلنا بالفعل، لكن شخصيته العنيفة الطاغية لم تظهر سوي بعد دخوله كلية الشرطة. زهو أبيه به زاد وكان الفتي حقق ما صبا إليه الأب فصار مهاباً مثل أبيه. يبدو أن طباعه تماشت مع عين خبيرة بأمن الدولة فالتقطوه مبكراً. عندما تم نقل الأب إلي "الإسكندرية" بعد مقتل السادات، كانت سمعته تسبقه. "الجزار وابنه حتة واحدة". هذا ما كان يقال في كل مكان، لكن مالي أنا وذلك كله، هكذا فكرت. كنت وقتها أعرف كل ذلك ولكنني لم أتوقع ذلك السؤال من "عزمي"، وبالطبع لم يخطر ببالي أن أستأذنه. كنت أنتظر كلاماً عن "ذات الدين تربت يداك".. لكنني تلعثمت من المفاجأة وتمتمت: "أنا مش قصدي خالص.. أنا بقوللك الاختيار نفسه صح ولا لأ؟". عزمي ابتسم في ضيق، نظر لي وقال بلهجة ثابتة لا تحمل مشاعراً وكأنه يلقي فتوي علي مسامعي: "طريقتك في التفكير ظاهرها جميل. أنا لا أعرف أكثر من كلام

رسولنا الكريم صلي الله عليه وسلم، وأنت لابد وأنك تعلم الحديث الشريف. لكن فكر يا مصطفي في "خضراء الدِمَن".. المرأة الحسناء في منبت السوء.. والله لا أرى منبتاً للسوء أكثر من أناس يمنعون مساجد الله أن يُذكر فيها اسمه. انت عارف طبعاً مين اللي قبض علي الإخوة اللي عملوا الجامع ده؟ ومين اللي حقق معاهم 3 ليالي في أمن الدولة؟ انت شايف إن دي ناس صالحة يا "مصطفي"؟ مش "مراد" أبو الأخت دي هو إللي ماسك ملف الإخوة في الجامعة؟ وأخوها مش ماشي علي الدرب لا يحيد عنه؟ تحب أحكيلك عملوا فينا إيه؟ ولا انت حقيقي مش عارف؟"

-"أنا ماليش دعوة بأبوها يا عزمي. أنا حتجوز واحدة بنت ناس ومتربية كويس وأصلهم طيب. هو يعني كان بيمنعهم يصلوا في البيت؟ جبت منين إنه منبت سوء؟"

-"خليك صادق مع نفسك يا مصطفي. انت بتدور علي الأصل فيه 100 أخت أصلهم كويس ودينهم أحسن من الناس الظالمة دى.. بتدور علي التربية ولا الفلوس ولا الأصل ولا الدين؟.. وعموماً، انت عاوزني أقوللك علي بركة الله، لكن أنا مش حقوللك غير انت حر فيما تختار، وسوف تحاسب عليه يوم القيامة علي رءوس الأشهاد"

تركته وأنا في قمة الضيق. بالفعل كنت أريده أن يدعمني في اختياري. لكن رأيه كان صادماً لدرجة أنه سَهَّل عليَّ جداً أن ألقيه جانباً. "خضراء الدِمَن"؟ لقد تمادي عزمي كثيراً هذه

المرة. أهذا ما ألقاه منه وأنا صديق عمره؟ يراني حراً؟ لسنا أحرار في أن نجلس معاً في المدرجات، المجالسة حرام شرعاً لأنها مع أجنبية، ومصادقة المسيحيين حرام.. حرام.. لكن الزواج بـ فتاة مسلمة، لا يعرف عنها شيئاً، هو زواج من "خضراء الدمن"؟ كيف يصف من سأتزوجها بذلك الوصف؟ متي صار "عزمي" إلي ما صار إليه؟ ومتي فاتني أن ألحظ ذلك؟ فاتني أن ألحظ أنه تمرد هو الآخر علي سطوة أمه وآرائها المتحفظة علي سلوكه فلم يعد عزمي المستكين الهاديء. فاتني أن ألحظ أن من نكل بزميلنا المسيحي علي رأس جماعة من ذوي اللحي الممتطين "للسنج" ودمر سمعة فتاة بريئة علناً في موعظة عامة قبل محاضرة السبت، لم يعد صعباً عليه أن يتهم أخري بأنها "خضراء دِمَن"، لعلاقات أبيها والشبهة في أخيها، والعداوة التي اكتسبها معهم أصلاً بسبب سلوكه هو، وبسبب فكرة في رأسه هو. هكذا فكرت وهكذا تراءي لي، ولم أكن أسعد من تلك اللحظة وأنا أرحل من المسجد في حمايته، إذ نهر الإخوة الذين تطرق لمسامعهم حديثنا فتحفزوا، عن التعرض لي بكلمة. لم أرَ "عزمي" إلا بعدها بسنوات طويلة، لكن هذه أيضاً قصة أخري.

لم تفدني جلستي معه شيئاً حتي أنني تمنيت لوكنت سألت "هريدي". لكنني عندما هدأت قلت لنفسي أن الأصل هو رأي الدين وما أفعله مراعاة لله ورضاه، لابد وأنه سيدعمني ويبارك لي فيه. بالطبع أقنعت نفسي أن الدين هو الأساس في الاختيار

لكنني في أعماق فكري كنت أقول لنفسي أنني بذلت مجهوداً كبيراً جداً في حياتي، واكتشفت أن ليس كل الأمور بالمجهود، هاهو مجهودي في المدرسة تكسر علي بوابة الطب التي لم تمنحني سطوة ورهبة وامتيازات "فؤاد" شقيق "إسراء" الذي تخرج قبلي من كلية الشرطة وصار ضمن أمن الدولة، وهاهوذا تعبي وإرهاقي في الكلية، وإشادة الأساتذة بي لم يمنعهم أن يمنحوا ابن زميلهم المغرور درجات لا يستحقها، فيكون أول الدفعة بما يسمونه "المجموع التراكمي" الذي تم تطبيقه علينا لأول مرة.. فصار أول الدفعة تراكمياً وهو لم يكن أولنا في أي عام.. بينما كنت الأول في عامين، غير أن مواد هذين العامين لم تكن مؤثرة كغيرها من الأعوام التي كيلت فيها الدرجات لأبناء وبنات الأساتذة، وها أنا ذا أتزوج، فهل مازال مفهوم أن أكون "مختلفاً" هو ان أتزوج بقصة حب أسطورية من ملكة جمال الكون؟ هل مازلت أبحث عن التميز "الرومانسي"؟

وكانت الإجابة الشافية هي "إسراء".. أمك!

* * *

تابع اجتماع قصر الاتحادية 11 يناير 2025

قال "حسام" بصوته الجهوري ووجهه المبتسم بلا مناسبة: "الملاحدة هم نتاج صنائع الليبراليين والعلمانيين، أعداء الثورة وأعداء الدين الذين ابتليت بهم بلادنا منذ سنوات. في البداية، فزعنا كثيراً منهم وحاربناهم بكل وسيلة، لكنهم

استغلوا الموقف وذهبوا يتباكون لشياطينهم في الغرب. لم يتوانَ هؤلاء عن نصرتهم وتنفيذ مخططاتهم اللئيمة، بعد فترة بدأ وعي شبابنا يزيد، فقامت المظاهرات التي تعرفونها والتي طالبت بالقضاء عليهم. كانت حكومتنا في غاية الحكمة، رغم الاستفزازات المتتالية لأحداث "فتنة رمضان" الشهيرة، فتعاملنا مع الأمر بهدوء".

لم يبدُ عليه أنه لاحظ نظرة السخرية التي تبدت واختفت من عيني "أكرم" في سرعة، إذ التقط أنفاسه وتابع بلهجة خطيرة: "على هؤلاء أن يستتابوا. لن نرجمهم ولن نقتلهم، فليست من أخلاقنا في شيء، وليست من صميم الدين. هل تقتل إبنك إذا كفر؟ سيدنا "نوح" عليه السلام وقف يستتيب ابنه وسط الطوفان حتي حال بينهما."

ارتفعت همهمات الاستحسان بين الحضور وهزَّ بعضهم رأسه مؤمناً بينما انتفخت أوداج "السمان" في زهو وكأنه فتح فتحاً مبيناً. تابع "حسام" بنفس الابتسامة الثابتة كمن يؤكد شكوكي في طبيعة المهمة: "لذلك نزلنا على رغبة شبابنا المسلم الواعي، وأقمنا لهؤلاء الملاحدة معسكرات فاخرة لتأهيلهم، عزلنا من استطعنا فيها، وقسمنا أنفسنا فرقاً مخصصة لذلك. هذه هي الفرق التي تتبع وزارة "الأمر بالمعروف".. التي تم استحداثها منذ أشهر. خصصنا للإخوة دعاة وعلماء شباب، وللأخوات داعيات فضليات. وأنتم عليكم دور كبير في التوعية المدنية التي لا علاقة لها بالدين. سنوزع عليكم كتيباً يلخص ما

نريد أن يصل إليهم، وكلنا ثقة فيكم وفي الوسيلة المناسبة التي سوف تتبعونها لأجل ذلك".

ابتسم "السمان" في ثقة وقال: "دكتور "حسام" أخ فاضل ومحترم، ترك عمله كجراح وتفرغ لمصلحة البلاد والعباد، ولا عجب فهو متزوج من أخت فاضلة تمنح وقتها كاملاً لدعوة الملاحدة من الشابات، السيدة الفاضلة "ندى هريدي"، التي تعرفونها جميعاً. بيت مؤمن وأسرة مثال للأسرة المسلمة النافعة لغيرها، أبقاهم الله ذخراً وأزراً لأنفسهم وللناس، وحفظ لهم كريمتهم الصغيرة التي ستكون قرة أعينهم بإذن الله" !!

كان ذلك عندما أصابني ذلك الدوار، وتلاقت عينانا أنا و"حسام" في تحدٍ خرج من عينيه كشرر اشتعل ثم سرعان ما انطفأ في خفوت..

"ندى" و"حسام"؟ يا الله!!

* * *

لم أكن يوماً لأتزوج سوى زواج الصالونات، ولم أكن يوماً لأتزوج من مثل "إسراء"، لكنني فعلت الشيئين. لكن لماذا؟

خريجة الجامعة الأمريكية القاهرية المغتربة، صارت منذ انتقال أبيها للعمل بأمن الدولة بالإسكندرية منذ سنوات ضيفة دائمة في حلقات النادي الصغير الخاص بأعضاء هيئة التدريس في الإسكندرية. يتحلقن حولها بنات الأساتذة الكبار واثرياء الجامعة المعروفين. يخطب ودها هذا وذاك مثلما تفعل هذه وتلك، صلفها الظاهر عن بعد، ظهرها الممشوق في ثقة، وأنفها

المرفوعة دائماً وهي تتحدث، شعرها الطليق علي كتفيها في تصفيفة لا تعهدها بنات الإسكندرية وبياضها الشاهق وتكوينها الدقيق في سحر، وفمها الدقيق الذي يكاد لا ينفتح عندما تتحدث إلا قليلاً وعلي قدر كلماتها المنتقاة بحساب، وكلماتها الإنجليزية التي تجد لها طريقاً مع كل جملةً، وتسميتها مع ذلك للمياه الغازية بلفظة "كازوزة" في تحذلق يليق بارستقراطية تتعمد التباسط، فيزيد الانبهار وتتسع حملقة العيون.

باختصار كانت كل ما لا أحبه!! أعرف هذا النوع وأحفظه عن ظهر قلب، دفعتنا مليئة بشبيهاتها، لكن ما بالي أنفر منهن ثم أفكر أن أرتاح لمن هي أشد منهن طراً؟ لا أحب عجرفة البنات، فهي ربما أسوأ من عجرفة الرجال. عجرفة الرجال لها في الأغلب ما يبررها: منصب رفيع، تعالٍ طبقي، نظرة فوقية أيديولوجية ما، مال وفير، لكنها في الأغلب اضطرار لتحاشي الأذي، والأهم: بقليل من الذكاء تستطيع أن تخترق هالة الرجل وتعيده من فوق برجه العاجي للارض، تربيتة علي الكتف، ضحكة مشتركة علي طرفة ماجنة، أو حتي ملحوظة ذكية تنطقان بها سوياً في نفس اللحظة. لكن عجرفة النساء شيء آخر، وهالتهم غير قابلة للاختراق إلا ممن يسمحون له. أسلوب حياة؟ اختيار استراتيجي؟ شيء من هذا أو ذاك علي ما أعتقد. كنت أظن أنني لا أحب عجرفتهن لكنني ربما أري الآن أنني كنت لا أحب بعد تلك القشرة البراقة من هالة العجرفة الساحرة المثيرة عن منالي، ولا أطيق ما قد يستلزمه الأمر من تزلف

الرجال وصبرهن علي كسر تلك القشرة التي تحيط بها المرأة نفسها، حتي تسمح له بأن يقتحم هو هالتها، ويكون هو الذي يلمس ما تحت القشرة من مخمل ضعيف، ويشم العطر الزكي، ويتذوق الرحيق المصفي. كنت أظن أن القشرة مثل النواة، وأن الصلابة ممتدة حتي النخاع، لم يكن لدي أدنى تصور عن هشاشة الروح ولا عما يشبه ذلك، وظننت دائماً أن ما أراه وما أشمه وما ألمسه هو ما هو تحت السطح أيضاً. قلة خبرة، أو سذاجة، أو فقر في علاقات أحجمت عنها بإرادتي حتي لا تهتز صورتي وأظل مختلفاً، أو ربما هي تربيتي المحافظة، أو هو عقلي الذي كان يقيس البشر كما يقيس نفسه أو كما يقيس تداعيات منطقه الخاص: ذاكر تنجح، اجتهد، لا تلهو ولا تلن، تصل للمراد، فكما هي الكتب والاجتهاد، كما هي الحياة.. وكما هم البشر فكما هن النساء؟ كذبة كبيرة. لكن علي أية حال كلها تفسيرات وأسباب، ولكنها نتيجة واحدة.

كنا – منذ سنوات قبل دخولنا الكلية مباشرة – نجلس ثلاثتنا: هريدي وعزمي وأنا. انتهينا لتونا من تناول عشائنا بمناسبة نجاحنا في الثانوية العامة. رفع النادل أطباقنا التي احتضنت الكباب والكفتة منذ دقائق قبل هجمتنا الشرسة وأحضر المشاريب الغازية. اضطجع أحمد هريدي للوراء وقال في سخرية: "طيب.. تمام كده، اتنين دكاترة وواحد مهندس، حتوحشوني والله في كليتكم اللي تجيب الهم دي. الله يعينكم. المهم، الخطوة الجاية إيه يا شباب؟ حنتجوز امتي؟". علي قدر

ما أثار كلامه هزلاً وتندراً، علي قدر ما أذكر مقطعاً هاماً من حديثه. كان ذلك عندما أوشكنا أن ننتهي من كل النكات والقفشات الممكنة من وراء سؤاله، وبدأ عزمي يسألني عن شرائط كاسيت كنت قد استعرتها منه قبيل الامتحانات وغفلت عن إعادتها إليه. كانت تسجيلات لـــ"ماجدة الرومي" و"موتسارت".. وإذا بأحمد يغرقنا ثانية في موجة من السخرية والتندر علينا "يا حلاوتكم يا بتوع موتسارت".. ثم عدنا من حيث لا ندري لموضوع الزواج فقال "هريدي" أنه سيحرص أن يذكر موضوع "موتسارت" لحماه المستقبلي، جلس في أدب شديد، خفض من بصره نحو المائدة وشبك ذراعيه أمام صدره قائلاً محاكياً خياله في تهذيب:" أنا مهندس يا عمي وبقبض عشرة آلاف جنيه في الشهر، وابن حلال مَصَّفِي. لأ والله، أنا مابسمعشي "موتسارت" للأسف بس ممكن تخللي النجف علينا!! طيب نزود المهر شوية وبلاش موضوع "موتسارت" ده؟ طيب "حسن الأسمر" ينفع؟ طيب أقول لحضرتك علي حل وسط: عندي اتنين سميعة "موتسارت" قدام يعجبوك قوي، وإن شاء الله حيحضروا الفرح بس بعد ما يخلصوا عياداتهم!!"

لكنه وعندما انتهينا من فاصل الضحك الذي لفت ـ كالعادة ـ انتباه كل المناضد الأخري إلينا حتي باتوا يضحكون علي صوتنا وشكلنا ونحن نلقف الهواء لقفاً من بين ضحكنا و"عزمي" يمسك ببطنه كما يفعل دائماً، بيد، ويدق بالأخري علي منضدتنا في حماس، عاد "هريدي" بظهره للخلف، نفث

دخان أول نفس من سيجارته، انزوت ضحكته ونظر لنا في جدية وقال: "بس بجد بقي، عارفين إحنا حيبقي صعب نتجوز علي فكرة، يعني لا الظروف ولا الناس حيساعدونا. إحنا شبه بعض في حاجات كتير يمكن علشان كده إحنا أصحاب، بس أنا عايز أعرف من دلوقتي أنا يليق عليا مين علشان لما ألاقيها أمسك فيها.. ماهو غالباً فرصتنا مش حتكون كبيرة ويمكن تيجي مرة واحدة. عارفين الفرق بيننا إيه؟ حاجة بسيطة بس مهمة. انت مثلاً يا عزمي لو اتجوزت، ومراتك سمعت معاك أغنية ل"موتسارت" ده.. إيه؟ طيب خلاص، سمعت "مقطوعة" للحاج "موتسارت" ده، مغلطناش في البخاري.. خلاص انت حتقفش ليه، هو البخاري ده غلط أجيب سيرته ولا حاجة؟ طيب بس سيبني أكمل: انت حتنبسط قوي لما تقوللك: "واخد بالك انت بقي من "التون" دا يا زيزو؟ قوم انت تقوللها: آه بس عالي شوية. قوم تقوللك: "لأ بس أصل الأوكتاف الفلاني كان لازم يخش معاه كده، طيب شايف الكمنجة إزاي دخلتها صح والناي بيقطع القلب لما يسكت فجأة؟". كده يعني، انت تحب كده وحتنبسط لو كانت بتفهم اللي انت بتحبه وشاركتك اهتماماتك والجو ده. أما انت يا مصطفي، فانت مايهمكش الكلام ده، بالعكس انت يمكن حتتضايق لو لقيتها بتحلل معاك الأغنية، نعم؟ ياسيدي أغنية ولا مقطوعة، أهو كله فن يا دكتور، انت عاوزها تقوللك: يا راجل؟ انت بتسمع "موتسارت"؟ وبعدين تبص لك في عينيك وتسبل عينيها وتعض علي شفايفها وتقوللك: "يا

جامد قوي يا دكتور "صاصا".. آه ما هي لازم تحترمك يا دكتور ده أساسي عندك انت أصلك راجل محترم، بعدين تزود البصة في عينيك شراسة كده وتقوللك: "ده انت باين عليك عبقري وعظيم قوي إنك بتسمع الراجل الجامد ده وفاهمه كمان. طيب ماتيجي تفهمني "موتسارت" ده جوه بس في الضلمة يا دكتور "صاصا"؟".. بذلنا طبعاً مجهوداً لإعادة عزمي للجلسة بعدما كان مصراً علي الرحيل. "حرام يا أخي وعيب إللي انت بتقوله ده، ما انت عارف إني مبحبش الكلام ده". لكن هريدي بعد ما عدنا قال مكملاً:" أنا بقي مراتي لما تلاقيني بسمع "موتسارت".. خلاص يا "عزمي"، والله ما حاضايقك اسمعني بس، مراتي بقي حتقوللي إيه اللي بتسمعه ده؟ حاقوللها لا أبداً ماتاخديش في بالك، ده فاصل في الراديو، اصبري شوية، دلوقتي الإعلانات تخلص ويجيبوا المسلسل!!"

لكن كلام هريدي – علي هزله – كان يصفني بدقة. كانت "إسراء" – وقد وضعتني نصب عينيها لسبب ما – قد نهجت معي الطريقة التي هي بالضبط ما كان ينفع لي، وكان لأسلوبها معي دوراً فعالاً، فهمت مفتاحي واستغلته بذكاء الأنثي وثقتها بنفسها وبتأثيرها الذي جربته أولاً في البنات من حولها، وأضافت لها أسلحتها الجذابة وعقلها الذي أجاد رسم "الهالة" بشكل يحببني فيها ولا يفزعني، ولذلك تجاوزت أنا تلك القشرة المتعجرفة لها دون أن أدري، تجاوزت عن أبيها وأخيها وصرت مستعداً لتقديم تنازلات عجيبة، أندهش أكثر منك وأنا أذكرها

الآن، تجاوزتها وأنا أظن أنني وجدتها أخيراً، فتاتي التي أحلم بها، نظرت خلفي وضحكت في سخرية علي الأخريات وعلي الوحيدة التي أحببتها يوماً، ظننت وقتها أنني فهمت البنات أخيراً وفرحت جداً بهذا الفهم، عجبت كم أنا محظوظ، ولم أكن أدري أنني فهمت متأخراً وحين انتهي وقت الامتحان فرسبت فيه، بينما فرحت بنجاح زائف في الملحق!!

كنت قد تخرجت من الكلية منذ سنة وأنهيت فترة "الامتياز".. صرت نائباً بالكلية، وبرغم عدم توفر ضمانة للتعيين المستدام لأني لست الوحيد من دفعتي الذي تم قبوله، إلا أنه أمر أفرح أبي وأمي فرحا بادياً. عرفت ذلك من حكايات أبي أمامي لأصدقائه ولأقاربنا عما أحرزته من مجموع تراكمي عالٍ، وعن تفوقي علي معظم أبناء الأساتذة، عن حكايات أدائي الممتاز بشهادة الممتحنين في امتحانات الشفوي التي كنت أقصها عليه، فأظن أنه لم يُعِرها بالاً. عرفت أن أبي سعيد بي رغم رد الفعل المتحفظ الذي أبداه وهو يهز رأسه في وقار لأعلى وأسفل مكتفياً بسؤالي عمَّا إذا كنت قد جهزت الأوراق المطلوبة لاستلام العمل، ومنبهاً علي بحزم يخفي رقة قلبه، ألَّا أُقَصِّر في العمل: "انت المفروض تروح وتتمرن من دلوقتي.. الخروج مع أصحابك والسهر والكلام ده خلاص تنساه.. أستاذ الجامعة له هيبة معينة" ضحكت وأنا أعلق مبتسماً: "أنا اتمرنت معاهم كتير. كلها كام يوم ومش هقدر أشوف حد ولا حتي أصحابي من كتر النوبتجيات، سيبوني أشوف لي يومين،

بكره أندم علي الكام ساعة اللي راحوا مني ماقعدتش معاكو ولا مع أصحابي". علَّقَت أمي في تأثر وهي تصب فنجان القهوة المخفف باللبن – وأبي هو الوحيد من الذين صادفتهم في حياتي الذي يصر علي تخفيف مرارتها باللبن – بينما يتابع أبي تصاعد المشروب لأعلي الكوب الزجاجي، اللامع من نظافته، المنتشي برائحة المشروب الساخن الزكية، قائلة في صبر ممزوج بالتأثر: "لا يا مصطفي، إن شاء الله نشوفك، كام شهر وتتجوز وتروح بيت تاني، يبقي كأننا إحنا إللي بنتمرن بقي: دلوقتي منشوفكشي علشان الشغل وبعد كده منشوفكشي عشان البيت والعيال".

لكن الحياة أخذتني بعيداً بالفعل. جاءت النوبتجيات بكثافة لم أتوقعها، لكنني تعودت علي السهر وتعودت أمي علي الاستيقاظ في أي وقت لتحضير الطعام والاطمئنان علي.. كما اعتدت دخول أبي ليسألني عن أخبار العمل، وينتقد كثيراً من أفعالي التي أقصها عليه، كأنه يبحث عن العيوب. كنت أثور عليه تارة وأدافع عن نفسي تارة، لكنني فهمت يوماً ما أنه لا تهمه المزايا، بقدر ما يبحث عن العيوب لأنه يريدني أن أتلافاها، يتمني أن أصبح الأفضل. يتحسس طريقه في النصح كمن يري من يحب يمشي في طريق غريب يدخله لأول مرة، بينما أبي واثق بأنه هو نفسه سلك من قبل طريقاً مشابهاً له. كانت أمي تقول أنني سأعرف قيمة هذا الكلام عندما يكون لي ولد، لكنني لم أقضي معك الوقت الكافي لأكون لك ذلك الأب ولا لأقلق عليك

ذلك القلق أو أنصحك ذات النصائح. علي أني رأيت ذلك في الثورة وما تلاها من أيام ونقاشات وحيرة. عذرت أبي وقتها، وفهمت أنه رأى الدرب مختلف لكن له ذات السمت، والسائرون غرباء، فعزَّ عليه أن يراني أرتكب من الأخطاء ما دار عليه، لكنني كلما نبهني إلي أحدها، رددت بثقة من لا يريد أن يُكمِل حديثه، ويستكبر أن يصحح لي: "أعرف ذلك.." فيبادلني عناداً بعناد ونثور علي بعضنا ويصر في كل مرة أن "بكره تعرف قيمة الكلام ده.. خد بالك الموضوع ده مهم جداً وحيتعبك" فيزيد عنادي ويزيد خوفي من أن "أندم" علي تجاهل نصائحه، ويتسع ضيقي بها أيضاً لأنني لم أعد أسمع الكلام وأريد ألا أكون مخطئاً.

حتي قابلت "إسراء"!

كنا ننتهز الفرص كنواب ونقتنص من ساعات فراغنا الغالية ساعة أو ساعتين لنذهب لأي مكان عام، مطعم نأكل فيه، نادٍ نتسكع فيه مع أصدقائنا القدامي الذين لا تفرض عليهم ظروف عملهم هذا البيات المتكرر بالمستشفي ولا الالتصاق بهموم المرضي وحالات الطواريء ولمز الاطباء الأقدم وتلقي "الأسافين" من كل حدب وصوب، بالذات من "حسام المنزلاوي" الذي، ولسبب ما، اعتبرني الطبيب الجديد المدلل، الذي يشكو من ثقل العمل وكثرة النوبتجيات في غير عدل، وكان هذا ينتقده شخصياً لأنه المنوط بتحديد جدولنا. كنت أعتبرها من داخلي فرصة نادرة كي أثبت لنفسي أن حياتي لم تتغير ولم

يصبني الهم الجديد في مقتل: صحيح أنني لم اعد أصحو رائق البال ولم يعد نوم الظهر متاحاً ـ وهو علي أية حال لم يكن مسموحاً في منزلنا لإيمان والدي أنه يفسد ساعتنا البيولوجية ـ كما لم يعد الإفطار وجبة حياة أو موت بالنسبة لي كما كان، لكنني كنت أقول لنفسي أنني علي الأقل يجب أن أجد الوقت في غير فترات العمل لأن أعيش كما كنت أفعل، وأن أقابل أصدقائي. "عزمي" لم يعد متاحاً للأسف. منذ أن انشغل بمسألة "الإمارة" وهو لم يعد موجوداً، ولم يعد الاتصال بمنزله يجدي، هو إما يصلي بالمسجد أو غير موجود لسبب آخر، لا يرد المكالمة أبداً، ووالديه لا يعلمان عنه شيئاً. فضلاً عن أن الاتصال به كان يرهقني، فقد كنت أفعله من خلف ظهر أبي الذي حرم علي مقابلته أو التعامل معه منذ ذلك اليوم الذي حضر فيه "محمود" إلي منزلنا ليدعوني لحفظ القرآن. ساعتها أخطات وحكيت عن علاقة "عزمي" بـــ "محمود". كنت أتصل به رغم ذلك سراً، لكن لوم أمي المتكرر لي لمخالفتي أوامر أبي، وتكرار عدم جدوي المكالمة، أزهداني في المحاولة. كانت أوراقه قد تم رفضها من قِبَل أمن الدولة فلم يحصل علي "نيابة" مثلنا، رغم حصوله علي ترتيب متقدم نسبياً مقارنة بما انخرط فيه وكم المشاكل التي أحاطت به. عندما علمت بذلك حزنت لأنني أعرف كم سيؤذيه ذلك. "عزمي" مجتهد مثلي رغم أنني أسبقه، لكنني استقر في عقلي أنه جلب علي نفسه ذلك المصير بالدرب الذي اختاره. انتهي به الحال كما سمعت من "محمود السمان"، إلي

مستشفي "المبرة" كطبيب حديث. قال "محمود" أن ذلك منحه مساحة لنشاط أوسع، فالمستشفي كبير ومترامي الأطراف و"الشغل مِرَيَّح، مش زي شغل الجامعة ربنا يعينك". ألمح "محمود" إلي أن الوقت تغير وأنه صارت هناك بدائل كثيرة للدعوة الآن، وأن الإخوة بعد تصالحهم مع الأمن يسلكون دروب الحياة بشكل اهدأ. "الدعوة لها 100 طريقة وطريقة، وجادلهم بالتي هي أحسن" قالها وهز رأسه كأنه يؤمن علي كلامه هو نفسه، لكن نظرته التي ألقاها علي سريعاً أنبأتني انه لا يثق في تصديقي له، وأقنعتني أن "عزمي" لم يختر طريقاً آخر من ال "100 طريق وطريق"، على الأقل بالنسبة لـ"محمود"!!. لكنني أهملت ذلك الشعور ربما من باب أنني تعودت أن أتجنب المشاكل، ربما من تردد كلام والديَّ في أذني عن الابتعاد عن عزمي منذ أن سلك طريقه المعروف ولم يعد من نعرفه.

"هريدي" صار أقل تواجداً أيضاً. كان قد تخرج قبلنا لكنه مازال يبحث عن عمل. صرت أنتهز فرصة فراغي فأتصل به. صارت أعصابي لا تحتمل أي ظروف خاصة أو شيء من هذا القبيل، فلو تعذر لقائي به أثور عليه ولا أقبل أي عذر، حتي أنني أغلقت الخط في وجهه ذات مرة حين تعلل بأنه مرهق ولا يستطيع الخروج الليلة. لكنه احتملني كما فعل دائماً وصار يتصل ليعرف مواعيد فراغي، وتوطدت علاقته بأمي وأختي عبر الهاتف فكانا يتصلان بوالدته ليعلماها بمواعيدي ويتركان رسالة له فيظهر تلقائياً بالنادي في التاسعة من المساء المتاح. كان

مزاجه مضطرباً وكنت أحس أحياناً أنه يبذل جهداً ليكون مرحاً أثناء تواجده معي، لكنني كنت أكثر انشغالاً بعملي وأكثر عزوفاً عن هموم جديدة فلم أعر هذا اهتماماً. لمح لي مرة أن البطالة تقتله، وبدأ في سب اليوم الذي دخل فيه "الهندسة"، وأن البلد حالها مقلوب، وقارن بين الستينيات وقت ازدهار المهندسين وبين الآن، حكي تفاصيلاً عن عرض للسفر للخليج فشجعته فوراً. أبدي امتعاضاً وكراهة للسفر والاغتراب، لكنني قاطعته، إذ دخلت إسراء للنادي ومعها بنات دفعتنا اللاتي صرن زميلات لي في الأقسام الأخري بالمستشفي وأشرت إليهن ومازحته أن ينتقي واحدة ويسافر بها لتهون عليه الغربة. لابد أنه نظر لي في ضيق لم ألحظه، وصمت. تابعت الكلام في مشاكل القسم وتعنت الأكبر مني وأسافين الزملاء فشاركني علي استحياء ثم دفع حساب المشاريب وقام ورحل. مثل هذه المواقف يا ولدي هي التي جعلتني أعيد النظر في نفسي بعدها بسنوات، أفكر ملياً هل قدرت نفسي بأفضل مما فيها؟ الطب مهنة الرحمة، هكذا علمونا، والمريضة إنسانة قبل أن تكون حالة، صغار الأطباء يخطئون هذا الخطأ كثيراً فيرون الحالة ولا يرون من وراءها. هل أخطأت أنا نفسي هذا الخطأ؟ أضفت ذلك فيما بعد إلي كثير من أسئلتي التي تناقضت في رأسي: هل أنا ضعيف الثقة في نفسي؟ أم مفرط الثقة؟ هل كنت أراني محور الكون عن حق، أم بدافع غرور الشباب واندفاعه؟ علي كل حال، كان هذا مثالاً آخر لتأخري عن إدراك اللحظة، مثال آخر علي فشلي في فعل

المطلوب في اللحظة المطلوبة، مثال لم يكن الأخير، ولم يتوقف هو وأشباهه عن تعذيبي لسنين طويلة كما سوف تري.

لكن "إسراء" كانت قد بدأت التحرك. ظننت أن نظراتي التي أختلسها وأنا في الركن القصي من النادي لا يلحظها أحد. أحس أنها سوف تراني فأحول نظري في جزء من الثانية. جميلة نعم، جذابة بلا شك، لكنها تلك الهالة التي أنفر منها، وذلك الموقف المتذلل الذي لابد وأن أمر به لتليينها، ومن أنا لتعجب بي هذه المحلقة في سماء الأناقة والأصل الطيب. "وهو انت يعني جاي من الشارع؟" قالتها أمي لي وأنا أحدثها عنها بلا اهتمام، لكنها فهمتني، وتحمست أختي للفكرة وانطلقت تعدد في أناقة إسراء وسيارتها المرسيدس الفارهة التي تحضر بها للنادي. تبادلا المعلومات عنها وكأنني لست بجالس معهما، ثم بدلا دفة الحديث في مهارة يحسدان عليها إذ اندس مفتاح أبي في باب الشقة. "يابني ثق في نفسك بقي"، اعتادت أمي أن تسمعني إياها في أيام الامتحانات وأنا أبدو مرتعداً من الغد وكأنني لم أفتح الكتب من قبل، وكذلك عندما أتيت علي سيرة "إسراء". بعدها بيومين كنت في النادي في وقت فراغي المقدس بعد النوبتجيات، فوجئت بها تأتي نحو منضدتي مصحوبة بزميلة لي في قسم أمراض الباطنة وتستلم مقعدها في بساطة قائلة بابتسامة عريضة: "ممكن نقعد معاك؟". منبهراً بمباشرتها رحبت بهما وتولت زميلتي تقديمها لي. من باب الحبكة للموقف أبديت اهتماماً بالتفاصيل رغم أنني أكاد أعرفها

كلها، وحتي زميلتي كانت تؤدي دورها بغير اكتراث، كانت وكأنها تتوق لإنهاء حديثها والعودة لمنضدة الزميلات الأخريات. "إسراء فيه واحدة قريبتها عندها مشكلة في معدتها، وعايزة تاخد رأيك في حاجة، أنا قلتلها مصطفي ده أصله مش جراح وبس، ده شاطر جداً وإحنا مجربينه ودفعتنا بقي". أردفت في لهجة خاصة وهي تتظاهر بالعبث بمحمولها: "ومؤدب جداً وولد طيب ولطيف قوي". أنهت حديثها واستأذنت للرد علي محمولها الذي بدأ جرسه في الدق، وقامت. لمحت أنا من فوق كتف "إسراء" ومن بعيد، الزميلات الأخريات متحلقات يتضاحكن حول إحداهن وهي تداعب محمولها وتبتسم نحو الزميلة الباطنية وتغمز لها، فأدركت الخدعة والاستدعاء المدبر بغرض إخلاء الجو. كانت حركة مثل هذه كفيلة عادة بأن أهرب من الموقف، لكنني كنت سعيداً جداً بتلك الفرصة. لم أقلق حتي بشأن ما أقول، أو بشأن انطلاقي في الحديث في مواضيع غير العلم أو جو الكلية، ووجدت نفسي أتكلم بحرية في أي موضوع، سيطرت علي الحديث وأسهبت كثيراً في الحديث عن نفسي وعن النيابة. تذكرت للمحة كلام أمي فابتسمت رغماً عني، فضيقت عينيها للحظة وهي ترمقني وانبثق ثغرها عن ابتسامة واثقة. هل فهمت؟ "حتلاقي نفسك ليك في حاجات كتير" قالتها أمي في ثقة. كانت "إسراء" تستمع كثيراً وتهز رأسها قليلاً بانتباه وتركيز جديرين بصديق قديم ونديم فاهم. عيناها اللامعتان اللتان تخترقاني، تتراقصان بين عيني وأنفي وفمي، فلا أدري ماذا

أقول أحياناً وأتوقف مرتبكاً لكنها تكمل حديثي وتواصله علي طريقة: " كمل. أيوه وبعدين؟" تتحدث فأصمت أو أقاطعها فتبتسم ثم تصر أن أتحدث أنا أولاً. تضحك علي أقل مزحة فأتشجع وأسخر من أي شيء وكل شيئ لأستثير ضحكها في تشبث الأطفال، وبرغم ذلك تضحك وتميل للأمام وتخفي فمها بيدها خجلاً فأسعد أكثر وأعجب من انطلاقي أكثر. سألتني ما إذا كنت أقوم بعمل استئصال الزائدة الدودية وحدي، أبدت إعجاباً عميقاً بتأكيدي لذلك ولم أُرِد بالتهوين من قيمة ذلك كما أفعل دائماً، بل بالغت في الأمر وبدأت أشرح وأوضح وأحلل، برغم أنه أمر طبيعي لأي "نائب"، أو حتى "طبيب امتياز" مجتهد، بعد كل تلك الشهور التي قضيتها. كان جلياً أنني أردت إثارة إعجابها كان الفرصة جاءتني ولم اكن لأتركها تمر. أستدرك نفسي حين أطيل حديثي – وأنت تعرف أنني أطيل في حديثي، هاهو خطابي إليك شاهد علي ذلك- وأقول أنها لابد وأنها بدأت تمل من حديثي الذي لا ينتهي، فتهز رأسها نفياً في إخلاص وتقول: "لأ خالص، دا أنا بالعكس.. !!" تقطع ردها بسكتة ذات مغزي وتبتسم في حياء خافضة نظرتها للحظة من فوق ساعديها المنعقدين أمام صدرها، ثم تستعيد ملامحها نمط الاستماع الشغوف وتحثني علي المواصلة وتذكرني بآخر جملة وبنفس كلماتي بالضبط وكأنها حفرتها في عقلها، فأطرب للخفر وللكلام وأواصل. نظرت لي بثبات وثقة في عيني مباشرة وتوقفت عن التراقص بنظرتها وأعادت خصلة ما للخلف. سألت

مباشرة: "وانت حتفتح المستشفي بتاعتك فين؟". سألتها بشكل أوحي لي بأن الأمر مفروغ منه، وأعارني ذلك في لحظة نظرة من منظور عالم آخر أحلم بالانتماء إليه، عالمها الراقي وطبقتها المترفعة التي هي الآن قاب قوسين أو أدني من راحة يدي لأطبق عليها وأظفر بها. هاهي تضحك لقفشاتي وتطرب لتعليقاتي وتمتدح ذكائي ومنطقي. غير أني لم أجد جواباً على سؤالها، تفاديت المسألة المادية والتناقض بين الحلم والواقع، بحثت فوراً عن العذر المريح كالعادة والذي لا يصمني بنقص، وقلت ما معناه أنه علي الانتظار لما بعد الدكتوراه ليكون "مسموحاً من الجامعة بشكل قانوني" أن أفعل، لكنها قالت في بساطة أن في "الإسكندرية" الناس "محبكينها" وأن القاهرة عالم آخر، هناك النجاح لشخص ممتاز وذكي مثلي مضمون. قالت لي أن أي "كلينيك" عايزة بس موقع معقول في "الزمالك" أو حاجة لطيفة كده و"الشغل بيجيب بعضه بس أهم حاجة إنها تكون منطقة شيك". كانت تضغط علي كلماتها عن ذكائي وتبتسم برقة وهي تمتدحني، وتقفز برشاقة من موضوع لآخر، تسألني رأيي وتوافقني عليه في حماس وتبدي إعجابها طول الوقت بتفكيري. بدأت تنظر في ساعتها وأعلنت أنها "لازم أمشي أحسن زمان بابي بعت السواق وواقف بره من مدة".. أعلنت لها أن الوقت مازال مبكراً فضحكت وقالت أنها لا تعرف كيف مر الوقت بهذا الشكل وأنها في انتظار توبيخ من أبيها. سألتني في مباشرة اهتز لها قلبي فرحاً: "انت دايماً بتاكل الوقت

كده؟". لم أعرف ماذا أقول فتمتمت في تردد: "مش دايماً، مع أصحابي بس". نظرت لي في دهشة وضحكت إذ أدركت ارتباكي وقالت :"طيب، "بُنسوَار" بقي يا دوكتور". خرج مني السؤال عن موعد حضورها إلى النادي مرة أخري عفوياً، استدارت مرة أخري وابتسمت ابتسامة الواثق وقالت: " مش عارفة، "بابي" يمكن يحبسني بعد التأخير ده". رفعت ذراعي بمسرحية وقلت ما معناه أنني أنا الذي في ورطة الآن لأنني السبب، والحبس ينتظرني أنا فقولي لأبيك انني سأظل هنا قليلاً إذا ما أرسل القوة للقبض علي، فليأتوا هنا مباشرة ولا يضيعوا وقتهم في عنوان المنزل وإيقاظ أبي وامي من النوم. ضحكت في جذل وقالت في تلقائية: "لأ، بَعْد الشر" ثم احمرت الوجنات هذه المرة ونظرت للأرض بيننا وقالت:" طيب أنا لازم أمشي بجد. لكن أكيد حيكون فيه فرصة تانية.. أصل أنا لسه ماسألتكشي عن مشكلة قريبتي، تصور بقي كلامك خدني ازاي؟".

عندما قررت أن أرتبط بها كان ذلك بعد فترة طويلة من لقاءاتنا المتكررة. "إسراء" أسرتني بهالتها التي دعتني لأن أطرق عليها فتظاهرت بأنها انكسرت، وبعالمها الذي دعتني إليه محمولاً علي أجنحة الترحيب وأسكنتني منه في الصدارة. عشت إحساس الاستحقاق وارتوت ثقتي الجدباء بمياه الأمل، حتى لم أعد أقبل فكرة التشكيك في أي شيء يتعلق بها، وأقنعت نفسي ومن حولي بأنها هي المناسبة لي ربما لأنني كنت أسعي وراء شيء آخر: تواقاً لمن تمتدح "سميع" موتسارت" بداخلي، ولم

أكن مع ذلك لأهتم بأي شيء آخر. كان ذلك عندما بدأت في التلميح لأمي وأختي تمهيداً لمفاتحة أبي في الأمر. بعدها بحثت عن "عزمي" كما أخبرتك فكان منه ما كان، لذا – ورغم أنني لم أود مفاتحته في الأمر من قبل كما أخبرتك – إلا أنني وجدتني أبحث عن "هريدي" لآخذ رأيه.

* * *

اقتادونا بعد اجتماعنا مع الرئيس "السمان" ومستشاره واللواء "أكرم" إلي غرفة جانبية، سلمونا فيها كتيبات فاخرة عليها شعار الجمهورية وعبارة الشهادتين، ومعنونة بـ"خطة توعية الملاحدة". قسمونا إلي خمسة فرق كل منها من أربعة أو خمسة أفراد، وخصصوا لكل منا فرداً يشرح لنا ما نفعله في ركن من الغرفة. بالطبع لم أتعجب أن كان مستشار الرئيس بنفسه على رأس مجموعتنا. قدرت أنه يتوق للحديث معي مثلما أريد التحدث إليه. أدار عينيه في وجوهنا وشرح تفاصيل كثيرة لكن عيناه كانتا دائماً ما تعودان لتستقرا على وجهي ويتبعها بابتسامة شامتة، أو بدت لي كذلك. عندما انتهى الاجتماع قامم الجميع للانصراف لكنه دعاني للجلوس معه على انفراد. بادرني عندما صرنا وحدنا بقوله: "طمئنني عليك؟ أخبار ابنك وزوجتك؟". ابتسمت وقد أدركت مراده وقلت في سماجة مقصودة: "اطمئن، كل شيء تم تدميره والحمدلله. زوجتي

تركتني وتزوجت بآخر، أما إبني فلم أره بعد. سأحاول الوصول اليوم إليه، أو غداً على أكثر تقدير".

ابتسم في تشف وقال:" ولماذا هذا العداء يا دكتور؟ صدقني لا أريد لك إلا الخير، ولو لم أكن أفعل لما اخترتك لمشروع الملاحدة. أهو، منه رزق وأنت الآن لا تحتكم على شيء، يعني لا مستشفى ولا عيلة ولا نفخة كاذبة، ومنه أيضاً نشاط اجتماعي مهم. أرجو ألا تكون متأثراً بالماضي بأي شكل من الأشكال. لقد كبرنا وصرنا ناضجين على مثل تلك المشاحنات والصراعات الطفولية، أليس كذلك؟ ولو لم أكن صافياً من ناحيتك، لما ضممتك إلينا. آه، على فكرة، الحاجة "ندى" زوجتي بتسلم عليك وتتمنى لك السلامة. طلبت مني ذلك خصيصاً عندما اتصلت بها منذ قليل، وحملتني السلام أمانة لك يا دكتور".

قال وهو يتابع البحث عن أية مظاهر للانهزام في ملامحي التي جمدت من هول المفاجأة: "وكما أقول لك دائماً، لا تحزن، ربنا أصله مابيرضاش بالظلم، ولا تقنت من رحمة الله، ومحدش بياخد أكتر من نصيبه، وإذا كنت أنت قد ظلمت، بحسن نية أو غير ذلك، أو أخذت حقوقاً فوق حقوقك، فلا تعتبر وضعك الآن عقاباً أو مأساة من نوع خاص، بالعكس، فربما جاءتك الفرصة لأن تصلح من كل ذلك، والمهم أن تخلص النية يا أخي".

لم أكن منصتاً كفاية لكلامه، ربما لأنني توقعت منه تلك الشماتة.

"ندى"؟ أعدت على نفسي اسمها متسائلاً.. كيف؟
كيف تركتها؟ والأهم هو كيف تزوجت غيرها؟
لازم تخلص النية!! حتى المعاني تغيرت في هذا العالم، وحتى الكلمات صارت أدوات لمآرب أخرى..
دائماً ما أعذب نفسي بنفس السؤال، لو كان هريدي معي الآن، لقال لي أن أهدأ، وأن لا أعير ذلك الـــ"حسام" اهتماماً. "بضهر إيدك وعلى وشه عِدِل، انت لسه حتفكر؟"، وكنا سنضحك كثيراً على كلامه وتعليقاته التي لا تنتهي.. لكن أين هو الآن؟

* * *

يوليو 1998، الإسكندرية..
"عارف انت ليه أنا كنت بقول عليك فرفور يا مصطفى؟"
كنا في يوم حار، متي بالضبط لا أذكر، لكنه كان بعد مصرع الأميرة ديانا بقليل. أعرف ذلك لأنه اتصل بي يومها قائلاً: "بذمتك سجلت الجنازة بتاعتها فيديو ولا لأ؟.. أيوه.. مانا بقول والله الوحيد من اللي أعرفهم اللي يعمل العملة دي هو أنت. طيب ماتجيب الشريط معاك؟ آه ما انت معزوم على الغدا عندي. ياللا بقى أنا جعت متتأخرش". كانت أحواله كما هي: يبحث عن عمل بدأب وجهد جهيد، يذهب للنادي قليلاً ليسلم علي الناس ويتعمد التأخير ليتفادي لوم أمه وسؤال أبيه عن الأحوال وعن نتيجة البحث. كنت علي انشغالي تصلني أخباره عن طريقه وعن

طريق آخرين، إلا انها تقطعت كثيراً في الآونة الأخيرة لعزوفه عن الظهور بعد آخر ليلة قضيناها سوياً والتي مازحته فيها بشأن الزواج. جال بخاطري أن يكون قد غضب مني أو أن أكون قد ظهرت بمظهر المستهتر بمشاعره، لكنني طردت ذلك الخاطر من رأسي وتذكرت عقلانيته واعتمدت علي الوقت لإذابة الموقف. اتصلت بمنزله فرد والده وما أن عرف شخصيتي حتي اندفع يهنئني بحرارة علي النيابة ويذكر فرحة "أحمد" بما حدث. غريب أمر من هم خارج مجالنا يا ولدي. نحن ننظر لنيابتنا أنها كابوس من العمل والكد والإرهاق وتحمل ما لا نطيق في سبيل أن نتعلم ونصير "شيئاً". "شيء" حاصل علي الماجستير ثم الدكتوراه، "شيء" يُدعَي عضواً بهيئة التدريس، يكتسب وضعه الاجتماعي و"نفخته" الكاذبة من عيون الآخرين المبهورة به وبكينونته، لكننا لا نحس بذلك من داخلنا أبداً. بينما تتجه عيون الناس نحو تاج العلم والتميز علي رءوسنا، تتجه قلوبنا نحو الكيانات المستقلة، مستشفي أو عيادة خاصة، يكذب عليك من يقول أنه لا يبحث عن ذلك، قد يصدق في مسألة إخلاصه في عمله، لكن تظل نسبة إخلاصه "الخالصة" من أي غرض دائماً موضع تساؤل.

دار ذلك كله في رأسي، وأنا اشكر والد "أحمد" الذي دعاني للمجيء فوراً لتناول الغذاء معهم. ذهبت متأخراً لخجلي المعتاد من مثل هذه الدعوات وجلست إلي صديقي في غرفته الخاصة بمنزله، جالساً القرفصاء على كنبته المزركشة

والمنقوشة بنقش يشبه "الكليم" البلدي، بجسده النحيل ووجهه القمحي المستطيل, ينظر إلي بنظراته المتوترة وعلي طرف فمه شبح ابتسامة، ويحرك ورقة سميكة للتهوية لنفسه من قيظ الحر رغم أن "المروحة" كانت دائرة طول الوقت, تحاول عبثاً أن تخفف من حرارة الجو لكنها هي نفسها تبدو وكأنها أصابها الدوار، وكأن الحرارة تصيبها هي نفسها بالتعب فتدور في إرهاق الثور المقيد إلي ساقية من سواقي المياه. أجلس قبالته في نفس الكرسي الوثير الذي اعتدت الجلوس عليه في جلساتنا سوياً منذ أن دخلت بيته لأول مرة.

_"ليه؟" قلتها وأنا أتعجل الإجابة لينتهي منها وأعود إلي مرادي، فقال بلا تردد وكأنه فكر في الأمر كثيراً، وهو يعد على أصابعه:

-"بص يا سيدي: انت مؤدب زيادة عن اللزوم ومحترم قوي، مبتحبش تشتم، مع إن الشتايم موجودة في قاموس اللغات علشان تسنخدمها على فكرة، لها وقت وتستخدم فيه، لكن حاقول لمين؟. لأ، ووشك بيحمر زي القوطة لما بنشتم قدامك. سجاير لأ، أفلام لا مؤاخذة "ثقافية" لأ، شيشة طبعاً لأ، ان كان انت ولا "محمد عزمي". طيب التاني دا متدين ومخه ضرب وهو اللي جابه لنفسه من أيام الجامعة، ومحدش فاهم له إخوان ولا إيه حكايته، لكن انت، لا إخوان ولا نيلة، وبعدين بقى نظام بابا وماما دا ماكانشي بياكل معانا. طبعاً إحنا كنا عيال بيئة

بنقول أبويا، وأمي، بالنسبة لك دا برضه شيء غريب، وبتعرف لغات قال وعامل نفسك بتاع.."

-"بذمتك يا شيخ؟ أنا كنت عامل نفسي بتاع برضه وكلام من ده؟"

-"الشهادة لله، انت متواضع. بس أنا شخصياً كنت شايفه تعليمات منزلية. يعني "بابا" و"ماما" بتوعك بيقولولك عامل الناس كويس يا حبيبي، حمادة يا إبني، مش معنى إن الناس دي أقل منك إنك تحسسهم إنهم زبالة ومن قاع المجتمع، خصوصاً صاحبك أحمد ده، اللي أبوه مدرس تاريخ باين ولا جغرافيا"

-"طيب ما أنا فرفور فعلاً"

قام من مكانه في حركة مفتعلة وهو يؤدي حركة رياضية بالقفز في الهواء ليستقر على الأرض أمامه بين الكنبة وبيني وهو يهتف في مسرحية: "الله أكبر.. عدالة السماااااء" ضحكت وقد فاجأني مرحه المفاجيء.. وقلت في عبث: "أنا مش قصدي كده يا متخلف انت ما صدقت؟. أنا فعلاً فرفور من وجهة نظركم، لكن كمالة الفرفرة مش عندي. أنا والدي ووالدتي.."

-"مين (والدي ووالدتي) دول؟ قرايبك ولا إيه؟"

_"بابا وماما يا خِفَة، بابا وماما، عرفتهم كده ولا لسه؟"

-"آآآآه، إذا كان كده كمل.."

-" بقول يعني هم ناس عادية جداً. أبويا أستاذ جامعة بس كلية نظرية من اللي مبيفتحوش عيادات ولا مكاتب استشارية. أمي موظفة كبيرة ويوم ما بتاخد علاوة بتجيب لنا هدية أنا

وأختي. كانوا فقرا وعلى قد حالهم ويوم ما ربنا غناهم. ربونا كويس وخلاص.. طلعوا إعارة صغيرة وخدونا معاهم وقالوا طز في الفلوس، بس العيال يبقوا تحت عينينا.. وآخرنا على فكرة بعد كل ده، نتجوز وشكراً على كده. خللي بالك، إحنا طول عمرنا مدارس حكومة، واللغات درسناها فيها برضه، على الوقت اللي كنت معاهم في ألمانيا أيام البعثة وشوية مجهود، عمري ماحفتح عيادة من فلوس أبويا، عمري ماحفتح مستشفى برضه طبعاً، لكن أنا فرفور فيما عدا ذلك، تحب أكمل لك؟ انت كنت فاكرني فرفور، لكن لما ابتديت أشتم وأسب وألعن لما أتنرفز بقيت انسان طبيعي، صح؟"

أخذ يتأملني في صمت، وسحب نفساً من سيجارته في هدوء، وقال وهو ينظر في عيني مباشرة: "انت عارف إني (مَدَب)، صح؟"

-"أنا أكتر واحد عارف"

-"وعارف إني بحبك طبعاً؟ ولا أنزل على ركبي وأقول لك "تتجوزني يا مصطفي؟ عشان أأكد لك ده؟"

-"انت كده بتقلقني على فكرة، قول فيه ايه؟"

-"بقلقك لأنك خايف أقول لك حاجة تصدمك عن رأيي فيك.. صح؟"

سكت وقد بدأت أفهم. قلت له في استسلام: "موضوع "إسراء".. صح؟"

-"صح.. صح يا معلم.. عارف كمان هقوللك إيه؟"

* * *

تذكرت في لحظة وأنا جالس مع "هريدي" في حجرته، كل ما حدث:

"طول عمري وأنا بسمع الكلام.. بس أنا ممكن مسمعوش علي فكرة.."

قلت هذا الكلام وأنا أرتعد.. لأن محدثتي كانت تنظر إلي في عيني في تفحص كأنها تريد ان تلمس حرارة روحي.. وتتأكد من صدقي.. تحركت عيناها في مقلتيها في توتر.. عيناها الزرقاوتين اللتيان تطلان كنافذة لروح هي أرق ما رأيت في حياتي.. "ندى" التي خفق لها قلبي وخفق لي قلبها منذ أول لحظة تلاقت فيها عينانا.. في مدرج كليتنا.. ساعتها ابتسمت في حياء وهي تطأطيء برأسها لتحتضن حقيبة أوراقها أكثر وتداري توترها حين لاحظت نظراتي التي أختلسها إليها.. نفس الابتسامة التي بادلتني إياها عندما بادلتها أول كلمة بعد إحدى المحاضرات وأنا أنظر في عينيها مباشرة وإحساسي بمن حولي ممن عداها يتلاشى والأصوات إلا صوتها يخفت: "انتي أخت أحمد هريدي.. صح؟"

لكن هذا ما كان ووَلَّي.. لكنها الآن تجلس أمامي وتسألني في صوت مرتعش:"يعني ايه يا مصطفي ؟ انت عايز تقول حاجة قولها؟"

توترت أكثر.. ربما لأنها فهمتني.. وقلت في ضيق: "أنا ممعيش فلوس.. بابا وماما مش هطلب منهم لأني عارف

هيقولوا ايه.. محبش أطلب ويتقال لي لأ.. أنا عاوز أتجوزك.. لكن بالوضع الحالي لأ.. يبقي انتي لو بتحبيني صحيح.. استنيني لغاية ما أقدر.. بلاش تسأليني كل شوية الأسئلة دي"

_"أستناك لحد سنة كام يعني؟"

-"لحد ما أخلص وأفتح عيادة"

_"طيب وليه منتجوزشي ونساعد بعض؟ هي كل الناس بتفتح عيادة الأول وبعدين يتجوزوا؟.. أنا مش عاوزة فلوس يا مصطفي.. انا هشتغل برضو ,انت.."

-"أنا محدش يصرف عليا"..

ساد صمت شديد الثقل.. مليء بالضجيج المكتوم.. مالبثت أن قطعته "ندي" وهي تهتف بالكلمات كأنها تريد الخلاص منها: "وأنا محدش يضحك عليا يا مصطفي"

صعقت لردها العصبي.. لكنها واصلت في غيظ وأنفها الجميل يزداد احمراراً: "مين قال لك إني بحبك أصلاً؟ مين قال لك إن معنديش كرامة للدرجة دي؟ ماتقول إنك غيرت رأيك.. هو أنا يعني هموت من غيرك؟"

طوحت الأوراق التي بيديها في الأرض واندفعت مبتعدة.. كانت متناقضة كأي أنثي أحست بكرامتها على المحك.. هي تحب حبيبها وتكره تردده.. تكره عدم ثقته بنفسه.. تحب عزة نفسه مع غيرها وتكرهها عندما يكون معها.. تراه رجلاً حاراً قوياً لكنها تريده في أحضانها صبياً لا حيلة له سوى عيناها.. ينكسر عندما ينظر إليها ويهبط تحت قدميها في ضعف.. فتستعذب أن

تستنهضه ليعود القوي الذي يملأ حياتها ويدعمها.. لا أمل له إلا حنانها ولا ملجأ له إلا إليها.. أمسكت بذراعها.. لكنها تملصت مني في خفة وهي تقول: "مصطفي.. سبني.. إحنا في الشارع.. مصطفي أرجوك..".. انخفض صوتها في حنان وعيناها الدامعتان تنظران لي في ضراعة وحزن أفزعاني.. تركت ساعدها وأنا أحس بثقل يجثم تدريجياً على صدري. كنت أرى كل شيء لحظتها بشكل آخر: إلحاحها أراه ضغطاً، ظروفي أراها مقنعة، عيناها الدامعتان أظنهما بوابة العودة إلي أحضاني ووثيقة الاستسلام لشروطي، فقط عليَّ أن أثبت على موقفي فتنفتح البوابة ويتم النصر. لحظتها قررت أن أظل ثابتاً على رفضي، وعلى ترتيب أولوياتي. قالت لي مراراً أنني أهم من لديها في الكون، لكنني طربت لذلك ولم أفهم أنها تستغيث، أنها تستصرخني لكي أرد عليها بمثل حبها أنهاراً، قالت أن مستقبلي أهم لديها من نفسها، لكنني صدقتها ولم أفهم أنها تعني مستقبلنا معاً. "ندى" كانت حبي الأول، متكئي الذي استعذبت لجوئي لشاطئه كلما تقطع لهاثي من تحريك ذراعي بين الأمواج. أستريح في أحضانها وأملأ قلبي بدفء كلماتها، ثم أعود لأواصل السباحة بطاقة جديدة. لكنني اعتدت وجودها حتى لم أعد آبه بها، ارتحت إلى جوارها مرات عديدة لأواصل سباحتي حتى ظننت أنها تؤدي عملها، نسيت ماذا أكون من غيرها واعتبرتها مسلم بها. لم يكن موقفاً عابراً من تلك المواقف التي تمر على العشاق مرور الكرام، لم أرها ثانية وكنت أكثر عنداً

وحماقة من أن أعتذر أو أعترف برعونتي. ولم أكن أعلم أنها لحظة سوف أندم عليها لفترة طويلة..

* * *

عدت بأفكاري لجلستنا، فإذا بهريدي يميل للأمام نحوي وهو يقول: "بص يا مصطفي، إحنا طول عمرنا إخوات، ومهما حصل بيننا أنا وأنت فاهمين بعض كويس، يمكن اكتر من أهلنا ما بيفهمونا. علشان كده أنا عايزك تفهم كلامي من غير ما تفكر كتير في ايه اللي وراه ولا انا حاخد عنك فكرة شكلها ايه ولا كل العك اللي بييجي في بالك ده، مش أنا يا مصطفي اللي افكر فيك كده. عايزك كمان ماتحطش موضوعكم انت و"ندي" في بالك. "ندي" أختي صحيح، وإللي يزعلها يزعلني، بس أنا لما أزعل، بزعل علي زعلها هي، مش بزعل منك، لأنت انت مش النوع اللي يلعب ببنت، ولا النوع اللي بيكون بيحب وهو ناوي علي الغدر. انتو الاتنين إخواتي وانا عارف إن إللي كان بينكم كان جد، مش هزار ولا لعب، وإنه ماتمش، دي بقي حاجة بتاعة ربنا، انت حتتعلم منها وهي أكيد حتتعلم كتير. واحد غيري كان ممكن يقوللك انت الخسران والكلام العبيط ده، لكن الحقيقة ان انتو الاتنين خسرتوا بعض، فيه حاجة في الكيميا ماكانتش ماشية، هو شيء نادر بس بيحصل ان اتنين زي الفل وبرضه مايتفقوش". كدت أقول له أنه لم يفهم ماذا حدث، وأن "ندى" لم تقص عليه ما كان بيننا كاملاً، لكنني خشيت من أن أقلل من قدري في نظره إذا علم كم وضعتها على هامش حياتي،

واستكبرت أن أخوض في الأمر وأوغل فيه ثانية ومعه هو بالذات، وأنا على وشك أن أصير لفتاة أخرى. لكنه تابع وكأنه لم يقرأ أفكاري وقال: "ده مش تبكيت ولا تقليب مواجع، أنا بس عايز أقول لك إن أسوأ شيء ممكن يحصل لكم إنكم تتكسرو، عارف يعني ايه تتكسر يا مصطفي؟ يعني تحس إن اللي بتحلم بيه راح خلاص وإنك مش ممكن مهما عملت حتعوضه، فتبدأ تدور علي حاجة تانية خالص وتقتنع نفسك إن ده هو اللي انت عايزه. أنا كان نفسي اشتغل في الهندسة، تخصصي للاسف مش مطلوب كفاية، إللي له واسطة أو حظه من السما – مش من الأرض زيي – هو اللي بيشتغل في شركة بترول ولا حاجة أجنبي ويتنغنغ، والباقي مننا بيشتغل شغلانة تانية. محاسب بقي ولا موظف ولا سكرتير ولا يروح يشتغل في الخليج. بس مش ده اللي أنا عايزه يا مصطفي. انا مش عايز كده يا أخي!! مش لازم أسيب إللي أنا عايزه وأنط في اول طيارة وأهج من البلد، ولا أول شغلانة وأقول أهي شغلانة والسلام. حترسي علي ايه؟ معرفش. بس أنا حعمل إللي أنا عايزه، بالذوق بالعافية حكون إللي أنا عايزه. انت كمان يا مصطفي، خسارة ماتكونشي اللي انت عايزه. واحد غيرك البنات كانت بتترمي تحت رجليه، وهو اللي كان منفض، مايعملشي اللي انت بتعمله ده. طيب شيل من دماغك إني أخو "ندى" شوية كده، وفكر، بس بينك وبين نفسك: انت ناقصك إيه بذمتك؟ محترم ومستقبلك كويس، مؤدب وابن ناس، ذكي ومتحدث. خايف من إيه يا مصطفي؟ مش واثق

في نفسك ولا مش واثق في ربنا؟ يا عم مش كل حاجة "ذاكر تنجح". فيه حاجات مش لازم تتحسب كتير قوي كده. يا أخي بكره تلاقي كل اللي انت عايزه وتلاقي البنت اللي انت عايزها، ماتبيعش حلمك يا مصطفي عشان تشتري راحة بالك وتنقي جوازة زي ماتكون بتنقيها من الكتالوج"

-"ما يمكن أنا بحب "إسراء" طيب؟"

-"انت بتحب انك تكون بتحب. بتحب إنك تكمل الصورة. أنا فاهمك يا مصطفي كويس وانت عارف. الصورة ناقصها البنت الحلوة إللي مافيش زيها. علي فكرة كلنا بنكون عايزين كده.. اوع تفتكر إن انت بس اللي بتدور علي المثالي. ما كلنا عايزين أحسن حاجة؟ بس البنت بتخش قلبك الأول، وبعدين بييجي اقتناعك بيها، مش تقتنع نفسك بيها وبعدين تحبها. وده إللي بيعمله مين؟ واحد زيك، أي بنت تتمناه!! ده بدل ماتصبر وتحط رجل على رجل وتنقي إللي مزاجك ييجي عليها؟ ولا انت لما بِعت الحلم، قررت تبيعه غالي؟ عيلة ونفوذ وضهر يسندك؟

-"أنا مش قصدي حاجة من دي خالص يا أحمد"

- "ماتقوليش مش ده اللي في دماغك. لو بيتهيألك كده فعلاً، يبقي فكر تاني علشان انت الكلام بيدلدق منك طول الوقت بس انت مش حاسس. أظن مانتش بتفكر في المستقبل والمستشفي والشغل والكلام ده؟ ما انت لسه فاتح السيرة دلوقتي، عارف اتكلمت في الحكاية دي كام مرة؟ ومتقوليش أصلي كبرت واتخرجت وفهمت الحياة وصعوبتها، لماذا لم تفهم

أيضاً بالمرة أنك لا تحتاج لأحد يساعدك في أي حاجة من دي. حتيجي لوحدها يابني اسمع الكلام.. وإوع تفتكر إن ده آخر تمن حتدفعه. هذه الأشياء لا تأتي فُرَادَى، إنما تأتي معها دائماً مُنَغِّصات، لا تدري من أين جاءتك"

كنت أحملق فيه مذهولاً وأنا لا أعرف - ولا أريد - مقاطعته. صدمة حقيقية ألجمتني عن الكلام، كأنني أدرك بجزء مني، دأبت على كتم صوته زمناً، أنه صحيح. لكنني ظللت هادئاً. سكت، وواصلت سكوتي أنا أيضاً. وضع يده علي كتفي وقال في تأثر حقيقي: "ماتزعلش من كلامي يا "مصطفي". أنا عارف إنك ممكن تتضايق، بس ده أحسن ماتتضايق بعد كده طول عمرك".

كانت لحظة أخرى من اللواتي ندمت عليهن كثيراً. ليس فقط لزواجي بعدها من إسراء.. لكن لما حصل بعدها بسنوات. يومها تذكرت كلام هريدي وجملته التي ترن الآن في أذني وأنا أكتب إليك هذا الكلام: "هذه الأشياء لا تأتي فُرَادَى، إنما تأتي معها دائماً مُنَغِّصات لا تدري من أين جاءتك".

* * *

كانت هذه هي ندى، التي صارت الآن الحاجة ندى..

كانت هذه هي "ندى"، التي رفضت "محمود السمان" يوماً لخشونته، ولأنه "صعيدي قِفل"، وألقت الأوراق في وجه حبيبها وصديق أخيها الصدوق، لأنه أجبن من أن يغامر معها بحياة لا يملكان فيها سوى قلبيهما، ولأنه وضع حبها بعد

طموحه ونجاحه.. بينما أرادت هي أن ينظر إلي اختياره لها على أنه نجاحه..

هذه هي الحاجة "ندى"، التي صارت زوجة هذا السمج، وداعية للفتيات الملحدات..

كيف حدث ذلك ومتى؟

أصر "حسام" على الخروج معي إلي بوابة القصر. مشينا في تؤدة فسألني كأنه يريد تغيير الموضوع أو كأنه يتعمد قطع حبل أفكاري: "هل استوعبت مهمتك جيداً؟ عموماً سيكون لديك وقت طويل لقراءة الكتيب، كما أننا سوف نبدأ العمل في الغد بعد العصر. ستمر عليك سيارة "جماعة الحق" بمنزلك، وسيكون لديك مندوب من طرفنا بداخل بيت الملاحدة، سيتولى إرشادك. جو المحاضرات ليس غريباً عليك، كما أنني أعلم كم أنت مقتنع. لا تخش شيئاً".

توقف عند باب القصر وسألني بوجه حاول جعله غير مبالٍ: "صحيح: هل عادت إليك ذاكرتك كاملة الآن؟ سمعت من الأخبار أنك كنت تشكو من ضعف في الذاكرة عندما استيقظت، هل هذا صحيح؟". قالها وابتسم فأصابني الضيق من تلميحاته ونفضت عن نفسي هدوئي إذ قلت في نفي قاطع: "أبداً. غير صحيح. يبدو أن الإعلام لا يزال يبالغ كعادته، هناك أمور لا تتغير من زمان أو مكان لآخر. هل لي أن أعلم لماذا تسأل؟"

أجاب في تلقائية وهو يهز كتفيه: "مجرد اطمئنان عليك. نحن زميلان قديمان قبل كل شيء. أعلم أنك قد تظن أنني مازلت

ناقماً عليك. لكنني أريدك أن تنسى ذلك وتعتبرني صديقاً لك قابلته في ظروف مختلفة. حاول أن تسترخي وتهديء من أعصابك حتى الغد. ستحتاج إلي تركيز كبير في خطابك لهؤلاء الشباب. أتمنى أن تحوز ثقتنا في ذلك، ولا تنس أنني أراهن على قدراتك أمام الرئيس."

ودعته في برود واستدرت لأخرج من القصر..

لكن السؤال ظل يلح عليَّ..

لماذا يتصرف الجميع وكأن كل ذلك أمر طبيعي؟ ما الذي حدث للجميع؟ إسراء، هريدي، عزمي، ندى، حسام، محمود..

لكنني كنت لا أعلم ما أنا مقبل عليه بالضبط.. لذلك، وكالأطفال كما قلت لك، واصل عقلي استكمال الصورة، باستحضار مزيد من خلفياتها المختبئة في مؤخرة ذاكرتي..

* * *

الإسكندرية عام 1999

جرت الأمور بعد ذلك بسرعة. كل لقاء مع "إسراء" كان يبعدني أكثر عن مخاوف "هريدي" وكلام "عزمي"، ويزهدني أكثر في امتعاض أبي الذي أبداه حينما أخبره أحد "عصافير" أمن الدولة المعروفين لديه في الكلية بأن "الباشا الصغير شايف سكة مع الناس الكبيرة" وأفهمه باقي القصيدة. تعددت اللقاءات و"الصدف" المحسوبة حتي صرنا بغير حاجة لوساطة زميلتنا الباطنية وبغير حاجة إلي "حساب" الصدف. بل صرت أخبرها

بموعد انتهاء النوبتجية فتنتظرني في النادي وقت الشمس المحرقة في الظهيرة، نستغل خواء المكان إلا من بعض العمال الفضوليين الذين كانوا يرمقوننا في دهشة من الموعد ومن منظر إسراء المتحرر قليلاً. آخر مرة رأيت زميلتنا الباطنية بعد ذلك كانت عندما قابلتها في المستشفي وهي تستصحب مريضة بالضغط الحالي مع الحمل إلي قسمنا لطلب المشورة بشأن العلاج. ابتسمت لي ابتسامة واسعة وسألت في فضول أمقته عننا وعن "الأخبار الحلوة" المزمع سماعها قريباً، لكنني ابتسمت رغماً عني، وقد أدركت أن الريح كما تنقل الخبر في اتجاه فإنها تنقله في عكسه. اعتبرت هذا دليلاً آخر علي أنني ذو تأثير حقيقي علي مشاعر محبوبتي، وزاد ابتعادي عن كل الآخرين. عندما دعيت لحفل عيد ميلادها، كنت الشاب الوحيد، عدا أصدقاء أخيها، الضباط الصغار المتغطرسين الذين كانوا يرمقونني بين حين وآخر بنظرات تفيض بالفضول المشوب بالترقب. رأيت ليلتها كل ما يخطر علي بالنا وقتها عن "الأثرياء" الذين يعيشون في عالم آخر لا نعرفه: بدءاً بـــ"البوفيه" المفتوح غير المبالغ في الكميات والذي أعددته أمها بمساعدة جيش الخادمات، مروراً بفقرة "البيانو" وعزف "إسراء" عليه وأمها تختلس إليَّ النظرة الفاحصة المرتابة إيَّاها بين حين وآخر وكأنها تسائل نفسها عن اختيار "إسراء" الآتي من عالم آخر، تُنكر عليَّ بلا كلمات استنشاقي معهم نفس الهواء، أو كأنها تنتظر مني أن أحزم وسطي بنطاق وأرقص

لأني لا أفهم في هذا النوع من العزف مثلاً، وانتهاء بالكتابة في دفتر أنيق للذكريات لتسجيل ذكرى المناسبة. لكن أبي وافق علي الخطبة، أو بالأحرى لم يرفض. بعد جهد جهيد من أمي وأختي، هل آثر مرة أخري ألَّأ يكون هو "الوحِش إللي في البيت؟".
كانتا تريان في ذلك الارتباط خطوة "شيك" ولامعة، لكن أبي كان يري أن "هؤلاء أناس غيرنا، أنت تربيت بشكل معين، وهم تربوا علي عكسه. مهما بلغ غضبك من إنسان فأنت لن تسعي لإيذائه ولا الاصطدام به، أمَّا هم، فلن يتوانوا عن سحقك إذا غضبوا عليك لو أوتوا الفرصة، لكنك تنظر فقط إلي ما سيساعدونك به إذا ما كنت صهراً". كان هذا الكلام في نظري وقتها مثل وضع الذبابة في الحساء. شيء مبهم يُفسِد الطبخة، وكفي. تخوف زائد من أبي، لا مبرر له كما حسبت. ارتديت ثوب المنطق، فطلبت تحديد اعتراض وجيه واحد كي أناقشه، لكنه غضب ولم يرد. لكنني أساساً لم أكن مستعداً لا للنقاش ولا للاقتناع، لكنني كنت أؤكد لنفسي أنني مُحِق، وأن أبي يُغضِبُه فقط أنني أختار بنفسي، أنني خرجت من إهابه، أو هو علي أقل تقدير لا يُحسِن القياس هنا. كفاني انسياقاً، أنا أعرف أكثر بكل تأكيد، هي حياتي وهي فتاتي، وهي رائعة وكفي، وهم أهلها وسأصير ابنهم ولست "خالق مشاكل"، فماذا عساه يصير؟.

* * *

تلا ذلك خطوات كثيرة ومحطات لا داعي لذكرها هنا. مواقف عديدة كان يمكنني – وكان يجب – معها أن أنهي خطبتنا

التي تمت في حفل أسطوري، مبكراً. كانت الهوة بين العائلتين تزداد مع كل موقف، ناحية تتكبر بلا مسوغ سوي السلطة وإحساسهم بالعظمة لسبب ما، وناحية تتعامل باندهاش ثم تجبرها جروح الكرامة وليدة التجاهل أو السخافة المحسوبة أو الصمت موضع الرد أو غير ذلك، علي اتقاء ذلك بتغليظ "القشرة" التي تتدثر بها عفويتهم، وعلي الكثير من الغليان بعد كل لقاء وكل موقف. كانت أمي وأختي تعربان عن ضيقهما في هدوء حتي لا يغضباني، يزينان كل موقف ويبديان لهم الأعذار، أو يركزان من اعتراضهما علي شخصية أخيها "السمج"، ينهيان كل نقد بتغليظ التنبيه أن عليَّ إصلاح ذلك الطبع أو ذاك بعد الزواج: "بعد الجواز حتبقي في بيتك وابقي فهمها نظامك ومتخليش أي حد يتدخل بينكم". أتخوف من كلامهما فيسارعان بطمئنتي، يعددان مزاياها وأدبها وأناقة ذوق أمها. أما أبي فهو صامت. يزفر في ضيق ويكرر "ربك يقدم إللي فيه الخير". كان قد حاول الثورة علي هذا الطلب أو ذاك مما تطلبه الخطيبة لجهازها لكنه تعلل بفداحة التكاليف. أري اليوم أن اعتراضه كان علي أشياء أخري، لم أفهم وقتها ما قاله: "ماتقبلشي إللي ماتقدرش تقبله بعدين".

أما "إسراء"، فبدأت أري من جانبها أموراً جديدة لم أرها من قبل. اللياقة في التعامل والرقي في الحديث حملت معها متطلبات جديدة عليَّ. كانت تصمت ثم تبدي ملاحظات أنيقة عن كلامي الذي لم يراعِ شعورها، أو موقفي الذي لم يحمل اللهفة

المطلوبة من خطيب تجاه خطيبته، أو ربما مظهري الذي "يمكن أن يكون أفضل"، أو ما كان يجب أن اقوم به في هذا الموقف أو ذلك. كنت أتقبل هذا الأمر بصدر رحب رغم الدهشة، فقد كنت أعرف أنني بلا خبرة في التعامل مع البنات، بل إن تجربتي الوحيدة أفسدتها بإصراري علي رأيي إلي النهاية. نحيت إذن عندي وشعوري بأني بالفعل متميز جانباً ، فكنت مع إسراء أثمن رأيها، وأعزي نفسي بأن طريقتي غير اللائقة معها – وكانت تسميها كذلك – هي لابد ميراث عن أبي، حاد المزاج والذي لا يقبل المناقشة ولا المراجعة في شيء. أسلمتني تلك القناعة إلي التصديق فالرضوخ، ثم إلي الجد في "التغيير" والحرص عليه. حاولت أن أكون أفضل. نظرت لوالدي ووالدتي فحاولت أن أري عيوبهما بعد أن تخلصت من نظرة الأطفال لآبائهم وأمهاتهم. حينما تكبر يا ولدي فلن تري أبيك أو أمك كما كنت تراهما في صغرك: لا يُخطئان أو لا يأتيهما الباطل من بين يديهما أو من خلفهما. ستري إنساناً له ميزاته وله عيوبه. له مواقفه التي تفخر بها وله سقطاته المخزية. ساعتها اعلم أنك نضجت، وأنك تجردت من النظارة التي ألبساك إياها، لكن تذكر، أنهما ما فعلا ذلك إلا بدافع حبهما غير المشروط لك، وخوفهما غير المحدود عليك. ساعتها اعلم أيضاً أنك لن تعود سيرتك الأولي أبداً، وأنك فقدت البراءة التي عليها نشأت والعفوية التي بها عشت زمناً. سيعطيك هذا شعوراً بالقوة، لكنه سيسلبك في ذات اللحظة شعور الاطمئنان إلي ظهر تلتجيء إليه، أو حجة تتذرع بها. كانت

لحظتي تلك تولد إلي الحياة مع خطبتي إلي "إسراء"، وتزامنت مع ولادة لحظة أخري اكتفي فيها أبي وأمي بما حققاه معنا: "لقد ربيناكم وكبرنا معكم، وانت الآن مسئول عن نفسك، فما تراه مناسباً افعله" قالتها امي تشجيعاً لي علي حياتي الجديدة، وقالها أبي بصمته فسجل تلك اللحظة في لوح من الفخر في عقلي وقلبي، ولم أكن أعي أنه ينعي لنفسه فترة كنت فيها تحت جناحه وكان هو في ظهري. ومع انسحاب "ظهري" تحت وطأة تسارع الأحداث، أو رغبة في أن ينأى بنفسه عن إفساد حياتي دون أن يقصد، بدأ الأمر كله: رأيت في كلام "إسراء" ما فتح عيوني على ما كنت أظنه مزايا في نفسي، ما كنت أظنه شخصية جذابة، وموقفاً، وطعماً خاصاً بي، وعلي أبي وأمي وما كنت أظنه سندي وكتابي الذي أعود لأراجعه، فصرت أستلهم منها الصواب، أراجع كتابها، وأنزع صفحات كتابي فأمزقها غير آسف، ثم أخفي ذلك كله عن أبي وأمي. كنت أبذل مجهوداً لأقنع نفسي بكل ذلك رغماً عني. ولماذا رغماً عني؟ هل كنت أبغي "المثالية" كالعادة أم أنني كنت أتفادي حقيقة أنني ومهما فعلت فسأكون نسخة جديدة؟ تغافلت عن ذلك كثيراً لكنني فهمته يوماً ما. كنت أظن أنني بذلك أتغير للأفضل، أصير "أنا" الجديد، غير واعٍ أنني أصير "أنا" لن أفهمه، "أنا" لن يشبهني في شيء، بل وسيسعدني يوماً ما أن ألصق به عاقبة كل ما جري.

أقول أنني حاولت أن أكون أفضل. ألزمت نفسي منذ زمن بأن أكون وسطياً، لكنني جنحت كالعادة إلي أن أكون غير أبي

في علاقتي بزوجتي، فصرت العكس، تعللت بكظم الغيظ وبفضل التسامح في غير موضعه. لكن كلاهما كان العَرَض وليس المشكلة. فقد كنت علي ذلك كله يضيق صدري أحياناً فأثور وأرغي وأزبد، فيذهل من حولي ويتهمونني بالتسرع. المنصفون يتأملون كيف أسكت طويلاً ويتفهمون، بل ويصمونني بالتهاون في حق نفسي أكثر من اللازم. هكذا كان حالي مع "إسراء" أيضاً. كنت أصبر كثيراً من باب أن أكون مختلفاً، لست أنا الذي أثور هنا ولا أنا من ينفجر فينفر من حولي مني. "رفقاً بالقوارير"، و"استوصوا بالنساء خيراً" ووصايا الأب الفرعوني لإبنه عن "تدليل" زوجته، أمور كانت كلها حاضرة في ذهني بجلاء، معظم الوقت. قلت لنفسي أنه "ليس القوي بالصرعة، إنما القوي من يملك نفسه وقت الغضب" لأقنعها بأني سأكون أفضل من أبي، فاتني أنني بهذا الاقتناع سلمت دون أن أدري بأنه لم يكن "قوياً"، وأنه كان هشاً من داخله يخفي خوفه علينا تحت ذلك الإهاب السميك فلم يتناقض هذا مع ذاك، ربما كان الحل في تقليل سمك القشرة لنري من خلالها ما استغلق علينا ملمسه. لكنني اخترت كبح السلوك وتشذيب الأشواك، وفاتني، أن ذلك أوحي لمن حولي دائماً –عكس ما أردت - بأنني "ضعيف"، فلم يروا مني أبداً غضباً ولا حدة. تخسر الكثير عندما يظنونك ضعيفاً، لكن أكثر ما تخسره، أن تصدقهم. هذا أشد ما آلمني، كما ستري. هكذا أفضت بي رغبتي في التميز والتفضل – مشكلتي الحقيقية - إلي قبول

الكثير الذي لم أهضمه فيما بعد، وأودت بفرص عديدة تمنيت بعدها لو عادت، لأسلك الطريق الصحيح، أنا الذي أخشي الفشل والندم، ندمت علي الكثير في حياتي.

ثم جاء ذلك اليوم!

جاءت مشرقة متألقة اكثر من المعتاد، قالت لي أنه "أخيراً، "بابي" سينقلونه إلي مصر مرة أخري!!"ن ابتسمت كالأبله ثم تنبهت. لكنها كانت قد أعدت العدة لكل شيء. أخبرتني أن أباها قد اتصل ببعض الأشخاص، وأنه سوف ينقلني بدرجتي المالية إلي القصر العيني من أول السنة!! أمر مستحيل عملياً، لكنه أنجزه باتصال تليفوني!! بدأت تحدثني عن الفيللا التي باسمها في المعادي، وعن أثاثنا الجميل الذي سوف ننتقيه معاً، عن المبني الذي يصلح كمستشفي خاص، والذي بناه أبوها وأعمامها منذ سنوات وسيكون مكاني "اللطيف" الذي ذكرته لي منذ أول يوم تحادثنا فيه. تناقشنا كثيراً وأبديت ضيقي لكن حججي كانت واهية كأنها تستدعي ردودها الناجزة تلقائياً: "يعني إيه مستقبلك، ما انت حتشتغل دكتور برضه هناك؟ يعني إيه اتعودت علي هنا؟ بلدك يعني إيه هو إحنا مسافرين أمريكا؟ وفيها إيه لما البيت يبقي بتاعي؟ طيب يعني "بابي" يجيبلي بيت وأنا أقول له لأ؟ طيب لما يبقي معاك فلوس هاتلي بيت واتنين، أنا مابيهمنيش الحاجات دي، لكن كمان نسكن فين في مصر؟ مصر غير إسكندرية، إذا بحثنا عن سكن آخر لن نجد مثل هذا الحي ولا المستوي إلَّا بسعر خيالي، أنت دكتور ويجب أن

تسكن بمكان يليق بك، انت مش أي حد لسه بيبتدي حياته!!!"
وفي كل مرة يتكسر غضبي علي صخرة منطقها فتتبعثر أفكاري لأعود وألملمها في هجمة جديدة. كنت أتفادي السبب الحقيقي: سيثور أهلي بعنف. "يعني كده خلاص حتتغرب ومش حنشوفك إلا في المناسبات؟ ده إحنا مش بنشوفك هنا؟" قالتها أمي وهي تغالب البكاء بينما شحب وجه أختي وهي تنقل بصرها بيننا، وتشير لي بعينيها أن أتراجع عما في رأسي، لكنني لم يكن لي خيار. لكن كيف لي أن أتراجع بحجة أن أهلي لا يستسيغون الأمر؟ كأي طفل صغير خائب؟ دحض حجتهم أسهل من مواجهة "إسراء" بذلك، والخياران أسهل من مشاكل تنتهي بأن نصبح قصة أخرى تلوكها البنات ويتشدق بها الصبيان عن "الفركشة" والخطوبة التي "فُسِخَت". أبي صمت لساعتين ثم قال لي علي الغذاء وهو يتحاشي النظر إليَّ: "البنت دي حتسقيك المُر يا مصطفي. أنا قلت لك وماليش دعوة. أنت حر". صمت وأنا أبتلع طعامي بصعوبة، لكنني عدت للعناد والتأكيد بأنها كلها أمور عادية وأنا كفيل بها.

لكن أموري تدهورت فجأة في العمل!

كان من الصعب أن تتفهم "إسراء" مسألة إرهاقي الشديد بعد النوبتجيات. كيف لا أنام يومين أو ثلاثة متصلين، كيف أقضي ثلاثة أرباع وقتي وأصرف نصف تركيزي على الأقل في ضبط الأوراق الرسمية وكتابة "تذاكر" المرضى لئلا أرتكب خطأً إدارياً يهدد مستقبلي، وكيف أخرج بعد ذلك الشياط في

أعصابي مرهقاً مكدوداً. لذلك انتظرت هي أن أكون مرحاً، ودوداً في كل لقاء. كانت شجاراتنا خفيفة في البداية لكنها بعد قليل لم تعد تنتهي بابتسامة أو مزحة من هنا أو هناك، وصرنا كثيراً ما نفترق مغاضبين فتنقطع صلاتنا. كنت دائماً ما ابدأ بالاتصال بها فلا ترد مكالماتي إلا بعد جهد جهيد، ثم تزعم أن هذا طبيعي، "انت مش مزعلني؟" تقولها ليس بدلال أو برقة، لكن بغضب يستمريء دور الضحية المظلومة، ويستعذب اللوم. جربت أن أقوم أنا بدور المغاضب، فتكشف لي ما سوف يكتشفه كل رجل مكاني فيما بعد عن محبوبته: أنهن لا يُخطئن. لكنني كنت أعايش الأمر لأول مرة. بدأت في أعماق نفسي تتشكل أسئلة كثيرة: هل هذا عادي في أي خطبة؟ هل هو أنا أم هو طبعها؟ "كلهن كذلك" قالها "هريدي" وهو ينفث دخان سيجارته في هدوء وبثقته المحببة التي تجعلك لا تراجعه وأنت مطمئن النفس، "أنا أرحت وارتحت، عندما أجد عملاً سوف أسعى في هذا الأمر وأشتري صداعي بنفسي. أما الآن فيكفيني صداعي الخاص"، قالها وضحك في مرارة. لكن أسئلتي تفاقمت وأخذت تدق على رأسي بطارق عنيفة في قسوة. كلهن كذلك؟ ولماذا تكتمل الزيجات إذن؟ ما الذي يجعلك تتمسك بمن معك حتى النهاية؟ أعود للسؤال الأصلي: هل هو أنا؟ أسأله وأعيد وأزيد على نفسي الإجابة بالإيجاب الحذر، لكنني أتفادى السؤال الذي يختبيء بين العشب ووسط غابات فكري: هل يا ترى كانت هي لتكون كذلك؟ كنت لأتحملها في أية حال، ما حدث بيننا كان شيئاً

عابراً لكنه تفاقم بالعناد حتى انفصمنا، لكنني لم أشعر أبداً بأنه انتهى فعلاً. لم أعد أصرح باسمها بيني وبين نفسي أبداً.. لكنني لم أنسها. "ندى" كانت لتفهمني وأنا على تلك الحالة، كانت لتطوق صدري بحنو قلبها وشذا كلماتها الرقيقة عني وعن حالي. سنوات ثلاث مرت منذ أن طوحت أوراقها في وجهي واستدارت حانقة. ثلاث سنوات لم أنس غضبتها ثم دلالها حين الوصال، وأتشاغل عنها بأي شيئ آخر. أترقب أخبارها بنصف عقل، وأسأل عنها عيون الزملاء بنصف قلب، أتطلع لوجه هريدي إذ يأتي على ذكرها عابراً ثم يكمل حديثه فتكون آخر كلمة أسمعها قبل أن أغيب بخيالي إلى ذلك اليوم الذي استدارت مبتعدة عني وتركتها تذهب. ثم أتشاغل وأنسى ثانية. لكنني وجدت أنني لم أتشاغل ولم أنس. أتراني كنت أتشاغل عنها ثانية بإسراء؟ ماذا لو أنني أكملت طريقي معها؟ لو كانت "دبلتي" زينت إصبعها الرقيق بدلاً من غيرها؟ أنا الذي أفسدتُ قصتنا، لا شك لدي في ذلك، لكنني قلت لنفسي في لامبالاة أنها كانت لابد وأن تصبر، أن تفهم أكثر، أن تحنو عليَّ أكثر. لست مِمَّن يُلقُون بكرامتهم وكبريائهم جانباً ليسارعوا وراء حبيبتهم فيسترضون ويراضون، أنا خلقت كذلك وهي تعلمه. لكنني بعد هذه السنوات، قبلت بما لم أقبل به وقتها، ها أنا ذا أساق إلي زواج بدون انتظار لتأسيس مستقبلي كما كنت أقول. ها أنا ذا أقارن طول الوقت بينها وبين "إسراء"، كلما ألمحت هي إلي كلمة لم تعجبها أو تعليق "غير لائق"، أو انتابني ضيق صدر عجزت

عن كتمانه فأحلت لقاءنا إلي الشكوى والنواح فلم تتأثر ونهرتني بأدبها عن الشكوى لأنها، مرة أخرى، لا تليق، أو حتى لو أسهبت في أمر ما أكثر مما احتمل صبرها. زاد ضيقي من العمل من عدم احتمالي لأي توتر زائد، وضاعف من عدم قدرتي على أن أكون "لطيفاً" كما تريد هي. تعطلت أحوالي بالعمل وتم تأجيل مناقشة رسالة الماجستير أكثر من مرة. تأجيل وتعديل هنا وهناك، وأعصاب تحترق في القسم وفيما يفترض به أن يكون وقتي الخاص مع حبيبة تفهم الحب من منظور لا أراه ولا ألمسه. كنا على هذه الحال منذ فترة، لكن انتهائي من الماجستير كان مرهوناً به انتقالي للقاهرة، ومن ثم زواجنا. لذلك كان التأجيل كارثة لنا من أكثر من جهة. استمعت لي طويلاً وأنا أشرح أن التأخير عن الموعد المضروب قبلاً صار وشيكاً. انتظرت تعزية، أو تشجيعاً، أو حتى ذعراً مشوباً بالقلق على مستقبلي الذي يتشكل على أقبح وجه. زاد أملي عندما طال صمتها وهي تقطب حاجبيها الرفيعين، لكنني فوجئت بها تسألني في حدة من يحاسب طفلاً مارقاً: "طيب والفرح؟". ثارت ثورتي بالطبع. "فرح إيه؟ فرح إيه؟". كررتها في ثورة دفعت ثمنها من هدايا واستعطاف واسترضاء عكس قناعتي لأسبوع تقريباً، لكنني كنت قد فهمت ما لم أفهم. أعرف أن ضيقها من تأجيل ارتباطنا كان ليُسعدني لو أنني صافي الذهن معتدل المزاج. تعرف يا ولدي ما هو أكثر ما آلمني؟ أنها ألمحت إلي أنني لابد وأنني مسئول عن هذا التأجيل. "شوف انت عامل ايه غلط في

الرسالة دي واعمله صح". مرة أخرى تذكرت "ندى"، ورأيتها في ذات الموقف تصب جام غضبها على المشرفين وعلى القسم الذي لم يقدرني، لم يكن ليخطر ببالها أبداً أن تصدق عني أنني مقصر، أو أنني أُخطيء، أو أن ما يقولونه عني مهما كان ومهما كانوا هم، صحيح أو جائز. كانت وقتها لتربت على كتفي فأهدأ، وتقسم لي أن غداً "ربنا حيفرجها". كانت سترفض أي اعتذار مني عن تأجيل الفرح حتى أنتهي مما أنا فيه. لكن ما زاد الطين بللاً، هو المفاجأة التي حدثت بعد ذلك. فجأة اتصل بي صديقي، الذي لم يكد كلامه لي عن "شراء الصداع" يبرد بعد، ليبشرني بأنه سيخطب غداً!!

خطبة "هريدي" أثَّرت على نفسيتي كثيراً. تذكر زميلتنا الباطنية التي قربت بيني وبين "إسراء"؟ لسبب ما تعرف إليها هريدي، وصارا لا يفترقان. كان يقوم بتوصيل أخته "ندى" إلي المستشفى حيث حصلت هي الأخرى على "نيابة"، فيرافقها في وقت الاستراحات، ورويداً رويداً تقاربا. من الأكيد أنها بُهِرت بشخصيته وروحه المرحة، ومن الواضح أنها كانت ما يبحث عنه. مازحته أنا بعد ارتباطهما عمَّا إذا كانت تعرف هي الأخرى "موتسارت" فقال تلقائياً بحضور ذهنه المعتاد:"لا، دي لما سمعت اسمه قالت لي علشان خاطري تعزمه هو وأصحابك كلهم على الفرح، أكيد دمه خفيف زيك، وكمان لما واحد مشهور يحضر الفرح حتطلع صورنا معاه تحفة"!!

كان لا يزال يبحث عن عمل، لكن الفتاة فيما بعد دافعت عن حبها له أمام أهلها ببسالة. هو نفسه قال لي:" أنا لا أدري ما هذا الذي فعلته! أنا بلا عمل وبلا مستقبل أساساً.. مش "أتلَم"؟ لكن يبدو يا "مصطفى" إن هذا هو الحب، لم أدر بنفسي إلا وأنا أفاتحها في الزواج. تخيلت كثيراً ردة فعلها، ستعرض عني، سوف تسبني، سوف تصفعني بالقلم على وجهي، كل ذلك واكثر قلته لنفسي محذراً، لكن شيئاً واحداً رأيته أوجب من كل ذلك: أريد أن أقول لها أحبك! تصور انت لما ده يكون أهم شي عندك؟ عايز أقولها وأموت بعدها، عايز أقولها وليحدث ما يحدث.. سألت نفسي هل جننت؟ أنا أصلاً لا أستسيغ الإهانة ولا الصدمات".. يضحك لنفسه ويقول مواصلاً: "أصلي الصراحة يعني، عشت صدمات تكفيني، عاطفي وغير عاطفي. لكن لم أكن أعمل وفق عقلي.. إن لم يكن هذا هو الحب فماذا يكون؟". كنت شارداً وأنا أستمع له يتنازعني شعوران، السعادة لصديق عمر، والغضب لشيء ما، لكن هذا الشيء لم يكن مبهماً عليَّ كما قد يفوح من كلماتي. أترانني أيقنت أن "ندى" عرفت تفاصيل علاقتي بـــ"إسراء" وكيف قدمتني إليها زميلتنا الباطنية، التي ستصير زوجة أخيها، ولماذا يغضبني أن تعرف أو لاتعرف؟ لماذا لا أقنع أنها تركتني؟ هل أستكبر أن تتركني هي أو غيرها، أم أفتقدها بجانبي؟ غاضب منها أم من نفسي؟ هل غضب جزء مني لأن نصفي الآخر الذي كنت أعتبره أخاً لي، سيرتبط بإنسانة يحبها وتحبه فعلاً، وأنه اختار بقلبه فكان اختياره من نصيبه؟

هل أنا لست كذلك؟ عدت للسؤال الذي كان يطل برأسه طوال الوقت في صمت صاخب يريدني أن أقرأه، هل تسرعت في اختياري؟ هل أندم على ماتركت وعلى ما أخذت؟ لكنني قلت لنفسي بأن كل هذا هراء، حياة جديدة وأسئلة جديدة، لا يعدو الأمر أن يكون كذلك. والأهم، أنني لن أترك خطبتي لإسراء تفشل مهما كان. لذا دعك من هذا الضجيج، هكذا قررت.

قال لي أن أمه و"ندى" اعترضا بشدة. جزئية أمه كنت أستحثه على الانتهاء منها لأسمع ما يهمني. عندما بدأ يسرد ما قالته "ندى" تنبهت حواسي كلها: قالت له ألَّا يُقدِم على هذه الزيجة. حذرته من اللعب ببنات الناس. هي – أي حبيبته – طبيبة ولها وظيفة وستكون عضوة بهيئة التدريس، ستكون أنت زوج الدكتورة الذي يبحث عن عمل. ارتحت كثيراً لما سمعت حتى افتر ثغري عن ابتسامة. هاهي ذي، التي أفسدت علاقتنا لأني أردت أن أنتظر لحين انتهائي من رسم مستقبلي، هاهي ذي تنصح أخاها أن يبتعد عن حبيبته لأنه ليس له مستقبل. لم يكن تفكيري غريباً إذن؟ كانت حجة أنثوية ساذجة، كانت حماقة، وكنت على حق. اتسعت ابتسامتي لكن هريدي قال: "ماتضحكشي قوي كده! لم أكد أسمع تلك الكلمات يا مصطفى، حتى فوجئت أنا نفسي بدموعي تسقط رغماً عني. أغلقت على نفسي بابي يومين كاملين وأمي و"ندى" تتوسلان لي أن أفتح لهما الباب، وأنا لا أرد. فتح أبي الباب وأغلقه علينا ومنعهما من الدخول. انهرت على كتفه وأنا أتمتم من بين دموعي بيأسي

وحيرتي. أعادني إلي وضعي الأول وأمسكني من كلتا كتفي وسألني "هل تحبها أم تريدها؟ تهرب من مشاكلك إليها أم تبحث عن الحل معها؟". أبي يعرف طريقة تفكيري، لم يكن سؤالاً ينتظر إجابة منمقة عليه، كان يسألني وعيناه تخترقانني وتتأمل دخيلتي في شغف. أجبته بأنني أتخيلها معي في كل موقف وفي كل شيء وأحس بروحها معي في كل فكرة. لم أعد أرى بنات غيرها في الدنيا، وعندما أفكر في دنياي بدونها وكيف أعود لسيرتي الأولي لا أفهم كيف أستطيع أن أفعل ذلك. احتضنني وقال أنني ربما وجدت أفضل ما سيحدث لي في حياتي. وعدني أن يقف بجانبي في أي شيء وبكل استطاعته. خرج فدخلت ندى وأمي. عندما اطمأنت علىَ أمي وتركتنا، صارحت "ندى" بما أقول فبكت كثيراً. أراحتني من رفضها السابق عندما قالت: "يا أحمد، طيب أنا لم أكن أعلم أنك تحبها بهذا الشكل. هذا يغير كل شيء. هي بتحبك جداً أنا عارفة، فلماذا تتردد وتفكر إذن؟ وهل تظن أننا نحسب كل الأمور بالواقعية؟ واقعية؟ ربنا يخليكو لبعض، بكره تُفرج. يا أحمد وهو انت فيه زيك؟"

عندما قال هريدي ذلك، نزلت دمعة مني فسارعت بإخفائها. تنبه هريدي لما قال وبدا أنه فهم. طعنتني كلمات "ندى" فكأن سهمها اخترق قلبي بجلاء. مازحني محاولاً التشويش على الصمت بيننا: "ياساتر، هو أنا كل ماحد يبص في وشي يبكي؟"، لكنه ربت على كتفي وسألني عن أحوالي وعن "إسراء" ومتى نتزوج. ابتلعت كرامتي التي صعقتها كلمات

"ندى" وأخبرته بمشاكل الرسالة، :"لكن "إسراء" متفهمة، ربك يسهل". دعا لي مخلصاً بالتوفيق وشجعني بالتربيت على كتفي فأغمضت عيني ألماً وأنا أتذكر "ندى" مرة أخرى. افترقنا على لقاء، وعدت لأواجه حياتي التي اخترتها وأنا أظنها اختارتني. عدت لأغرق في واقعيتي ملوحاً بكلتا ذراعي أحاول إبقاء رأسي فوق الماء، هارباً من مشاكلي إليه وأنا أظنه أرضاً صلبة أمشي عليها بثبات، فإذا به بحر مظلم عميق، تتراءى لي على صفحته بين الحين والآخر أضواء الشاطيء فأسرع في الضرب بذراعي أكثر تجاه الغوث.

لم يعد معي من أتحدث إليه بحرية وأفتح له قلبي بعدها. "هريدي" انشغل تماماً بخطبته وبحبيبته وببحثهما معاً عن عمل له.. أبي وأمي انشغلا عني بمواعيد النوم وابتعدت وغرقت في مشاكل الرسالة التي ضاعفت من التوتر بيني وبين "إسراء" رغم أنها بدأت تخفف من استفزازي قليلاً، لكن أين "عزمي"؟

* * *

كان قد هالني عندما حاولت زيارته في المستشفى الذي يعمل به، بدون سابق إنذار، أنه ترك الطب كله وسافر!! القاهرة؟ ويعمل إيه هناك؟" قلتها في ذهول فابتسم "محمود السمان"، زميله الذي جاءني المنزل منذ سنوات ليدعوني للانضمام إليهم في المسجد لحفظ القرآن فطردته أمي. قال بأن "عزمي" سافر يبحث عن وظيفة بالقاهرة، وأنه قرر أن يترك

الطب كله ويرى إلي أين تأخذه الأحداث. في وسط ذهولي مما سمعت ضبطت نفسي غير غاضب منه. لم ألقي بالوم عليه ولم أسأل نفسي أسئلتي المعتادة في ذلك الموقف:"كيف يفعل ذلك؟ لماذا يترك ما تعلمه؟ بم سيعمل؟ كيف يذهب إلي المجهول وإلي ما ليس به أي ضمان من أي نوع؟".

"عزمي" كان بالنسبة لي صديقاً من نوع خاص. ربما تعرفان بعضكما، أنت وهو، لكنني كنت أود لو عرفته أنت سابقاً كما عرفته أنا. عشت حياتي وقضايا كثر لم تحسم لدي، لكنني وطدت نفسي على التعايش مع ذلك، لكنني إذ كنت أقرر حسم شيء ما، كان هريدي أو عزمي هما مفتاح السر. عندما سأت نفسي عن السبب الذي يدعو مثله لترك العمل والبحث عن غيره، تراءى لي أنه ربما وجد ظروفه غير مساعدة، أو غير مريحة. لكن هذا لم يكن "عزمي" الذي يرى في كل عمل أجراً، وفي كل خاطرة فائدة. "عزمي" حسم القضية عندما سألته يوماً: "هو أنا باخد ثواب يا عزمي علي شغلي ولا لأ؟ يعني أنا لما باقوم أكشف علي مريض وأنا نوبتجي في الاستقبال، مانا باقوم علشان لو ماقمتش حتبقي مصيبة، لو المريض جراله حاجة يمكن أخش في تحقيق ولا يعملولي مشكلة كبيرة في القسم، يعني أنا خايف علي نفسي أو حتي قول إني بشتغل شغلي العادي. ده كمان عادي. قصدي عادي يعني إني أشتغل شغلي، أمال أنا هنا بعمل إيه؟ يعني ممكن تقوللي إني باحلل القرشين، مش أكتر. لكن فين الثواب هنا؟ اشتغلت وخدت أجري. حتي

المذاكرة علشان أشتغل صح وآخد فلوس حلال، وأتعلم صح وآخد الماجستير وأتحسن أكتر ومرتبي يزيد شوية وبعدين أكبر وأفتح عيادة واللاذي منه، يعني لمصلحتي أنا برضه. يعني ممكن يكون كل ده من غير ثواب؟".

لن أكن لأنضم أبداً لمثل هذه الجماعة أو تلك، حتي لو كنت من داخلي أريد أن أكون أقرب إلى الله مثلهم. المخاطرة أكبر مما أحتمل، والخطر ليس علي مقاسي. لاحظ أنها لم تعد الآن تعليمات أبي وأمي فقط، فلقد كنت قد وصلت لمرحلة ووضع ما، لا يمكن معهما أن أتخذ هذه القرارات الهوجاء المصيرية. أنا الذي احتملت النمط المعين من الانتماء "لا إلي ذاك ولا إلي ذاك"، البُعد عن المشاكل، التركيز علي الدراسة فقط، حتي "الأسر" الجامعية عزفت عنها، بعد كل هذا ذهب "مندوب الأمن" في الكلية بأوراقي لأمن الدولة "لاستطلاع الرأي" في مسألة تعييني في "نيابة جراحة" بالجامعة، فعاد بالموافقة في نفس اليوم بينما استبعد "عزمي" و"محمود" بعدها بأسابيع من القلق والرجاء. بعد كل ذلك لا تتوقع مني أن أغامر بشيء، علي الأقل لست أنا من يفعل ذلك. "عزمي" ابتسم في ود وقال لي شيئاُ بمعني أن الإخلاص في العمل نفسه هو السر. "ممكن تكشف علي المريض وخلاص، لكن ممكن كمان تاخد معاه وقت اكتر تطمنه وتفهمه الحالة أحسن، ممكن تسأل عن حالته بعد ما زميلك يتولي علاجه بعد نوبتجيتك، ممكن تتطوع وتروح

تساعده وانت مش نوبتجي، كل ده مالوش دعوة بالأجر يا مصطفي ولا الفلوس، خليك فاكر، لازم تخلص النية".

أفقت من ذكراي على صوت "السمان" وهو يتأمل البحر الممتد أمامنا ويضع يديه في جيبي "البالطو" الأبيض، ويقول في لهجة شاردة: "مسائل الدعوة محتاجة إلى إعادة نظر في الوسيلة، والمراجعات ليست عيباً". سرحت فلم أفهم، كلامه غير مقتنع، نفس النظرة المتشككة من أسفل لأعلى وهو ينظر للأرض وهو يتحدث، لكنني لم أهتم كثيراً، صديقي راجع نفسه وأقلع عن أن يكون إرهابياً؟ جائز. لكن لماذا؟ وكيف؟ أين ذهب إخلاص النية؟

كنت أريد فقط أن أعرف أين ذهب بعد أن "أقلع"؟ ولماذا الآن وأنا أحتاج إليه؟

* * *

أمام قصر الاتحادية بعد خروجي من الاجتماع.. يناير 2025

لم أتوقع أنني سوف أحتاج إلي نفس هذه القشرة التي كنت أهابها في النساء من قبل. لم أنتظر أن تكون تلك القشرة هي سلاحي تجاه الأهوال التي كنت أستمع إليها والحوادث العجاب التي شهدتها طول الوقت منذ أن أفقت من غيبوبتي، وإلي لحظات كتابتي هذه. لكنني لاحظت أول ما لاحظت أن الناس في مصر تغيرت، وأن هذه القشرة صارت مرادفاً لكل جسد وكل

نفس ألقاها، كل عينين تلتقيان بعيني وكل صوت يحتضن أذني، صار له ذلك السمت "القشري" المميز، الذي لا تملك معه إلا أن تسأل نفسك وأنت تتفرس في كلماته وتدقق في خلجاته: "هو انت قصدك الحقيقي إيه؟". لكن ربما هو الاغتراب الذي صرت إليه، وربما حنيني إلي عينين صادقتين، أو وجه يبتسم لمرآي فيؤكد لي أنني فعلاً أنتمي لهذا المكان وأعيش زماني. ابتسامة "عزمي" الودودة أعادت إلي شعور "الظهر" الذي فقدته بإرادتي عندما ارتبطت بـ"إسراء"، وبحثت عنه بعد الغيبوبة. كان يقف مستنداً إلي سيارة أمام القصر وإلي جواره "عماد"، الصحفي القصير الذي عرفناه أيام "يناير". الاثنان رحبا بي ورافقاني في مشوار العودة. لفت نظري بطاقة ملصقة بزجاج السيارة الداخلي، تحمل شعار جماعة الحق وكلام بخط صغير بأسفلها، تساءلت عنها، فأجابني "عزمي" وهو يضغط على أسنانه في غيظ بينما عينام مركزتان على الطريق، بأن "تصريحه" لا يسمح له باقتياد سيارته في الأيام الفردية، لذلك اضطر أن يأتي بسيارة "عماد". ضحك هذا الأخير وأشار إلي في مرح قائلاً: "ماتخضش الراجل يا عم "عزمي"، دلوقتي حيقول إني تبع الحكومة. أنا صحفي كما تعلم، لذلك منحوني تصريح القيادة الخاص بمراسلي الجماعة! كل ما يكلفني الأمر مشوار واحد كل كام أسبوع، آخد تصريحات المتحدث الرسمي، أو أخبار الاتحادية، ودمتم. ده أنا ساعات كمان مش لازم أذهب إليهم، يكفي اتصال. بس أنا تصريحي محدود، أنا أصلي مجرد

واحد مش بيعمل مشاكل، حتة مراسل بينقل الأخبار إللي بيقولو عليها من غير تعليق. أما بقى المغضوب عليهم زي صاحبك، دول بيتعاملوا زي الناس بدون أي ميزات. لكن الجماعة واللي تبعهم، بتوع عواميد الرأي أو معدين البرامج أو المحاورين بتوعهم، دول بقى معاهم تصاريح مفتوحة. يعني يدخل بالسيارة لأي مكان، حتى جوا القصر نفسه، والتصريح مش محتاج يتجدد، بس طبعاً كله بتمنه، وإللي يتحمل وشه يبقى مكشوف قوي كده، هو حر. يعني أنا غلبان من الآخر، بس صاحبك بيحقد عليا مش أكتر". ضحكنا لمزحته، لكنني لم أعلق.

وجود "عماد" عطلني عن أسئلة كثيرة كنت أود أن أسألها لعزمي. بالطبع كانت "ندى"، التي صارت الحاجة "ندى"، على رأس تلك الأسئلة، لكن أموراً شخصية كهذه كان من الصعب أن أفتحها أمام "عماد"، فلم تكن معرفتنا تسمح بتعرية النفس مثلما أفعل مع "عزمي". أظن أنها كانت لتصدقني القول، وكنت لأفهم منها ما يحدث أكثر، لكنني حقاً أود رؤيتها، برغم كل الغرابة المحيطة بي، برغم كل الشك في عيونهم وعيوني، برغم مسألة زواجها ومسألة ابنتها الغالية كما وصفها "السمان"، وبرغم السماجة التي تطلق على نفسها لقب زوجها، برغم كل ذلك فأنا أشعر أن رؤيتها والسؤال عنها يناطحان أولوية الفهم عندي، ويكاد صوته يطغي على صدى أي منطق آخر في عقلي.

أما "عماد" فقد صار مراسل "الجهات الأمنية"، أو كما قال!!. "بفطر مع مراتي، وأتغدى مع شباب الجامعة وبتعشى

مع الحكومة، على كل لون يعني، معلهش بقى أنا أصلي صحفي يا بطل، وتلاقيني في كل مكان ومع أي حد". قالها وأطلق ضحكته الرفيعة المجلجلة التي تفيض خبثاً ومداهنة غير مفهومة وغير مناسبة، لكنها بدت لي عادته. "عزمي" كان واجماً نسبياً وشدد على أسئلته عما دار في الاجتماع. عندما قصصت عليه باختصار ما دار وأبديت عدم حماس للذهاب في تلك المهمة الغامضة، نظرا لبعضهما في قلق لم يخف عليَّ، وقال عزمي في اقتضاب أن لا أقرر وأنا منفعل، ثم تابع "عماد" أسئلته عن ذاكرتي وهل عادت كلها، ضارباً المثل بنفسه: "يعني افتكرت السحنة دي لما شفتها على طول ولا لأ؟". التزمت الصمت وأنا ألمح نظرة "عزمي" الخاطفة لي من خلال مرآة سيارته، والتي امتلأت ترقباً لردي عليه، قبل أن يشيح ببصره بتلقائية ناحية الطريق، فقلت في صرامة: "انتوا مخبيين عليَّ إيه؟". بدا القلق على وجه "عماد" فنظر لـ"عزمي" مستنجداً. ساد الصمت وتوقفنا تحت منزل أنيق في "المعادي"، تحيط به أسوار منقوشة في بساطة أنيقة وتفترش الشمس واجهته في فتور. أعلن "عماد" في لهجة مقتضبة أنه منزله ودعانا للدخول، سابقاً إيانا قفز من السيارة ليفتح بوابة المنزل تاركاً "عزمي" – عن قصد كما حسبت - لينفرد بي خارج السيارة. مشينا خلفه ببطء وعزمي يقول: "مصطفى"، انت فيه حاجات كتير لم تعرفها بعد. التغييرات التي حدثت في الكام سنة إللي فاتوا كثيرة عليك جداً، لدرجة إننا مشفقين عليك من

استيعاب إللي حصل. أنا كل همي إنك تسمع الحقائق كاملة، هذا هو السبب إللي خلاني أتصل بـ"عماد". "عماد" بحكم عمله، وبحكم قربه مننا من زمان، يعلم بحقيقة أمور كثيرة جداً، حدثت ولا زالت تحدث، ويمتلك خيوطاً أكثر، ولن يخفي عليك شيئاً. كل إللي بيحصل في البلد الآن له وجهان، واحد منور أمام الناس وفاكرين إنه الحقيقة، وواحد مظلم بعيد، قليلين إللي يعرفوا عنه حاجة". قلت في لهفة: "فيه خطر على أدهم؟ فيه أي مشكلة بيحاولو يورطوني فيها؟ كلامك لم أفهم منه أي شيء بالمناسبة". بدا عليه الضيق وكأنه يصارع جملاً مختلفة يتحير أيها ينتقي ليبدأ به، ثم قال في توتر وهو يعبر معي بوابة الحديقة الصغيرة: "ماتقلقش يا "مصطفى"، "أدهم" كويس، وانت معانا مفيش مشكلة. محدش حيقرب لك وانت معانا أبداً. اصبر بس وانت تفهم كل شيء".

* * *

في الطريق شردت كعادتي لأتذكر..

منتصف عام 2000، الإسكندرية..

"حسام المنزلاوي".. يكبرني بعامين، لكنه كان أول طبيب مقيم مسئول عن الأطباء الجدد عندما ولجنا لأول مرة إلي المستشفي. جو المستشفيات لم يكن غريباً علينا، لكننا كنا صغاراً نرتجف أمام نظراته القاسية وإيماءاته المتكبرة. هو مسئول عننا، نعلم أننا لابد وأن نرضيه، الانطباعات الأولى عننا

سوف تذيع من خلاله، لكنه يعرف أننا نعرف، ويستغل ذلك كما يبدو لي لأقصى مدى. يشعرنا طول الوقت أننا مقصرون، يعمد إلي السخرية من أقل شيء. تأملني في ازدراء لم ينجح في إخفائه وألقى نظرة فاحصة على هندامي وقال: "هذا لا تدخل به إلي حجرات المرضي، بدون "البالطو" أنت لا شيء، مجرد عابر سبيل مكانك خارج المستشفي، في الشارع، على القهوة، أو في النادي بتاعكم" قال كلمة "النادي" كمن يذكر "البار" أو بيتاً للبغاء، بينما ضحك زملائي نفاقاً له بينما ابتسمت في عصبية وأنا أدرأ عني غضبته التي لم أفهمها والتي زادت من توتر الموقف الجديد. صارت حالنا مزرية تحت رقابته، أعرف زميلاً كان يقلق من مروره علينا – والذي صرنا نترقبه في أي لحظة – ويسميه "المفتش الأكبر"، حتى انه عانى صحياً من قلقه حتى بدأ يزور طبيباً للقلب لتسارع دقاته ليلاً بغير تفسير. زاد توتر "حسام" معنا وضغطه علينا، عندما تعثر في رسالته وطال به الأمد فكان يفرغ جام غضبه علينا. أذكر أنه عندما انتهى وزَّع زميل لي بعض الحلوى علينا سراً ابتهاجاً بترقية "المفتش"، لكن هذا كان في البدايات، إلى أن وصلت أنا لنفس المأزق، رسالة وتأخير وتوتر، و"الديكتاتور" لم يعد جاثماً فوق أنفاسي، بل صرت أنا "زميلاً محتملاً"، وانتقل الضغط والتوتر إلي خانة التعاطف المرسوم، والود النابع من التباهي بإنجازه الذي سبقني إليه، والدوام على إعطاء النصائح الجوفاء التي لم تخرج عن "اجتهد"، "خليك ماشي جنب الحيط"، وغير ذلك

مما لا يفيد، ولا يضيف، ولا يسعك سوى تحمله حتى تنتهي النصائح فتبحث عن مكان هاديء تواصل فيه التفكير في الوصول لمخرج من مأزقك.

في الأسبوع التالي لخلافي الأول مع "إسراء"، حدث ما لم أكن أتوقعه!

كنت قد ضربت موعداً مع المشرف الرئيسي كي ينتهي من تحكيم الرسالة، ولعرض التعديلات التي طلبها عليه. كنت أعدل للمرة الخامسة، محتفظاً بكل التعديلات السابقة عندي، قد نحتاجها ونعود إليها رغم كل شيء. أعلم أنه لا يقصد تعطيلي، لكنه شديد الدقة في مسألة البحث، دقة تتجاوز المعقول في بعض الأحيان، وفي حالتي أنا تتجاوزه بشكل يثير العصاب. لكن الرجل لم يأت في موعده وظل مكتبه خالياً وأنا في انتظاره بالصالة الضيقة في ردهة مكاتب الأساتذة. طال انتظاري حتى عرج عليَّ حسام فجأة. توقف كأنه اندهش لرؤيتي، ثم انقلبت سحنته لتعبير أقرب للغيظ والضيق سرعان ما تلاشى وهو يدور بعينيه في وجهي ويسألني أين كنت منذ الصباح، ورئيس القسم يبحث عني؟. لملمت شتات قلقي وأنا أتبعه بينما يتمتم وقد رسم ابتسامة على وجهه يداري بها ما نضح من شعوره منذ دقائق: "مبروك يا سيدي! عشنا وشفنا: ناس تشرب المر حتى تنتهي من رسالتها، وناس يتعمل لها الرسالة وهي في منزلها تشرب الشاي!". لم يتسنى لي أن أراجعه لأفهم. إن هي إلا لحظات وكنت في مواجهة رئيس القسم. قام من خلف مكتبه ودار حوله

في ترحيب وشد على يدي وأجلسني معه في ركن الزائرين. رسم ابتسامة واسعة على وجهه وهو يطلب من الساعي أن يحضر لنا القهوة، وبادرني بسؤالي عن السبب الذي جعلني لم الجأ إليه مباشرة منذ البداية طالما أن الرسالة بها مشاكل والمشرفين يرهقونني بالطلبات الصعبة؟" لم أدرِ ما أقول. كنت مندهشاً من ترحيبه الذي لم أره يفعله مع أساتذة كبار، فما بالك بنا نحن الصغار، ملح أرض القسم؟ واصل وهو يخلع عويناته ويفرك عينيه في إرهاق ويشير لي بأن أتناول قهوتي: "ماكانشي فيه داعي أبداً إنك تشكو لـ"مراد" بك، رغم ذلك فأنا شاكر له جداً إنه نبهني لما حدث. ارسلت فوراً لأستاذك واستفسرت منه عمَّا حدث. كم لك من السنوات وأنت تقوم بذلك البحث؟ يا الله!! سنتان كاملتان؟ لا.. أقدر لك صراحتك وتفانيك في العمل لكن اسمح لي يا ولدي ليس ذلك عادياً، بل هو وقت مبالغ فيه جداً. ماذا؟ الكل كذلك؟ إذن نحن المخطئون ويجب أن نعيد النظر، هذا وقت طويل جداً.. أنتم تحضرون الماجستير وليس جائزة نوبل. عموماً أنا تكلمت مع مشرفك، وأمرته بتحديد موعد المناقشة لك في الأسبوع المقبل. هو حاول أن يتعلل بالتعديلات وما شابه ذلك، لكنني أفحمته: هذا قرار نهائي ولا رجعة فيه. جهز أوراقك وستجد في السكرتارية ورقة بالموافقة مني على المناقشة وقد وقعها كل المشرفين وسيساعدونك. أما مشرفك العنيد، فلا أخفيك سراً، هو كذلك منذ عرفناه طالباً، "محبكها" بشكل زائد، فقد حاول أن يرفض فوقعت الموافقة

نيابة عنه. لا تشغل بالك، ليس له عليك كلمة بعد اليوم. لقد شكلت اللجنة للمناقشة وهو ليس من بينهم. يكفيه ما فعله بك للآن".

هكذا خرجت منه وقد انزاح حمل ثقيل من على صدري. كنت برغم نظرات الغل من "المنزلاوي"، قادراً على الفرحة. اعتبرت أن تهنئة الجميع لي سببها الانتصار للظلم، أستاذي لم يظهر لأيام طويلة بعدها، وقيل أنه دخل في مشاكل قانونية عنيفة مع رئيس القسم. طبعاً انتهت كلها إلى اللاشيء، محاضر تم حفظها، وبلاغات تم تجاهلها، وشكاوى للجامعة عادت لرئيس القسم – المشكو في حقه في نفس الوقت – بتأشيرة حمراء أنيقة "لإبداء الرأي"، فاستقرت في درج مكتبه الفاخر في أمان!. اللطيف أنني كنت أعلم بكل هذه الخطوات من "إسراء" دائماً قبل وقوعها، بين تألقها الذي زادها جمالاً كأن كأس القوة والإحساس بالانتصار يملآنها طاقة، وبين نظرات الفخار وعبارات الإشادة منها بأبيها، وعبارات التشجيع لي أن "أشد حيلي بقى"، ودعوات أمي لي بالتوفيق في ارتياح، وكلام أختي عن "يمهل ولا يهمل" في تأثر، وزفير أبي في ضيق وهو يعزف نغمة واحدة لم تجد لها أذناً بالطبع حتي كف عنها في قنوط: "كده غلط، أنت تنظر تحت قدميك".

لكن، وتحت قدمي، كانت الأيام كلها أفراح بعد ذلك. ناقشت رسالتي في مناقشة هزلية، أشاد فيها المناقشون بالعمل العلمي العظيم الذي بين يديهم، بشكل كان يثير ضحكي فأكتمه بصعوبة.

جلسوا إلى منصة المناقشين وبدأوا يتبارون في إلقاء كلمات المديح في الجهد المبذول، حتى أن أحدهم، وبصره ينتقل في وجل مترقب بين وجه "مراد" بك الجامد الصارم ووجه رئيس القسم المبتسم في بلاهة، هاجم المشرف الكبير بعبارات حادة، وهو الذي لم يكن حاضراً بالطبع بعد استبعاده، وانتقد اختياره لـ "موضوع معقد وصعب زي ده؟ دي 3 رسايل في بعض.. ورسايل دكتوراه كمان!!". أضاف بأنه – هو شخصياً – لا يحمل طلبته من المعيدين مثل ذلك الحمل الرهيب أبداً، بدأ يضرب أمثلة لكن "مراد" بك بدأ يتململ، لاحظ رئيس القسم فتحركت يده تشير للأستاذ بالاستمرار في المناقشة فترك ما يقول وانتقل من منتصف جملة مديح مزدانة بفخامة الكلمات وطنطنة عبارات الفخار، فجأة وكأنه يبتر طرفها في طاعة مهيبة، دون أن يتمها، وعاد من فوره إلي الكلام عن الرسالة. ضحكتُ، وبادلتني "إسراء" ضحكتها التي أسرتني أول يوم، عندما تنظر للأرض وتميل أماماً في خفة وخجل فتبدو كالملاك، لكن أحداً لم ينتبه، أو أرادوا ألا ينتبهوا. كان تركيزهم على الانتهاء سريعاً بما لا يسمح لوجه "مراد" بك أن ينقلب غاضباً، وهو أصلاً يبدو دائماً على حافة الغضب باكتناز رقبته وشاربه الضخم وفمه المفتوح قليلاً ونظرته الشاردة المقتحمة في ذات الوقت، والتي وزعها في انتظام غير قابل للتوقع على أساتذة المنصة. انتهت المناقشة بنجاح فاندفعوا يهنئونه ويتسابقون على "عزومة" الغذاء في مشهد لم أرَ أكثر منه تعاسة من قبل.

لم تكن الرسالة سيئة، هكذا آمنت، حتى لو كانت بها مشاكل، فما دور المشرف سوى التعديل والتصويب؟ لم ألق إلا تعطيلاً وتطويلاً وتسويفاً حتى كنت أعود لما كتبت أولاً على أنه تعديل جديد يطلبه المشرف مني. هذا هو حقي، وقد حصلت عليه. لم أخطط لذلك ولكنه جاءني، هل أرفض؟ هل يؤنبني ضميري أنني لم أتأخر أكثر وأتوتر أكثر، فتفسد حياتي وأخسر "إسراء" التي عادت إليَّ بعد نجاحي وقد كانت في الصف الاول بجانب أبيها ورئيس القسم في صالة المناقشة؟ هل كنت لأفعل ذلك كي يستريح ضميري وأحقق "العدل"؟. ماذا كانوا ليفعلوا بي لولا اتصال "مراد" بك؟ هل كان هذا هو العدل؟ أتراه عدلاً لأنه يحدث مع الجميع؟ جاءتني هدية عادلة، لكن بغير عدل، لكن ما ذنبي في الوسيلة؟ لم أجلس في بيتي "وأشرب الشاي" كما قال "حسام"، الذي ظل يرمقني دائماً بنظرات الغيظ لشهور، ووصلني أكثر من مرة وصفه لي "بابن البطة البيضه"، لم أتوان عن عملي لحظة، ولا عن إحراق أعصابي بدأب وإخلاص، قل أنها تصاريف القدر، سمها أي شيء لكن لا تسمها ظلماً وتضع اسمي عليها.

عشت أياماً لطيفة بعدها فقد اعتدل مزاجي ومزاج "إسراء" بشكل ملحوظ، ونسيت كل شيء عن "ندى". بدأنا الاستعداد على قدم وساق للزفاف، تحضير المنزل وشراء الأثاث. طبعاً كانت هناك الكثير من التفاصيل غير الهامة. لكن باختصار: نجح أبي وأمي في تدبير المال اللازم، ونجحت في أن

أقنع "إسراء" بأن كل طلباتها سوف تُجاب، لكننا أمامنا العمر لنحققها. هناك انطباعات أهملتها لأنني لم أستطع السيطرة عليها وفهمت ذلك من البداية. "إسراء" التي تخندقت في طرف المظلومة التي يرفض أهل زوجها تلبية طلباتهم، وأهلي الذين رأوا فيها ليس فقط من تنتزع منهم ابنهم، لكن أيضاً من تضع شروطاً لذلك الاختطاف، شروطاً تحمل أرقاماً تزينها أصفار متمردة. ذكرهم هذا بالزيجة من أولها ونسب "الحكومة" وبطش العائلة، وأعادهم لنقطة صفر لم يناقشوها من قبل، خصوصاً أبي. بدأت أمي وأختي تتململان ويتحدثان عن الغنية الفاشلة، التي اشترت شهادتها "بالفلوس" من الجامعة الأمريكية، وتسحب "الدكتور المحرم" من يده إلي القاهرة، و"كمان بتتأمر ومش عاجبها". كانت الفجوة بين ما اعتبرته "إسراء" عادياً وضرورياً وبين ما كان تراه أسرتي "مبالغ فيه" سحيقة، فتصور أنت حيرتي في تحديد ما يمكن أن يكون معقولاً؟ حاولت استشارة "هريدي" رغم ضيقي من وصول الكلام إلي "ندى" في نهاية الأمر عن طريق خطيبته، لكنه ضحك في سخرية وقال: "عم الفرفور، ارحمني!! من ناحيتي أنا، هي لو طلبت مني شيئاً، أي شيء، سأوافق طبعاً بدون تردد.. لأنها ساعتها تكون عمياء وطرشاء وفقدت عقلها تماماً. ماذا تأخذ الريح من البلاط؟ ساعتها سوف أرأف بحالها وآخذها على "قد عقلها" وأقوللها: شقة في المعادي؟ طبعاً.. أثاث مستورد من محل في المهندسين؟ "مِن عينيا"، ما هي بعيد

عنك كده تكون اتجننت، وليس على المريض حرج يا "مصطفى".. علشان خاطري اقفل السكة، والدي نفذت منه أقراص علاج الضغط إلا واحدة. هو أولى بها مني أكيد!!".
فكرت في "عزمي"، رغم أنني كنت سأستشيره هنا في نفس "خضراء الدمن" بعينها. لكن، أين أجده في القاهرة؟ لا عنوان منزل ولا عمل ولا أي خيط يفيدني؟. قلت لنفسي وأنا أعيش تلك الأيام أنني ربما لا أعرف المطلوب بالضبط، ربما لا أتفهم احتياج البنات لهذا أو ذلك من الأشياء، وربما لا يعرف أبي وأمي أيضاً. قلت ذلك رغم أن أختي – التي تمت خطبتها إلى معيد شاب بكلية الهندسة – أبدت ضيقها سراً وصرحت لي أنها هي – أي أختي – نفسها ترى أن تلك مبالغات وأن "إسراء" تتعامل من منطلق ثراء أسرتها. "مش حتقدر تجيب لها إللي هي عايزاه على طول، خليك واضح من الأول". لكنني لم أرَ داعٍ لأن أقهرها الآن، وفيما بعد، بقصر اليد. ثم من يدري؟ ربما تحمل لي الأيام ما لا أتوقعه من خير. "ربنا يوفقك، بس انت حتسكن في بيتها، وحتاخد مستشفى علي الجاهز، وبعدين تقول لها أنا بكسب أهو؟ سوف تقول لك هذه مستشفي أبي وأسرتي. يعني لابد وأن تجعلها تسمع كلامك هي مرة واحدة، كي لا يأتي اليوم الذي تذكرك فيه أنها هي التي صنعتك". لا أفهم بالطبع هذا المنطق الذي يحولني للمتجبر الطاغي الذي لا أريد أن اكون، أسألها وهل تقبلين من خطيبك هذا الأمر، أن يرفض لك طلباً في بيتك وتأثيثه؟ تجيب في استفزاز: "أنا لا يمكن أن أطلب

تلك الطلبات التعجيزية ابداً من "علي". يحتدم النقاش والدفاع وأثور على أختي وأقاطعها لساعات ثم نتصافى. نفس منطق أبي، ونفس الذبابة في نفس الحساء. لكن أهلي سوف يلينون، أعرف ذلك وأستخدمه لأقصى حد. "إسراء" لن تلين، ثم هي على الأرجح على حق. هكذا قررت.

زواجنا في بدايته، كان مرحلة جميلة. جاء كل شيء مبهج معاً بنفس الوقت كالريح الباردة المنعشة. وكما تأتي المصائب معاً، أحياناً تأتي الأفراح. الفرق أنك تلوم القدر في الثانية، وتشعر باستحقاقك لما يحدث في الأولي، وكأنه شيء طبيعي. انتقلت للقاهرة واستلمت عملي الجديد في القصر العيني. في البدء كنت أهاب الموقف والأجواء. هذه هي "مدرسة" جديدة، نشأت في غيرها وأحفظ اماكن المحاضرات والسكاشن شبراً شبراً. كنت أستطيع أن أخبرك بمكان النافذة الصدئة في حجرة سكشن الجلدية، ومكان النقش الغائر على شمال الصف الأول في مدرج سنة تالتة، ومعنى الإعلان الممزق بجانب شئون الطلبة والذي لم يهتم أحد بإزالة آثاره منذ سنوات وبأي مناسبة تم تعليقه وكأن بقاياه صارت جزءاً من الحائط. دعك من الأشخاص والذكريات التي يحملها إليك كل شبر وكل وجه وكل صوت. تركت أهلي المفجوعين من رحيلي، و"هريدي" الذي – رغم أنه لم يحضر فرحي وقالها صراحة أنني لابد وأنني أتفهم أنه مضطر حتى لا يغضب "ندى" ويجرح شعورها – اتصل بي مرات عديدة في الشهور الأولي التي كنت أحاول التكيف فيها مع

حياتي الجديدة، ثم تباعدت اتصالاته حتى لم أعد أذكر متى كانت آخر مرة. كان الأمر صعباً لكنني نجحت في أن أعتاده، وصارت شجوني مجرد علامات في صندوق ذاكرتي، أفتحه حين أخلو بنفسي، أقلب في تلك الذكرى وأترك تلك لأن وقتي لا يسمح، أو مزاجي لا يستقيم معها الآن. "إسراء" كانت سعيدة كأي زوجة تبدأ حياتها بالتهاني من الصديقات اللاتي كن يشبهنها في مظاهر العجرفة وسمت التعالي، والزيارات العائلية العديدة. كانت "إسراء" تحرص علي تقديمي للجميع – وخصوصاً صديقاتها – بأنني "مدرس" في القصر العيني، أدرس الدكتوراه. لم اكن لا هذا ولا ذاك بعد. لكن وقع الكلام عليهن كان واضحاً في الأفواه التي تتسع ابتسامة، والعيون التي تحملق في إنبهار وتتأرجح بين وجهي ووجهها في احترام وحسد. كانت تمازح الزائرات أحياناً بقولها: "لما المستشفي تشتغل عن قريب، إوعى حد منكم يتصل بقى ويطلب معاد كشف ولا حاجة. كي تعرفن أنكن لا تتصلن بي إلا عندما تطلبن شيئاً، ليس لي دخل، ولادة أو غيرها، اتصلن بالمستشفى والسكرتيرة تحدد لكن الموعد". يضحكن في سعادة أو خجل أو يبادلنها المزاح. لما تكرر منها هذا الكلام في أكثر من زيارة شعرت بأنها تعيش شيئاً واقعاً فسألتها قلقاً بصبغة المازح عن موعد الافتتاح، كان ذلك أمام صديقاتها فتحرجت واحمر وجهها خجلاً وأدارت دفة الحديث تحت وابل نيران العيون الشامتة لسبب لم أفهمه إلا عندما عنفتني بعد انصرافهن. قالت أنني أحرجتها وأظهرتها

بمظهر الكاذبة فقلت أنها هي التي تصر على تكرار هذه المزحة باستمرار حتي أحسست أنني لابد وأن أستفهم منها عمَّا تقصد. فاجأتني بالسخرية مني بأن هذه ليست مزحة، وسألتني ألم يحن الوقت بعد لأن أبدأ التحرك من تلقاء نفسي ولا أنتظر هكذا حتى تضطر هي لتحفيزي بالكلام؟. كنت في ذهول وأنا أستمع إليها غير مصدق. قالت أنها لن تقبل أن أركن لوظيفة الجامعة، لدينا المستشفى وأنت "دكتور"، و"المفروض" أنك متفوق وشاطر، فما الفكرة من انتظارك؟ وماذا أبرر لصديقاتي أنك تعمل بالجامعة ولا تمتلك مستشفى ولا عيادة؟ تمتمت بأشياء بمعنى أن كل شيء سيأتي بالوقت المحتوم وأن عملي يتطلب مجهوداً ووقتاً ففاجأتني بمزيد من السخرية وقالت أنها توقعت ذلك منذ أيام مشاكل الماجستير وأنني سوف أعيد النواح مع أول مشكلة مرة أخرى. "ساعتها "بابي" اتصرف عندما وجدنا أنك لا تستطيع أن تتصرف، لكن ليس كل مرة كذلك، لابد وأن تتحرك بنفسك". كان الدم يغلي في عروقي وأنا أستمع إليها وهي تتحدث بصيغة الجمع، ترسم لي خطتهم لبدء تجهيز المستشفى ثم خيبة أمل أبيها وأسرتها وهي شخصياً في عدم مبادرتي بذلك. قالت الكثير عن أموال العائلة التي استثمروها من أجل هذا المشروع وعن خيبة أملهم فيَّ بسبب غرقي الدائم في الأوهام وعجزي عن حل المشاكل. سكتت فلم أرد. عاودت النداء عليَّ فلم أعرها انتباهاً. قمت وخرجت من الفيللا لأستنشق هواءً

مختلفاً وقد تهدج صوتها من خلفي تناديني أن أعود، وقولها أنه "ماينفعشي كده، تعال هنا وتحدث إليَّ".

لكنني بعد دورة واسعة درتها بسيارتها، التي صارت سيارتنا، اكتشفت أنني لم يعد لي وجود. ربما كان الوقت مبكراً جداً للحكم عى الأمر بأنه كذلك، كما قالت أختي في اتصالي بها، وكما هدأت أمي من روعي عندما علمت، ربما كان خلاف عادي يتكرر كثيراً، وقد يقول قائل بأنها طامحة في زوجها لينقلها وينقل نفسه لأعلى، جهل من لا يثمن الجامعة ووسطها بقيمتها وغلو الانتماء إليها، أو هو سمت "مراد" بك الذي يعاملنا كما يعامل جنوده الأذلاء عنده، أو المتهمين لديه في قضاياه السياسية، الاستعلاء الطبيعي لهؤلاء، الذين لا يقدرون إلَّا السلطة، مال أو قوة أو نفوذ أو وجاهة. لكنني بعد تفكير طويل، عدت لأصالحها، أتلمس ملامح موقفها من بين دموعها وأحنو على منطقها المعوج، أصدق أنها تريدني أفضل إنسان في هذا العالم. أعدها بأنني سوف أفعل كل ماتريد إذا منحتني بعض الوقت لأستقر في عملي. توافق على مضض ولا تعدني بشيء، بينما أضمر في نفسي البحث عن نافذة للهرب من المواجهة.

كان هذا هو السبب في سعيي الحثيث للسفر لألمانيا، ثمانية شهور بالضبط بعد هذا اليوم. أبت حماتي وحماي أن يمنحانا هدوء الابتعاد عن الفيللا وسجن التهاني والترحيب ونفحة أول الشهر وعزومات أيام الجمعة، فمهدت حماتي ذات مرة لإرسال كل ذلك الحمل وراءنا في صورة هم تضعه فوق أكتافي بكلماتها.

علقت على تأخر الحمل بأنه: "خير إن شاء الله، ربما تجدون في ألمانيا طبيباً يجد لكم حلاً"، قالتها واختلست لي نظرة سريعة سكبت على وجهي اتهامها، ودشنت بذلك "مشروعاً" جديداً تنغص به عليَّ حياتي المقبلة ريثما أعود. جردتني باقتراحها من أي علاقة بالطب وكأن زوج ابنتها يعمل في "مخبز"، بينما تشاغلت "إسراء" وكأنها لا تسمع. كنا لم نبدأ عامنا الثاني من الزواج إلَّا حديثاً، لكن الحقيقة أنَّ تأخر الحمل كان يثير تساؤلات أمي عبر مكالماتها معي، ويقلقني أيضاً كما يقلق أبسط فلاحة في أصغر نجع. تصاعد في قلبي رويداً رويداً نفس الذعر المجهول والخوف من انقطاع الذرية الذي كانت تأتيني به أيام "الامتياز" أمهات ذوات السبعة عشر عاماً، المتزوجات منذ شهور، اللاتي يخفضن نظراتهن في خفر، ويلكزن أمهاتهن في لوم مع كل معلومة أو تصريح عن عادتها الشهرية أو انتظام علاقتها بزوجها. تتحدث الأم في حماس وأريحية من ليس لديه سبب ليخفي شيئاً بعد الآن، وبعشم من لجأ إلى الحل السحري لطبيب مرموق يعمل في مكان شهير وقد ذاع صيت أطباؤه وسط العديد من اللواتي جئنه فوارغ، وأصبحن بعد ذلك حبلى فحكين قصتهن معه بانبهار يناسب ليالي السمر وجلسات التهاني و"النقوط". الفارق أنني كنت أستجيب لذعرهن بهدوء وثقة كطبيب، أما ذعري أنا فكان يواجه إنساناً خائفاً لا يصدقني، مذعوراً من الفشل أو من فقدان ما سخَّر نفسه لأجله، حريصاً ألَّا يكون أقل من الناس، وألَّا يشبه أحداً في ذات الوقت.

كنت بعد شجارنا بشأن المستشفى قد بدأت أبحث عن مخرج. لا يناسبني الأمر وأنا أعلم، لكن هؤلاء لن يسكتوا. ربما تَوَلَّد الحل في أعماق عقلي، فبدأت أبحث عن بعثة للخارج. استكملت أوراقي بالكلية وتسجيل لرسالة دكتوراه واستكتبت رئيسي موافقته، ثم أرسلت أوراقي في كل مكان وأجريت اختباراً ثم الثاني. تقدم للأخير سبعمائة طالب دكتوراه وأجريت المقابلات الصعبة، فجاء اسمي في وسط قائمة العشرين الذين اختاروهم. كان أسبوعاً عاصفاً، ذلك الذي تلا إعلاني النتيجة على مسامع "إسراء". لم تصدق بالطبع قصتي أنني "تقدمت بأوراقي لهم من زمان، وعندما أرسلوا إليَّ ذهبت لأجرب نفسي". كلام كثير مِنِّي عن الفرصة العظيمة للسفر إلى ألمانيا، وكيف ستعجبها الحياة هناك بأكثر من الحياة في مصر، وإصرار منها على الاعتذار عن البعثة من أجل مشروع المستشفى، لكنني كنت قد عقدت العزم، والخطة البديلة أيضاً. لذلك عندما غضبت مني لم ألجأ لدورة بالسيارة في هواء الليل المنعش كما فعلت من قبل، لكنني حزمت حقيبتي وسافرت إلي "الإسكندرية" لأحضر فرح "هريدي" على زميلتنا الباطنية التي ستصير زوجته. كان يتلعثم وهو يدعوني إلي فرحه، وكأنه يتمنى ألا أوافق فيكون قد برأ ذمته أمامي ولم يثر حساسيات في أمر "ندى"، حساسية موقفه كانت واضحة بالطبع. فهمت ولكنني لم أبالي. لامتني "إسراء" على ما أسمته: "هروباً" كيف "تتركني وتسافر من أجل ذلك الذي لم يحضر إلي فرحنا؟"

كانت لا تعرف شيئاً عن "ندى"، فـ"إسراء" لم تسألني أبداً ما إذا كنت أحببت قبلها أم لا، لكنني تعللت بأن هذا هام لديَّ، وأنَّ أهلها قريبون وأنا مطمئن عليها. كنت أضع فاصلاً بين صدمة البعثة وبين الأسابيع القادمة حتى موعد الطائرة الوشيك. كنت برغم السعي المحموم للسفر، مازال جزء منِّي يهابه. كنت متردداً في إتمام الإجراءات، وكنت قلقاً من أن أصرف نظر عن الأمر برمته، بمجرد أن ألقى أهلي وألمح الحزن لفراقي في عيونهم وكلامهم. لكن زيارة الإسكندرية، وعلى عكس ما توقعت، أفادتني كثيراً. شبعت من أهلي، ومن "هريدي"، وأسعدني أن"ندى" اختلست نظرة سريعة لي وهي تلتقط صورة لها بجانب العروسين على الكوشة. التقت نظرتانا لحظة، كانت ملامحها جامدة فخفتت ابتسامتها. ركزت نظرتي عليها في تحدٍ لم أدرِ أنا نفسي سببه، فأطالت النظر بثبات من يداري انفعاله، ثم رمشت مرتين خاطفاً، وحولت نظرتها إلي "إيمان" تقبلها في حماس. كانت رائعة، جميلة بشكل لا أستطيع وصفه، لكنني نحيت ذلك جانباً وأحسست بانتصار غامض. أدرت النظر في القاعة المتواضعة وقطع "الجاتوه" في الأطباق الورقية وقطع المائدة البلاستيكية ووجوه المدعوين التي بدت وكأنها تنتظر هذه اللحظة "الغذائية" بشغف، ورفعت أنفي بتعالٍ أخاطب به نفسي. انتهى الفرح، وعدت لألملم جراحي وأنظر إلي أوراق سفري وأجهزها أكثر، وأفضل.

* * *

منزل "عماد"، يناير 2025

فاجأتني دقات الباب فوجدت على بابه ابن "البواب" برأسه الصلعاء هو الآخر، وقامته القصيرة وصوته الناعم وهو يقول لي أن هناك "أستاذاً" يطلبني بأسفل. هنأت البواب على إبنه الذي على ما يبدو قد ولد إبان غيبوبتي فلم يكن هنا منذ سنوات، فارتبك بشكل غير مفهوم ربما بسبب أنه لم يستوعب بعد كيف أعود إلي الحياة بعد كل هذه السنين، وشكرني بكلمات قصيرة. رافقت عماد بسيارته – ذات التصريح الخاص - ليقلني إلى منزله. وصلنا لمنزل "عماد"، وكان "عزمي" قد سبقنا. قام "عماد" بتشغيل جهاز ليعرض اسطوانات تسجيلية لأحداث الثورة. كنت وكأنني لم أنس تلك المشاهد على الإطلاق. انتقل في شرح سلس بين كل ذلك ووهو يبطيء من مشهد هنا أو يعلق على آخر. كنا جلوساً على أريكة مواجهة للشاشة، وقد انتقل بيننا ولد صغير بملابس بسيطة ولكنها نظيفة، يناولنا المشروبات من على صينية أنيقة. عرفنا "عماد" به أنه "كمال"، خادمه الجديد، من أسرة صغيرة في بلدهم بالقرب من "الفيوم". انتظرت حتى رحل الطفل الجميل، حليق الرأس تماماً ذو العينين الواسعتين، والابتسامة اللائقة به وبسنين عمره الثمانية، ثم أبديت استيائي قليلاً لـ"عماد" بشأن أهل الطفل الذين يرسلونه للعمل في هذه السن، فنظرا هو وعزمي لبعضهما نظرة سريعة متوترة، وقال عماد في مرح مفاجيء: "دنيا، لا

أحد يعرف، ربما يحتاجون للمال". بدا لي شيئاً ما متناقضاً، لكنني عدت للتركيز مع مشهد هام ظهر على الشاشة و"عماد" يواصل شرح ما يحدث:"هذا هو أول مشهد، الإعلام كله يخلد تلك الذكرى، هذا هو أنت منذ أربع عشرة عام، تتحدث لمذيع الـــ "سي إن إن"، ماشاء الله عليك، أنت تقريباً لم تتغير، شعيرة بيضاء هنا وأخرى هناك، هذا هو كل شيء. هذا هو "الماستر بيس" بتاعك يا بطل، شايف إللي في طرف الصورة ده، أللي لابس أبيض؟ ده أنت، شوف بتضرب الولد وتنزله من على الجمل إزاي؟ بعد ذلك أوسعه الناس ضرباً حتى سال دمه، لكن هجمتك الشجاعة كان لها الفضل. شوف بقى المشهد ده كمان، الراجل إللي بجلابية ودقن ده حتلاقي صورته في كل حتة وهو بيحضن الشاب الأسمر ده، أبو دقن ده "محمود السمان" بنفسه، والتاني ده من شباب الألتراس، يوم محمد محمود، آخر يوم جمعة. هذا هو ما سوف تسمعه في كل مكان، لكن الحقيقة غير كده خاااالص، اللقطة دي قبل يوم التنحي على فكرة، شكل "السمان" كده كان بيحميه من هجوم البلطجية، ولا أي حاجة تانية مش عارف، لكن لا أحد صار يعلم ترتيب الحوادث. أنا بس علشان صورتها بنفسي، محدش يقدر يضحك عليا. في كل مكان تلاقي الناس بتشيد بأدوار ناس معملتشي حاجة، الإعلام بيلعبها صح الصح، يرفع ناس وينزل ناس، وكله محسوب. آدي كمان "أكرم"، أيام ما كنا فاكرينه من الثوار الكبار، شايف رافع العلم وماسك البندانة الحمرا في إيده وبيزعق في بتوع الأمن

المركزي إزاي؟ معلللم.. حقوللك على حكايته طبعاً، بس لما نخلص. آه، هذا هو المشهد الأخير.. عاوزك تركز معايا كدا.. شايف ده مدخل "محمد محمود"، إللي لابس قناع ده هو أنت، شيك قوي على فكرة، والغاز أهو في كل مكان. بس، الفيلم خلص".

قلت في تلقائية: "بس كده؟ وانتوا خليتوني بطل علشان اللقطتين دول؟ مش بعادة يعني؟ طيب و"السمان" مخليني بطل جنبه ليه؟ أنا مش فاهم حاجة على فكرة.. "أكرم" الذي كان ثائراً، صار لواء أمني صارم، "حسام" تحول عن الطب وصار مستشار الرئيس، أين إبني؟ أين "هريدي"، ثم ما الذي يحدث في البلد ليل نهار، ما أصوات طلقات الرصاص التي تدوي في كل مكان؟"

صمتا تماماً، فقلت مطأطئاً رأسي: "أنتم تخيفونني، تظنون أنكم تطمئنوني بهذه المسرحية؟ أنا لا أفهم بماذا أحس أصلاً، إيه إللي بيحصل؟ لم أصادف أحداً أبداً إلا وتغير حاله لشيء غامض، ثم لابد وأن يسألني ما إذا كنت قد تذكرت ما حدث.. هل عادت ذاكرتي كاملة؟ أين المشكلة؟ أهو شيء لا أتذكره أم شيء لا أعرفه؟"

كان صوتي قد بدأ يعلو وانفعالي يتزايد فحاول "عزمي" أن يربت على كتفي فتملصت منه مغتاظاً وقلت: "لماذا قبضوا عليَّ في المطار فور وصولي؟ لماذا أنا ولست أنت مثلاً؟ أنت كنت مع الثورة قلباً وقالباً.. هل تغيرت أنت أيضاً؟ هل يقبضون على

الأبطال يا "عماد"؟ لماذا أنفقت الدولة عليَّ خلال مرضي؟ ما الذي جعل الطبيب الألماني يعامل مندوب السفارة بهذا النفور؟ فيه إيه؟"

قال "عماد" في بساطة: "أنا متفهم صدمتك.. لكن.."

قلت في غيظ أكثر: "لكن أصبر؟ وأسترخي؟ أليس كذلك؟.. أريد رداً الآن.. ما الذي يحدث؟ ما هو معسكر الملاحدة الذي سأذهب إليه؟"

قال عزمي وهو يشير له: "عماد، من فضلك احكِ كل شيء حصل بعد "محمد محمود"..". وأضاف وهو يسترخي: "أي وقت تتعب ولا عاوزنا نوقف كلام، قل ولا تتردد.."

* * *

أدهم، لتعلم أن ما قيل عن ذلك كله، ولقد عرفت منه الكثير من "عزمي" ومن "عماد"، قد أثار ذهولي بما يكفي، لكنه جعلني متأكداً أنك لا تعرف حقيقة ما حدث، خاصة بعد ما رأيته من أحوالك، وما عرفته أنا عن الحقيقة. الحقيقة التي ربما لم ولن يذكرها لك سواي، وهنا بالذات.

هذا يعيدني لما كنت أنتوي أن أقول: كيف بدأ الأمر؟

كانت فترة طويلة من العبث. معارضة الإسلاميين الذين وصلوا للحكم كانت معارضة غير منطقية، وغير منظمة. لن أذكر أسماء فأنت تعرفها، لكنني أعرف أن الكثيرين ممن رفعوا لواء الوطنية، كانوا في حقيقتهم عملاء لمصالحهم هم. هكذا شاع عنهم، فاختلطت صورتهم بصورة الجادين القليلين. لم يعد

ممكناً وسط كل هذا الصراخ والعويل والمبالغة من الجميع، أن تميز الصالح من الطالح، ولا المقصد الحسن من غيره. لكن الإسلاميين– علي تغير حكوماتهم وتعاقب التغييرات فيها بشكل أضر بالاستقرار الاقتصادي بعنف – قنعوا بأن الكل يعاديهم. أدي ذلك إلي أن صموا آذانهم عن الكل، لكن هذا "الكل" كان يشمل المخلصين والشباب الثائر النقي، ومجموعات الألتراس و "6 أبريل" والشعب البسيط الذي كان يراقب كل هؤلاء ويمنحهم جزءاً من اهتمامه الذي يفيض عن الانشغال بأزماته الطاحنة اليومية من غذاء ووقود وبطالة تفاقمت بشكل مذهل. الفئة الوحيدة التي ناصبت الإسلاميين العداء بشكل منظم كانت مجموعات متطرفة من الإسلاميين أيضاً، قليل من الإخوان (وهم الذين تم الدفع بهم بعد ذلك في صدارة المشهد للإيحاء بأنها ثورة تيار علي تيار آخر في نفس الجماعة) والكثير من السلفيين والجهاديين ممن لم يغفروا تهميشهم في الحكومات المتتالية. هؤلاء لعبوا دور الصيد في الماء العكر من خلال المساعدة في مشاكل الحياة اليومية فانتشرت المستوصفات ومنافذ توزيع السكر والزيت وأنابيب البوتاجاز، وكانوا يجدون الدعم اللازم لذلك من جهات كثيرة، ولم يكن أيٌ منها مصرياً. تزامن هذا أيضاً مع اشتعال الأمور في سيناء مرة أخري، ووجدت الحكومة نفسها بين عدة مشاكل في وقت واحد لكن كلها تلخصت في مشكلتين: طرف خارجي يحاولون تفادي المواجهة المباشرة معه، وجبهة داخلية تغلي وتبحث عن أي شيء

يسترضيها. كان الخيار الحقيقي هو من يرضي من؟ إرضاء الخارج وتجنب غضبته أولاً أم استرضاء الداخل بنصر سريع؟ وكان أن اختار الإسلاميون كالعادة الحل الوسط. خاطبوا العالم بخطاب لين ومهادن. تحدثوا عن الشجب والتنديد ووقف إطلاق النار، واحترام الشرعية والمواثيق الدولية، بينما دعوا في الداخل إلي الجهاد ضد العدو ونعتوا الأمريكان والغرب بكل النعوت الشيطانية التي طالتها ألسنتهم. نشطت الفضائيات في حشد الجماهير فخرجت مظاهرات التأييد والحث علي الجهاد وغرقت البلاد في شلل مشوب بالنشوة لأيام. بعدها ولما طال التظاهر، أحرق المتظاهرون كالعادة عربات الشرطة وقوات مكافحة الشغب ولم يمسوا أي سفارة لتأمينها الشديد بقوات بلاد تلك السفارات كما كان التقليد قد اتبع منذ زمن طويل وبعد حوادث مماثلة. هذاهو الذي نفته أبواق الفضائيات الدينية الموجهة ساعتها بشدة ومر علي الناس مرور الكرام. لكن خطاب الإسلاميين لم يعجب الغرب الذي كان قد ضاق ذرعاً بما حدث.

كانت "أمريكا" قد وصلت إلي قناعة غذتها حوادث كثيرة علي مر السنوات، أنَّ مشكلتها الحقيقية في عداء الشعوب لها، وأنَّ أوَّل ما يغذي ذلك العداء هو لهجة الخطاب المزدوجة. لم يعد يكفي ولاء الحكومات، بل صار ولاء الشعوب حتمياً، بعدما عرفت طريقها لاستبدال الحكام وإسقاط الحكومات. جاء ذلك الطلب في لقاءات سرية كثيرة علي ألسنة مسئولين أمريكيين

ونظائرهم من الإسلاميين. لكن تعدد القيادات وأسلوب التصريحات المتضاربة استمر، واستمرت معه ازدواج اللهجة من الحكومة المصرية.

كرر الأمريكيون طلبهم بشكل أكثر حدة، فطلبت الحكومة مساعدات مالية ضخمة. برر رئيس الحكومة وأحد قيادات الجماعة ذلك برفع مستوي الخدمات الرئيسية، كمسوغ ومهديء يسمح ولو مؤقتاً بتمرير خطاب معتدل في مواجهة أزمات كبري كمشكلة سيناء ومشاكل غزة المتكررة، وتعهد مقابل ذلك بالالتزام بما تريده أمريكا. وافق الأمريكيون علي مضض لكن رئيس الوفد قال بصراحة أنَّ "ذلك هو اللقاء الأخير، وإما يعقبه تغيير ملموس، وإما سيكون اللقاء المقبل مع حكومة مصرية أخري!". أثار ذلك التعليق تحفظ ذلك القيادي البارز بشدة، لكنه صمت وعض على ناجذيه في غيظ لتمرير الصفقة. جاء القرض الأمريكي سراً، وبدأت الحكومة، بعدما هدأت التظاهرات، في دعم بعض السلع والوقود وفي خلال أسبوعين فقط كان الناس قد أحسوا تغييراً حقيقياً. تم صرف المرتبات المتأخرة واعتماد ميزانية جديدة زاخرة بالعلاوات والزيادات، وبدا انَّ الأحوال قد تحسنت، كما تحسبت الحكومة للمشاكل القادمة فعقدت مباحثات واجتماعات موسعة مع القوي السياسية والشباب لوضع تصوراتهم للملفات العاجلة. دارت هذه المناقشات العلنية شهرين كاملين، وتم تنفيذ بعض الأمور العاجلة بانتشار الأمن أكثر وتأمين الطرق السريعة وحماية

المدارس والمناطق الصناعية من هجمات البلطجية والعصابات. لكن عند هذا الحد بدأت القوي السياسية تنتبه لملف سيناء مرة أخري، وبدأت بطبيعة الحال ترتفع أصواتها للمطالبة برد فعل قوي بدلاً من الميوعة العتادة. كان تحسن الجبهة الداخلية وفياق الناس من مشاكلها الملحة قد لفت أنظارهم مرة أخري إلي ما تم إلهاؤهم عنه قصداً من قبل. لكن الحكومة حاولت المماطلة فزاد ضغط القوي السياسية، وهددت بالعودة للمظاهرات التي لم تكد تتوقف منذ أسابيع، شعرت الحكومة بالخطر يأتيها من الجبهة الداخلية مرة أخري وهم لم يكد يستقر لهم الحال بعد إصلاحات "أموال المعونة السرية"، مما اضطر رئيس الجمهورية للخروج في خطاب رسمي يعلن فيه عن تخصيص أموال ضخمة جداً لتسليح القوات المسلحة والقيام بعملية تطهير "سيناء" في القريب العاجل. أثَّرَ ذلك الإعلان المخيف في كل الأطراف، فاعتبرته "إسرائيل" إعلان حرب صريح، وضاعفت من تعزيزاتها ومن حشد قوات الاستطلاع، بينما تدفقت ردود الأفعال الغربية المتشككة، ومظاهرات القاهرة والعواصم العربية التي رفعت صور "جمال عبد الناصر" وأعلام القاعدة، وحرقت اعلام "إسرائيل". كان واضحاً أن المعونة السرية يتم التلاعب بها، وأن الحكومة لا تنتوي أو لا تستطيع الوفاء بوعد الخطاب المتسق مع المصالح الأمريكية وسيناء، رغم وضعها المتأزم. في خلال ساعات من الخطاب التاريخي، أرسلت الحكومة الأمريكية تستدعي رئيس الحكومة المصرية وقيادي الجماعة

الأبرز ووزير الدفاع المصري للتشاور السري بالسفارة، كما كان يحدث كثيراً خلافاً للأعراف، دعوة هي إلى الأمر أقرب، خلت تلك المرة من الود المعتاد. كان السفير في منتهى الصلف والغضب، بل كان أقرب لمن يتشاجر علي قارعة الطريق فاتحاً أزرار قميصه والزبد يتناثر من فمه وهو يصرخ في غيظ. قال لهم صراحة أنهم يراوغون، وأنهم يقدرون قوتهم غير قدرها. لم يعد يلمح بشيء. قال أن صبر الإدارة قد نفذ، وأنهم يراقبون بكل انتباه رد فعل حكومة ظنت أنها أذكي من الأمريكان فتلقت ثمناً ولم تلتزم بما وعدت به بوضوح. قال أيضاً أنَّ الحكومة التي تعتمد خطاب الإثارة داخلياً ثم لا تستطيع السيطرة على تداعياته في المنطقة وعلي أمن إسرائيل، هي حكومة بات رحيلها حتمياً. ذكرهم بأن من جاء بهم إلي الحكم يستطيع أن يأتي بغيرهم بسهولة ويصفيهم لو أراد، وأن ذلك تهديد صريح لو شاءوا أن يفهموه كذلك. هنا نفذ صبر القيادي البارز هو أيضاً، قال للسفير أن الأمريكان لم يساعدوا أحداً، وأن زمن التهديد قد ولَّى، وأنَّ: "مسألتي سيناء وغزة خطان أحمران ولن يسكت الناس على تهاوننا فيهما أكثر من ذلك، بل إن الثمن الذي تذكره أقل كثيراً مما يجب أن تتحملوه إصلاحاً لبلد أفسدته سياساتكم الحمقاء". تمادي فقال له أنه إذا لم يحترم نفسه فالطرد ينتظره هو وبعثته الدبلوماسية. أضاف بعد ضحكة شامتة صفراء "أنَّ هذا أيضاً تهديد صريح، لو شئت أنت أن تفهمه كذلك!". حاول وزير الدفاع عبثاً تهدئة الموقف، بينما صمت رئيس الحكومة احتراماً

لزعيمه القيادي المعروف. قام السفير غاضباً في صلف من مكانه مُنهياً المقابلة، بينما حاول رئيس الحكومة استئناف الحوار لكن السفير تركهم ومضي من الغرفة واقتادهم أمن السفارة فوراً للخارج.

لعلك تفاجأ بما أقول، لكن ما أسماه الإعلام "ثورة التطهير" هو كذب وتلفيق برمته. لم يحدث كما أشيع رسمياً، وكما خرجت التقارير الأمريكية تباركه، أن انشق الجزء المتشدد علي التيار المحافظ في الإسلاميين وأطاح به. سأحاول أن أشرح لك أكثر: لعل أحداً لم يلحظ عدم الاتساق بين صورتين: الأولى مظاهرات التأييد للحكومة لموقفها المتشدد من سيناء ولإعلان الرئيس مسألة زيادة التسليح لمواجهة مشاكل سيناء والتصدي للغرب "الجبان" ومِن ثَمَّ التصادمات العنيفة على إثر ذلك مع الشرطة، وبين الصورة الثانية التي أتت بعد ذلك: ما حدث بعدها من تنديد بالحكومة؟. مسألة أن العنف المفرط من الداخلية هي التي استثارت التيار المتشدد "لحرمة الدماء"، هو أمر يثير ضحكي كثيراً. لكن لا أحد في مصر ينظر للوراء ويتذكر، ثم يفكر ويقارن ويفهم. في الصورة الأولى، قامت مظاهرات التأييد لدعم موقف متشدد للحكومة من قضية قومية وموقفها ضد الغرب، فماذا حدث حتي تنقلب الدنيا علي نفس الحكومة بسبب تشددها أيضاً وفي نفس الاتجاه، في الصورة الثانية اللاحقة؟ خرج وفد الحكومة من لقاء السفير أكثر تشدداً عن ذي قبل. وزير الدفاع حسم القضية بأن الجيش مستعد لتنفيذ أوامر الرئيس، أيّاً كانت.

رئيس الجمهورية ورئيس الحكومة اجتمعا بمجلس الأمن الوطني واستمعوا للقيادي البارز في اهتمام. كانت لهجة الخطاب المقترحة قد تغيرت. هو، الذي كان مهندس العلاقلات بين مصر وأمريكا، وامتلك وحده خاتم التعهدات السابقة بيده، قرر أن الأمر صار ثأراً شخصياً، ولم يكن أحد من القوة بحيث يعارضه، ولا الرئيس ولا الجماعة كلها، حتى وهو ينحدر بها وبالبلاد نحو الهاوية، حتى والكثيرون يرون ذلك ويقسمون على حدوثه في قرارة أنفسهم. ربما تقرأ عن الموقف الشجاع الذي اتخذته الحكومة وعن عدم الرضوخ لتهديدات أمريكا، لكن صدقني فما أقصه عليك هو ما حدث حقيقة وليس تدليساً كما حملته التقارير. قررت الحكومة، بعد ذلك الاجتماع الذي رسم القيادي البارز قراراته، أن تصعد من لهجة العداء وتواصل اللعب بأوراق الجهاد وشعارات الوحدة العربية، والتي ظنوا أن حشدها على المستوى الشعبي يعطيهم قوة لا تناطحها أية أيادٍ أمريكية. ظهرت لقطات وتسريبات مقصودة لأسلحة من الصين وروسيا ومعدات ثقيلة لتسليح الجيش، وعملت آلة المأجورين من الإعلاميين بكامل طاقتها وزأرت صواميلها لتصم الآذان. لكن لعبة الإعلام لم تقتصر علي أنصار الحكومة وأذنابها فقط. قادت التيارات المعارضة حملة واسعة من خلال الفضائيات أيضاً، اشترك فيها مقدمون برامج وصحفيون مأجورون ومحللون مغضوب عليهم من النظام ومعادون له، كل هؤلاء ساهموا في تحول مظاهرات التأييد السابقة إلى انفجار من الفوضى

والاحتجاجات اعتراضاً على سياسة الحكومة في الداخل والخارج. كانت أطراف أمريكية وعربية قد قررت أن مركب الإسلاميين توشك علي الغرق الفعلي، وأن الحل لم يعد في مد يد المعونة لهم كما كان يحدث من قبل، بل في التعجيل بإغراقها. نشطت قنوات ممولة معروفة وأطراف كثيرة جداً مشهود لها بالنزاهة، سقطت أمام إغراء أموال كانت تتدفق في جنون، وتحت بريق وعود بالمناصب في حكومة أخرى وشيكة. هكذا امتلأت مصر بحوادث القتل والاغتصاب المخزية التي سمعت عنها، وبدا ان شيوع المتهمين وتنوع انتماءاتهم يصعب أكثر وأكثر من تتبع الدافع وراء تلك الأحداث. لكن كل هذا كان مقصوداً لخلق حالة من توحد كل التيارات ضد كراهية الحكومة التي فشلت في حفظ الأمن وحماية الأعراض والممتلكات. كان "أكرم"، بوحدته الخاصة الشهيرة، هو العقل المدبر وراء تلك الحوادث على طول مصر وعرضها. ظهرت برامج أقامت الدنيا ولم تقعدها للتنديد بمسألة مقتل الطالب الملتحي الشهير، ودهس رمز للمعارضة المدنية لم يختلف تيار واحد علي تقديره شخصياً وفكرياً، والتحرش بالطالبات في الجامعات من قبل جماعات مجهولة، وكلها حوادث لم تصل فيها الشرطة كالعادة إلا متأخراً، ولم يتم تحديد الجناة، وفي بعضها لم يتم فتح تحقيق من الأساس كما كشفت بعض الصحف. توالت استقالات رؤساء النقابات ومنظمات المجتمع المدني وعمداء الكليات، واكتظت الميادين بالاحتجاجات الفئوية العارمة وظهرت فجأة مظاهرات

"عايز شغل" التي اعتصم فيها الآلاف مطالبين بحل للبطالة، ومظاهرات كثيرة أخرى لا تعرف من أين جاءت ولم ينتبه الناس إلى أنها ليست لها علاقة بما يجري على الساحة، فغفلوا عن توقيتها المريب، اعتصامات لجامعي القمامة، واعتصامات لسائقي النقل احتجاجاً على سوءحالة الطرق، وأخرى لعمال البريد وثالثة لطلاب المعاهد الفنية. كالعادة كانت الداخلية عند ظن الجميع، فتوالى القمع والاعتقال والاستخدام الأهوج للقوة، لكن الأمر كان يتفاقم ساعة بعد ساعة. كانت الحلقة تضيق حول الحكومة بشدة، أو هكذا أرادوا لنا أن نصدق. آتت تلك الحوداث أثرها سريعاً، تعاطف الجميع مع الاحتجاجات، من يؤيد الإسلاميين ومن يكرههم، واجتمعوا لأول مرة على فشل الحكومة في إدارة البلاد. وظهرت فجأة منظمات لحقوق الإنسان تندد بالأمر ووصل الأمر للأمم المتحدة، وتفاقمت مشاكل البنك الدولي التي كانت قد هدأت لفترة فجأة، بالذات مع ذيوع دعم السلع الأساسية والوقود بالمال السري الأمريكي، الذي يكن أحد يستطيع أن يصرح بمصدره بالطبع، لذا اعتبر البنك أنَّ هذه هي أموال القرض التي اتفق على توجيهها في مناحي معينة ليس من بينها الدعم، وغادر وفد البنك مطار القاهرة وهو غاضب ويهدد ويتوعد. بعد هذه الأحداث بفترة، لم ينتبه أحد طبعاً أن البنك توقف عن المطالبة بسداد القرض وعن طرد مصر من عضويته بعد إتمام تلك الأحداث التي تعرفها أنت باسم "ثورة التطهير" وبدون مقدمات، ولم يربط أحد بين تلك الأحداث

الغامضة أبداً وأنها كانت كلها في إطار التصعيد المنظم لإسقاط الإسلاميين واستبدالهم بنوع أكثر طيعاً. لكن حقيقة "التطهير" هو أن أمريكا كان قد نفذ صبرها مع الإسلاميين وقررت استبدالهم "الآن". في نفس توقيت هذه الاضطرابات، سربت صحيفة أمريكية شهيرة خبراً تم تداوله بسرعة البرق عن رشوة أمريكية للحكومة المصرية في مقابل التنازل عن سيناء وإغلاق ملف غزة ورفع الدعم عن السلع مرة أخرى. كانت الوثائق دامغة والفضيحة مدوية في أروقة الكونجرس وتعددت جلسات المناقشة العلنية، وتحليلات الخبر. لم يكن هناك دليل حقيقي في الأوراق على الهدف من تلك المعونة، ولا علي مصدر تسريب الخبر، لكن الأثر المرجو للإشاعة كان قد بدأ يتشكل في مصر. زاد كل ذلك من ضغط المتشددين والمعارضة علي أعصاب الناس الذين وجدوا في ذلك الخبر مع ذيوعه وتعدد المؤكدين له القشة التي قصمت ظهر ترقبهم، رأوا لأول مرة أن الحكومة: "ورطت مصر في مشاكل مع كل الأطراف، ارتشت وكذبت، وخانت الأمانة ولم تراعِ فينا حرمة الدم ولا العرض"، كما قال "محمود السمان" زعيم المعارضة المتشددة في تصريح مصور انتشر على شبكة المعلومات الدولية سريعاً، وتلقي تأييداً شعبياً معقولاً ولأول مرة في أوساط المعارضة المدنية، وترحيباً أمريكياً واسعاً. هو نفسه "محمود" الذي زارني منذ سنوات وطلب مني الانضمام لهم في المسجد لدروس حفظ القرآن، تذكره طبعاً؟. تدرج في الحياة السياسية ودراسته للحقوق، حتي

صار معروفاً بخطبه الحماسية وتصريحاته القوية، وكان أبرز المتشددين وقتها. حاول إعلام البرامج الدينية كالعادة، جاهداً، إنقاذ الموقف بأسلوبه المعتاد: رسم المؤامرة علي أنها تُحاك ضد الإسلام وضد المواقف الوطنية، لكن الناس كانوا قد سأموا تلك النغمة، والأخطر أن البسطاء كانوا في طليعة هؤلاء. أذاعت قنوات التيار المتشدد هذا الخبر عشرات المرات ووصمت الحكومة والرئيس بالخونة والزنادقة. أما قنوات المعارضة المدنية، فقد أذاعت لقطات انتشرت في مصر كلها عن سحل وضرب القيادي الشهير بالإسلاميين، والذي كان يشتهر بالتبرير لأي موقف حكومي بحجج الاعتدال والتعقل، وعن التهجم علي داعية معتدل شهير في قريته، وكان ذلك إشارة الخطر لغضب شعبي يسقط أصناماً بشرية في تطور مذهل. بين يوم وليلة صحا الناس علي قوات الشرطة وهي تحرس بكل رقي لم يُثر تساؤل أحد مرة أخري، مظاهرات حاشدة تحاصر المنشآت الحيوية، وعلي مشهد مظاهرة بعينها تحاصر قصر الاتحادية والمتظاهرين يعتلون أسواره. لم ينتبه أحد وقتها إن هذه المظاهرات، التي أطلقوا عليها "ثورة التطهير"، وبرغم الخروج العفوي للكثيرين ممن ألقي الإعلام المدسوس في روعهم لأيام طويلة أنَّ الحكومة فشلت في إدارة كل شيئ ، كانت منظمة بشكل دقيق كما كان دافعها السأم من كل شيء: فلا الأمن عاد، ولا الوظائف توفرت، ولا الأسعار اعتدلت، وها هو ذا قمة الفشل بمشاكل سيناء والحصار الدولي لنا وتصريحات قطع

المعونة ومشاكل المديونيات، والأهم من ذلك: الخيانة وبيع الوطن. "كل ذلك لأننا تهاوننا في شرع الله"، قالها "محمود السمان" في غضب لا مثيل له في حديثه التليفزيوني الشهير من أمام قصر الاتحادية، والذي سجلته عدسات أمريكية لم يعرف بها أحد وتناقله برنامج مصري معروف في سرعة البرق. هلل الواقفون بترتيب محكم، وانطلقت رصاصات القناصة تحصد المتظاهرين في قسوة. أعرف أنك رأيت المشهد الدموي الذي فجر مصر كلها وكتب مشهد النهاية، اقتحام القصر وإضرام النار في مقرات الحزب والجماعة وقتل قياداتها في المحافظات. لكنني أعرف أنك لا أنت ولا أي من الناس اطلعت علي الفاعل الحقيقي. كان "السمان" وجماعته قد خططوا لكل ذلك منذ زمن طويل، وكان القناصة الأمريكيون منتشرون في كل مكان بترتيب مسبق قاده السفير الأمريكي بنفسه، وكان الضحايا من قوي الثورة وشباب الوطن الذين انساقوا وراء "السمان" وجماعته كالقطيع بعدما طمأنهم سراً إلي أن كل ما في الأمر أنهم سيطيحون بالحكومة المنغلقة علي نفسها، تمهيداً لتشارك الجميع في الوطن. أسرهم بحديثه المعسول ونظراته الثاقبة وذكائه الاجتماعي.

هكذا يا ولدي، حوكم الرئيس وقامت حكومة "السمان"، بعدما استقر لها الحكم، بإعدام أعضاء الحكومة الإسلامية الأولى والكثيرين ممن والاهم في مشاهد معروفة. حرص "السمان" على نشر خبر إعدامهم جميعاً رجماً، لكن الحقيقة

التي لم يعلمها أحد أن حكومات غربية تدخلت لمنع ذلك، فاكتفى بإعدام بعضهم، وقبع الباقون في السجن سراً في أماكن غير معلومة. وهكذا بدأت فترة "السمان" في مصر.

غير أن موقعة "جمعة الحجاب" كانت قصة أخري!

كانت "شاهي" فتاة مسيحية عادية جداً. خرجت من مصر لدراسة النظم الديمقراطية بجامعة برلين الحرة. ذهبت للكنيسة ترتدي غطاءاً للرأس، وخرجت منها وهي تنتوي شراء شيء ما. ظلت بغطاء رأسها ووقفت علي أول الصف لتدفع حساب مشترياتها. تخطي الرقم علي شاشة الخزنة ما في جيبها، عجزت ألمانيتها عن التعبير فأمسكت سكيناً كانت قد ابتاعته وأشارت به نحو البائعة لتقول بالإشارة أنها لا تريد شراءه. اتسعت عينا البائعة، وصرخت العجوز الواقفة خلفها في هلع. انقض الأمن عليها وجذبوها من شعرها فوقع غطاء الرأس في الاشتباك وسجل أحد الزبائن الألمان ما حدث على فيلم قصير بواسطة هاتفه المحمول. في قسم البوليس اتضح كل شيء في دقائق، بعدما شهد البعض أن السكين كانت ملفوفة في عبوتها وأنها قالت بالانجليزية أنها لا تريد شراءها لأن نقودها لا تكفي. اعتذروا لها وانتهي الأمر. غضبت وبكت قهراً لأيام، لكنها عدلت عن العودة لمصر سريعاً، ولم تعد لها إلا عندما أنهت فترة سفرها التي خططت لها سلفاً. هذه هي القصة الحقيقية لما حدث. دعك من الفيلم القصير الذي وجد طريقه إلي الإنترنت والذي أذاعه الداعية الديني الحكومي في برنامجه فأقام مصر ولم

يُقعِدها لأيام. تلك الصورة والخبر اللذين قالا بأن الفتاة المسلمة تُهان ويُغْتَصب حجابها لا لشيء سوي أنها مسلمة. دعك أيضاً من المظاهرات التي حشدها ذوي اللحي وجماعة "السمان" لأيام وعن التحرش بأمن السفارة الألمانية وعن القتيل الذي سقط علي إثر ذلك والذي جعل المشكلة أكثر عنفاً. كان "السمان" يبحث عن بطولة يبدأ بها عصره، لكنه وكعادتهم لم يحسبها جيداً واعتمد علي جمهوره وقوة الحشد في الشارع لافتعال أي مشكلة ثم احتوائها بضغطة زر. صحيح أنه نجح في الاحتواء بعد ذلك وأثلج ذلك صدر الأمريكان كثيراً رغم التوتر مع الألمان، لكن ما لم يحسبه، هو رد فعل الشباب غير المسيس، الذي بدأ يتعامل مع الموضوع بشكل منظم، ويسلك السلوك الذي كان قد قارب على أن يكون ذكرى في مصر: أن تنظر للوراء وتتذكر، ثم تفكر وتقارن وتفهم.

كان أغلبهم لم يشترك في التظاهرات لارتيابهم في "السمان" بعد خيانة عهده معهم بل والقبض علي كثيرين منهم ممن لم تقتنصهم رصاصات القناصة إبان تظاهرات الاتحادية. بدأ هؤلاء يبحثون عن أصل الموضوع بأسلوب كان جديراً بالمهللين من الإعلاميين الذين خدعتهم آلة السمان الدعائية. طبعاً كان الوصول للحقيقة بالقراءة والبحث في شبكة المعلومات والترجمة لتصريحات الصحافة والشرطة الألمانية أسهل مما تتصور. جاءت الفضيحة أن الأمر لم يكن أكثر من سوء تفاهم، وأن الفتاة مسيحية أساساً!. عندما ذاع ذلك الخبر في بعض

الصحف المستقلة والمواقع الالكترونية بمصر، فضلاً عن مكالمة على الهواء في برنامج حكومي معروف، أقيل على إثرها القائمين عليه فوراً، دفع ذلك آلة الدعاية للسمان – لا شعورياً من جهة، واستغلالاً للفرصة السانحة من جهة - على تهدئة الخطاب الداخلي الرسمي أكثر وأكثر وتم اعتماد نغمة التسامح مع الغريب، ونشر صورة جيدة عن الإسلام بالممارسة الفعلية وليس الصوت العالي، تقبل الناس ذلك بهدوء، وأبدى السفير الألماني ترحيبه بتلك التصريحات. المؤسف أن هذا "الاكتشاف" دفع بالقنوات الدينية لاختيار حجة مشينة للدعوة إلي الكف عن التظاهر وهي أن "البنت طلعت بنت كلب، والمسلم الحق ينتقي معاركه" كما قالها الداعية المعروف بصفاقة يُحسَد عليها!!. خاض أيضاً متلمزاً وغامزاً في فجور، في سبب سفرها وحدها للخارج، وفي سبب هجوم الأمن عليها، وألمح إلي أنه لديه معلومات موثقة عن أشياء يخشى على مشاعر "الأخوات" اللاتي يستمعن له الآن منها!!. ظلت قنوات "السمان" وخطباء المساجد يرسخون لمبدأ "بنت الكلب" في إصرار. جاء الرد من الشباب في سخرية موجعة تركزت علي التفريط في حق المصري "إللي مفيش علي راسه ريشة"، لكنها بالطبع تم تأويلها في عبارات أخرى وأشكال للاعتراض على الأئمة والرغبة في معاداة الإسلام.

المقاومة الشرسة لهؤلاء الشباب وتلك الحركات التي أبدت اعتراضها جاءت في أشكال كثيرة، تصاعدت أولاً في صورة

هجوم على صفحات التواصل الاجتماعي، ووقفات بسيطة للاعتراض، لكن لم تكن "جمعة الحجاب" إلا رد فعل وتتويجاً لكل ذلك، خاصة بعد احتكاك بين مجموعة من الشباب التابعين للسمان أطلقوا على انفسهم "جماعة الحق"، وبين وقفة سلسلة بشرية محدودة أمام "ماسبيرو" اعتراضاً على برنامج الداعية الذي أشعل الأزمة.

كانت فضيحة "جماعة الحق" حقيقية ومأساة دامية تستطيع أن تتابع تسجيلاتها وترى بعينيك حجم الوحشية والدم الذي أريق بالسيوف ووسط التكبيرات ومشهد سائق التاكسي الشهير الذي انبرى للدفاع عن الشباب فتم ذبحه وإحراق سيارته. لم يكن من الممكن التعتيم على ما حدث، فانتشرت المشاهد في كل مكان وكتبت الصحف وتحدثت البرامج عما حدث وعلقت بأذهان الناس صرخة أم السائق وهي تدعو على "السمان" وعلى الحكومة وتقول جملتها الشهيرة التي أدمت قلوب الناس فوراً: "إبني مات يوم ما البنت المسيحية اتشتمت وسكتنا عشان مش لابسه طرحة يا ناس. خليكو.. خليكو.. خليكو لحد ما الرجالة كمان تلبس طرح علشان مايقطعوش فينا ولا يقتلونا، حسبي الله ونعم الوكيل فيكي يا مصر".

بعد صلاة الجمعة التالية على هذا الحدث، كانت مليونية جمعة الحجاب. تجمع الآلاف في ميدان الساعة بالإسكندرية. حاصرت قوات الشرطة، التي كانت شديدة الرقي أيام تظاهرات الاتحادية، يومها مظاهرات الشباب في إصرار وبيتوا النية منذ

اللحظة الأولي على التعامل العنيف مع الذين نزلوا رافعين شعارات ساخرة كان أبرزها هو "الشعب يريد الإذن بالحجاب.. لأن الرجالة خلصت خلاص". هذه المظاهرات بدأت سلمية تماماً وليس كما صورها إعلام الدولة المتأسلم وقتها بأنها مسلحة، وأن المتظاهرين حرقوا القرآن، وأنهم مجموعات من المسيحيين الذين استهزأوا بالإسلام، وان الكثيرين من البلطجية اندسوا وسطهم، أو أنهم كانوا من عبدة الشيطان. للأسف يا ولدي أنَّ أيَّاً من ذلك لم يحدث، كله كان كذباً. أخفى الإعلام صور الكثيرات من المحجبات والمنتقبات اللاتي كن ضمن المظاهرة ثم جاءت جثثهن ضمن من جاءوا للمشرحة. لم تكن حركة محدودة أو أعمال شغب يا ولدي، لكنها كانت من المرات النادرة التي نزلت فيها طوائف عريضة من البسطاء المقتنعين بالفكرة الراقية البسيطة بوضوح: فلاحين، طلبة وعمال، أمهات بسطاء أثارهن مشهد "شاهي" وهي ينكل بها، واستنكرن بشدة هجوم الإعلام عليها وعلى شرفها خاصة بعد ذيوع الحقيقة. لكن الشرطة، وببرود أعصاب غريب، حصدت العشرات في أول ليلة كأنهم خراف وليسوا بشر. اشتعل الموقف أكثر لكن التظاهرات هدأت بعد أسبوعين دمويين وكأن الناس قد استنزفت أو انتهت طاقتها وتكسرت على صخرة الوحشية البوليسية.

هذا يا ولدي، ما دفع من تبقي من هؤلاء ومن أصابهم الذعر مما حدث، إلي إطلاق حملة "مش عاوز إسلامكم" الأليمة. قال "أدمن" الصفحة في البيان الأول أن عنوان الحملة

لا يعبر عن معناها، وأن المقصود هو أن هؤلاء، وكان يشير طبعاً "للسمان" ومن علي شاكلته، لا يشرفنا أن نكون مسلمين مثلهم، ولا أن نؤمن بالدين الذي يؤمنون به من فرط ما شوهوه، وجعلوه لنصرتهم هم فقط، حتي ارتبط دفاعهم عن الفتاة المصرية بشرط أن تكون مسلمة، ومحجبة أيضاً، ثم استباحوا دم كل من يقف في وجوههم وكأنهم كفار "لا يشرفنا الانتماء لمجموعات تجسد الانتماء للظلمات وتجثم علي صدر الوطن وتكبل أحلامه باسم الدين. لا ننتمي لنسختهم التي فشلت في استلهام تطور الحياة وروح العصر، والتي أرادوا بها أن يضحكوا علي الأرض وعلي السماء معاً، لكنهم نجحوا فقط في أن يجعلوننا نحن، خير أمة أخرجت للناس، أضحوكة الناس". هذا المعني تم الطمس عليه بعنف من قبل آلة "السمان" الدعائية وشيوخه في المساجد وجمهوره علي الأرض، لدرجة أن الناس، وهم لا يكلفون أنفسهم عناء القراءة ولا التدقيق على أية حال، قد وصل إليهم عنوان الحملة الصادم فقط ولم يشغل أحد نفسه علي الإطلاق بقراءة ما يحويه. ساعد على ترسيخ تلك الصورة السلبية، ذلك التأييد الغربي الواسع لتلك الحملة وانضمام الكثير من المسيحيين المرعوبين من حكم "السمان" لها، لكن الأسوأ أن الحركة نفسها وأعضاؤها الأكثر عدداً، بدأوا فيما بعد يتحولون التحول الذي تعرفه رغم أنك لم تشهد كيف ولد. كان فيما يبدو وكأن الكثيرون قد وجدوا في العنوان نفسه هروباً واعتراضاً عملياً مجسماً لسيطرة الإسلاميين لفترة طويلة

علي البلاد، وتنفيساً عن إحباط آمالهم الثورية عاماً بعد عام، انضم كثيرون ممن لم تصلهم أيضاً فحوى الحركة على الفور، هؤلاء وآخرون كان لهم أبلغ الأثر في التحول المخيف الذي حدث، لكن ذلك لم يبدأ على الفور. كان "السمان" قد وجد من واجبه أن يركز على سحق الحركة، لا بسبب عنوانها، لكنه كان صراع قوة لا أكثر ولا أقل. هؤلاء كانوا بالنسبة إليه معارضون يهاجمون حكمه وكل ما آمن به وأفنى عمره في الدفاع عنه. لا تصدق مسألة نصرة الإسلام، فكل الشواهد تؤكد أنه هو ورجاله قد استوعبوا كل ما أخفوه وقاموا بالتشويش على العامة كيلا يفهموه. بدأ التضييق عليهم بشتي الطرق. لكن الضربة القاضية لم تكن أيضاً قراره وحده للأسف، مرة أخرى كان ذلك سيناريو مختلف عما تعرفه.

كان من العسير على الحكومة أن تطلق يدها في اعتقالات لأعضاء الحركة أو ما شابه ذلك، خاصة بعد ما انضم إليها العديد من المفكرين المصريين والأدباء والسياسيين الليبراليين، وقد أدركوا المقصود منها. ولَّد ميلاد ذلك التيار ردود أفعال دولية واسعة من الترحيب ، مما أثار مخاوف "السمان" من الإتيان بأي حماقة تضعف موقفه مع الغرب ومع الأمريكان مرة أخرى كسلفه. اكتفى في البداية بتجاهل الحركة وعدم التعرض لها بتعليق رسمي يصدر بإسمه، آليات تضييق الخناق وإتلاف السمعة والتشويش ظلت طبعاً تعمل بكفاءة ليل نهار من أطراف أخرى بعلمه لكن بحساب، بينما تعددت زيارات منظمات المجتمع

المدني لمصر واجتماعاتها مع البارزين بالحركة. رحبت أحزاب ليبرالية غربية بالفكرة وقالت أن حل التطرف الديني في المنطقة قد بدأ اليوم، وأن أبلغ رد على تنظيم القاعدة هو في نشر ذلك الفكر المستنير في المنطقة. كنائس أمريكا وألمانيا وهولندا أعلنت تأييدها لنشر الفكر الإسلامي السليم، وتعددت دعوات ممثلي الحركة إلي مؤتمرات ثقافية لدعم تقارب الحضارات في عدة عواصم غربية. كان ذلك تناقض عجيب بين صورة مصر في أذهان حضور تلك المؤتمرات وبين الصورة الجديدة التي نقلها هؤلاء الشباب ومعهم العديد من خيرة المفكرين وقتها. كانوا يرسمون صورة جديدة لمصر، صورة متفتحة تؤمن بمعتقداتها بشدة، لكنها تدرك تطور الزمن ولا تسمح في الوقت ذاته بالمساس بالمقدسات. تكلم هؤلاء الشباب كثيراً عن عقيدة الآخر واحترامها، وعن ثقافة الاختلاف في الإسلام، وعن دور العلم في الدين، وعن أشياء بدت وكأنها شديدة الإبهار لكل من استمع إليهم. كانوا بالفعل واجهة مبشرة وشديدة التعقل للبلد، لم يثنِ عزمهم أي استفزاز من ممثلي الطوائف الدينية المختلفة، أو من روابط اليهود المنتشرين في كل مكان، والذين تسللوا إلى اجتماعاتهم وندواتهم، يحاولون التشويش عليهم بكل وسيلة. صارت العديد من المقالات تظهر أسبوعياً عنهم بكل منبر ثقافي محترم، وبدأت العديد من الإشادات بشباب مصر، لكن ناقوس الخطر في أذهان هذه الروابط دق مع ظهور حركات غربية استوحت أفكاراً من هؤلاء الشباب، ودعت لفهم الإسلام وقللت

من تطابقه مع الإرهاب. إحداها سمت نفسها: "إسلام إرهابي؟ فكر مرة أخرى من يكون الإرهابي؟" وذيلت شعارها بنجمة داوود، تمحوها ممحاة على شكل أهرامات صغيرة. لكن الطعنة كانت لابد وأن تأتي من الداخل، ومن الخلف.

كان لابد وسط هذا الجو أن تؤدي حالة التفكير الدائم والتساؤل المستمر من عقول غير مدربة، كأغلب هؤلاء الشباب، أن يحدث انحراف عن الغاية. أغلب هؤلاء كانوا مدفوعين بحماسهم أكثر من ثقافتهم التي، علي الرغم من تفتحهم، كانت غير كافية للخوض في مشروع تنويري صعب كهذا. في المقابل كان العقلاء من المفكرين قد بدأوا يبدون مخاوفهم من انجراف الشباب وراء حماسهم الزائد، فتعددت اعتراضاتهم على أسلوب الحوار في تلك الندوات. كان هناك اتجاهان رئيسيان، الأول حاول التركيز على شرح تفكير المصريين وإيضاح التساؤلات الشائعة عن الإسلام الحديث وتوضيح الفارق بين تعاليم الدين الصحيحة وجوهره، وبين التأويل الخاطيء لمن هم مثل "السمان" وجماعته. تحدث هؤلاء عن الختان، وعن الحجاب، وعن زواج البنات المبكر، وعن عمل المرأة، ونظرة المسلمين لها وعن الجهاد ومفهومه. كانت كلها أمور تلقي ترحيباً واسعاً من المستمعين. كان أصحاب هذا التيار يرون أن هذا هو المقصد الرئيسي والمهم من أجل تصحيح صورة مصر عند الغرب، وكمقدمة لفعل نفس الشيء في الداخل. قاوم هؤلاء، ومعظمهم من واسعي الثقافة في

الحركة، التيار الثاني الذي بدأ ينجرف لاستفزازات الطوائف اليهودية ومندوبيهم الذين بدأوا مع الوقت يُسقِطون أسئلتهم على واقع الغرب، ويستعلمون عن رأي الإسلام فيها، تصيداً وأملاً في تصريح من هنا أو هناك. تعددت المواجهات رويداً رويداً، وسارت الأمور في مسارات جيدة في البداية، لكن المحظور وقع.

كانت هذه هي "مظاهرات أمستردام" الشهيرة، والتي انقلبت على أثرها الأمور في العديد من الدول الأوروبية.

التقط "عزمي" طرف الخيط من "عماد" وواصل كانه يكمل حديثه: "أنا أستطيع ان أحكي لك هذا الجزء، تذكر لقاءنا في ألمانيا بك أيام بعثتك طبعاً في 2004؟ التقيتك يومها وتحدثنا عن أمور كثيرة، لكن "شاهي" وأنا لم نكن هناك لحضور مؤتمر فقط. كان الكيل قد فاض بنا، وقررنا أن نحاول التغيير. "شاهي" التحقت بدورة تدريبية عن الديمقراطية في "برلين"، وأنا كنت أحضر المؤتمر وأحاول اللقاء بمجموعة من المفكرين الذين اجتمعوا لمناقشة التغيير في الدول المتخلفة سياسياً. تعددت هذه اللقاءات وبالطبع لفتت أنظار حبايبنا في "أمن الدولة"، أنا أساساً وجه معروف، وكل الأمر أن نشاطي تغير. انتقل ملفي من ضابط إلى الآخر، لكن هذا لم يمنعني أن أحاول التغيير بعلاقاتي التي جمعتها من كل مكان. أيام يناير، كانت لصلاتي أكبر الأثر في نقل الأخبار أولاً بأول. لاحقتني وآخرين تهم الخيانة والعمالة، لكن دعك من هذه الأمور الآن.

عندما قامت الثورة وموقعة الحجاب، وبدأت حركة "مش عاوز إسلامكم" في الظهور، كنت من المنضمين حديثاً لهم، لكنني كنت واسع الصلة بهؤلاء المفكرين الأوروبيين والكثير من الحركات السياسية هناك. ربك يعلم، إني حاولت أساعدهم بالنصيحة وإنهم يتعلموا من تجارب الناس دي، لكن للأسف الشباب اعتبروا إني ضيق الأفق، وإني مش ثوري كفاية. شوف انت أنا اتبهدلت في الدفاع عنهم قد إيه؟ لكن طلعت مش ثوري كفاية. في الفترة دي بدأ خطاب الولاد يعمل مشاكل، تماماً كما قال لك "عماد": الموضوع بدأ يومها في ندوة بسؤال عن العدالة الاجتماعية، فخ واضح جداً، طلب السائل إنه يعرف رأي مصر والثوار في العدالة الاجتماعية في أوروبا، والنظام التأميني للصحة والمعاشات تحديداً، و"هاتك يا عك": الولاد بتوعنا تنافسوا في مقولات الحق والجمال والعدل وانتقدوا حكومة "هولندا" بعنف. لما خرجت مظاهرة تأييد مجهزة لهم كانت في الأول سلمية، لكن غير قانونية، وانت عارف الدول دي مفيهاش هزار. هجمت الشرطة علينا كما كان مخططاً من اللي نظموها، انضربنا، لكن الناس اللي جت تدافع عننا كانوا عشرات، بعدين مئات، بعدين سدوا أكبر ميدان في أمستردام، وأعلام مكتوب عليها "ثورة بروح ميدان التحرير"، محدش طبعاً سأل نفسه الأعلام اتطبعت امتى ولا مين إللي جهزها بالأعداد دي؟. ساعة أو أكتر، وبدأ العنف: كل إللي ييجي على بالك، حرق ونهب متاجر في كل أنحاء "أمستردام"، اعتداء

على البوليس، وغيره وغيره. الجماعات اليمينية كانت جابت آخرها من حكوماتهم من زمان، لكن هناك من استغل ذلك لتدمير كل الأطراف بلعبة حقيرة."

سكت للحظة وأطرق برأسه كأنه يتذكر ثم واصل بسخرية: "تصور؟ محدش سأل نفسه إيه إللي يخلي ولاد زي دول يتكلموا عن رأي الإسلام ورأيهم كمصريين بيحاولوا يكلموا العالم عن الوسطية والعقل، إيه إللي يخليهم يدخلوا في مشاكل زي دي ويتورطوا في إنهم يقولوا لبلد تانية في عقر دارها: سياستك في العدالة الاجتماعية والتأمينات والصحة غلط؟ إلا إذا كانوا فعلاً بيدافعوا عن صورة دينهم، مش عيال مستغربة ومتشيعة وكفرة؟ إيه إللي يخليهم يتقال عليهم بسهولة كده كفرة أو ملاحدة؟ يا أخي أنا سمعت من الولاد دول كلام رائع، ناس قاريين وفاهمين من غير خوف يا "مصطفى"، ومن غير أفكار مسبقة مسممة ملوثة، ومن غير فتاوى معلبة موجهة لئيمة."

تنهد وقال وهو يشير بيده في عصبية: "المهم، تم ترحيلنا، واتقبض على ستاشر واحد مصري، وحوالي تمانين هولندي. مسألة إن المظاهرات والشغب كانوا مدبرين من اليمين المتطرف وجماعات يهودية هناك، محدش فهمها للأسف، والإعلام عندنا تلقف الموضوع وهاتك يا سلخ في العيال اللي شوهو صورة مصر والبلطجية اللي كسفونا والكلام ده. ساعتها طلعولي مقال كنت كتبته قبلها بسنة ونص، اسمه "تصدير الثورة"، طبعاً كنت أساساً بحذر من اللي حصل ده بالضبط،

وبقول إنه هيحصل لو استمر الأولاد في خطابهم المنفلت وفقدوا رؤيتهم هم عاوزين إيه وقرروا يخوضوا معارك غيرهم. لكن المقال اتنشر عنوانه مع هجوم صارخ عليَّ، محدش بيقرا حاجة وكله عايش على السمع الطياري يا "مصطفى". اتقبض عليا واتحقق معايا شهر ونص لكن طلعت، الأمر كان "شو" إعلامي، زي ما تقول كده: "آدي الصحفي المحرض مسكناه وحققنا معاه، تمام كده يا أمريكا؟ أي أوامر تاني؟". لكن الأمر تحول إلي مأزق حقيقي، لأن حكومة "السمان" أصبح مهم لديها أن ترضي الحكومات دي بأي شكل، لأن اللعب كان بدأ يوسع خالص. الجماعات اليهودية ماكانشي من مصلحتها ولاد زي دول يبقوا نجوم، مش علشان خايفين على أوروبا، لكن على نفوذ اليهود هناك وتأثير الرأي العام إللي بدأ يغير فكرته عن العرب والمسلمين تدريجياً، أو كاد أن يفعل، كمان كانوا عارفين إن الولاد دول لهم قاعدة شعبية كويسة في مصر. بعد كل إللي البلد مرت بيه، فيه ناس كتير في مصر بدأت تفهم إنهم نيتهم كويسة، فيه ناس كتير فقدوا حماسهم لحكومة "السمان"، ناس كتير فقدت حماسها للقوى السياسية كلها ووجدت الأمل في الأولاد دول، بعقلهم وذكاءهم، وأسلوب حوارهم الهاديء، والإحساس الذي يداخلك أنهم فعلاً لا يهمهم سوى مصلحة الناس، ونصرة الحق بجد. ده كان فيه ناس كتير كمان فاهمة كويس رسالتهم "مش عاوز إسلامكم"، لكن تقول إيه في غسيل المخ؟"

التقط نفساً عميقاً، وقطع حديثه إذ دخل "كمال" ليلتقط أكواب المشروب. القت عيناي بعينيه الجميلتين، فابتسم. أشار إليه "عماد" بيده أن يسرع في حركته فتَسَرَّع، والتقط كوبين دفعة واحدة، وقع أحدهما على إثر ذلك فانكسر. انتفضنا جميعاً من حالة التركيز العالية التي كنا عليها، ونهره عماد في غيظ فانتفض وهو ينظر إليه صامتاً خائفاً، ثم استدار على عقبيه وجرى ليحضر ما يلتقط به البقايا المتناثرة على الأرض أمام أقدامنا من شظايا. قلت لــ"عماد" في لوم: "يا أخي لا تلومه هكذا، غلبان ولسه صغير". قال لي ما معناه أنه تكرر منه ذلك الأمر، ربتت على كتف كمال لكنه كان غاضب الوجه في براءة وانكسار وهو يواصل التقاط الشظايا التي جرحت إصبعاً له لكنه واصل وقطرة دم تنزف فتلوث الأرضية الخشبية، لحسن الحظ لم يلمحها "عماد" وداريتها بقدمي بعد ذلك. أشرت لعزمي من طرف خفي أن يكمل حديثه لكنه اشار لي بالانتظار حتى يرحل "كمال". ما إن غاب بالداخل من حيث جاء، حتى قال عزمي ما معناه أنه من الأفضل ألا نتحدث امامه، "مهما كان ده طفل وممكن يحكي مع أهله والمسألة مش ناقصة". نظر له "عماد" في لوم غريب ثم قال: "يا أخي انت مش عارف إنه مش بيعرف يتكلم؟". سألت إذا كان هذا لا يعني بالتبعية أنه لا يسمع؟، فقال "عماد" في مرح أصاب دهشة مخفية عندي، وكأنه تفاجأ بتلك الحقيقة:" صحيح، مابيسمعشي أكيد، ما هو عشان كده مفيش خطر".

واصل "عزمي": "المهم، تلاقت كل الرغبات، حكومة في الداخل خايفة من خطر الولاد دول، إللي لا بيخافوا ينزلوا ولا بيهمهم وقت ولا مكان، بيوصلوا للناس في كل مكان وبيكلموهم بلغتهم، وعندهم إصرار وحماس ومحدش يعرف يشتريهم ولا يسكتهم. وعلى الناحية التانية حكومات غربية عايزة تسكت الناس دي علشان آخر حاجة يريدونها هو ثورة عندهم بنموذج مصري، وكان عند الحكومات دي استعداد رهيب لدعم أي حاجة يعملها "السمان" جوه البلد بشرط واحد: "مايسمعوش عن العيال دي تاني".

* * *

هنا برز دور الأجهزة الأمنية بضراوة، ودور الناس إللي كانت مستنية إشارة بس. أطلقت حكومة "السمان" حملة اعتقالات واسعة للقبض على هؤلاء الشباب، وأودعتهم معتقلات بالعشرات، بل بالمئات. انتفض زملاؤهم في الجامعات، ومن تبقى من هؤلاء هم من يسمونهم الآن "شباب الجامعات"، لكن الكثيرين منهم وقتها انضمت أسماؤهم فوراً للباقين، أثبت "أكرم" ساعتها أنه يعمل بكفاءة، فضمه "السمان" فوراً للحكومة. أطلق يديه في الشارع والجامعات، التي قامت بها مظاهرات عاتية، دعا إليها الشباب كل القوى السياسية الليبرالية الأخرى، للتظاهر ضد قمع "السمان" ورجاله. لكن هؤلاء كانوا مازالوا منقسمين في الجدل حول نوعية إجراءات اقتحام الجامعة ومدى وجاهة الانسياق وراء حكومات الغرب في

القبض على شبابنا، وطريقة التظاهر ومطالب المتظاهرين، وأسماء الحكومة البديلة وحكومة الظل التي لم يقدر لها بالطبع أن تولد، وكيفية تحرير المعتقلين الستة عشر في "أمستردام". طبعاً خرجت المظاهرات بأعداد معقولة لكنهم كانوا صيداً سهلاً، إذ هنا جاء دور "جماعة الحق"، التي أعلنت عن عدم نزولها للمظاهرات، وأيَّدت قرارات "السمان" علناً، لكنها أرسلت خفية من يفسد المظاهرات. كان هذا هو سبب حريق جامعة القاهرة وتفجيرات أسيوط والأسكندرية والمهازل التي حدثت في بورسعيد والمحلة والزقازيق، طبعاً لم يعرف أحد أبداً من وراءها، لكن أيدي جماعة الحق أدارت كل شيء من خلف الستار، حدث ما حدث من مصائب دفعة واحدة، وكلها جعلت الاعتقالات لحركة "مش عاوز إسلامكم" أمراً مرحباً به بشدة من الناس الذين بدا عليهم وكانهم نسوا كيف ولماذا يحدث ذلك كله. لم يعد أحد يتذكر، من الذي اعتقل ومن يتظاهر من أجله فيُعتَقَل هو الآخر؟ من الظالم ومن المظلوم؟. لا يخفى عليك أن الأمر كان يحتاج إلى تلميع إعلامي للقرارات التي سوف تتخذ، فانهال الدعاة في المساجد والمرتشون في الصحف والفضائيات للتباكي على الإسلام الذي طعنه هؤلاء الكفرة، وعن أتباعهم من شباب الجامعات "المضحوك عليهم"، وعن "مصر الوسطية المؤمنة" التي ترزح تحت نيرانهم الصديقة. بين يوم وليلة، سيق الآلاف من المعتقلين من أنقى شباب مصر إلي السجون، باسم استعادة الأمن وتطهير مصر من المرتزقة الكفرة.

اعترض مندوبي حقوق الانسان وحكومتي أمريكا وهولندا، خاصة أن التهم كانت الإلحاد وإهانة الذات الإلهية، وتردد كلام عن محاكمة شعبية وتم حشد آلاف من "جماعة الحق" للمطالبة برجم هؤلاء موتاً في الميادين. تم الإفراج عن بضعة مئات كونوا مع آخرين نواة "شباب الجامعات" وهؤلاء استمروا في كفاح صامت من نوع آخر. لكن هنا خرج "حسام" بفكرة رائعة أنقذت الموقف. كان قد تزوج من "ندى" وأنجب منها وصار اسماً معلوماً في أوساط الجراحين وبين الطبقة الراقية، لكنه كان يبحث عن المزيد. شهرته جلبت إليه فرصة أن يعالج "السمان" من شكوى طبية ما، فانتهزها وتقرب منه زمناً، لكنه ظل يتحين الفرصة الأكبر، حتى جاءته.

كانت حكومة "السمان" في ورطة كبيرة، بعدما شحنوا الناس في اتجاه القصاص وتجريم هؤلاء الشباب، فإذا بضغوط الخارج تتصاعد في اتجاه المحاكمات التقليدية التي لم يدخر "السمان" ووزراؤه ودعاته جهداً في السخرية منها والتقليل من عدالتها. كان لابد من تصرف يحفظ ماء وجهه، ويحميه من شماتة الليبراليين والقوى السياسية التي كانت تتحين الفرصة للكلام والقفز على السلطة في ثورة تطهير ثانية، تعوضهم عن غدر السمان بوعوده لهم بعد الثورة الأولي. كانت الحكومة تبحث عن انسحاب تكتيكي ما، يبقي على السلطة وبالأساس على الأموال التي تتدفق والمعونات التي تتوالى عليهم، كما برزت جهات أخرى عربية تعرفها. الكل كان يلوح بإغلاق

صنبور المال، هذا بدافع الإنسانية وذلك بدافع عدم إعطاء مثال يرهقه في الداخل، رغم تشدق الجميع بتجريم الشباب، لكن ما كان يدور خلف الحجرات كان شيئاً آخر.

قلت في نفاذ صبر رغم أنفاسي المبهورة: "المهم يا عزمي، "حسام" كان صاحب فكرة معسكرات الملاحدة؟"

-"اسمها الدارج هو "بيت الملاحدة"، في كل كام محافظة تلاقي واحد أو أكتر. عشرات، آلاف، مئات، المهم البيت مليان من الولاد دول. حراسة 24 ساعة، أكل وتموين وتطعيم ضد الأمراض، ممنوع دخول أي وسائل اتصالات، "حسام" أعطى لـــ"السمان" فكرة متكاملة، مسألة الاستتابة والرعاية والعزل، كلها فكرته وقد انبهر بها "السمان" لدرجة أنه نفذها كما هي، بل وقربه فأعطاه الإشراف عليها، وترقى "حسام" في الرئاسة حتى صار مستشاره، وصارا صديقين، كمان على المستوى العائلي. بيت الملاحدة دائماً بيت كبير تم بناؤه خصيصاً لعزل هؤلاء الأولاد. لكن في بعض الأحيان، استعان "السمان" بمبانٍ موجودة فعلاً، استولى عليها بحجة الاستتابة. ماتتصدمشي من إللي حقوله، لكن مستشفاك كانت واحد من هذه المباني. اللواء "فؤاد" كان طلع معاش من فترة، والاتهامات التي وجهت إليه صعبت من تدخله لحماية المبنى الذي تمتلكه عائلته. الكل كان يهرب من مساعدته، ويخشي "أكرم"، النجم الجديد وبطش رجاله. صعود "أكرم"، رغم إنه كان من رجاله، بدل كل شيء. في ساعات، المبني اتأمم وبقي تبع "جماعة الحق" إللي أجبرت

الطبيب اللبناني - الذي كان شريكاً - علي منحه لهم باسم كل الشركاء، في صورة قرض حسن. الورق الرسمي أعلنوا عنه كذلك، لكن الحقيقة إنهم هددوه إما يمشي ويترك كل شيء، يا إما يقتلوه هو و"إسراء". هكذا، بكل مباشرة. كل هذا كان يتم بتخطيط "حسام"، الذي كان أول من اختار المبنى وأشار به على "السمان"، وده طبعاً وافق فوراً. وضع "أكرم" كل ثقله خلف الأمر، وتولى بنفسه مهمة ترحيل الطبيب من مصر. "إسراء" أيضاً كانت ترغب في مغادرة مصر منذ زمن. فقط "أدهم" كان يبقيها هنا، فلما حدث ما حدث اضطرت للرحيل. ظللت شهوراً أراعي "أدهم" وأطمئن عليه بنفسي، كان في فترة حرجة وقد أنهى دراسته الجامعية لتوه، والجو كله ملخبط فلم أتركه وحده أبداً.

قاطعته في قلق بدأ يملأني تدريجياً: "و"أدهم" حصل له إيه؟"

قال مطمئناً: "أدهم بخير لا تقلق، دعني أكمل لك. كل الغرض من بيت الملاحدة كان مجرد صبغ الأمور بلون ديني شرعي، وبالتالي إرضاء وإقناع الأنصار في الداخل وتفادي غضب الناس الذين فزعوا اولاً مما حدث من اعتقالات وحشية، ثم تغير المزاج تحت ضغط الإعلام وانتشار فكرة أنهم "كفرة"، هذا كله يحدث بينما تجري في الواقع محاكمة عادية جداً بتهم التظاهر والإلحاد، قضايا ضعيفة لكن حتى هذه يتم التعتيم عليها، وهي اساساً لإرضاء الخارج".

استدار نحوي بكل جسمه ونظر في عيني وقال في بساطة:
"كان لازم تعرف كل ده، أنت سوف تذهب لإلقاء محاضرات عن التوعية. يعني مصر والانتماء الوطني وغيره. عملياً، نحن تابعنا الكثيرين ممن دخلوا هناك وتحدثنا معهم، المسألة تسديد خانات لا أكثر ولا أقل، يريدون أن يقولوا للعالم نحن نتابعهم ونحاول غسيل عقولهم بالإصلاح الفكري. محاضرتك مع الأولاد والبنات دول منقولة على الهواء مباشرة من خلال جريدة مرئية واسعة الانتشار، لكن فرصتك في ما يطلقون عليه "الأحاديث الخاصة" التي يستخدمونها للتوعية. هذه لا يهتمون بها، فهي في الأغلب فرصة لك للتعرف عليهم، ولا تفوتها من فضلك. يطلبون من المحاضرين كتابة تقارير وإيداعها البيت نفسه، لكن احداً لا يقرأ ولا يتابع شيئاً، هم لا يهمهم أي شيء مما يحدث، ويقولون في الداخل في إعلامهم أنهم يستتيبوهم ليعودوا عن ضلالهم. لا توجد رقابة عليك من أي نوع، "منك ليهم" يا مصطفى، وحتاخد أجر محترم على كل زيارة. لكن المهم لازم تعرف إن "حسام" خطط للموضوع ده من يوم ما عرف إنك فقت من الغيبوبة. "أكرم" نفذ أوامر "حسام" و"السمان"، فقبض عليك علشان لا تهرب منهم لأنك أنت بالذات مطلوب. أنت بالذات، ولزيارة هذا البيت بالذات.. هذا البيت، دون غيره!!"

بدأت أفهم..

اتسعت عيناي هلعاً، فحاول احتضاني، لكني ابتعدت عنه بحركة حادة. ارتعشت يداي قليلاً وأنا أفكر كيف أصوغ سؤالي

المتأهب على طرف لساني. لمحت "كمال" وهو يبتسم من خلف ستائر المطبخ البعيد وينظر لي في براءة و"عماد" يربت على كتفي ويسألني في قلق: "مالك؟". خرج سؤالي فحيحاً من حلق جاف: "أدهم فين؟" فقال "عزمي في ألم: "اثبت يا مصطفى، أدهم بخير. مفيش بيت في مصر معندوش ولد أو بنت، قريب أو قريبة في بيوت الملاحدة. فيه اتنين انت تعرفهم هناك يا "مصطفى"، "غادة" بنت "أحمد هريدي"، و"أدهم" ابنك..!!"

* * *

لن أقص عليك شعوري لحظتها، ولن أصف لك هلعي عليك. لكن تلك الجملة المخيفة ظلت تلح على مسامعي طوال الطريق إلي مستشفاي القديم، الذي صار "بيت الملاحدة نمرة تسعة"، ظل صوت "عزمي" وهو يقولها يتردد في أذني، وأنا أعبر الأسوار المحروسة بكثافة من جنود ملتحين، ومن جلابيب بيضاء ووجوه متشككة غاضبة بلا سبب، وظللت أذكر كلماته وأنا أجلس في استقبال المستشفى الذي كان يعج منذ سنوات بطنين المرضى والذي انطبعت آثار أقدامي جيئة وذهاباً عليه وأنا أنتقل بين العمليات غلي الكشف جيئة وذهاباً. لكنني بدأت أدخل إلي حالة من القلق كلما اقترب موعد المحاضرة التي حضرت من أجلها. جاءني من عرَّف نفسه أنَّه "أمين البيت" وتأملني بعينيه الخضراوين في اهتمام استغربته. ابتسم وقادني

إلي الباب في هدوء وهو يخبرني أن "الملاحدة كلهم جوه مستنيينك يا دكتور، نورتنا أهلاً وسهلاً".

* * *

أول ما خطر ببالي بعد استيقاظي من الغيبوبة، وتأكد لدي عند سماعي بوجودك في بيت الملاحدة، هو أنك ضعت بدوني. هكذا هم الآباء، ربما يبالغون في تقدير حمايتهم، أو يقللون من تقديرهم لأبنائهم، وأعلم أنك تظن بي الأمرين معاً، ربما لكتابتي لك تلك الرسالة، أو لأنني غبت عن حياتك طول هذا الزمن، وأيضاً بالضرورة لما ألقته أمك في روعك عني. لكنني – والحق أقول – لم أكن لحظتها أنتظر أن أجدك على تلك الحال التي صرت عليها. ساعتها داهمني شعور عجزت عن وصفه. اختلطت بداخلي الدهشة، والندم، وكانت لحظة أعدت فيها حسابات كثيرة. كنت قد وطدت نفسي قبل أن ألقاك على كلام كثير أقوله لك، أول جملة، أول معنى وأول سؤال. لكن كل ذلك تلاشى الآن، وصرت أرغب في شيء واحد، هو أن أقص عليك قصتي لنكون أصدقاء، حتى لو وجدت تلك الصداقة طريقها على الورق أو في صورة ملفات إلكترونية.

أدرت عيني في المكان. قاعة كبيرة، كانت عمليات في الماضي. هنا في ذلك الركن كان يقف جهاز التخدير، وعلى الجانب الآخر تقبع مناضد الأدوات وبينهما منضدة العمليات، لكن الآن صارت الحجرة خالية إلا من صفوف من المقاعد الصغيرة، تراص عليها شباب وشابات. عرفتك. لا تسألني كيف

ولماذا، فأنا نفسي لم أفهم لكنني لم اشك لحظة أنه أنت. لمحتك تجلس في الخلف وبجانبك "غادة". التقت عينانا فجفلت أنا للحظة، لكنني تماسكت. دار ببالي لحظتها، أن أحادثك فوراً، لكنني قدرت أن الوقت غير مناسب، وكنت أعطي لنفسي فرصة أكبر لاستيعاب ما يحدث لي ولك. التمع ضوء الكاميرا في وجهي، وأشار ذو العينان الخضراوان لي أن أبدأ حديثي.

قلت كلاماً كثيراً عن الترحيب بكم، وعن الظروف الصعبة التي لابد وأنكم تتحملونها. قلت أن مصر لم ولن تنساكم، وأنكم امتداد جيل الثورة. نظرتم لي بعيون متحدية غاضبة، لكنني لم أدرِ ما إذا كنتم قد يئستم من الاعتراض على مثل هذا الهراء الذي كنت أقوله كما هو مكتوب في الكتيب، أم انكم كنتم تكتمون غيظكم مني ومنه.

انتهت المحاضرة فاندفع الشاب الأسمر أخضر العينين وهو يلتقط مني الميكروفون ويشكرني ثم يصطحبني للخارج. فتح لي حجرة كانت عيادتي من قبل، وقال في لهجة ودود: "اتفضل استريح يا دكتور في "أوضة الضيوف". ثواني وممكن أبدأ الأحاديث الثنائية. سأحضر لك مجموعة الملاحدة المخصصة لحضرتك اليوم اثنين اثنين، هم على العموم خمسة فقط."

* * *

ناولني ظرفاً مغلقاً به أجري عن الزيارة وابتسم مرة أخرى في تهذيب وحدق فيَّ كأنه ينتظر أن أفاتحه في أمر ما. هو يظن أنني أعرفه. أصبحت أعرف هذه النظرة البلهاء التي تدعوك

للكلام، كأننا صديقان قديمان، هذه النظرة التي تمنحك فرصتك في أن تراجع نفسك وتعترف بأنك تتذكره، وكأني أتظاهر بالنسيان. صرت أتعامل معها ببرود حتى أتذكر من تلقاء نفسي مشهداً ما أو تداهمني خاطرة كاشفة، أو يُعَرِّفَنِي الشخص بنفسه. ترك أمامي دفتراً كبيراً قال أنه لتسجيل تقريري عن الزيارة وبه الأسئلة الاسترشادية، ولمحت توقيع "حسام المنزلاوي" على التقرير السابق باعتماده. كان اسمك واسم "غادة" من بين الأسماء الخمسة، فانقبض قلبي هلعاً وفرحاً في نفس اللحظة. أمرت ذي العينين الخضراوين أن يدخل لي اثنين منكما، وتظاهرت بأنني أختار اسمين عشوائياً من السجل الذي أمامي، وألقيت إليه اسميكما.

تذكرت كلام عزمي بالأمس، وتذكرت رده المخيف عندما هدأت بعد حديثه معي عن احتجازك في "بيت الملاحدة"، وسألته: """أحمد هريدي" فين يا "عزمي"؟ أنا عاوز أشوفه دلوقتي، أرجوك". نظر إلي "عِمَاد" مرة أخرى، لكن ذلك الأخير هز كتفيه في حيرة وصمت. رفع عزمي رأسه إليَّ وألقى القنبلة التي خشيت منها، القنبلة التي أحسست بألم شظاياها وسمعت صوت انفجارها يتردد طويلاً في خيالي، فلم أصدقها ولم أستوعبها إلي الآن. قال قاطعاً تردده بسرعة ، و بقسوة كأنه قصد أن يزيح عن صدره هماً ثقيلاً: " "هريدي" تعيش إنت يا مصطفي!!. اتقتل يوم حريقة المجمع العلمي أيام "محمد محمود". يمكن ده يفهمك ليه بنسألك كل شوية الناس دي قالت

لك إيه في القصر، اطلب له الرحمة يا مصطفى، واطلبها لنا إحنا كمان".

لكنني وسط لوعتي وفزعي.. جلست في تلك الحجرة أنتظرك أنت و"غادة"، وكان لابد أن يوحي لي كل ذلك بمزيد من الأفكار والعذاب والصور، عني، وعن أمك، وعن "هريدي"، وأشياء أخرى..

* * *

صيف 2005.. القاهرة..

كنت قد عدت من ألمانيا منذ أسابيع.

لا يوجد الكثير الذي يمكن أن أخبرك به عن هذه الفترة. من ناحية ارتحت من المسار الذي أرادوه لي، ومن ناحية أخرى أراحني جداً نمط الحياة هناك. نسيت القسم ومشاكله، الدكتوراه وصعوبتها، وانخرطت في العمل والحياة. ساعدني إتقاني للألمانية، فحصلت على الزمالة الألمانية ووجدوا لي عملاً في مستشفى "تشاريتيه" التي ابتعثت بها عندما نفدت فترة البعثة ذات السنتين، وحصلت من مصر على أجازة ممتدة لسوات ثلاث أخرى. فقط "إسراء" كانت غير سعيدة. ظننت في باديء الأمر أنها الوحدة، والغربة فحاولت تكثيف علاقاتنا بأسر المصريين في "برلين". لم تقتنع بصداقة أحد بل وانتقدت أفعالهم ومظهرهم بشدة وانطوت على نفسها أكثر. عشنا أيام البعثة ممزقين بين رغبتي في النجاح وإتمام عملي، وبين سعينا

الدءوب للإنجاب. ربما كسرها ذلك أكثر عندما صارحنا الطبيب الألماني بحاجتها لعملية منظار. عاندت قراره فلم أمانع، لكنها لم تحمل. جاء حملها الأول كاذباً، فزاد اكتئابها. كنت أعيش حياتين: في العمل تسير أموري بشكل ممتاز، يزيد الاعتماد عليَّ شهراً بعد شهر وتنفتح أمامي الأبواب المغلقة، وفي البيت أصارع الصمت والزفرات الحارة ورغبات "إسراء" المتكررة بالعودة لمصر. شجارات كثيرة، كانت تنتهي باستسلامها وبكاء غزير، فينفطر قلبي لها وأهديء من روعها. جاء ذلك اليوم الذي وافقت فيه تحت إلحاحي على العملية. أمها حضرت من مصر خصيصاً، واتصل بنا الملحق الطبي للسفارة تحت ضغط "فؤاد" ليعرض علينا المساعدة. طبعاً كان التدخل المعتاد وفكرة "فؤاد" الخرقاء بعودتنا لمصر لتلقي العلاج هناك، لكنني رفضت بإصرار، رغم تبجح أمها ونقاشات "إسراء" الجدلية الطويلة. طبعاً دفعت ثمن إصراري قلقاً و"حرق" أعصاب طويل، وكلام صريح عن "العند إللي ماكانش له لزوم"، عندما تأخر الحمل رغم المنظار، عشرة شهور كاملة. لكن، جاء الفرج فنسيت ونسيت هي كل شيء. ثلاثة شهور بعد ولادتك، قررت "إسراء" أنها لم تعد تحتمل "برلين" أكثر. عدتما لمصر رغم توسلاتي وضيقي من الأمر، لكنها عادت بعد شهرين، وبعد ضغطي عليها في مكالمة طويلة استشعرت فيها أنني جاد في الانفصال. شيء آخر هام حدث إبان بعثتي، قابلت "عزمي" و"شاهي" مرة أخرى، لكن لهذا مقام آخر.

بقيت فترة بعثتي وزدت عليها مثلها ويزيد. لم أتمكن من البقاء أكثر، ولم تسعفني القوانين هناك، ورفضت طلباتي لمد الأجازة أكثر، لكنني لم أتوقف للحظة عمن وراءها، فعدت أضع القسم في حساباتي بعد أن كنت قد ارتحت منه. مر علي غيابي عن أهلي سنوات لم أرهم فيها لكننا عدنا كالمظفرين، نحمل ولداً صغيراً يتكلم الألمانية علي كتفنا، جوهرة الأسرتين أسرة أمك وأبيك وصرت أنت "فاكهة" الكبار. كانت أختي قد تزوجت منذ ثلاث سنوات ولم أحضر الفرح. لم تكن غاضبة عليَّ بعد أن تعللت بثقل العمل وضيق المادة، وتكفلت عودتي وحدها وتأثر أمي وفرحة أبي الظاهرة رغم حرصه علي إخفائها، بأن أكدت لي أنها قد نست كل شيء. لكن زوجها لم يكن يثق بي كثيراً علي ما يبدو. رأيتها في عينيه وأنا أسأله عن أحواله فيسألني مباشرة عن رأيي فيما يحدث في البلد، وما آلت إليه انتخابات مجلس الشعب، فلمس مني عدم اهتمام، لم يخفف من ذلك تدخل أختي للدفاع عني بحجة أنني "أكيد مايعرفشي حاجة لسه"، إذ علق زوجها في امتعاض بأن "كل حاجة علي النت دلوقتي".
كنا كبطلين عادا منتصرين من غزوة ما، الكل سعيد بنا والكل يرحب بالجلوس معنا وبزيارتنا لهم حتي لو كان الوقت متأخراً. كانت "مصر" تفتح لنا ذراعيها كما تفعل في أي من يعود إليها من الخارج في أجازة في استهلالة عودته إليها. وكأن مصر "بتفتح لنا أوضة الضيوف وبتقدم لكم الشاي أبو نعناع علي الصينية المُدهَبْ" كما قال "هريدي" عن تلك الفترة فيما بعد،

وكنا نجلس في تلك الحجرة في ضيافتها ونفرد ساقينا في ارتياح. لكننا كان بالطبع لابد وأن نخرجن من الحجرة إلي بقية الحجرات ونتجول فيها بعيون محملقة، وذاكرة مصدومة بعد أيام، وصار يبدو علينا بالفعل أننا "وارد الخارج". تشي بذلك أسئلتنا، ودهشتنا مما آلت إليه أمور كثيرة. كان الزحام قد صار أشد، ولم تعد "المعادي" تلك البقعة الهادئة البعيدة عن "الغوغاء". أحاطت ببيتنا الكثير من البيوت الصغيرة التي كانت "إسراء" تطلق عليها "القبيحة"، وفرشة الباعة الجائلين التي انتشرت وتسلقت مساحات فارغة كثيرة. نمت العديد من المقاهي الصغيرة في المعادي خاصة حول محطات المترو وبين العمارات الحديثة. قال "فؤاد"، الذي صار أكثر قسوة وعجرفة عن ذي قبل، أن عربات الفول والطعمية صارت "كالهم علي القلب" وأن إشغالات الطريق أصبحت هي القاعدة. داعبني بطريقته المنفرة التي لا يبتسم فيها وهو يلقي بالكلام الفج – الذي يحسبه خفة دم خالصة - في وجهي، أنه في القريب العاجل "حنلاقي دكاترة فارشين في الأرض مخالف وفاتحين عيادات"، قالها وأطال النظر إليَّ كأنه يقيس رد فعلي علي نكتة بدت لي سخيفة، بينما غرق اللواء "مراد" وزوجته وإسراء في الضحك كأنها مزحة رائعة، ابتسمت رغماً عني وأنا أحاول صبغ أسناني باللون الأصفر. لم تنجح المحاولة لأن نظراته كانت أقوى. قالت "إسراء" فيما بعد أنه يعاني من ضغط العمل كثيراً، وأنه صار مشغولاً أكثر من ذي قبل. بدا وكان "فؤاد" يستعد لملء الفراغ

العائلي "السُلطَوي" الذي خلا بتقاعد والده وتفرغه لإدارة أعماله وشركاته المتعددة من المال الوفير الذي كان يستثمره فيها.

ثم كنا لابد أن نعود لحياتنا الطبيعية. فتحنا المنزل مرة أخري وقمت باستدعاء من يُعنَي بالحديقة التي ماتت أشجارها وجفت وصار حالها شديد الصعوبة. تكفل المال بكل شيء في سرعة، وتكفلت "إسراء" بالبحث عمن يحفر لنا حماماً للسباحة بالحديقة حتي تستطيع أنت أن تتعلم السباحة به، لكنها اصطدمت بوقاحة الناس والصعوبات في التفاهم معهم فحملتني مسئولية المواصلة وتأخير العمال والمواعيد وكأن ذلك بجديد علينا، لكنها وضعت تحت تصرفي مبلغاً مضاعفاً من المال الثابت الذي كان يأتينا شهرياً عن طريق أبيها، فأنجزت الإصلاحات بسهولة واستقررنا أسرع وأفضل. كنت قد وطدت نفسي علي نهاية همومي مؤقتاً، عدت من الخارج مرغماً بعد أن فشلت في البقاء بسبب قوانين الألمان وتعنت مسئولي تصاريح العمل، ورغم أن ذلك أحزنني وأشعرني بأنني سوف أفعل ما أرادته "إسراء" منذ البداية قسراً، إلا أنني تفاعلت بما هو آت. كنت قد تعلمت أشياء جديدة واكتسبت ثقة شديدة بأدائي وقدراتي الطبية بعد عملي هناك، وقد استقر في ذهني كيف أن ذلك سوف يساعدني كثيراً لدي عودتي. عدت مزهواً بداخلي مما فعلت، لكن "مصر" كانت قد أنهت فترة ضيافتها لنا في حجرة الضيوف !!

لم يُعِرني أحد بالاً. تغير القسم كثيراً، ظهرت وجوه جديدة لشباب صغير السن، مزهوون بأنفسهم ويتعاملون في ثقة شديدة في حديثهم وأفعالهم. كنا لا نجرؤ علي القيام بعمليات طواريء معينة إلا بعد الإبلاغ عن الحالة واستئذان الأكبر منا. خبرتك أو تمرسك في القيام بعمليات مماثلة، كل ذلك لا يهم، الإبلاغ هو المهم. "بلغني، وياكشي العيانة تموت بعد كده، مايبقاش عليك مسئولية"، قالها لي غاضباً لائماً، أحد الذين تسلطوا عليَّ في النوبتجيات بحجة التعليم والرقابة علي الأداء، حينما اضطررت للقيام بعملية طارئة لإنقاذ مصاب بطلق ناري يكاد يلفظ أنفاسه، وتأخر هو في الرد علي محموله، وكنت أعلم أنه مشغول بالكشف علي مريض ما في عيادته الخاصة التي افتتحها من خلف ظهر القسم. لكن هؤلاء الشباب الذين يصغرني أكبرهم بخمس سنوات، يعملون بشكل أجرأ، ويتعلمون أسرع، ويعملون جميعاً دون استثناء في المستوصفات والعيادات الصغيرة الخاصة بهم في تبجح آمن، والأدهي أن لا أحد يلومهم. في البدء ظننت أن لا أحد يأمل فيهم استقامة كما تردد أمامي من حديث متناثر هنا وهناك، ثم فهمت أنهم صعبو المراس، لا يلينون في النقاش بشكل أدهشني حتي تساءلت عن سره فلم أُجِد جواباً، فآثر الكبار تفادي مواجهاتهم، واكتفوا بالتقاط أخطائهم المتناثرة هنا أو هناك علي تفاهتها، ثم البدء في تضخيمها. علي الأقل لم يتغير شيء في هذا الأسلوب إذن. بعد وقت طويل، عرفتهم عن قرب فأدهشني حجتهم القوية في

عرض قناعاتهم، وتعجبت من عدم ارتضائهم بدور "ملح الأرض" إلا بشروط، وبقواعد. كان كل ذلك غريباً على أذني أنا المطيع المستقيم، لكنني لم أملك ترف النقاش أو إضاعة الوقت في المقارنات، إذ صرت الآن في أزمة أكبر: لأول مرة متأخراً في مساري العلمي. سبقني من كانوا معي في نفس الصف في انتظار دورنا. رأيت العديدين منهم وقد حصلوا علي الدكتوراه فسبقوني. البعض منهم رحب بي بشدة، وسحب كرسياً وجلس ليسألني عن حالي وعما تعلمت هناك. لكن أغلبهم حياني في ود زائف وابتسامة مصطنعة، وداری فتور حماسه بالتقليل من اهتمامه بما فعلت طوال هذه السنوات، والكل تركوني في النهاية علي أية حال أحسب خطوتي التالية.

كنت قد أنهيت الجزء العملي للرسالة بألمانيا منذ سنوات وأرسلته للمشرفين المصريين كما كتبت رسالتي وانهيتها وألقيت محاضرات عنها كباحث شاب مدعو في عدة مؤتمرات هناك. أرسلت أسأل كثيراً عن آخر الأخبار ولم أتلق رداً. خَفُت حماسي حينما قررت البقاء بألمانيا ونسيت قلقي من تأخر الرد، وبالتالي تحسبي من تأخر الموافقة علي ما كتبته وقمت به، يتلوه تأخر آخر في التعديلات وغيرها وغيرها، حتي تصل لما يريدون، أو لما لا يعرفون أنه يريدونه، وبالتالي تأخير مريع لمناقشة الرسالة لدى عودة كنت قد استبعدت حدوثها. كنت قد أسقطت القسم من حساباتي لكنه عاد ليملأ حياتي كلها: أقران أصغر وأكثر تبجحاً رغم الاحترام في عيونهم، وصف صرت في

ذيله وأنا الذي لم أعتد ذلك أبداً، وزملاء صاروا رؤساء، ونفوس صادف هواها انقلاب الحال، فعاملوني كما لو كانوا الأجدر، وكما لو أنني أتبوأ مكانة الذيل عن استحقاق. جاءني "حسام المنزلاوي"، والذي نعتني من قبل بـ"ابن البطة البيضه" بعد حادث مناقشة الماجستير. كان لم يزل يعمل في "الإسكندرية" لكنه كان قريباً من زملائي بالقسم هنا. كانت أيامها أحداث مؤتمر القسم تدور، علم من الحضور بعودتي إذ تطرق الحديث لبحث مقدم من أحد العائدين من بعثة بألمانيا أيضاً، فأصر على الحضور إلي ليسلم عليَّ، كما قال. باسماً لزجاً كالعادة، حاول أن يكون ودوداً، لكن التشفي كان يقطر مع كل كلمة من كلماته. لم يعرج كثيراً على ما درسته هناك ولا عن مد أجازتي الذي تكرر بما يفوق أقراني بتسهيلات فجة من رئيس القسم كما كنت أنتظر، لكنه انتقل سريعاً وبكلمات تلمس المعنى سريعاً ثم لا تلبث أن تطير بعيداً مع انصراف قائلها وقد خلفت أثراً خفيفاً أليماً، أو حارقاً كلدغ البعوض، ومُبهَمَاً كالثقل الجاثم على الصدر. قال بأنَّ تصاريف القدر لابد وأنَّ لها حكمة، وأن تأخري في مساري لابد وأنه كذلك أيضاً. أهاب بي في حكمة حرص على أن يدثر بها غِلَّه، وزيَّن بها كلماته ليبدو في دور الناصح، بألَّا أستسلم لشعوري بالظلم، فهو شعور قاتل يؤذي صاحبه فقط. "كم مررت بذلك في حياتي، لكنني اكتشفت أنه في النهاية لا يصح إلا الصحيح. أنظر خلفي فأرى كل من ضايقني أو اقتنص ميزة ما على حسابي، أو حساب أي أحد، قد ابتلاه الله

بما عادلها قوة وأضاع طعمها الحلو من فمه، ربنا مابيظلمش حد". يقولها ويركز في عينيَّ أكثر ويرسم ابتسامة ودود، وأنا أهز رأسي موافقاً وأغالب الاحتراق. يعلم أنني لن أستطيع الرد، ولا التبجح. يكفيني المأزق الحالي، صغار يناطحون، زملاء يمارسون حقوقاً يرونها طبيعية، وأساتذة يلعبون دور المشرف الذي لم يزل يغط في نومه ويسألني: "هو انت كان موضوع رسالتك إيه؟"!!

كان ذلك عندما اتصل بي "هريدي"!!

عرف رقمي من "عزمي" الذي ظللت علي اتصال متقطع به بعد لقائي به في ألمانيا عن طريق البريد الالكتروني. جاءني صوته منكسراً عما عهدته، لكن نفس المزاح والتعليقات الذكية. قال معاتباً، أنني "ندل"، لم أحاول البحث عن رقمه ولا الوصول إليه. "نعم هو "عزمي" الذي عرفت منه رقمك، هذا يعني أنك لم تسأله عني أصلاً بما أنك تقول أنك لم تعد تري أحداً من أيام زمان سواه؟ وأليس لوالدي رقم هاتف منزل؟ تعرفه علي الأقل من بيت والدك؟ "نذل"، ألم أقل لك؟"

اتفقنا علي اللقاء. كنت في قمة اختناقي من القسم ومن وضعي المهين هناك. أعلم أنها مسألة وقت لكنني كنت صرت أكبر من ذلك، كنت قد نسيت كيف أتعايش مع ذلك العبث. سيقرأون رسالتي ويجدون فيها عشرات الأشياء المخالفة لمنطقهم، سأسعي لإفهامهم دون جدوي، وسيسعون لإقناعي أن ذلك ليس المطلوب، وسيصمت بيننا الصوت الذي يقول بأن هذا

العمل تم قبوله ممن يفوقكم علماً، وتم نشره ممن يعلوكم مكانة. لا أنا سأجرؤ على قول ذلك، ولا منهم من يؤمن به. سيضيع كثير من الوقت وستحترق العديد من الأعصاب في تقييمهم لأداء عملي أيضاً، قبل أن يسمحوا لي بدخول امتحان الدكتوراه، أنا الذي كنت يوماً منوطاً بأدق القرارات الطبية في أعتي مستشفيات ألمانيا، سيعاد تقييمي هنا !!

عندما رأيته بعد كل تلك السنوات، تعانقنا طويلاً، تبادلنا النظرات والتربيت علي الأكتاف بلا كلام. كنا لبعض كالنصفين الذين عادا ليصيرا واحداً، وكنت لسبب ما أشعر بالرغبة في أن أقص عليه كل ما جري طوال تلك السنوات. لفت نظري أنه كبر كثيراً. لم يكن هناك شيء معين تستطيع الامساك به لكنه كان شخصاً مختلفاً، متعباً أو مختنقاً أو أكثر شروداً. نفس المزاح وخفة الظل لكنه تعلوه طبقة من الغبار. بادرني بالسؤال عن حالي في ود خالٍ من اهتمام حقيقي، لكنني عرفت بعدها أنه لم يكن يتوقع أخباراً مبهجة قياساً علي الحال العام للبلد. رفع حاجبيه دهشة عندما علم بحالي وبما حققته في "برلين"، سألني في ضيق عن سبب رجوعي إذن؟ ثم بدأ في سرد قصته.

كان قد أعياه البحث عن عمل لفترة طويلة بلا نتيجة. "إيمان" – خطيبته، وزميلتنا الباطنية – ساعدته كثيراً في التفتيش عن فرصة، لكنه شعر بعد فترة أن حماسها بدأ يفتر ويحل محله لوم خفي، كأنه مقصر في الأمر. قال أنه كان يبحث عن عمل يحقق فيه ذاته ويعتمد على ما درسه، لكن بالرغم من

اقتناعه بكل ذلك، إلَّا أنه وصل لتلك اللحظة التي أدرك أنه لن يستمر كذلك طويلاً. كنت أخشى أن يأتي على ذكر مسألة القبض عليه، وأن يضمر لي ضيقاً بسبب ذلك، لكنه قال ببساطة أنَّ ذلك تزامن مع مظاهرات جامعة القاهرة في 2003، والقبض عليه وإيداعه الاعتقال، ولم يعلق أكثر. شرد للحظة وقال في سخرية مريرة: "تصور أن بعض من دفعتي كانوا يحسدونني على ما حدث، عندما خلت الكشوف من اسمي عند استدعاءات التجنيد؟ كثيرون عادوا بعدها وقالوا أنني كنت محظوظاً، ولم يصدقوا أنني كنت أرغب في أن أكون معهم. قلة قيمة أو وقف حال كما يسمونه، لم أكن أهتم، لكن على الأقل كان ليسعدني أن يتذكرني أحد في كشف رسمي، حاجة تحسسك إن فيه حد فاكرك، وبيجيب سيرتك في شيء الناس بتقدره يعني أكيد أكتر من كشوفات الاعتقال ولا إيه؟ عملنا إيه بالإعفا؟ ماهو وقف حال جوه وبره برضه، هي يعني تفرق؟". ". غيرت تلك الحادثة منه كثيراً. خرج من المعتقل ليجد "إيمان" تنتظره لكنها كانت منكسرة، منطفئة. أهلها وجدوا في ذلك فرصة عظيمة لأن يجاهروها باعتراضهم على تلك الزيجة الفاشلة، وكادوا أن يجبروها على التخلي عنه. بكت وهو يجلس قبالتها في منزلها عندما زارها وسط أجواء من الفتور من جانب أهلها. قالت له أنه لا يساعدها في الارتباط به، وأنها تخشى أن تصل لنقطة لا تستطيع معها مقاومة المد العنيف في المنزل. رجته أن يقبل بأي عمل، لكنه لم يكن بحاجة أمام دموعها لمزيد من الكلام. كان قد انكسر من

فرط الإهانة والصدمة بسبب رد فعل الأمن العنيف، والتخوين الذي لاقوه من الناس في الشوارع بشأن أعمال الشغب التي ألصقت بهم، وصارت أمنيته بالعمل الذي يملأ رغبته أقرب للرفاهية، كما صارت "إيمان" آخر أمل لديه، ولم يكن على استعداد للمغامرة به. في خلال أسبوعين وجد عملاً كفرد أمن في بنك شهير. لم يستمر عمله طويلاً، إذ تركه فجأة لأنه لم يتحمل، وكذلك فعل في عدة وظائف مماثلة بعدها، حتى وجدت له "إيمان" عقداً كمهندس بشركة صغيرة بالبحرين وقالت له أن يقبله فوراً، لأن أهلها على وشك الانفجار. سافر ومكث عامين كاملين يتقاضى راتباً لا يكفيه إلَّا للاقتصاد اليسير، لكنه تحمل من أجل أن يعود لإتمام زواجه بعد أن يشاركه أهله في المصاريف. في قلب هذه الأحداث، استبعدت أوراق "إيمان" من تعيينات المعيدين بقسمها رغم حصولها على الماجستير. قيل أن أمن الدولة قد رفضوا تعيينها بسبب القبض على "هريدي" من قبل. "من حسن الحظ أننا كنا أثثنا منزلنا بشكل معقول بتحويشة البحرين مع تحويشة أبي وأمي، وأتممنا زفافنا قبلها بأسابيع، وإلا كان أهلها قد أنهوا خطبتنا فوراً. صدمتنا الواقعة كثيراً، لكن، ما الغريب؟ لم تعد بلدنا يا "مصطفى". فهمت ذلك متأخراً، المطلوب أن نسكت، ونرضى بأن نبحث عن الفتات. وجدت عملاً كمحاسب في شركة معقولة، و"إيمان" صارت تعمل في مستوصف طبي. يكاد يكفينا المال، ننظر لمن هم أقل مننا فنتصبر بهم، لكننا تعلمنا ألَّا ننظر لأحلامنا مرة أخرى. ولماذا

نفعل؟ بلاش نكد يا شيخ، يعني أنا غاوي أضايق نفسي؟". سرح ببصره وتنهد ناظراً لي في ألم وهو يحاول رسم ابتسامة مجهدة على وجهه وقالك "فاكر لما كنت باقول لكم، إن فرصتنا لن تكون كبيرة وفي الغالب لن تأتي إلا مرة واحدة؟ كنت مخطئاً، كنت أطلب الكثير. فرصة بحالها؟". سألته عن الجزء الذي كنت أنتظره، هل غضب مني لأنني لم أتدخل لدى حماي للإفراج عنه؟ صمت قليلاً ووجهه جامد، ثم قال ببطء: "لا يا "مصطفى". أنت تعلم أنني أفهم ما يحدث. لكن صدقني، أنا حزنت عليك، وليس منك. أعلم أنك كنت تود أن تساعدني، أعرف شعورك بدون أن تقول شيئاً. لكنني كنت أتخيلك وأنا قيد الاعتقال، عندما علمت من أبي أنه حادث أباك، أتخيلك وأنت مكبل اليدين لا تستطيع فعل شيء، فأغضب لك.". قلت له، وقد ضقت من تعليقه الذي حمل لي تلميحاً أكره وقعه، أنني لم يكن بيدي شيء ليس لعيب فيَّ، وأنَّ حماي لا يتصرف معي إلا من منطلق وظيفته ومركزه، كان يستمع في اهتمام لكنه هز رأسه نفياً وقال: "صدقني أنَّ هذا ليس هو الأمر. ودعنا من هذا الحديث أرجوك، فما أقصد هو ما تفهمه دون أن تصرح، لكن لا أنا ولا أنت نود أن نخوض فيه. ثم أنَّ كل ذلك صار ذكرى وانتهى. الخلاصة، لن تجدني أدخل في مشاكل مرة أخرى، لقد تعلمت الدرس حتى لو كرهته، نسيت ما حدث لكنني سأظل أذكر ما نتج عنه طول عمري". حاول ملاطفاً دعوتي للغداء، تحججت بالعمل وبأن "إسراء" وأنت

تنتظرانني. تَفَّهَم كما يفعل باستمرار لكنني كنت أغالب الغصة في حلقي والتي جعلتني أتمنى ألَّا أراه لفترة طويلة بعدها.

بدأت العمل بالمستشفى بعد افتتاحها الذي قامت قنوات عديدة بتغطيته، وأفردت الصفحات الكبرى في الصحف إعلانات واسعة له. كنت لا أبذل أي مجهود في كل ذلك ولا أتكلف مليماً، لا أنا ولا غيري. يحضر الصحفي بترسانته من كاميرات وإضاءة ومساعدين وينبئني أنه يتمنى حديثاً مني ويبدأون في التقاط الصور وإطلاق أضواء آلاتهم في كل ركن من المبنى الممهد بأرقى أنواع الأثاث وأغلى التجهيزات. قبيلة انصرافهم يحملونني السلام "أمانة" لـ"مراد" بك أو "فؤاد" بك. ازدحمت المستشفى في أيام – وليس شهور أو حتى أسابيع – بالمريضات الراقيات والمرضى الـ"شيك" من كل حدب وصوب، وكثير منهن من معارف أو أصدقاء العائلة ومعارفها، ومعارف معارفها، غير هؤلاء الذيت أثَّرت بهم الدعاية وبرامج التليفزيون التي صرت ضيفاً متكرراً فيها عن طريق كثير من المذيعات وفرق الإعداد الذين صاروا أصدقاء لـ"إسراء" في وقت قصير.

أصبح وقتي منظماً بشدة، أعيش حياتين مرة أخرى: في الصباح أنتظم في عملي، وبعد العصر أصير نجماً على الشاشات أو في ردهات مستشفاي. أفزع في الصباح إلي الجامعة وسط دهشة "إسراء" من إصراري على الالتزام بالمواعيد وحرصي عليها. تبدي ملحوظات هامشية عن الجدوى من ذلك ومدى

العائد "هل يحسون بك أحضرت أم غبت؟ هل يساعدك هذا على إنهاء الدكتوراه؟ هل الكل ملتزم مثلك؟"، أكذب أحياناً، وأحياناً أخرى أدَّعى أن الالتزام رغم عدم جدواه الآن لا يضايقني. تهرع "إسراء" لي وهي تمسك بهاتفها المحمول واضعة كف يدها على سماعته وتهمس لي باسم ذلك المذيع أو البرنامج وهي تأمرني في حماس أن أوافق لكن على أي موعد غير هذا الأسبوع حتى لا أبدو ملهوفاً عليهم، وأن أجيب ببعض الاستعلاء. أنفذ دون تفكير، أذهب متأخراً عن الموعد بنصف الساعة لكنهم ينتظرون. تقرأ المذيعة بطريقة مسرحية مبهرة تقديماً لي، كتبته "إسراء" بنفسها وأضافت فيه إنجازات وعضوية جمعيات ودكتوراه من "ألمانيا"، بأسلوب شيق حتى أنني أول مرة لم أتعرف على نفسي فيما سمعت. أجيب على أسئلة المشاهدين على الهواء إجابات تزيد الأمر غموضاً إذ تكشف عن جزء من الحل وتحيل الباقي للكشف والتحاليل ورأي الطبيب المعالج على الطبيعة، كما علمتني "إسراء" وانتقت لي كلمات بعينها تهم الناس كما قالت. تنجح اللعبة دائماً، فإذا بالسائل يظهر بعد أيام في مستشفانا ويذكرني بنفسه بابتسامة لهفة ونظرة استعطاف وامتنان لردي "المفصل" الذي جعله يعرف تماماً إلي أين يجب عليه أن يذهب، لتبدأ رحلته مع الفواتير والعلاج، ثم تزكيتي بعد الشفاء لثلاثة أو أربعة آخرين، يبدأوا نفس الرحلة، فقط ليواصلوا التزكية عند آخرين وآخرين. تولت "إسراء" بنفسها أيضاً الجزء الإداري وبرعت فيه في

وقت قصير، فلم أعد أهتم بتعيين الممرضات أو العمال، بل كنت أدهش عادة لرؤية أحدهم في العمليات فيسارع الآخرون لتعريفي به أو بها، بينما ينكمش المسكين رعباً من نظراتي التي تعدل عنده قبولاً يتمناه، أو غضباً يخشى عاقبته على وظيفته. كانت هي أيضاً من قام بتعيين ذي الوجه الأسمر والعينين الخضراوين، المبتسم دائماً، أنشط العمال في المستشفى، وأخبثهم على الإطلاق. ظننته عاملاً مسكيناً مثل الباقين، لكن لم العجلة؟ سأخبرك بما فعل في حينه. أمسكت "إسراء" بالخيوط سريعاً، حتى طلبيات المستهلكات من محاليل أو أدوية وحقن أو غيرها. جاء الجميع إلينا يعرض خدماته بأزهد الأسعار التي كانت تصل لحد "السرقة"، وكانوا ينصرفون شاكرين على تفضلنا بسرقتهم!. صار مندوبو شركات الأدوية لا يرسلون إلينا إلَّا أرقي المندوبين ومدراء المناطق فيقابلون "إسراء" بعد مقابلة قصيرة مني للترحيب واستلام "هدايا" الشركة الفاخرة أو توقيع موافقتي على حضور مؤتمرات دورية بالخارج مدفوعة منهم بالطبع كاملاً كجزء من امتنان الشركة لأننا نسرقهم بإخلاص!!. كانت أوراق المستشفي ينتهي اعتمادها وإجراءاتي تذلل عقباتها دون حتي ان أشغل نفسي بها، بل إننا بدأنا العمل في الواقع لشهور دون أية تصاريح. سخر مني حماي بضحكة – نادرة الظهور – عندما سألته عن الإجراءات ومتى تبدأ. قال لي أن الإجراءات ستتم ولا يجب أن أشغل نفسي بها. تساءل أيضاً في سخرية عن هذا الذي يمكن أن "يفتش

ورانا""؟ ورأيت بعد ذلك ماذا كان يقصد: كان يكفي اسم "اللواء مراد" أو أي من طرفه: مجند صغير السن يحمل الأوراق وينهي المسألة في دقائق، ولو علي حساب أوراق أخري مضي عليها في الأدراج أو بين تراب الملفات أسابيع أو شهور. لكنني لم أبالي. أنا الذي لم أستغل أي نفوذ لأبي أو لقريب لي في أي شيء، بدا لي هذا كله غريباً في البداية لكنني اعتدت عليه بعد فترة قصيرة وفقدت حساسيتي ضد حدوثه. لم أكن فاشلاً في الكلية حتي يكون كل نجاحي معلقاً بتفسير مثل الكوسة. لم أكن أترك أيضاً تلك "الجمايل" لتمر مرور الكرام، يوماً ما تأتي إلي المستشفي تلك "الحالة" أو هذه، زوجة ذلك أو شقيق هذا، أو ابنه أو زوجة قريب له، هؤلاء الذين سَهَّلُوا لي شيئاً، فأُعنَي بهم ولا أترك "المساعد" ليتولي أمرهم، ولكنني لا أتسامح في "الحساب" ابداً، لأنفي عن نفسي شبهة "الرشوة"، واقتناعاً بمبدأ "إسراء" أن مجهودي هو المجاملة، وهي كبيرة بقدر ما أبرزها، يتولي هذا الأمر عني التهليل والتعجب المفتعلين للممرضات والمساعد نفسه لمجيئي "بنفسي"، وهم تدربوا كثيراً علي هذا الدور إذ التقطوا مدي إعجابي به، ومن لم يفهم منهم نبهه زملاؤه فصار يفعل مثلهم. المجهود هو المجاملة، أما المال، فهو حقي. أي نكوص عن ذلك يضيع هيبة الحق ويلغي قوة المجاملة. معظم هؤلاء كُنَّ من النوع الذي لا يشكو من كارثة حقيقية إلا فجراً، لا تسألني لِمَ، لكنني رغم ذلك ما تأخرت عن الحضور بنفسي مع أي "حالة" أبداً.

كنت أعيش حلماً للنجاح: أواصل تحضير الدكتوراه رغم المنغصات، أدير مستشفى تحمل اسمي وأواصل النجاح مع المرضى في عملي كل يوم وكل ساعة. لم يعد هناك ما يشغلني للتميز أو التفوق مثلما كان من قبل. ربما مال أكثر؟ ربما "حالات" أكثر؟ هناك الوفير من كل شيء بالواقع، بدأت أحس أنني ألمع بتوهج من في الخمسين من عمرهم، بينما كان سني لم يبلغ الأربعين بعد. اعتبرت هذا التوهج نجاحاً واستطعمت مذاقه في فمي للنهاية. جاء مع ذلك البعد عن الأهل وعن الأصدقاء لضيق الوقت، لكنني لم أفكر بذلك كثيراً، وإذ خطر ببالي مرات، وضعته في خانة النجاح وسمته. مقبول أو غير مقبول، لم يعد هذا هو السؤال، هي الحياة، من فهمها اغترف منها بلا سؤال. حدث من حولي كثيراً لمن فهم، وقد فهمتها أخيراً. الآخرون الذين لم يفهموا؟ مالي بهم؟ اختاروه لأنفسهم، اختاروا الرومانسية، المثالية، أو أي شيء آخر. لكنني لست مثلهم. هم ليسوا مثلي يسير على الدرب المستقيم، التزمت في حياتي في كل شيء، لكنني لم أصل لكل ما تمنيت. كنت أستحق مرتبة أفضل، زوجة أفضل، نجاحاً له طعم الرومانسية، لكنني أدركت أن النجاح إرادة. قلت ذلك لنفسي كثيراً حتى صدقته، وأغلقت عيني وأذني عما سواه. لهذا كانت صدمتي عظيمة عندما انقلبت أحوالي، فاكتشفت أن للرومانسية وجوهاً أخرى، وأن "هريدي" كان دوماً على حق، وأن النجاح يخفي مع طعمه الحلو لعنة خفية، تزيد وتنقص حسب الطريق الذي أتاك منه،

والأهم هو أنك عندما تفهم زيف الأمر برمته تجد أنك قد اشتريت بضاعة رخيصة، فأنفقت فيها كل ما تملك من أيام وأعصاب ودموع. ساعتها تندفع لتعويض ما فاتك لاهثاً في جنون وندم. تصور أنني أتيحت لي تلك الفرصة ولم يكن قد فاتني الكثير، لكنني لم أغتنمها؟ لم أفهم؟ ربما.. لكن الأرجح أنني لم أكن شجاعاً بما يكفي.. حدث هذا معي في البدايات، أدركت وفهمت واتبعت الموجة النبيلة حتي التنحي، وكنت كأنني أولد من جديد. ماذا حدث لي بعدها؟ سأخبرك بالطبع، لكن دعني أكمل لك ما حدث بعد ذلك.

مرت الأيام والسنوات بعدها بلا طعم، حتي أنني لا أجد ما أخبرك به. أذهب للعمل بعد إفطار في حديقة الفيللا معك ومع أمك، تذهب هي بك للحضانة أو المدرسة وتنطلق لعملها في تناقل الأخبار والحديث في الأزياء في بقعة مشمسة بالنادي قبل أن تتجه للمستشفي للتنغيص علي طاقم العمال والممرضات وإدارة شئون العمل. كانت ماهرة في ذلك وتحمل عني هموماً لا حصر لها. أظل بالمستشفي وأنغمس في العمل فلا أعود بعد عشرات المرضى والعمليات إلا في آخر الليل، علي وعد بمفاجآت الفجر من أنَّات المرضى وحلوق الرجال والنساء المفزوعة علي أحبتهم.

كانت علاقتي بأختي قد تحسنت رغم التحفظ الذي يقابلني به زوجها دائماً، لكن الأيام أذابت الثلوج بيننا قليلاً. كانت حريصة علي زيارتنا دائماً في القاهرة في الأجازات رغم البرود

الذي تبديه "إسراء" أحياناً، ورغم شقاوة بناتها الثلاثة، مما كان يدفعك أنت أيضاً لمجاراتهن، فتشتعل الفيللا بحريق من الصراخ والضحك والأطفال الذين يعدون هنا وهناك في جذل. أبي وأمي صارا صوتاً يحمله لي الهاتف كل خميس، لكن أيام الخميس كانت تتباعد أحياناً حتي تلتقط أمي السماعة وتهتف بي محانقة أنني لم أتصل منذ فترة، فأتعلل بالعمل فلا تملك إلا الدعاء. تناول أبي السماعة فيأتيني صوته مرهقاً مهموماً، يسألني نفس الأسئلة عن عملي وعن "أخبار أدهم إيه"، ثم عن "إسراء"، وهو ما لا تذكره أمي التي لم تعد "تبلعها" بعد أن انتقلنا للقاهرة. لكنهما كانا يحضران للقاهرة ويزورانا بالفيللا فيقضيان معنا اليوم. عندما نهرتك أمك، بلهجة حانقة أكثر من اللازم، عن العدو في البيت خلف أولاد عمتك وكان جدك وجدتك حاضرين، تمادت وعنفتني بأنني مسئول عن شقاوته لأنني لا أنهاه عنها أبداً. انسحبت على إثر ذلك إلي حجرتها مغاضبة حتى رحلوا. استاء أبي وظهر عليه ذلك لكنه صمت وبدا عليه أنه ابتلع الأمر، بينما عبرت أمي عن غضبها واتهمت "إسراء" بأنها تعمدت ذلك، "عيب، يعني خلاص؟ مش قدامنا طيب؟". لامها أبي في حدة على قولتها واتهمها أنها بذلك توغر صدري على أمك، لكنه بدا لي غير مقتنع، وكأن "أيمن" انتقد الحكومة فخشي عليَّ من أن أردد كلامه فأخذ ينفي الأمر برمته، كما كان يفعل ونحن صغار. طيبت خاطر أمي فهدأت، ولم يتحدث معي منهم أحد عن "إسراء" بلوم مرة أخرى، ولم أُرِد أن يحدث

ذلك. حاولت استنطاق أختي فأجابت بأنها شكرت الله أن "علي" لم يكن حاضراً الزيارة وإلا لغضب غضباً شديداً، لكنني لم أعلق وظننت أنني بذلك آثرت عدم افتعال مشكلة كيلا تتطور الأمور. لكنني صرت بعدها أزورهم جميعاً عند نزولهم للقاهرة بالأجازات بمنزلهم بـ"مدينة نصر"، إذ كانت آخر زياراتهم لمنزلي. الغريب أن أحداً لم يأتِ علي ذِكر الأمر. لكن لا "إسراء" سألتني عن غيابهم، ولا هم أخبروني أنهم قصدوا ذلك، وأنا كالعادة تعاميت عن ذلك طالما لا يدخلني في مواجهة مع "إسراء" أو معهما. حتي أختي التي لا تسكت، لم تفتح الموضوع أبداً. بدا وأن الكل قد روض نفسه علي الحياة كما هي، وآثروا عدم تعكير حياتي احتراماً لخاطري وتجنيباً لي للمشاكل. لكنني اعتبرت ذلك تطوراً طبيعياً وتعايشاً كسنة الحياة مثلاً، ولم أنظر إليه أبداً علي أن به شيئاً غير سليم.

أثار نجاحي بعض المشاكل المتوقعة. كنا نعمل في القسم في مرتبة أعلى قليلاً من ملح الأرض السابقة. كثيرون من أقراني كانت لهم عيادات خاصة لكن أياً منهم لم يكن يعمل في النور بمثل هذا التبجح الذي أفعله، ولم يكن أياً منهم بهذا النجاح ولا عدد المرضى والعمليات يومياً. بجانب ظهوري التجاري المتكرر على الشاشات ومقالاتي في الصفحات الطبية، صار أمراً معتاداً أن أقوم بتحويل مريضة على "روشتة" خاصة مني إلي مستشفى الجامعة لتلقي العلاج المجاني أو التيسيري. ليس الكل يستطيع مواجهة تكاليف العلاج الباهظ والفندقة التي توافرت

لديَّ. تحرجت في البداية من الأمر لكن "إسراء" ظلت تشجعني وقالت بأن المريضة نفسها يجب أن تحس أن "أستاذاً كبيراً" هو من حولها للمستشفى. هكذا كنت أغلظ القول لملح الأرض في قسمي وأتابع تطور الحالة بنفسي أحياناً بالاتصالات فتأتيني دعوات أهل المريض بعد تبدل الحال إلي الشفاء، وأشعر بصحة كلام "إسراء" أكثر. لم أكن طبعاً أبالي بنظرة الانكسار في عيون النواب وصغار الأطباء، أو شعورهم بالقهر لكلماتي اللاذعة إذا ما تأخروا عن خدمة الحالة أو إدراجها في العمليات. كان لابد وأن تصطدم قراراتي بقرار مضاد لأستاذ ما، لكن ارتباطي بالنواب ووجود العديد منهم كمساعدين لي في عملي الخاص، وخوفهم البادي من بطشي المتوقع وسلاطة سخريتي المشفوعة أحياناً بتهديد خفي، كل ذلك بسط سطوة نفوذي أكثر وأكثر في ذلك المجتمع الصغير، ذلك الذي كنت جزءاً منه في ماضٍ ليس ببعيد، وأثار ذلك لديَّ سعادة خفية بالسيطرة، ومكنني من إنجاز مصالح مريضاتي بيسر وتلقائية، رغم ما كلفني ذلك من نميمة وعداوة في عيون الكبار. لكن الأسوأ أنَّ بعض المريضات كُنَّ يُصرِحن بتلقي العلاج لديَّ قبل زيارة ذلك الأستاذ أو غيره، أو ينقلنهن ذويهن إلى مستشفاي الخاص بعد ليلة أو أكثر يقضينها وسط أنَّات الآخرين وتأخر علاجهن بسبب الزحام. كنت أتلقى تلميحات بأنني "خطفت" تلك المريضة من فلان، أو أنني أثرت على ذويها فوقعت عليها الكشف في مستشفاي، فلا أهتم. لم يعد مهماً أن أدفع مثل هذه السذاجات

عن نفسي. من يستطيع أن يفعل شيئاً فليفعل، تأخرت في مسار الدكتوراه فلم أعد أبكِ على شيء، وسانتهي منها إن عاجلاً أو آجلاً. أعرف أنَّ مستواي أفضل، والعبرة بالنتيجة مع المرضى. لا أسعى للنجاح لكنه يأتيني من هذه الطرق، فلا شيء أعتذر عنه أو أخجل منه. لكن هذا ما جعل الحساسيات ضدي تتصاعد في القسم تدريجياً. تعلمت الَّا ألقي لذلك بالاً، وأنَّ "الكلام مش بفلوس"، وأنَّ ساعة الحسم سيكون لي ظهر قوي أتكيء عليه حتى دون أن أطلب منه، وظننت أنَّ المهم الآن هو ان أدفع كل العجلات للدوران معاً، فإذا أبطأت إحداهن عن الدوران، لانشغالي بأختها، سارعت بدفع الأخرى في حماس، وكان عملي واحدة، ومستشفاي هي الأخرى. لكنني أيضاً عرفت بعد فوات الأوان أن ما كان يغلي تحت القدر سيفور يوماً فيغرقني في حمم لم أحسب لها حساباً.

* * *

بيت الملاحدة نمرة تسعة.. زيارتي الأولى..

ابتسم ذو العينين الخضراوين في أدب وفتح الباب وغاب قليلاً، ثم عاد بكما واثنان من الحراس المدججين بالسلاح يحرسانكما. فزعت من منظر الرشاش المصوب إلي ظهرك وإلي ظهر "غادة"، فانتفضت طالباً منهما أن ينصرفا. لم يكد الباب ينغلق بعد انصرافهما حتى سحب ذو العينين الخضراوين كرسياً وجلس بمقربتنا. جلستما في مواجهتي تتحاشيان النظر إليَّ.

وجهاكما المكسوان بالغضب أزعجاني، لكنني تجاهلت الأمر وطلبت من ذي العينين الخضراوين أن يتركنا وحدنا. تململ مبتسماً وأسر في أذني شيئاً عن واجبه في البقاء لحمايتي ومنعهم من التطاول عليَّ لأن "لسانهم فالت"، لكنني أصررت على موقفي فبدا متبرماً لكنه أطاعني.

تخطيت مراحل الدهشة الأولية المعتادة: شبهك العجيب بأمك وهدوءك اللافت للنظر، ثم شبه "غادة" المذهل بأحمد، لكن أكثر ما أدهشني كان هو رد فعلك. أعرف أنك لم تعرف أنني أباك، لكنك تعرفت على صورتي من التسجيلات المصورة الشهيرة التي أطلعني عليها "عماد"، وعرفت منك أنها كانت "مقررة" عليكم في السنوات السابقة. آلمني سؤالك: "وحضرتك بقى دكتور تبع الرئاسة برضه؟ ولا شيخ تبع الدكاترة؟" لكنني ابتلعته. "غادة" كانت تنظر لك في انبهار وأنت تتحدث. هذه الفتاة تحبك يا ولدي، لا أعلم شعورك ولا أريدك أن تعتقد أنني أفرض عليك شيئاً. مع ذلك أعرف تلك النظرة جيداً، أعرف ردود الأفعال هذه التي نعزوها إلي قدراتنا العظيمة وشخصيتنا المبهرة فلا نلقي لها بالاً إلا عندما يكون الوقت قد فات. أنت لست ممن يملون عليهم ماذا يفعلون، ولست ممن يخشى أن يواجه نفسه. أعلم ذلك عنك من الوقت اليسير الذي قضيناه معاً. لكنني أتمنى عليك ألا تؤذيها. اعتبر كلامي ملاحظة، معلومة، أو خاطرة ربما تود يوماً أن تتيقن من صحتها. هذه فتاة تخفي تحت شراستها ولسانها الطويل، رقة

حالمة، ونفساً تهيم بك فتفضحها نظراتها التي تختلسها إلي وجهك الذي يحمر انفعالاً وأنت تصمت وتستمع إلي كلماتي التي لم تعجبك، ويزداد ارتفاع وانخفاض صدرها بأنفاس قلقة عليك عندما تخفض عينيك غيظاً فأظنك لن ترد على سؤالي، ثم تحدجني رفيقتك بتلك النظرة الكارهة التي يتجلى فيها كل الحب لك، والخوف عليك.

حاولت تلطيف الجو بعد سؤالك لكنك أشحت بوجهك ولم تعلق. نظرت إلي "غادة"، لكنها نظرت لي بكراهية وسألتني عن السبب الذي "جعلهم" يرسلونني لكم، وأنتم لديكم محاضرون كافون. لم تقتنع هي ولا أنت بالرد، أنني أنا نفسي لا أعرف. سألتكما عن السبب الذي دعاكم لإنشاء الحركة، فجاء رد "غادة" عنيفاً كأنها تريد أن تقوم بهذا الدور عنك، وأن تجنبك الانفعال مع من لا يستحق مثلي. قالت لي: "علشان إحنا كفرة ولاد كلب، علشان إحنا متعفنين ضالين، عملنا كده علشان خونة ولاد ستين في سبعين. أرى أن حضرتك لا تكتب، هل تحب أن أعيد كلامي بلهجة أبطأ؟".

عندما قلت في هدوء، أنني أقصد بسؤالي أن أطمئن عليكم، وأنني أفهم تماماً غرضكم وأتفق معكم في كل ما تهدفون إلي، انفعلت أنت عليَّ وقلت أن هذه الاسطوانة سمعتموها كثيراً، وأن من أرسلني جرب هذه النعومة معكم من قبل وفشل. قلت أنت أيضاً أنك تعجب ممن هم مثلي، لا أنا شاركت في الثورة ولا فعلت شيئاً يذكر، مجرد حديث إعلامي رومانسي، موقعة الجمل،

و"بس خلاص، بِخ!! وجاي تتكلم بعد ما كنت عيان أربعتاشر سنة؟ ماذا رأيت حتى تجلس أمامنا وتتحدث عن الفهم؟".

* * *

لكن يبدو أنَّ شيئاً ما في لهجتي أقنعكم أنني صادق، أو "مختلف" عن أصحاب "الاسطوانة المشروخة". أعرف ذلك بعد أن ملأت السجل بتقريري أمامكم واخترت اختياراً سابق التجهيز في الأوراق يقضي بأنكم "متعاونون ويفكرون في التوبة". ألقيت بالقلم جانباً فظهرت الدهشة على وجهيكما للحظات. أعدت سؤالي فقلت أنت كلامك الذي أدهشني. قلت أن "البلد باظت، والدين أصبح هو معيار كل شيء. مرجعيات الناس تم تدميرها واحدة تلو الأخرى، وتم حصرنا في نظرية أنت معي أم ضدي". زاد انتباهي عندما أتيت على ذكر أمك، هالني أنك تعرف وتذكر أن هذه كانت مستشفى أبيك، وأن أهل أمك يمتلكون هذه الأرض. عرفت منك أنك رفضت تأميم المستشفى لكنهم عرضوا عليك أن تنضم لجماعة الحق مقابل أن يتركوا المستشفى. كان "حسام" يسعى لذلك بأي ثمن، حتى أنه عرض الزواج من أمك عدة مرات لكنك كنت ترفض وتبتدع المشاكل لأمك وخالك حتى لا يوافقا على ذلك. احتقن وجهك وصوتك وأنت تقول أنهم كانوا يشترون مختلف صنوف الناس وانتماءهم ليبدوا بمظهر من له قبول في كل المجتمعات. ربتت "غادة" لحظتها على كتفك في حنان لكنك واصلت كأنك لا تحس بما حولك، وقصصت عليَّ قصصاً مفزعة عن التنكيل بعائلتك

وطرد أمك من البلاد، والمقايضات التي اضطررتم لتحملها في سبيل بقائكم. عرض "حسام" عليكم التسامح مع "فؤاد" و"الطبيب اللبناني" ومعك باعتبارك من حركة "مش عاوز إسلامكم"، في مقابل اعتذارات علنية وانضمام للجماعة وتبرعات مالية ضخمة. ذهلت وأنت تقص عليَّ كيف تشاجرت مع خالك إذ رضخ لهم فدفع المطلوب، وكيف نكلوا بكم رغم ذلك، فتركت أمك البلاد مع الطبيب الذي صار زوجها، وكيف رفضت أنت الرحيل فكان جزاؤك النفي إلي هنا. قلت لي بوجه غاضب: "كل ذنبنا أن أردنا ألا نكون عبيداً دون أن نفهم، هل تفهمني؟ الكثيرون يلتقطون هذا الكلام ويبنون عليه أحكاماً جاهزة، لأنهم لا يتحملون صعوبة التفكير. كنا مضطرين لكي نثبت للناس أنهم لا يفهمون شيئاً من الدين، أن نقول أننا نريد ديناً يقتعنا أولاً، ديناً أفهم نصوصه كما أفهم أبعادها، وأوامره ونواهيه، بهذا فقط أضمن ألا يكذب عليَّ أحد ويدعي شرعية مزاعمه الدنيوية، وبأنها من عند الله. إيه الغلط في كده؟ مش زمان الناس آمنت بالإسلام علشان اقتنعوا بالدين؟ وبالتالي بكل تبعات هذا الإيمان؟ وبالتالي أيضاً لم يأت من يسوقهم لفعل ما أو ينهاهم عن آخر على عكس اقتناعهم. لكن إحنا مطلوب أن نؤمن بالتبعات دون اقتناع، أياً كانت، وحتى لو غير مقنعة ومالهاش دعوة بالدين أساساً. علشان تقتعني إن إدارتك لأحوال الناس صح، وإن ربنا عاوز كده، لازم تقتعني إن فعلاً ربنا أمرنا بكده، بس كده، ببساطة". تحكمت في خلجات وجهي بصعوبة

وساورني الضيق من حديثك لولا أن تابعت قائلاً: "عندما قلنا هذا الكلام قفز السطحيون مثل "السمان"، وأتباعه الذين خشوا على أنفسهم من عقول الناس، والمدعون المستفيدون، "المنزلاوي" و"أكرم" والأشكال دي، وقالوا للناس وهم يشيرون علينا في قسوة: كفرة!!. نعم، نحن كفرنا بإسلامهم الذي قام على النقل، ولكننا لم نكفر بالله ولم نترك الإسلام أبداً، لم نترك طاعته أبداً، ولم نتوقف عن قراءة القرآن أبداً، لكننا فهمنا منه الكثير الذي لا يريدون للناس أن تفهمه، وأدركنا ان الفهم مقدم على الحفظ. هم صاروا بالضبط كمن قالوا لهم أن هناك "الله"، فقدسوه وعبدوه، قالوا لهم أن "الله" يأمرهم بهذا وذاك، فأطاعوا، دون أن يقرأوا، ويتدبروا، أقول لحضرتك حاجة، إحنا لما حاولنا نوصل لأصل المسألة، لقينا إن مشكلة الناس دي إنهم خشوا أن يخرجوا من دائرة الطاعة لئلا يضيعوا، لو حاولوا يفهموا خافوا مايقتنعوش بشيء فيهتز إيمانهم، مع إن الحكاية محتاجة مخ، بس، شوية مخ وقراية وانت تعرف إن ربنا موجود، وإن الدين حق، وإن تعاليمه أساسها إننا نبقى أحسن ناس. بس علشان هم مابيستعملوهوش، وعلشان التدين مديهم أفضلية على الناس التانية، زينا إحنا مثلاً وزي الناس الغلابة إللي مش منهم، استخدموه زي ماهو، قصر عن عقولهم استيعابه، وخاف الناس يتهموهم لأنهم "بتوع ربنا"، وده وضع مريح ومربح طبعاً، فلم يحاولوا "فهم" الدين أبداً. مثلهم لا يمتلك عقلاً، فهو كالمسافر

في الظلام، لو ضاعت بوصلته لضاع معها. لكن للسفر وسيلة أخرى، احمل معك مصباحاً وأنره، تعرف معالم الطريق. هؤلاء لا يمتلكون المصابيح، يكرهونها، ويكرهون من لديه منها، ويحضون الناس على كراهيته. لو عرف الناس أن هناك من ينير الطريق لقلدوه، أو مشوا وراءه، وفي كل الأحوال فلسوف يرون هؤلاء المضللين وقد افتضحوا، وقد تخبطوا، لا يعرفون المشي إلا في الظلام، ومن كثرة ما وضعوا الكتب تحت المجهر غفلوا عن الصورة الواسعة. نحن إذن المضللون الضالون؟ قل لي كلاماً غير ذلك، اذهب وتحدث إليهم هم، أنت تضيع وقتك معنا".

قلت لك ما معناه أنكم ربما يعاب عليكم طريقتكم، وأن أي كلام قد ينال من الدين في أعين الناس ينبغي أن تتجنبوه، قلت لك انني لا يعجبني أسلوبكم، لأن احتمالية الفهم الخاطيء به عالية جداً، لكنني في الحقيقة، ابتهجت عندما سمعتك تتحدث عن ذلك كله. كنت أريد أن أصارحك، بأنك سبقتني وأنا في مثل سنك. لو كنت وصلت لما تقوله الآن يا "أدهم"، في كثير من مشاكلي واختياراتي، لو كنت أبصرت الحقائق كما تبصرها أنت في سهولة وعمق ويسر، لكانت حياتي قد انتحت منحى مختلف تماماً. سألتك عمَّا إذا كان أسلوبكم هذا من الحكمة في شيء، وكنت آمل أن أدغدغ مخك فأفهم، هل لكم مأرب أعمق وأخبث، أم أنكم – كما تمنيت –تعنون ما تقولون. تأملتك في انبهار وأنت تواصل قائلاً: "لم أندم لحظة على ما فعلنا، ولن أفعل أبداً.

الأسلوب؟ دعني أخبرك أمراً: كل مشكلة تعرضنا لها، كل أزمة، كل مصيبة، كان الرد عليها جاهزاً: إما أنهم لا يخطئون، أو أن المعنى لم يفسر كما قيل، الحديث اجتز من سياقه، فهمتمونا خطأً، إلى آخر تلك السفسطة. كثيرون اندمجوا وانفعلوا معهم في الأخذ والرد طويلاً، لكنهم لم يدركوا أن ما أرادوا قوله حقيقة هو: الدين لا يخطيء. هم لا يخطئون أم الدين لا يخطيء؟ نحن قلنا أن الدين على حق، وهم ليسوا كذلك، لكنهم أبداً لم يروا الفارق. حامل البوصلة التحم مع البوصلة نفسها فصارا سواء. هل تعرف؟ هناك لحظة ما، توقن فيها أن خصمك مقتنع أنه على حق. الكثير مما حدث في السنوات السابقة، كان يجري على أساس أننا خصمان كل يدعي ما ليس في قناعته، هم يتعاملون معنا بمنطق أننا مفسدون نكره الإسلام، وكنا نتعامل معهم بمنطق (يا رااجل؟.. قول كلام غير ده؟ انت فاهم وأنا فاهم إن الحقيقة مش كده) . أخطر شيء عندما تكتشف أن اللعبة التي تلعبها حقيقية، بنك حظ؟ إطلاقاً، أنت تخسر نقودك فعلاً، وتذهب إلي السجن حقيقة. السلم والثعبان؟ أبداً. تصعد وتهبط بعبثية، لأن النرد أمر بذلك، وفي كل مرة يقال لك، القانون، الالتزام بالقانون. سلم لي على القانون، ذلك القانون الذي لا يلقي بك في القاع إلا إذا كنت تملك مصباحاً، ولا يحابيك إلا إذا كنت من أصحاب البوصلات، أو عبداً لأحدهم. لكن، عندما اكتشفنا ذلك من أمر اللعبة، قررنا أن الحل سهل. هذه لعبة يستطيع أن يلعبها اثنان."

عندما سألتك ماذا تقصد، التمعت عينا "غادة" وأمسكت بيدك لتكمل هي كأنها تشفق عليك من انفعالك وقالت: "البوصلة التي يحدثك عنها كانت هي سبب المشاكل. كان لابد إذاً أن ننزعها من أيديهم. بدأنا الخطوة الأولى، نزلنا إلي الشارع فترة كبيرة قبل "موقعة الحجاب". الناس كان لديها مصالح كثيرة، ولكن ارتبط انقضاؤها بمدى تبعيتك لـ"جماعة الحق". تركنا الهم الأكبر، والتفتنا للهموم الصغيرة. لو أن "جماعة الحق" كانت محقة في شيء واحد، ففي انحيازها لقضاء أمور الناس حتى ولو اختلفنا في الأسلوب، وبصرف النظر عن مأربهم من وراء ذلك، لذا فعلنا ما فعلناه. كان همنا في البداية أن ننجز مصالح الناس التي تاهت وسط زحام الجدل. انتشرنا في كل مكان بنظام، ولم تكن تنقصنا الأموال ولا الهمة. كانت هذه المجموعات التي تظاهرت في ميادين المدن وأمام المصالح الحكومية لإصلاح فصل في مدرسة، أو ترميم شبكة صرف صحي، أو تكفلت بإصلاح أمور كثيرة خربة، كانت لا تنصلح في ظل صراعات الدستور، والقانون، والمكائد ومشاكل سيناء وغزة والأزمات السياسية المتعاقبة. بنينا مخابز وسلمناها للأهالي. وزعنا إرشاديات لكل المشاكل المحلية في أي مكان، وساعدنا في تنظيم النقل الخفيف. لكن كل ذلك أثار قلق "أكرم الشاهد" وكلابه، و"حسام" والأشكال الضالة حول السمان. استنكر إعلامهم "الدولة داخل الدولة"، وهاجمت جماعة الحق مخابزنا فدمرتها، وأعادوا إفساد ما أصلحناه، وتعنتوا مع أي

شخص كان يثبت عليه أنه تعامل معنا أو أننا سعينا لمساعدته فقبل صنيعنا شاكراً. خاف الناس وابتعدوا عننا، لكن في قرارة أنفسهم، ومن وراء الحصار كانت تأتينا استحساناتهم لصنائعنا. الناس كانت أوعى وأذكى. نحن لم نطلب مقابل أعمالنا جاهاً ولا مناصب، ولم نفعل شيئاً نخدم به أنفسنا. لكن جماعة الحق لم تصمت، واستمرت في محاولات النيل مننا. القشة جاءت مع "موقعة الحجاب"، وتصاعد الهجوم علينا بلا سبب، حتى أن بعض الناس بدأت تهاجمنا في حملات النظافة والتوعية ويرفضون مساعدتنا، إما خوفاً من الحكومة أو اقتناعاً بالدعاية ضدنا. وإذ بدأ غسيل المخ، قررنا أن الوقت قد حان للضربة الكبرى. انتو "بتذلونا" بالدين؟ طيب بلاش، نفضها سيرة. أنتم أناس ضحلو المخ، قررنا وضعهم في حجمهم الحقيقي. تظنون أن أي شيء غير دينكم مرفوض؟، أي نقاش في أمور البلد، يبقى إحنا كفرة وعلمانيين وولاد ستين كلب؟. إذن، لنخرج الدين من المعادلة. حاول الكثيرون من قبلنا ذلك، لكنهم فشلوا بالنقاش المنظم. قررنا أن نعمل بأسلوب الصدمة".

* * *

قلت أنت في هدوئك المعتاد: "غادة تقصد أن تقول، ربنا نزل الدين علشان الإنسان. الإنسان هو الأصل، مش الدين. الكلام ده يزعل مش كده؟ عارف ليه؟ لأنك حتفهم منه إني بانكر الدين، مع إن ده إللي الدين عاوزه، الإنسان، الإنسان وإزاي يبقى بني آدم أحسن. الذين يرفضون النقاش خارج النص، لا

يفهمون أن الإنسان أصل النص. كفار قريش، مش المفروض دول نزل عليهم الإسلام؟ فيه أفجر ولا أوحش من دول؟ الدين ما قالش إنهم غلط في كل شيء، الكفار ماكانوش غلط في كل تصرفاتهم، بل إن أخلاقهم، مروءتهم، شجاعتهم وكرمهم يضرب به المثل حتى اليوم، إنما جاء الدين ليضبط البوصلة، ويتمم مكارم الأخلاق. "يتمم"، واخد بالك؟ مش يربي الناس من أول وجديد".

قلت لك في ضيق محاولاً إقناعك: "طيب ما انت برضه بتحاول تقنع الناس وتربيها من أول وجديد"

* * *

"مش أي حد حيفهم الكلام ده، وتلاقيك بتتصعب عليَّ جواك. لكن عاوز أسألك: ماسألتش نفسك ليه الناس البسيطة، إللي مش تبعنا ولا تبعهم ومالهمش اهتمامات باي حاجة، وكانوا كمان بطلوا ينزلو الشارع من زمان، ليه الناس دي نزلت يوم "جمعة الحجاب"؟ علشان الناس دي بتفهم كويس قوي، وبتعرف تميز إللي عنده مروءة من إللي ماعندوش. بالنسبة لي كانت هي دي اللحظة إللي فهمت فيها واتصدمت، إن اللعبة حقيقية فعلاً زي ما باقوللك. عارف ليه هاجموا البنت لما طلعت مسيحية؟ علشان المروءة دي مش منصوص عليها صراحة في الدين!! إوع تضحك من كلامي، ماهو ده بنك الحظ. انت وحظك، لعبة مش أكتر، مش من قواعد اللعبة دي صفة المروءة، ولا صفة الإنسانية، وهم لا يفهمون إلا قواعد اللعبة. بنك الحظ إللي

كانوا بيلعبوه معانا مافيهوش مشاعر ولا عقل صافي، ولا فيهوش إلا أوامر ماينفعش تناقشها، وانت ومزاج الزهر. لو اتكلمت يقوللك طيب مش ده نصيبك؟ طيب تقول له إيه؟ نصيبك أنك اتولدت ولك عقيدة تانية؟ ولا نصيبك إنك اتولدت بنت مش ولد؟ ونصيبك إنك تتعامل على إن ده جريمة؟ لكن هذا كلام سيفهمه من يفكر، كلام من سيفهم أن تحويل الدين إلي لعبة لا نصيب لنا من فهمها، هو الجريمة. قصر القواعد وتفسيرها على "صاحب الكورة"، شغل عيال، مايرضيش ربنا وماينفعش بين الناس، ولن يفهمها أبداً من يصمك بالخروج والزندقة ليضعفك، ثم يتجبر على الضعيف، ويطأطئ الرأس أمام القوي ويخشى أن يصمه بأي شيء. كانت هي تلك اللحظة التي فهمت، وأدركت أنني لا أملك على المروءة دليلاً، أو نصاً، أو آية تدلل عليها. هذه صفة ومعيار يمتلكه كل "إنسان"، والإتيان بدليل عليه كان من الممكن أن يكون مقبولاً لو أن القرآن والدين نزلا على عجم لا يفهمون العربية، أو كائنات ليست لها مخ: ساعتها كان وارداً أن "يربينا" الدين من جديد، ويحدثنا عن ثواب المروءة، وفضل أن تكون "إنساناً، لكنه ما لهذا نزل، وما على البهائم يسري".

قلت لك في ضيق سببته كلماتك: " يا أدهم، كلامك خطير. أنصحك بالقراءة قبل أن تتكلم. لا دليل على المروءة إزاي يعني؟ طيب ارجع الى كلام ربنا، إلى القرآن الكريم، وفيه آداب لو تعلمناها، لصرنا ملائكة تمشى على الارض. أما درة هذا، فقوله

عز وجل : "قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين". وهى تعنى أن التقرب لله ليس فقط بالصلاة ولا النسك ولكن بالمعاملات الحياتية وتشمل أيضاً السياسة. ماذا أرى في ذلك ما يستحق أن أقوله؟ مسألتان، أولهما أنك تخفي فكرة معينة خلف كلماتك، أتدري ما هي؟ أنت تعيب على فريق أنه اشتغل بالسياسة، وتريد أن تحصرهم في الدين والعبادات فقط، وأن يتركوا السياسة لغيرهم، بينما الله عز وجل قال، وهذه هي المسألة الثانية، أن كل سلوكياتك لله رب العالمين، وهو ضد مقولة لا دين فى السياسة ولا سياسة فى الدين، وضد مقولة أنه يجب على علماء الدين البعد عن السياسة حتى لا يشوهوا الدين بالسياسة الخادعة. وفى هذه الآية ايضاً، تجد أنه حتى الممات تقرب الى الله، إذا كان فيه بذل للروح فى سبيل إعلاء قيمة من قيم الدين. وبذلك، فلا تلومهم، بداية يعني، أنهم يدافعون عن الدين الذي تهاجمونه أنتم من وجهة نظركم، ثم يا سيدي، ألا تكفى هذه الآية للحض على المروءة؟. اسمح لي، أراكم تتحاملون على الدين، وتحملون الإسلام نتائج الفهم الخاص.. فهمكم أو فهمهم، مش فارقة كتير".

نظرت إليَّ في اهتمام، ثم لاحت ابتسامة خفيفة على وجهك، سرعان ما غابت وأنت تقول في جدية: "حضرتك بتقول لنا إحنا الكلام ده؟ أنت تضع حكماً مسبقاً عننا في رأسك. سياسة؟ على الرحب والسعة، نحن أيضاً نتعامل مع الناس، وكنا نعمل بالسياسة، أجدر بنا أن ننفي عملنا بالسياسة عن أنفسنا مادمنا

ندعي تفسيراً رحيباً للدين، وخلينا إحنا كمان بعيد. يعني بتوع الدين ليهم في السياسة، وإحنا بتوع السياسة بس، ومالناش في الدين، حتى لو أي حد دخل الدين في السياسة زي ما حضرتك بتقول، وقال إنه كده صح وزي الفل وطلع لنا فتاوي بقى عن جواز البنات وعن شغل الستات وتعليم الفتيات، وحول الفتاوي دي لقوانين، وقال لك إنه أي مشكلة ولا بطالة ولا فقر ولا أمراض سببها إننا مقصرين في عبادة ربنا، مش لا سمح الله إنه مش كفء ومش عارف يحكم البلد مضبوط، في الحالة دي إحنا المفروض نقبل إن الكلام ده صح ومالناش فيه؟ وهو كده وإن كان عاجبنا، وإلا نبقى كفرة وبنتدخل في الدين؟ لكن مادام عاوزني أحتكم لكلام ربنا، قل لي: هل ترى سلوكيات ولا أفعال توحي بأن هؤلاء فهموا هذه الآيات؟ يعني قبل ما تعطيهم حرية سجننا وإبعادنا بهذا الشكل، أليس أوجب أن تطالبهم بفهم الدين صحيحاً أولاً، ثم يطبقون سلوكياته على ما يمارسونه، من عمل، من عبادة، وأيضاً من سياسة وحكم والفيلم ده كله، ولا إيه؟ هي دي بقى المشكلة، هو ده إللي بنتكلم فيه، انت شايف إنهم فاهمين صح؟ سيبك من المجادلة بالحسنى، إللي أنا شخصياً مش شايفها متحققة، يعرفون تماماً مقصدنا، ثم بدلاً من أن نتناقش، أو يقنعوننا، أو حتى نقنعهم، يدافعون عن كل من ينتمي إليهم، يقوللك اشمعنى فلان واشمعنى كذا، ثم أسهل شيء يوصموننا بالكذب؟ معلش أنا لي ملاحظة كمان، بس أرجوك تفهمني صح"

نظرت إلى غادة وأشرت إليها كأنك تستشهد بها وتابعت: "كنا بنتكلم في الموضوع ده إمبارح، لما "حسام" استشهد بنفس الآية الكريمة دي في حديث تليفزيوني، وكان تفسيره لها قريب من إللي حضرتك بتقوله، لكن الحقيقة أنا شايف إن الآية بتتكلم عن الحياة، والنسك والعبادات، وعن الممات، وإننا نطلع منها بتفسير إنها تقصد المروءة في السلوك، معلش.. جائز يكون صحيح، لكنه تفسير ربما يوجد غيره. إزاي؟ أنا شايف، إنها بتتكلم عن العبادات، والطاعة، وكل ما يقرب إلى الله. كل ده جميل وكويس، وياريت كلنا نكون كده، بس دي مش مروءة، مش شهامة، مش سلوكيات الإنسان بيعملها مع أخيه الإنسان بدون غرض، بدون منفعة، بدون مكسب أو زيادة في الحسنات. فاهم قصدي؟ يعني لما تكون حاطط في بالك إنك تنصر شرع الله بإنهم يضعوننا في سجن ويطلقون علينا الملاحدة، حتكون من وجهة نظرك أرضيت الله، طبعاً، أنا لو مكانهم أحس بالانتصار لشرع الله، إزاي ناس تشكك في دين جماعة أخرى وتقول لهم انتوا مش فاهمين؟ وإزاي نقول مش عاوزين إسلامكم، فيطلع ناس تفهم إننا ألحدنا، وده يهز صورة الإسلام؟ لكن لو أنت عندك مروءة، وانت برضه فاهم قصدنا كويس قوي، ووصل لك المعنى في لقاءات معانا ومع كتير من أعضاء الحركة، مش حتعمل كده إلا لما تراجع نفسك. عارف بقى هم ليه مابيعملوش كده؟ لأن فهم الآيات إللي فيها ما يحض على المروءة، صعب، محتاج أولاً إنك تؤمن إن الدين ده نزل علشان نكون أحسن،

نكون ناس أرقى، وبالتالي حتقول لنفسك: لأ، أنا أكيد فيه حاجة بتؤمرني إني أكون صادق حتى مع عدوي، وحتى مع الكافر، لازم أكون عادل، وشهم، وأقف موقف حقاني، وإن أكيد نصرة شرع الله حتتحقق كده برضه، ساعتها لما حتقرا، حتفهم قول الله سبحانه وتعالى:" ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة"، وقوله سبحانه وتعالى: "يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف"، كل دي سلوكيات لفعل الخير، والتحلي بأخلاق الفرسان، إللي مابيقتلوش عدوهم من ضهره، ومايقولوش عليه كافر علشان الناس تكرهه وماتسمعلوش، وكلها مالهاش ثوابات ولا لها قواعد زي الصلاة والصوم والزكاة، لكن الحرص عليها يبدو من كلام ربنا –بالنسبة لي أنا على الأقل – إنه واجب، زي الصلاة والصوم برضه، ولا إيه؟ هذا ما أحدثك عنه، هذا هو الحفظ بلا تدبر، هذا هو تفسير بعض كلام الله والغفلة عن بعضه، هذا هو ما قصدته عندما قلت لك أن المروءة غير منصوص عليها صراحة، أنت تذكر النص، وحتى لو كان يدل فعلاً على المروءة، فالمشكلة أن ليس كل من يقرأ يفهم. نحن شعب لا يقرأ للأسف، حتى عندما قرأنا كلام الخالق، غفلنا عن أول آية، وأكملنا قراءة وحفظ، بضمير مستريح. هذه هي البوصلة التي احتكروها لأنفسهم وفرضوها علينا، وعلى الناس، وتحيزوا لها، لا تحيزاً للإسلام، لكن لإسلامهم الضيق، الذي ينكر الفهم ويستنكر النقاش لأنه ليس ساحتهم التي يبرعون فيها براعتهم في الحفظ

والطاعة، ثم يصمك بالكفر دون حق. حتى لو لم أكن أعلم بهذه الآيات، فأنا أومن بوجودها، ربما لم أحفظ القرآن مثلهم، لكنني أوقن ان الله أراد به أن يتمم مكارم الأخلاق. فهمي إذن هو فهم بلا حفظ؟ نعم، فهمنا هو كذلك، أو فاكرينه كذلك، ونتمنى من يصوبنا لو كنا مخطئين.. نعترف بنقصنا وندعو الله أن يوفقنا لإتمام واجبنا في عبادته الحقة، بس إحنا مصيبتنا "ملحوقة"، تقول إيه بقى في مصيبة إللي حافظ ومش فاهم؟".

التقطت أنفاسك وتابعت: "أنا مش كافر، بس رسالتنا ببساطة كانت، إنكم يا بتوع البوصلة مش فاهمين إشاراتها أصلاً. افتحوا النور وانتو تشوفوها، شايفينها في الضلمة إزاي؟. افتحوا النور خللونا نشوف معاكم، مين قاللكم إنكم قارينها صح؟. بيتهيألهم إنهم علشان بيعملوا كل حاجة وفي بالهم نصرة الدين والشرع وإرضاء ربنا، إنهم منزهين عن الغرض، وإنهم كده يبقوا على حق. المفاجأة بقى: إنهم كده برضوا بيطوعوا الدين لمصلحتهم، وهي الفوز بالجنة، والمفاجأة الأكبر، إن ربنا، والله أعلم لكن ده رأيي، مايرضيهوش كده. وكل ده علشان هم انحازوا لرأيهم هم بس، فاعتبروه صح وكل حاجة تانية غلط، لحد ماوصلت للمأساة بتاعة جمعة الحجاب. اقنعونا طيب، يمكن إحنا فاهمين غلط، ولا انتو خايفين لا نكشفكم؟ لما رفضوا النقاش، وحاربونا بكل الوسائل، قلنا طيب، قررنا نخرج الدين من المعادلة، تحديناهم أن يقنعونا بأن ندخل في الإسلام، ومبدئياً كده يعتبرونا رافضين

فهمهم للإسلام، ورافضين إن ده هو نفسه الدين إللي ربنا أمرنا نتبعه، أكيد هم بيطبقوه على مزاجهم!! يعني اعتبروها مناظرة يا سيدي، واحد أجنبي ولا مسيحي بيجادلك، المفروض تعمل إيه؟ مش تجادله بالحسنى؟ ولا إحنا مش بني آدمين؟ مع العلم إننا مسلمين زيهم، لكن تقول لمين: كفرة، ملحدين، والفيلم إللي عارفه ده كله!! صعب على واحد مثلك أن يفهم كلامي، واحد لبس شيك ونزل الميدان وبعدين أغمى عليه وشكراً على كده. لكن هو ده أكثر شيء هزهم. الناس فهمت كلامنا جداً في الأول، وتعاطف معنا ناس كثيرون، جمعة الحجاب دي كانت تحفة، وعدد الناس البسيطة الذين لا يقبلون أصلاً أي كلام ضد الدين كان مهول، الناس دي نزلت في جمعة نظمها ناس زينا بيقولوا "مش عاوزين إسلامكم"، وماكناش كفرة ولا بنحرق القرآن ولا أي كلام فارغ من هذا النوع."

قلت في صدق أن هذا الجزء أعرفه، لكنك لم تعلق، نظرت "غادة" إليَّ في تحفز وهي تقول: "لكنك بالطبع لا تصدقنا؟ وإلا لما أتيت إلي هنا لتحاضرنا عن "مصر" إللي مش ناسيانا. والله؟ طيب ولما بنيجي على بالها بتفتكر إيه؟ طيب و"مصر" ساعتها بتتصعب علينا وتمصمص شفايفها وتدعيلنا بالهداية، ولا بتعمل إيه؟ تعرف "مصر" إننا نشرنا تحدي إنهم يقنعونا دخلوا الإسلام ليه؟ ده طبعاً علشان إحنا كفرة مش كده؟ مايجيش على بال "مصر" إننا كنا بنحاول نخليهم يرجعوا يسألوا نفسهم هم مسلمين علشان ربنا إللي خالق كل شيء، جعلهم في الرض

خليفة له، يعمروها ويبقوا بني آدمين أحسن، وبالتالي يقفوا مع نفسهم ويفهموا أكتر، يقروا أكتر ويحبوا نفسهم أكتر؟ ولا ده حرام وكفر وزندقة والذي منه؟ تعرف "مصر" إننا سألناهم بصراحة لو اتولدوا مسيحيين ولا يهود كانوا قالوا لنفسهم حنبقى مسلمين ليه؟ تعرف إنهم طرمخو على الكلام ده كله؟ تعرف إننا بعد إللي حصل في "هولندا" كنا لسه بنتحداهم وهم برضه مطنشين؟ طيب تعرف حضرتك مصر دي فين؟ الناس إللي ساكتة على وجودنا هنا وبيتفرجوا على صورنا في التليفزيون وعلى المحاضرات ويقولوا: "والله كلام زي الفل، بس عيال كفرة مفيش فيهم فايدة؟"، هم دول مصر؟ ولا سيادتك إللي جاي تصدعنا بكلام فارغ وتاخد لك قرشين؟ يا بطل الثورة يا مناضل؟ انت بقي وعينتك، تبقوا مصر؟ طيب هي مصر تعرف إن أبويا مات في الثورة وهو بيحاول يطفي المجمع العلمي؟ ده مكان كده كان فيه لا مؤاخذة كتب من إللي تقراها وبعيد عنك تفكر وتتعلم، زي القرآن زمان ما كان أهم الكتب دي، بس الأشكال دي لا فهمت منه سطر ولا حفظت ولا فكرت إلا في السطور إللي تهمها بس، وبقى بوصلة على مزاجهم، بوصلة سرية ممنوع نبص عليها ولا نفهم ماشية إزاي. طيب هي مصر أساساً واخدة بالها، إن أمي ماتت من قهرتها عليَّ علشان أنا كافرة بنت كلب؟ والنبي يا دكتور أمانة، لو شفت مصر، سلم عليها قوي وقوللها "غادة" بتقوللك متشكرين خالص.."

رأيتك وأنت تمنعها من الاسترسال إذ لاحظت تأثري. لم يكن مقتل "هريدي" قد استوعبته بعد، ولم يكن خبر وفاة "إيمان" قد وصلني إلا منها الآن. جالت عيناك في وجهي وكأنك تتيقن من صدقي، ولكنني سألتك عمَّا إذا كان بمقدوري أن أساعدكم، فضحكت أنت وقلت في سخرية: "لقد طلبنا كثيراً زيارة أناس بعينهم، صحفيين مستنيرين، د. "محمد عزمي" لما نعرف عنه من عقل يتقبل النقاش، مشايخ وقساوسة نقعهم بمساعدتنا وتوصيل رسالتنا، ونفهمهم حقيقة ما نقول بدون وسطاء لا يفهمون، ثم ينقلون ما استقر في عقولهم من أحكام مسبقة. لكن، طلباتنا كانت تسجل بمنتهى الدقة، ولا يتم الاستجابة لأي شيء. لا انترنت ولا هواتف ولا أي وسيلة اتصال. لو كنت تريد مساعدتنا فلن تستطيع، فالقواعد واضحة بشأننا. لو قتلونا ربما لعلم الناس قصتنا وربما لكان هناك أمل يوماً ما، لكنهم يبقون علينا إلي أن نموت هنا أو يقتلنا الناس يوماً عندما يستتب لديهم يقين كفرنا. (الملاحدة لازم يموتو)، سوف تقال يوماً، وسينتهي بنا الحال للنسيان. ربما لا تصدقني، لكني لا أخشى على نفسي من ذلك شيئاً. ما الذي سيصير للبلد إذا ما حدث ذلك؟ لماذا يخشون خطرنا إلى هذا الحد؟"

قلت في غباء:"ربما يصدقون أنكم ملحدون؟ ربما أسلوبكم أعلى من قدرة تفكيرهم؟"

قلت أنت في ثقة أدهشتني: "لا يا دكتور. هم يفهمون تماماً أننا نشكك في عقيدتهم، وليس في الدين. حتى لو ادعوا العكس،

فهم يفهمون تماماً. نحن نقول بمنتهى الوضوح أننا نرفض فهمهم للدين، لكن ولأنهم التحموا بالعقيدة، وجعلوها والدين كياناً واحداً، فصارت جزءاً من تفكيرهم
وحجتهم، فهم لا يجدون رداً مقنعاً يظهرنا في ذات الوقت بمظهر الجاهلين. وجدوا أنفسهم ببساطة في تلك المعادلة: الشيء الوحيد الذي يميزون به نفسهم عننا، حقيقته على المحك، فآثروا ألَّا يروا من كلامنا سوى أننا نناطح سلطتهم على الناس، وأننا ندعي لأنفسنا نصيباً من الصندوق الأسود الذي ادعوا ملكية مفاتيحه وحدهم، تلك السلطة التي نبتت مع شعيرات ذقونهم وطالت بطولها وتعمقت بقدر غور "زبيبة" الصلاة. تصور ماذا يحدث لو أن الناس فهمت ما نقول؟ لو أخضعنا الدين لفهمنا نحن لسماحته ونطاقه الأوسع؟ هل يسيرون بعدها خلف من يحمل البوصلة في الظلام؟ ماذا يجبرهم على اتباع خطى مالك المفتاح؟ ماذا يقسرهم على الإصخاء لخطوات أقدامه خشية التيه؟ لا شيء! هل فهمت الخطر من وجودنا؟"

التقطت أنت نفساً عميقاً وتابعت قائلاً: "لكن، حتى الناس العادية، ارتكنت إلى أن الذين يحكموننا الآن هم الأنسب، مالنا ومال القلق على الحال والأحوال، مادام الشيخ "السمان" يصلي ويصوم ويدفع الزكاة؟. سواء عندهم لو كان يصلي أمام الكاميرات، أو يعلن صيامه في خبر يهلل له الصحفيون ويتغزلون في تقواه وورعه، أو يدفع الزكاة من أموالهم هم، أليس هذا هو المنتهى من الدنيا، كلها عبادات والثواب عليها

معروف؟.. أما المعاملات، فألف حجة وحجة، مرة الضرورة ومرة الدفاع عن الدين ومرة الظروف، أو الفتاوى الغريبة. والمتضرر له آخرة يتهنى فيها براحته، ولا أنت حتكفر يا دكتور؟. الناس لا تجد عملاً ولا أملاً، لكن بات لا يحركهم إلا التعدي على الحرمات، والنيل من الدين، وكلام الزنادقة. مالنا ومال القلق؟ علام نقلق؟ على قدراتنا العقلية الهائلة المهدرة مع هؤلاء المشايخ؟ أم على مهاراتنا الرهيبة التي لا يلتفتون إليها؟.

ساد الصمت للحظة، فسألتك عن الحل، وعما إذا كان إصلاح فكر هؤلاء ممكناً. نظرت إليَّ في إشفاق وقلت أن الأمل دائماً موجود، ولكنه لن يكون حلاً سهلاً، ولسوف يحتاج إلى إخلاص وتضحية. حاولت الاستفسار منك لكنك أضفت كلماتك التي لم أنسها: "هؤلاء، وهؤلاء، يخشون أن يفقدوا قداسة المعتقد، لأنهم لا يملكون غيره، وتلك هي المصيبة".

* * *

كنت متعباً جداً بعد جلستي معكما. طلبتم الانصراف فلم أمانع. أنت تظاهرت بعدم الاكتراث، لكنني كنت أعلم أنك متحير بشأني. "غادة" كانت تدرس انفعالك بعينيها لتكون رأياً، لكنها حيتني بإيماءة سريعة قبل أن تنصرفا في برود. انتهيت من التخاطب مع اثنين آخرين ثم ثالث، خاطبوني كلهم بنصف عقل وبعداء غريب، لكنني لم أُطِل النقاش معهم. كلهم رددوا مسألة الشعار وكيف تم فهمه خطأ، واتهموني بالعمالة وأنهم لا يبالون بي أساساً، لكنهم يرغبون في توصيل رسالتهم لـ "حسام" ولـ

"السمان": "مهما فعلتم فسنظل كما نحن حتى لا تطمئنوا أن كل الناس تنخدع بكم".

جاءني ذو العينان الخضراوان مبتسماً في تثاقل. ألقى نظرة راضية على التقارير الممتلئة أمامي، جمع الدفاتر تحت إبطه وكأنها مسئوليته وهو يسألني عما إذا كنت جاهزاً للانصراف، إذ السيارة تنتظر خارجاً. أطال النظر إليَّ بعينين دامعتين وقال "سبحان الله". لم أُعِره اهتماماً وواصلت نظرتي الباردة، لكنه كان قد مَلَّ من المراوغة والانتظار، فقال في فرح غامض مشوب باعتذار خفي، كأنه يقدم رجلاً ويؤخر أخرى: "يا دكتور.. معقولة مش فاكرني؟ أنا "سعد" يا دكتور.. خدامك "سعد" إللي كنت شغال معاك هنا من ييجي سبعتاشر سنة!!"

ياااه.. "سعد"؟.. وهل هذا الوجه يُنسَي؟

لقد كانت أيام سوداء حقاً.. !!

* * *

القاهرة في 2008..

كنت في تلك الليلة قد وصلت تواً لمنزلي وتأهبت لخلع ملابسي بعد يوم مرهق مزدحم بالمريضات كثيرات الشكوى، فدق جرس هاتفي المحمول. جاءني صوت العامل الأسمر ذو العينين الخضراوين يُنبئني بوصول حالة "مهمة". كانت صديقة لعائلة "إسراء" لذا تعجبت أن "إسراء" لم تعلم بأمرها، يبدو أن آلام المعدة فاجأتها فجراً، كالمعتاد مع هؤلاء!. لكن تعجبي

كان أكثر من طبيعة المتصل. لم أُضِع وقتاً وانطلقت فأنجزت المهمة في ساعة و تزيد، ثم استدعيته. ابتسم في جذل وقال أن الممرضات كُنَّ مشغولات فلم يتواجدن في الاستقبال إذ ما كدت أن أنصرف حتى رَكَنُوا للراحة بعد يوم مرهق، فاستقبل هو الحالة وأهلها وأتم إجراءات دخول المستشفى واتصل بي بعد تحضير العمليات وإيقاظ الممرضات. لم يكن يتطوع بالتفاصيل لكنني استنطقته عن هذا العالم المسائي الذي خفا عني وعن "إسراء" وظننَّا أن إشرافنا على تفاصيله الملموسة لنا نهاراً يكفينا مراقبته ليلاً. كنت بين سعادتي لوجود من يولي ولاءه لي بهذه الحرفية والإخلاص، وبين دهشتي من ذكائه. راجعت أهل المريضة بعدها بطريقتي، فألمحوا إلي رضاهم عن الاستقبال وسرعة إنهاء دخولهم وأثنوا عليه كثيراً. تطوعت إحدى قريباتها بإبداء ملحوظة أكدت بها روايته. تغنت بمستوى التمريض والاهتمام الفائق الذي لاحظوه الليلة، مقارنة بما حدث معها شخصياً منذ بضعة شهور بعد نهاية العمليات ومروري بها، إذ كانت "زبونتي". ظلت بعد انصرافي طوال الليل تصرخ من ألم الجرح وتطلب المسكن دون جدوى. دأبت تضغط زر الاستدعاء في جرس الحجرة، فلم يجبها أحد إلا في الصباح عندما أتين حاملات للعلاج في موعدهم المعتاد. حاولت مكافأة ذي العينين الخضراوين، فرفض بإصرار. "خَدَّامك "سَعْد" يا دكتور"، قالها في احترام وود حقيقي واستدار مبتعداً. لمَّحت لـ"إسراء" بأن الممرضات كُنَّ نائمات وقت الطوارئ الليلية،

فغضبت وتعهدت بأن تتخذ اللازم. كان أسبوعاً عاصفاً تغيرت فيه كل وجوه الممرضات المسائية تقريباً ولم تفلح توسلاتهن لها ولا لي. مضى على ذلك زمن طويل، لكن الواقعة الثانية حدثت بعدها بأسابيع. كنا في وسط عملية طويلة وطلبت من المساعدين أن يناولوني آلة لإيقاف النزيف. ناولوني واحدة لكنها كانت قد تهترئت بفعل الاستخدام. ناولوني الثانية لكنها لم تختلف عن سابقتها. بدأ الكبد ينزف في جنون ومحاولاتنا اليائسة لا تفي بالغرض في غياب الآلة المهمة، وبدأت أفقد أعصابي ويرتفع صوتي باللعنة على الممرضات. ازدحمت الحجرة بالكثيرين من الحجرات الأخرى والكل يفتح لفافات الآلات في تتابع وصخب فسخ الأوراق المعقمة الكئيب ويبحث عن الإنقاذ. مع كل فشل ونظرة خيبة أتلقاها بدأ طبيب التخدير يتوتر هو الآخر ويعلن حاجته لنقل دم إذا استمر الوضع كذلك. ثم بدأ يسألني عن العناية المركزة لديَّ وعندما علم بأنها مازالت تحت التأسيس، قال ملاحظة مبتورة عن مستشفى خاص "طويل عريض" مثل هذا ولا يملك عناية مركزة، ثم بدأ يتصل بالاسعاف لتنقلها للجامعة. ظهر "سعد" فجأة ولمحته وسط عرقي الذي احتشد على جبهتي وهو يسأل عمَّا حدث، يهز رأسه في ثقة قبل أن يدور فوراً مهرولاً خارج الحجرة، فقط ليعود بعدها بنصف دقيقة حاملاً الآلة، جديدة ومعقمة، ليفتحها ويناولها دون أن يلمسها باحترافية للممرضة التي تساعدني. تنفس الجميع الصعداء، وبدأ طبيب التخدير يعلن أن الأمور قد

تحسنت. عاد وجه المريض يفتح عينيه بسلام، لكن كثيراً من الوجوه تغيرت ثانية بعدها. أجرت "إسراء" تحقيقاً واسعاً بعدها لتكتشف الإهمال في إدراج آلاتنا الجديدة في لفائف العمليات، ولتكتشف أن "سعد" نَبَّه على الممرضات بذلك ولكنهن أهملن حديثه رغم أنه يرعى العهدة والمستهلكات ويحيط بها علماً.

لم يعد "سعد" مجرد عامل لدينا، على الأقل لديَّ أنا. جاء الطاقم الجديد من الممرضات وسُمعَتُه تسبق حضورهن: هذا هو كاتم أسرار المكان و"حبيب" الدكتور. صحيح أنَّ "الست هانم" لا تستلطفه كثيراً ولا تسعد بقربه من الدكتور، لكن مع ذلك فتأثيره خطير: كلمة منه تنهي وجود أي أحد ممن يعملون هنا، ولكم عبرة في رءوس الذئاب الطائرة. توقفت محاولات الممرضات عن الإيقاع بينه وبيني بقص وقائع عن "إيده الطويلة" أو سطوته الزائدة كما فعلت سابقاتهن، الكل أدرك ألّا فائدة ترجى من وراء ذلك. أما "إسراء"، فكانت بالفعل لا ترتاح إليه: لا ترى إلا أنه فعل ما يمليه عليه عمله، وأنني أبالغ في تقريبه مني، لكنني كنت أرى في "سعد" من يعمل بإخلاص لأنه يحبني، أو يحبني لأنه مخلص. لم تكن مجرد موقعة العملية الحرجة، لكن كان هناك أيضاً ذكاؤه الاجتماعي العالي، هندامه النظيف البسيط، أدبه في التعامل مع الجميع، حرصه على المكان بشكل حقيقي، ذاكرته القوية فلا ينس وجهاً ويذكرني بأشياء لا يمكن أن أذكرها: "هذه "المدام" هي التي ماطل زوجها في الحساب في آخر كشف، هذا الزوج هو الذي جاء منذ

أربع سنوات ودفع "عربوناً" للعملية لزوجته ثم استرده بعد أسبوع، سمعت أنه ذهب إلي الدكتور فلان وأجرى لهم العملية لكنها فشلت، وإلى الآن لم تنتظم حالة زوجته وعادا لشكواهما الأولى، هذا "الشحط" قيل له في كشف سابق عند طبيب آخر أن الورم في رقبته صعب تحديد طبيعته بالسونار، سيقولون لسيادتك أنهم يريدون عمل أشعة للاطمئنان لكنهم يموتون في جلودهم خشية ألَّا يكون حميداً، هم لا يسعون إلي أي معلومة أخرى مهما بدوا واثقين، وهم مستعدون لدفع أي شيء لمعرفتها، تحدثت معهم في أمر الاستئصال فوافقوا دون نقاش في الأتعاب، لكن بعد أن يعرفوا ما يطلبون سوف أستخرج لهم كارت المتابعة وأحاسبهم عليه فيصيرون زبائنن و"نربطهم" بنا. هم ينتمون لقرية صغيرة ومن عائلة كبيرة هناك، سيكفل ذلك طوابيراً من أهل القرية ينتظمون عندنا إذا ما شفي من سقمه.

بالتدريج بدأ "سعد" يتولى أمر تحديد أسعار العمليات، وقياس الزبون من هيئته ومن تسامره معهم قبل الكشف. كان ودوداً مضيافاً تنفتح له القلوب فتنفك عقدة الألسنة وتنطلق الابتسامات في وجهه، يدخل إليَّ بدون استئذان طالما أنني لست بصحبة المريض وأهله، فيسكب المعلومة في أذني أو يدس ورقة بها جملة هامة عن المريض القادم، أو يتولى الإجابة عن الهاتف عني فينهي المسائل العالقة بحكمة ويسر. ارتحت جداً لوجوده وظننت أن سلطته خرجت مني بإرادتي ولاستحقاقه

إياها. لذلك كله لم ألتفت لانزعاج "إسراء" منه، ولا لشكوى الممرضات من قسوته عليهن في الرقابة، ولا لكثير من الأمور المتناثرة التي اجتمعت خيوطها رويداً رويداً حتى صحوت يوماً على مفاجأة زلزلت كياني.

قرر "فؤاد" أن يُشرك صديقاً له بأسهم في المستشفى. الحقيقة أنَّ هذا الأمر لم يكن يعنيني كثيراً. كنت أنا المستشفى!! مهما قالوا ومهما حاولوا تذكيري بأنهم أصحابها، فلم يكن ذلك يفت في عضدي أو يضايقني، أو ينسيني أن كل ذلك الهيلمان يقوم على كتفي أنا. كنت أغضب إذا ذكرتني "إسراء" منذ زمن بأنني أضيع وقتي في الجامعة ولا أستطيع إنجاز شيء بنفسي دون مساعدتهم، أزداد إصراراً على دفع عجلة الدكتوراه إذا هدأ دورانها، في كل مرة ألمح فيها حجر التأثيث الرخامي المزدان بالبسملة وأسماء حماي وأخيها وخالها واسمها، كأصحاب للمكان. الدكتوراه والجامعة هما حجري ورخامتي، هما ملعبي الذي أملكه حتى لو لم يُدِر عليَّ مالاً الآن، وحتى لو لم تزدان بنقوش السلطة وتلتف بإهاب الفخار. لكن أسئلة "فؤاد" السمجة عن الأخبار، و"أخبار الشغل؟" و"علي الله تكون ماشية كويس، إحنا معتمدين عليك يا دكتور" إلي آخره، كنت لا أقابلها إلا بالابتسام وهز الرأس وقولة :"ماشي الحال" التي أفقدته أعصابه ذات مرة فقال أنَّ الحال يمكن أن يمشي أكثر، وأن مشروعاً مثل مشروعنا، يُدِر على القائمين عليه أكثر بكثير مما تفعل تلك المستشفى. تمادي وقال أنه لو كان يعلم أن تلك

هي "إمكانيات الشغل في الطب، لما وافق أباه على تحويلها لمستشفي ولما ألقى في تلك القربة المخرومة بكل هذا المال". قلت له بهدوء قصدت جعله مستفزاً قدر الإمكان، أن الملايين التي تكسبها تلك "القربة المخرومة" سنوياً يمكن بالفعل، لو أنها لا تكفيه، أن تصبح مئات الملايين، لكن للاحترام ثمن. فالناس تطلب من الطبيب مستوى معين، وأداء معين، لذا فأستاذ الجامعة يعتبر أن عمله الخاص هو شيء بجانب عمله الذي يعطيه بعلمه وطبيعته احتراماً يستحقه، لا يسعى إلي عمله الخاص لاهثاً مثل هؤلاء الذين لأن أعمالهم لا تملأ عينيهم، أو لأنهم لا يستمدون المهابة إلَّا من خوف الناس من وظائفهم. أولئك يحاولون تحقيق ذاتهم بطرق أخرى، مشاريع أو "بزنس"، أو خلافه. احمرت عيناه في غيظ، ونقل بصره بين "إسراء" التي توترت في صمت، وبين وجهي الهادئ المتشفي، وقال في فحيح وهو يميل نحوي أنني فقط لو تركت تقييم غيري وانشغلت أكثر بعملي، لكان ذلك أفضل في المرحلة القادمة. تبادلت معه نفس النظرة المتحدية وأنا أسأله عمَّا يقصد بتهديده، فسارعت "إسراء" بنفي ذلك وهي تلمح إلي الشريك القادم قريباً للجلوس معنا وإتمام الاتفاق. لكنني لم أفهم إلا متأخراً.

وسط حراسه الشخصيين مفتولي العضلات دخل إلي مكتبي مصحوباً بـ"فؤاد" و"إسراء" وزوجته. في منتصف الأربعينيات، شديد الأناقة تسبقه رائحة عطره الفرنسي النفاذة،

ويرتدي معطفاً فاخراً وقميصاً ذو ياقة مزدوجة متناسقة مع بنطاله الجينز وحذائه الجلدي الفاحش. كان من الواضح أن للشريك سطوة ما قوية: "فؤاد" انتزع من قسمات وجهه الجامد كأبيه، ابتسامة بدت وكأنها ستظل هناك إلي الأبد، خاصة مع مجهود النحت البادي عليها لمن يعرفه. أما "إسراء"، فبدت في كامل زينتها، مرحة تضحك لأي ملحوظة من هنا أو هناك، وكانت تتحمل عجرفة الزوجة الارستقراطية في صبر لم أعهده فيها. قدمه "فؤاد" لي على أنه "صلاح الكواوي"، رجل الأعمال الشهير وصديقه الشخصي. عدَّل الضيف من وضع خصلات شعره في استعلاء وأمَّنَ على كلام "فؤاد" في هدوء.

كنت معتاداً على مثل هذه الجلسات. كانت "إسراء" قد رسمت السيناريو مع "فؤاد"، وشرحت لي ما سوف يتم، وكان – على أية حال – لا يختلف كثيراً عمَّا يحدث دائماً في هذه الجلسات. هناك بنود وشروط وعقد، وهناك أرقام سوف يقبلونها وأخرى سيبتعدون عن مجرد التفكير فيها وثالثة بديلة إذا ما فشلت الأرقام الأولى في حسم الأمر. لا يهمني الأمر ولا أضع نفسي في حرج الاعتراض أبداً. عشت موقفين أو ثلاثة مشابهين عند الاتفاق على توريد الأدوية لصيدلية المستشفى التي افتتحناها بدون ترخيص طبعاً، وكانت تدر علينا مثل ما تفعل المستشفى ومعمل التحاليل الخاص التابع لها معاً. لكن تلك الاتفاقات كان دوري فيها بسيطاً. أبدي انزعاجي عند طرح أمر ما، أو أرفض رقماً ما. لكن هنا كان دوري سيقتصر على حماية

الناحية الفنية - أي ألَّا يتدخل الشريك في عمل المستشفى. لم يكن هذا بالطبع إكراماً لخاطري، لكن عملي أنا الأدرى به، وهم يعلمون ذلك جيداً. لو جاء الشريك بقدراتي ودراستي لمكنوه مما يرغب، لو وجدوا من يديرها أفضل مني لما ترددوا. لكنهم لن يجدوا. "صلاح" كانت له نظرات مخيفة، لكنه طرح طرحاً جديداً أربك حساباتهم، وأدخلني طرفاً لأول مرة في الاتفاق. كان ينتوي تحويلها إلى مستشفى دولي. "لأجل أن نفعل ذلك، نحتاج توسعة وإضافة بعض الأجنحة. قانون التراخيص يحدد كل ذلك بدقة متناهية، وأنا تعودت أن أعمل في النور. تعرفت أيضاً على طبيب لبناني شهير، رجل طموح جداً، وسمعته طيبة في "بيروت". الرجل مستعد أن يشاركنا أيضاً، لكنه سوف يعمل بيده. ستكون المستشفى مفتوحة لتخصصات أخرى، مسالك بولية وطب العيون وأمراض باطنية وأطفال. هذه هي التخصصات المطلوبة في السوق. سيمكننا هذا من استقبال المرضى من كافة أنحاء الوطن العربي. الرجل له علاقات واسعة ومجرد اسمه سوف يبيع أكثر. السياحة الطبية هي المستقبل لمصر، مجال جديد لم يتم اختباره بعد، لكنني مغرم بالمخاطرة".

طبعاً لم يرق لي الكلام. بدأ البساط ينسحب من تحت قدمي بالتدريج. لن أكون "أنا المستشفى"، بل سأكون واحداً من الأطباء تحت رعاية مجلس إدارة. أبديت تخوفي من هذا الطبيب، ومن تأجير العمليات لأطباء من خارج المكان كما اقترح هو، ومن عملياتهم التي سيجرونها، لكنه كان قد درس الموضوع

بتفاصيله. كلما قلت شيئاً أبدى احترامه له، ثم نسفه من أساسه بالمنطق والورقة والقلم والحساب المحكم. طبعاً أبدى "فؤاد"، صاحب نظرية "القربة"، إعجابه الشديد بالفكرة، أما "إسراء" فانغمست مع الزوجة في التجول بالمستشفى لرؤيتها على الطبيعة. كانوا يقلبون في ما اعتبرته ملكي وجزءاً من كياني، يزنونه في أيديهم ويقلبون شفاههم المتعجرفة في صفاقة، ثم يخترقونني بنظرات الشفقة ويواصلون حديثهم مع بعضهم.

لم يكن حديثي لـ"إسراء" بعدها ذو فائدة. أصرت، كما هو متوقع، على إتمام المشروع واتهمتني بان طموحي محدود ولا أرى إلا الجامعة والعلم ولا أعرف السوق ومتطلباته. سألني "هريدي" عندما قابلته ما إذا كنت لا أنظر للناحية الإيجابية وهي أنهم سوف يقللون من تنغيصي بالكلام عن اهتمامي بالجامعة لأن المستشفى سيكون لها مصادر دخل أخرى تغنيهم عن الضغط عليَّ. دعاني للتفاؤل فاقتنعت، وظننت فعلاً أنَّ هذا ما سيحدث. بعد عدة أسابيع بدأ العمل في الأجنحة الجديدة. بدأت "إسراء" تشكو إلي "فؤاد" أمامي، مختلسة إليَّ نظرتها الجانبية التي أعرفها، من المصروفات الضخمة ومن حصتهم التي بدأت تزيد عما توقعوه في البناء. كنت أستمع بنصف أذن وأشمت فيهما بقلب هانيء، لكن سعادتي لم تكتمل، إذ جاء ذلك الضغط في ناحيتي أيضاً. بدأت المستشفى تمثل لهما المصدر الأساسي للإسهام في حصتهم في التوسع، فكانت "إسراء" تسأل عن الإيراد يومياً. بدأت تستنكر الأيام ذات الإيراد اقل من

المتوقع، وتصب جام غضبها عليَّ إذا علمت بأنني نصحت مريضاً ما بالانتظار قليلاً، وعدم الاستعجال على العملية الجراحية الآن، أو أعفيت ذلك المحتاج من أجري. كانت في لهفتها على المال تتعامل بجشع لا حدود له، حتى أنها لامتني بمرارة على المضادات الحيوية التي أوصيت بها لابنة خالتها، وقد جاءت ترجوني في لهفة هي وزوجها أن أريحها بفتح "الخراج" لخوفها من طبيعته، جُن جنون "إسراء" طبعاً، لأن ثمن العملية كان ليكون أعلى. لكنني طمأنتهم فلم أرَ داعياً للتعجل، وتابعت حالتها حتى الشفاء وعندما علمت "إسراء" بذلك، أصرت أن تحاسبها الحسابات بالمستشفى كأي مريضة عادية، وغضب زوجها الذي كنت أستلطف الحديث إليه وكان يحترمني بشدة، إذ كنت قد أعفيتهم من الدفع لكن القرار تغير عند خروجهم بمكالمة منها، ولم أرَ داعياً للتدخل مرة أخرى. رغبة "إسراء" في المال من أي طريق، كانت تتزايد يوماً عن آخر، وبدأت تعود لنغمة الجامعة وكيف أنها تشغلني عما هو أهم.

حتى كانت تلك الليلة!

كان الطبيب اللبناني قد حضر بالأمس وأقام "مراد" و"فؤاد" وخال "إسراء" وليمة كبيرة في استقبال أحد الفنادق الفاخرة بالزمالك للترحيب بالرجل. عجوز أصلع الرأس أحدب الأنف تبدو عليه مظاهر الوقار والتصابي في خليط جذاب، يتصلان بأناقة ولياقة في التعامل. كنت حاضراً رغم ضيقي من

المناسبة، وتحت ضغط "إسراء" وحديثها عن المظاهر ومصلحة المشروع وتوددها إلي حتى لا أحس أنني سوف يتم تهميشي. سارت الحفل على ما يرام ويتمنون، وتركتها مبكراً لارتباطي بالعمل في الجامعة صباحاً. لكنني قبل أن أنصرف كنت قد اكتشفت الفاجعة: الطبيب الأنيق جرَّاح أيضاً!!

ثارت ثورتي في وجه "إسراء" عندما عادت في الثانية صباحاً بعد انتهاء الحفل. أخبرتها أن هذا غير مقبول، وأنهم خدعوني. أن يشارك أطباء آخرون في مستشفاي، جائز، لكن أن يتم الزج بنفس التخصص، هذا غير معقول. أرغيت وأزبدت وهددت بالانسحاب. قالت في برود حاد كنصل سكين صدئة، أن هذا اختياري وأنا حر، لكن عليَّ أن أحكم عقلي وأتحمل عواقب قراراتي، ولو لمرة واحدة. ذهلت وأنا أستمع إليها تشرح في قسوة ناعمة كيف أن هذه المستشفى مشروعهم، وأنَّ الجميع يسعى لتطويره والنهوض به إلا أنا، رغم أن الفرصة التي جاءتني بذلك فرصة لا يحلم بها من هو مثلي ولا في سني أبداً، لكنني أضعتها بغروري وشرودي ومثالياتي الزائفة فيما لا ينفع. كيف أنها الوحيدة التي دافعت عني كثيراً، وحاولت مراراً أن تثنيني عن الانشغال بالتفاهات التي تعوق نجاحي، كيف أنهم أنفقوا على دعايتي عشرات الآلاف، وعلى إكراميات واتفاقات مع شركات وأمور أخرى الكثير والكثير، كل هذا من أجل أن أنجح. كيف أنها تحملت سخرية أهلها منها، ولومهم لها بالزواج من إنسان حالم مثلي يصر على أن يجر نفسه لقاع الفشل، لا

يفهم معنى الحياة ولا يقوى على مواجهة متاعبها، لأنها كانت تأمل فيَّ خيراً، وتتوسم فيَّ أكثر من ذلك. وجدت نفسي اسألها في ذهول: "لماذا تزوجتيني؟".. سكتت، وسفهت من سؤالي لكنني أعدته في إصرار: "لا أنا ناجح ولا تفكيري راجح ولا هناك حب من أساسه على ما يبدو، لماذا تزوجتيني؟". اتسعت عيناها وبدا عليها الصدمة واستنكرت حديثي نافية غياب الحب، لكنها كانت تتحدث بتعقل المتفاوضين وليس بسخونة المحبين. أكدت على حبها وأن حديثي يجرحها، لكنني كررت السؤال وشفعته بسؤال آخر عن العواقب التي يجب أن أتحملها. قالت وقد رسمت علامات الألم على وجهها أنَّ أهلها يتحملون وجودي فقط بسبب مشاركتي في المشروع، وأنَّ مجهودي وإن كان قليلاً فهي مصرة على أن أكون جزءاً منه. أضافت بعد صمت أن فؤاد بالذات قد بلغ به الكيل مبلغاً، وأنها لا تضمن ردة فعله لو تركت المستشفى، ولا ما قد يقدم عليه. تذكرت تهديده بأن أراعي شئوني فقط في الفترة القادمة واتسعت دهشتي. قالت بأنَّ (مشكلة المخازن) عينة بسيطة مما ينتظرني لو تهورت في أي رد فعل. لما أعربت عن دهشتي الحقيقية من ماهية (مشكلة المخازن)، قالت لي متعجبة من جهلي، بأنَّ شحنة الأدوية المخدرة قد نقصت عن الذي استلمناه في السجلات، وأن المستشفى "مقلوبة" منذ أيام. كان رأسي يغلي وأنا أصطدم بالحقيقة قطعة قطعة، أي شحنة؟ أي أدوية

مخدرة؟ أي سجلات؟ إمضائي أنا؟ متى تم ذلك؟ من الذي فعل ذلك؟

لكنها أظهرت أنها متعاطفة فعلاً معي. انهرت على أقرب كرسي وأنا أدفن رأسي بين كفيَّ، هذه مصيبة حقيقية، كلام كثير عن تفتيش الصيدليات الذي لا يرحم، كيف ونحن لم نرخص هذه الصيدلية من الأساس، كيف يأتي تفتيش على ما ليس له وجود ولا لافتة تشير حتى إليه؟ قالت أن "فؤاد" هو الذي كان يتصرف وكان يشتري المخدرات من صيدلي يعرفه يستلمها هذا الصيدلي من مؤسسة الأدوية باسمه، وتوقع أنت على الاستلام الداخلي لحاجة المستشفى إليها دوماً منذ سنوات وكأنك تصرفها على روشتة. هذه هي الروشتات المجمعة التي كنا نرسلها للرجل كل عدة أشهر لكي يسوي بها دفاتره وكأننا اشتريناها منه مرة تلو المرة وبالقطعة بينما شحنة الأدوية الكاملة في مخازن مستشفانا منذ أول يوم استلمتها فيه صيدليته فانتقلت لصيدليتنا فوراً. لكن الآن لا نستطيع أن نسوي المسألة. لماذا؟ سأوقع على الروشتات ثانية ونرسلها للصيدلي صديق "فؤاد" ويسوي بها أوراقه وينتهي الأمر. عقدت حاجبيها أكثر وصمتت. استنطقتها في عنف وأنا أهزها من كتفيها فقالت في برود أن "فؤاد" تولي أمر الإدارة منها تماماً، ورفض أن يرسل أية روشتات هذه المرة لكي يثير حفيظة الصيدلي، بالفعل حدث ما خطط له واتصل به الرجل مذعوراً يطلب الروشتات ليعلل بها نقص المخدرات التي استلمها من المؤسسة وإلا اعتبره التفتيش

الوشيك يتاجر بها. لكن "فؤاد" أمره أن يحرر بلاغاً بسرقة الصيدلية ليداري هذا في ذاك. فعل الرجل واتبع تعليمات "فؤاد" تماماً، فاتهمك أنت بالسرقة!!. المشكلة الأكبر أن تذاكر المرضى لدينا تحمل مخدرات مصروفة، وأن روشتاتنا التي يحتفظ بها "فؤاد" ممهورة بتوقيعك تحمل توقيعاً على صرف مخدرات، أين الفوارغ من "الأمبولات" إذن؟ تفتيش المستشفى أو النيابة سوف يقلبان الدنيا لذلك ولن يقعدانها. سيأتون ويسألون عن الفوارغ فلا يجدونها، ثم يأتيهم بلاغ الرجل يتهمك بالسرقة، ويشهد العديدون ممن أعدهم فؤاد بأنك تتعاطى المخدرات. صرخت أستفسر عن السبب، قالت بأن "فؤاد" قرر أن يحتويني في يده بعد أن تبجحت عليه كثيراً، "توقع أنَّك ستحاول إفساد المشروع بعد أن تعلم بأمر الطبيب الجديد. كان لابد أن يفعل شيئاً، فجمع الخيوط في يده، الإدارة والبلاغ وجرد المخازن".

ربتت على كتفي وأنا شارد في صفاقة، وقالت أنَّ الأمر بسيط. "أنت طبيب كبير، ورغم كل شيء فإن أهلي يعرفون قدرك ويعرفون أن المستشفى ما كانت لتقوم إلا على أكتافك. حتى لو لم يصرحوا بذلك فهم يعلمون. هذه طريقتهم، حاول أن تصبر، أن تركز أكثر كثيراً في عملك، وهم لن يتمادوا لإيذائك، لكن عليك إظهار جانبك الطيب الآن، عليك أن تثبت أنك جزء من الحل، وليس المشكلة. استمر ولا تأخذ الأمر بحساسية. صاحب المال جبان كما تعلم، وأي احتياطات ياخذها "فؤاد" أو أبي

يجب أن تعذرهم فيها. ربما لو وجدوك أكثر نشاطاً لتحسنت العلاقة كثيراً. وهم على أية حال لن يؤذونك طالما أنت معنا"

لكن عقلي كان شارداً في جزء آخر...

مَنْ؟

فمن أجل أن يكون هناك جرد، أو سرقة أو اختفاء للأمبولات، يجب أن يكون هناك شخص ما، يقوم بعمل قذر مثل ذلك بنفسه.

شخص يتواجد بشكل طبيعي في المخازن، فلا يثير الشك ولا يدفع الممرضات أو "سعد" للتكتم بأمر حضوره إلي هناك، ولا يلفت النظر بخروجه ودخوله.

نزلت مسرعاً و"إسراء" تناديني بإلحاح أن أعود فلا أعيرها بالاً، فتوجهت من فورى للمستشفى. دخلت مكتبي وناديت "سعد" بالطبع، فجاءني وهو يفرك عينيه مرحباً بي ووجهه تكسوه الدهشة، ويسألني عمَّا إذا كان هناك "مريض مستعجل" أتيت قبل حضوره لأباشره بنفسي. بادرت بسؤاله مباشرة هل هو مدمن للمخدرات؟ صدمه السؤال لكن ردة فعله، رغم الإنكار، أنبأتني بأنني في طريقي السليم. قمت وأمسكت بتلابيبه فأخرجت محموله، وطلبت بنفسي رقم "إسراء" وشغلت سماعته الخارجية لأسمع صوتها، وأمرته أن يحدثها أمامي ويسألها عن الموعد المناسب للقاء "فؤاد" بك غداً حتى يتناقشان في مسألة سجلات استلام الفوارغ لأنني اتصلت به وسألته عنها الآن. استسلم بعد صفعتين زادهما غضبي قوة وبدأ

الاتصال. لم يكن للسجل وجود، لكن "إسراء" بادرت بنهره عن الاتصال في موعد كذلك، ثم أجابت في اقتضاب أنَّ الأمر مع فؤاد، وأنَ عليه ألَّا يرد على مكالماتي بعد الآن، وأن يمنح نفسه أجازة يختفي خلالها تماماً. سألها كما أمرته عما يفعل في الفوارغ، فأجابته بأن يبقيها لديه، وهم سوف يتصلون به!!

هكذا سحلته على الأرض حتى أركبته السيارة وسط صراخه ودهشة الممرضات المذعورات، واتجهت به إلي منزله الذي اعترف بعنوانه تحت ضربات ساعدي على وجهه كالمجنون. كان يصرخ أن "مراد" و"فؤاد" سوف يقتلانه، لكنني كنت أهدده بأن أدفنه حياً الآن، ويبدو أنَّني كنت مقتعاً. وصلنا أول شارعه فحاول القفز من السيارة لكنني أعدته إليها. عندما سلمني الفوارغ في ثلاثة كراتين كاملة كان يبكي من الرعب ويعتذر ويتوسل في آن واحد. قال من بين دموعه أنه لم يقصد أن يؤذيني، وأنَّ "فؤاد" أجبره على ذلك وإلا حرمه من الوظيفة ونكل به. قال بأنه "سوابق"، لكنه تاب مع ذلك ويرعى أطفاله الأربعة في مسكنهم الحقير الذي يبدو هو نفسه كأنه مخزن صغير، فكان هذا العمل بالنسبة له فرصة لا تعوض. لم يصدق يوم أن استدعاه مأمور القسم وأخبره أنَّ أحداً من "الكبارات" يريده في أمر عمل. كان فؤاد يستقي منه أية معلومات عن المستشفى وعني، عدد المريضات، كشوف العمليات، أجور التخدير، كل ما بحوزة المحاسب "الأهطل" الذي تضطر "إسراء" لمراجعته طول الوقت، لكن الأهم من كل

ذلك: مكالماتي كلها، بمن أتصل ومن أعرف وماذا نقول فيها. أخبرني كيف أن الهاتف الداخلي للمستشفى مراقب، وأنه هو الذي يقوم بتفريغ شرائط المراقبة يومياً ويسلمها لـ"فؤاد". أما هاتفي المحمول، فينقل منه الأرقام التي اتصلت بي ويسلمها لإسراء، فؤاد لا يهتم بهذه النقطة، قال له ذات مرة: "الهانم لما تقول لك حاجة تعملها، بس تيجي تقول لي. موضوع مكالمات المحمول ده أنا مسكته في إيديا من فوق خلاص ومش عايز منك فيه حاجة". أكَّدَ لي أن "إسراء تعلم بكل ذلك منذ أول يوم، وبرغم أنها لم تكن تستسيغ "سعد"، إلا أنها لم تعارض "فؤاد" الذي زرعه بالعمل ابداً. طوال الوقت، لكن "سعد" لم يكن يعلم انه مراقب هو الآخر. قال أنه فكر كثيراً أنه يخونني وأنني لا أستحق ذلك، فلم يرَ مني إلَّا كل خير، لكن "فؤاد" أمسك به يوماً وهو متلبس باصطحاب بعض المستهلكات من المخازن معه، فهدده بصراحة أن يسحق أسرته بأكملها. ومن يومها وخوفه تضاعف فلم يعد يفكر ولا يقدر على مواجهة هؤلاء "البهوات".

كنت فاغراً فاهي وأنا ألهث من المجهود الذي استلزمه الإمساك بتلابيبه حتى فرغ من نحيبه. ماهذا الذي أسمع؟ بنت الحسب والنسب، عائلة الأصول وأرباب الأناقة والسلطة يستاجرون مجرماً سابقاً للتجسس عليَّ؟ ولماذا؟ تركته بعد أن بصقت على وجهه وقلت له أنه لولا أنني ليس لدي وقت، لقتلته الآن. لم يعد لديَّ مكان أخبيء الغنيمة فيه سوى البيت الوحيد الذي كنت أعلم أنه لن يغلق في وجهي حتى لو كان الفجر على

وشك البزوغ. تعجب "هريدي" كثيراً ورأيت "إيمان" من خلفه وهي تعدل من وضع غطاء رأسها في ارتباك وخفر، والاثنان تختلط على وجهيهما آثار النوم والفزع مع صوت أنَّات وليدتهما المتقطع. تركت الغنيمة لديه ووعدته أن أشرح له في الغد. لم يكن بحاجة لكلامي. سألني فقط في قلق: "انت كويس؟". قلت في صدق: "مش عارف".

عندما هبطت من البناية التي تحوي منزله، هبت على وجهي نسمات الفجر الباردة فاختلطت بآلام عضلاتي المتكسرة وصوت آذان الفجر من مسجد السيدة زينب القريب. لم يكن المصلين وقتها من ذوي السجلات المحفوظة لدى "جماعة الحق"، ولم تكن الصلاة تنتهي بدفقات من الغاز كما صار يحدث هذه الأيام. اتجهت لا شعورياً إلي المسجد بخطوات ثقيلة من الهم، بينما يهرول من حولي في نشاط بدا لي غريباً. وجدت نفسي الأبطأ وسط السارين، تعجبت هل هو الخجل من نفسي أم هو الإرهاق، أم أنها أفكاري تثقل خطواتي كأكياس الرمل. عندما انتهت الصلاة خلوت إلي نفسي وأنا استند بظهري إلي عمود غليظ، وأنا اتطلع لنقوش القبة الملونة، وضوء النهار بدأ يتسلل من خلالها. دار ببالي ما حدث ودمي لا يزال يغلي بعروقي. رأيت المفترشين الأرض من حولي فنظرت إليهم يغطون في سبات هادىء يزينه شخير منتظم، تأملتهم في حسد. هؤلاء لابد وأنهم يحلمون بغد أفضل، بيوم به رزق أوسع. من الأكيد أنهم ليس لديهم من يحاصرهم ولا يضيق عليهم. ما الذي يجري لي؟ لمن

ألجأ الآن سوى إلي الله؟ فكرت في جبروت "فؤاد"، والورطة التي تورطت بها. كل ما فعلته هو أنني استعدت دليل براءتي، لكنني لست ممن يخوضون معارك النيابة والشرطة وسين وجيم. لكنني أدركت أن الأمر بدأ منذ سنين، منذ أن بحثت لنفسي عن ظهر ألتجيء إليه، منذ أن انتقلت للقاهرة، وقبلت أن أكون جزءاً من هذا كله، وربما من قبل ذلك بكثير؟ منذ أن.. !! طردت "ندى" عن بالي فلم أكن مستعداً للندم أكثر من ذلك.

الخيانة صعبة يا ولدي، لكن مثلها الإحساس بالانهزام وشعور اليدين المكبلتين. من هؤلاء؟ أبشر مثلنا؟ بعد أن تستقر الطعنة في ظهرك وتدمى لها كرامتك بجلاء، يصرون على نكء جرحك فيرغموك على الابتسام، والرقص. لكنك، لا تتألم لذلك فقط. ينسكب ملح دمعك على جرحك بإخلاص تأخر كثيراً، وضمير تعلم البغاء فكاد أن ينسى اسمه، تبكي لأنك تعلم أنك أنت الذي اخترت هذا الطريق. الأكثر إيلاماً هو أنك تتمنى أن يقتلك الملح ألف مرة، فتكون موتتك بيديك، وليس بنصالهم. تسعى لأن تدفن ابتسامتك تحت التراب مع وجودك، عوضاً عن الاستمرار فوقه وابتسامتك المقسورة في وجوههم تمنحهم نشوة الطغيان التي تهزهم بارتعاش آثم. أسوأ شيء هو أن تكره نفسك، أن تتمنى زوالها كأنها غبار غطى نفسك الأخرى التي تعرفها، أو التي تظن أنك تعرفها. لكنك تدرك أنَّ الغبار عالق في السمت حتى بدله، وأنَّ نفسك صارت ذكرى، وأنك لا تحوز الدليل على أنها كانت هنا من الأساس، فتظن بعقلك الظنون. يسقط قناعك

أمام نفسك فجأة، وتتوقف عن خداعها وتدرك أن الأصوات التي تشاغلت عنها وطمست صخبها عمداً بداخلك زمناً كانت على حق في كل كلمة نطقت بها، أو سكتت عنها. تذكرت أختي عندما هزت رأسها نفياً وهي تحذرني خفية من قبول الانتقال للقاهرة، وهي تقول لي أنني ألبي طلبات "إسراء" أكثر من اللازم. خطر ببالي فجأة أبي: "البنت دي هتسقيك المر يا مصطفى". رأيته وهو "يضغط" على أسنانه في غيظ وأنا أدافع عن "إسراء" في عناد، ورأيت أمي وهي تكتم ضيقها من جفائها معهم. سمعت "هريدي" وهو يقول لي كيف أن "هذه الأشياء لا تأتي فُرَادَى، إنما تأتي معها دائماً مُنَغِّصات لا تدري من أين جاءتك"، فاضت الصور عن مدى رؤيتي واقتربت مني أكثر، تكرر ظهورها فاختلطت ألوانها كعلبة ألوان تنسكب على لوحة بيضاء، ثم صارت ضباباً أبيض، ثم رمادياً كئيب متشقق الأطراف، ثم أسوداً ثقيلاً. تكثفت الصور وسط شهيقي المتتالي حتى نضجت ونزلت دموعاً غزيرة على روحي التي اختنقت مما صار وما لم يصر. قطعت المسافة من منزل "هريدي" في السيدة زينب حتى منزل أبي وأمي الخاوي بمدينة نصر واستلقيت على سريرهما لأنام. امتدت يدي لهاتفي فرأيت اتصالات عديدة من "إسراء". قررت أن أتصل بأبي، وأمي. لكن، أغرقني الخجل في دوامة سحيقة من الضيق. أغلقت الهاتف، أجلت الأمر للغد ونمت. شيئ ما في أعماقي تلك الليلة، كان قد انكسر.

* * *

بيت الملاحدة نمرة تسعة.. مرة أخرى..

بالغ "سعد" في الاعتذار عن الماضي، وبدا عليه أنه لا يصدق أنني أسامحه. كنت في أعماقي "أفهم" أنني غاضب، لكن لا أثر لذلك على مشاعري الحقيقية. ربما هو التقادم أو هو ذهني المشغول بأمور أخرى، أو كون المستشفى لم تعد محور حياتي، لا هي ولا كل ما تعلق بها من خيانات وإخفاقات. قال في إخلاص وهو يرد على أسئلتي له عن أحواله، وفي معرض حديثه: "والله العظيم يا دكتور، أنا لو عادت بي الأيام لكنت فعلت غير ما فعلت. إحنا اتبهدلنا من بعدك خالص يا دكتور، حمدالله على سلامتك. الحمدلله أنا كويس، آه، وعيالي كويسين الحمدلله". بدت عليه سحابة من الحزن، لم أفهمها في حينها، لكنني تذكرت أمراً ما فسألته عنه، تهلل وجهه وقال في حبور: "انت لسه عند بيت الوالد في مدينة نصر؟ طيب سوف أرسلها لك تعنى بأمور المنزل وتنظفه لك وتطبخ لك شيئاً تأكله. نعم، أم العيال ماتت منذ زمن فتزوجتها، والله فيك الخير يا بيه، هي كانت دايماً تجيب سيرتك بالخير، حضرتك افتكرتها إزاي؟ "هبة" دي ست جدعة أصلها ومحدش ينساها أبداً."

سألته عما دفع به إلي بيت الملاحدة، فقال أنها قصة طويلة. كان يقص عليَّ ويتلعثم كلما تقاطعت قصته مع فترة وجوده في المستشفى، لكنه نجح أخيراً في أن يعطيني فكرة جيدة عما حدث. ساءت أحواله كثيراً بعد طرده من المستشفى. "فؤاد" قب

على أخيه في الحال، وداهمت قوة صغيرة منزل سعد وفتشوه وقلبوه رأساً على عقب، فلما لم يجدوا الأمبولات سجنوه أياماً طويلة على ذمة تحقيق لا يفهم سببه. أخيراً أفرج عنه ضابط صغير متحمس قال له أنه لا يفهم سبباً لاحتجازه. بحث عن عمل لفترة طويلة وتنقل بين عدة أعمال صغيرة، ولما ضاقت به الحال، وتوفت زوجته في مشاجرة طالتها الأسلحة البيضاء على مكان "فرشة البيع" في السوق، انتقل بأولاده لقريته القريبة من بنها مرة أخرى. لما قامت الثورة نزل إلى الميدان، وكاد يموت أكثر من مرة، قابل "هبة" هناك ووجد نفسه منجذباً إليها، فهي كانت الوحيدة التي سألت عنه إبان غيابه عن المستشفى. انتهت بهما الثورة للزواج، ثم أنجبا بنتين وولد صغير، "سامح" كما قالها وهو مشرق الوجه قبل أن ينطفيء وجهه مرة أخرى وهو يقص علي ما حدث بعدها. قال بأن القرية عانت من كل أزمات الدنيا في السنوات السابقة، لكنه كما قال عن نفسه، كان قد تعلم الدرس. "انا خدت على قفايا مرة في الثورة يا بيه، وحلفت ما أكررها تاني. أنا عندي عيال وعايز أربيهم، والمليونيات والاعتصامات سكتها مالهاش آخر، ومش بتأكل عيش". عندما ظهرت جماعة الحق، كان أول من عمل معهم في نشاطاتهم. كان مندوباً لتوزيع البوتاجاز، ومنظماً لطوابير الخبز والتموين، ورسولاً أميناً بين شيوخ القرية وسكانها، ينقل المظالم للشيوخ فيحسبه الناس معهم ويثنون عليه، وينقل أخبار المحال المخالفة لأوامر الجماعة من الإغلاق

المبكر أو العزوف عن إغلاق المحل ساعة الصلاة. عمل ملاحظاً للصلاة لفترة، لكنه عاد ورجا الشيخ الكبير قائد الجماعة بقريته أن يعفيه من ذلك، إذ بدأ الناس يضايقون أولاده في الشوارع ويذكرونه بسوء في مجالسهم. ضاق به الحال من المال القليل الذي كان يحصل عليه لقاء خدماته، فشد رحاله غلي القاهرة واستأجر حجرة صغيرة فوق سطح منزل قريب، أقام مع هبة وابنتين له فيها، بينما ترك الباقين تحت رعاية أخيه العاطل بالبلدة ضغطاً للنفقات. يعمل في أي شيء وكل شيء، شرطة شعبية، "مشهلاتي" للسلع الناقصة باستمرار، أو في تهريب الوقود، ويرسل النقود كل خميس للبلد، وينشغل بنصح أخيه عن التوقف عن قطع الطرق الزراعية الذي امتهنه كحرفة، فينجح أحياناً ويفشل مرات. "علشان ربنا يبارك له، العيال ماتاكلش من الحرام، ما أنا إللي بابعته بيكفي، بس ربنا يعدلها"!!

عندما تم الإعلان عن بيوت الملاحدة، تقدم العشرات لشغل وظائف الحراس، لكن الاختيار وقع على الملتحين فقط. انصرف الآلاف إلى منازلهم بعد كل اختبار شخصي بخفي حنين، لكن "سعد" كان أذكى كالعادة. أشار إلى رأسه بسبابته علامة التعقل وقال أن مخه "كان شغال" لكنه لا ينكر أن حظه "كان دكر"، إذ لمحه الشيخ الذي كان بقريته قائداً للجماعة في وسط البلد بالقاهرة صدفة، ولم يكن كلاهما يعلم بما حدث مع الآخر. تحادثا طويلاً وقام "سعد" بالبحث له عن مكان يبيت فيه ليلته، وأشرف بنفسه وعلاقاته القديمة على علاج ابن الشيخ

بمستشفى قريب، كان بالصدفة يحفظ أعضاء التمريض فيه، الذين كانوا طاقمي السابق وانتقلوا بعد إغلاق المكان لعمل جديد. كان "سعد" يلقى ترحيباً وتهليلاً في كل أرجاء المستشفى، وتلقى الشيخ وابنه معاملة فائقة الجودة، وساعة الحساب أضافوا إلى كرمهم حسماً هائلاً. رجاه "سعد"، بعد أن انتظر حتى سأله الشيخ أخيراً عن أحواله، أن يجد له عملاً في بيت الملاحدة، فرفع هاتفه وأنجز الأمر بمكالمة لم تتعد الدقيقة. "لما رحت هناك ربيت دقني احتياطي، ماحدش ضامن يا بيه، يمكن يكون الشيخ بيشتغلني يعني، معقولة يكون التوصية كفاية؟ عادي كده من غير دقن؟".

سألته عن رأيه في المحتجزين فمط شفتيه ازدراءً وقال "ربنا يهدي". لما لاحظ امتقاع وجهي أدرك بفطنته أن رده غير مناسب فتابع قائلاً: "ربنا يهدينا جميعاً يا دكتور. هو الواحد بيقول إيه؟ الملافظ سعد، مش كده؟ هم مش محرصين على كلامهم. ما إحنا كلنا مش عاجبنا الحال، بس يعني فيها إيه؟ نهادن شوية، خللي الدنيا تمشي. ثم يعني الجماعة "أمات دقون" عايزين إيه غير إن ربنا يهدينا؟ هم يمكن صعبين شوية، بس أهم حاجة إنك تصدق مع الله، مش كده؟ يعني طول النهار العيال دي بيصلوا لربنا، وبيصلوا السنن كمان، بس أنا مش فاهم، فين المعاملة؟ على رأي الريس، مش الدين المعاملة برضه؟"

سألته عما إذا كان ذلك ينطبق على "الريس" نفسه، وعلى جماعة الحق و"حسام" وغيرهم، فجفل قلقاً ونظر لي بشك في نواياي وسألني أن أوضح أكثر، فضربت له مثلاً بسوء معاملة هؤلاء الأولاد وحبسهم بهذا الشكل، وسألته هل يرضاها لـ"سامح"؟ فقال بدون تفكير: "لاااا، ده موضوع تاني. إحنا ناس نعرف ربنا يا بيه. وإحنا برضه يطلع مننا الكلام ده ولا ييجي على بالنا؟ ده والعياذ بالله بيقوللك دول أهانوا الذات الإلهية. برضك ده اسمه كلام؟"

سألته عما فهمه من إهانة الذات الإلهية فنفى أن يعرف المقصود، لكنه أكد على أن "أمات دقون" لا يكذبون، ربما يتحايلون، ربما يلفون ويدورون، لكن "قصدهم خير، ودي أهم حاجة"!!. أضاف بعد تردد أن ذلك يذكره بصديق لإبنه، يذهب معه إلى نفس الفصل بالمدرسة. قال أن والد هذا الطفل واحد من عائلات كثيرة ببلدته الصغيرة، ممن يسبون في الحكومة ليل نهار، وعزا ذلك إلى أن الأب لا يجد عملاً ويعاني من مصاريف البيت والأولاد. كان صديقه قد قصد نفس الشيخ الذي وجد عملاً لـ"سعد" في بيت الملاحدة، لكن الشيخ ماطل في طلبه وأغدق بالأعمال على بعض من أطلقوا لحاهم بالقرية. "الواد ابنه يا بيه أبوه بيقول له ماتكذبش علشان الكذب غلط وعيب". سكت قليلاً ولما لاحظ أنني لم أفهم، أضاف في تعجب أن مسألة أن الكذب "حرام"، يرفض الأب أن يقولها لأولاده، ويدعي أنه بذلك يحمي إبنه ان يصير مثل أصحاب اللحى، يربطون كل شيء

بالدين وبالحلال والحرام. ضحك ساخراً وقال: "كل ما اقول له مابتقولوش ليه إن ده حرام ويغضب ربنا؟ يقول لي لازم يخاف من الغلط، ويحب ربنا علشان ربنا مش عاوزه يغلط، مش يخاف منه علشان حيحرقه لو غلط. لما الواد يعرف إن ربنا بيحب إنه يبقى بني آدم محترم، حيحبه ويخاف يغضبه، مش كل شوية يطلع لي ويقوللك الضرورات تبيح المحظورات، النهارده يكدب، بكره يسرق، وبعده يقتل. انت مش شايف خدنا إيه من الشيخ بتاعك؟""". قال "سعد" أيضاً أنه "الراجل مخه لسع من إللي حصل له، هو لولا أنه الكدب والسرقة حرام، ما كنا كلنا كذبنا على بعض عادي ومدينا إيدينا"، تجاهل نظرتي اللائمة إذ أدرك الذكرى التي أحاول تذكيره بها وتابع بنفس اللهجة وكأنه لم يفهم "الولد ده ربنا يستر على مخه لما يكبر، أبوه حيطلعه معقد". قلت وأنا أغالب اختناقي أن "سامح"، ابن "سعد"، بالتأكيد لم يتعلم الكذب إلا عندما كبر، وانه كطفل لا يقول إلا الصدق بطبيعته، وأنني أرى أن ما يفعله صديقه هو أنه فقط يحرص على أن يظل إبنه "طبيعياً"، لكنه ضحك وقال شيئاً عن طبيعة "عيال اليومين دول" التي لا أعرفها!!

قررت الذهاب لمنزلي ونيل قسط من الراحة..

* * *

قلت لي ذات مرة يا "أدهم"، أنك تظن أنني لن أقوى على مواجهة "أكرم" أو "حسام" بما يحدث لكم في بيت الملاحدة، فسألتك عما تقصد لكنك أبيت الشرح. "غادة" أفلت لسانها مرة

عن سوء أحوال المعيشة لكنك نهرتها عن الشكوى. ظللت ألح عليكما بالسؤال حتى قلت لي وأنت متذمر، أنهم لا يوفرون لكم مكاناً لغسيل ملابسكم، كما أن المكان – وقد كان مستشفى – لا يحوي عدداً مناسباً من الحمامات. ضحكت أنت في سخرية قائلاً أنهم قالوا لكم يوماً عندما شكوتم لأحد المحاضرين، أن "النجاسة للأنجاس"، وأنكم لستم في فندق. زاركم "السمان" يوماً بنفسه وسط تغطية إعلامية رهيبة، مصطحباً السفير الأمريكي وبضعة ممثلين لحقوق الإنسان وصحفيين وكاميرات تصوير، فأخفوا المرضى منكم قبل الزيارة. شكت "غادة" رغم ذلك إلي الصحفيين على الهواء من نوبة برد حادة انتابت زميلة لها، ولم يحضر الطبيب إلا بعد ثلاثة ايام من الحمى، فتبسم السمان و"زغر" إلي حارس أمن منوط بعنبر الملحدات، تم نقله بعضها من مكانه، وقال في ثبات بعينيه الغائرتين وكأنه يهزل ويلقي بمزحة هائلة: "لمون وعسل يا بنتي.. اخشوشنوا فإن النعمة لا تدوم". تأكدت من "عماد" من الواقعة، وأخبرني كيف أن الإعلام ظل يهلل أياماً للمزحة و"تباسط الرئيس "الأب" مع بناته رغم أنهن من الكفرة"، وكيف غلبته طبيعته الإنسانية، مع أمر – لم ينفذ بالطبع – بتكثيف الزيارات الطبية. عض "عزمي" على شفتيه وقال أن أكثر ما آلمه هو أن "حسام" خرج بحديث صحفي يذكر الناس بأن الله قد أدخل رجلاً النار في كلب، وأنه أدخل امرأة الجنة في قطة. ابتسم "حسام" على الهواء في سماجته وقال: "وإحنا لا يمكن أن ننهر القطط،

بناتنا الرقيقات حبات قلوبنا، مهما فعلوا، لكننا لا نمل من استتابتهن..".

يومها فزعت مما حدث. كان "سعد" قد أدرك بحدسه ربما، أنكما هامان لدي، فصار يدخلكما كل مرة بعد المحاضرة الفارغة التي صرت أقرأها من الكتاب لأملأ بها فراغ فترة التصوير أمام عيون الكاميرا. أخبرتماني أن "سعداً" يوليكما عناية خاصة وأنه يحرص على السؤال عنكما وتغيير ملاءات الأسرة باستمرار. شكرته على ذلك وسألته عما إذا كان هناك وسيلة أطمئن بها عليكما. قال أنه سيطمئنني في أي وقت أشاء، لكن عينانا تلاقت في لحظة فهم. قلت ببطء أنني سأطمئن أكثر لو أنكما لديكما وسيلة اتصال فورية بي، فابتسم وقال في بساطة: "هل أعطيهم جهاز المحمول الخاص بي؟" فقلت أنني سأمنحه جهازاً اشتريته لهذا الغرض، ولكنني أود أن يظل مع "أدهم". بعد نقاش قصير، اتفقنا على أن يظل ذلك سراً، وطمأنني أنه المنوط بالتفتيش على الزيارات والرقابة على المحاضرين، وأنه لن يبيعني أبداً. لم أرَ حرجاً من إخباره بعلاقتي أنا وأنت، لسبب ما بدا لي "سعد" صادقاً. "غادة" تحيرت كثيراً من هذا الأمر ورفضته بشدة. قالت أنها لا تضمن أي شخص وأن هذه على الأغلب خدعة. لمحت ترددك، فألححت عليكما بقبول الهاتف مني، وأسعدني أن وافقت. اتفقنا أن هذا للطوارىء، وأنني كفيل بإنقاذكما من أي مشكلة. انتابني إحساس عارم بالفرحة، زادتها كلمة "شكراً" التي أفلتت من بين شفتيك وأنت تخفض بصرك

وتنسحب من أمامي إلي حجرتك في هدوء. ظل هذا الهاتف هو وسيلتي للاطمئنان عليكما طول العام المنصرم، وحتى وقع ما وقع. كنت أتصل بعد مواعيد النوم الصارمة، والتي تُغلَق على أثرها الأبواب وتطفأ الأنوار قسراً، ويكون مصير أي ممن لا ينصاع للهدوء إما الضرب أو الإهانة أو كلاهما. كنت أنام قرير العين إذ يأتيني صوتك أو صوت "غادة" فأهنأ بكلمات هامسة وأطمئن على مسار اليوم وأن "كله تمام"، وأشعر بأنني لم أتركك وحدك في هذا السجن.

لكن بعد شهر كامل من زيارات الملاحدة، قررت الذهاب إلي "أكرم"..

بعد انتظار قصير في الردهة الخارجية، سمحوا لي بالدخول. لم أعد آبه بالتفاصيل التي كانت تهمني من قبل. ماهية هذا المكان بالضبط وهل هو تابع للجيش أم للشرطة أم لأمن الدولة. يبدو أنه انقضاء "كرب ما بعد الغيبوبة" يا ولدي، والذي يبدو أنه يخفض من دهشتك من أمور عديدة كثيراً، إذا كان لهذا التعبير وجود من الأساس.

قابلني بابتسامة ودود وترحيب مبالغ، لكن عيناه اللتان تلمعان كالصقر لم يفتهما توتر وجهي وبرودي في رد تحيته. جلسنا كصديقين قبالة بعضنا في ركن خاص من مكتبه، وبادرني بسؤالي عن أحوال "الملاحدة" معي، وشفع ذلك بملحوظة عن انتظامي المحمود في الزيارات، فضحكت هازئاً وقلت أن "جماعة الحق" يمرون عليَّ بانتظام وإذا ما تأخرت في النزول

يصعدون إلي منزلي لينبهوني للنزول، فأي فضل في انتظامي الذي يكاد يكون قسراً؟. سكتنا، لكنني بادرته بقولي: "ألن تنتهي هذه المسرحية؟". أدهشني توتره إذ سألني عن أي مسرحية أتحدث، لكنني هاجمت فكرة المشروع كله، واتهمتهم بانتهاك آدمية هؤلاء الشباب وسلب حريتهم دون ذنب. حملق في وجهي وقال في بساطة وهو يبتسم: "تعلم أن كلامك يمكن أن يقودك من جلستنا هذه إلي السجن مباشرة، اليس كذلك؟". ران علينا الصمت وبدأت أحسب كلماتي معه، فقال شاعراً بتخاذلي: "بيوت الملاحدة مسألة أمن قومي. هؤلاء باحثون عن المشاكل ونحن أدرى بمصلحة الناس. لا يغرنك أنهم يبدون لك عاقلين ومهذبين، الأمر أخطر مما تتصور. دول بأكملها، وعلاقات متشابكة، وأمور أخرى لا قبل لنا بها تتوقف على هذا الأمر".

-"أفهم أن تحمونا من هذه الدول والعلاقات، أن نكون نحن الأولوية وليسوا هم. أما هذا الذي يحدث، فهو غير معقول".

-"شوف، كلامك جميل، ويبدو عليه الصدق، لكن حتى لو كان هناك مظلوم أو أكثر، فماذا يسع ذلك أن يكون في مقابل حماية الملايين؟ جُل ما يربط الناس ببعضهم في هذه البلاد هو إيمانهم بأنهم شيء واحد. الذين فهموا ذلك مبكراً، ووجدوا في أنفسهم رفضاً له انقسموا إلي قسمين: هؤلاء الذين رحلوا إلي أمريكا و أوروبا، الله يسهل لهم، مسيحيون، ملحدون، مغامرون، لم نقف في طريق أحد، وعلى الرغم من أن بعضهم أخذ يكدر صفو صورتنا أمام العالم بكلام مأجور، إلا أننا لم نتتبع

أحد ولم نؤذ أحد. أما القسم الثاني فلم يتسق مع نفسه، أثاروا المشاكل وأرادوا فرض كفرهم وعقيدتهم على الجميع. نحن بلد ديمقراطي يا دكتور، لكن ديمقراطيتنا هي نوع آخر غير الذي يتشدق به الغرب. في بلادنا لن تجد الناس تتناحر على من يحكم ومن يفرض وجهة نظره. نحن سبقناهم من آلاف السنين، ولم ندرك ذلك. كانت بين أيادينا القوانين والتشريعات، لكننا اتبعناهم ففشلنا وذهبت ريحنا. الآن فهمنا، الناس يريدون شرع الله، فلنعطه لهم، ولنجعل تنافسنا فيمن يحكمنا بشرع الله، وليس فيمن يحكمنا بأي شرع؟"

-"أراك تحولت إلي ثوري من نوع جديد يا "أكرم"!! فين أيام "محمد محمود"؟ لا أعرف هل يدفعني كلامك إلي العجب، أم إلي التسليم أكثر وأكثر بأن كل هذا التلون طبيعي، يوماً ما بلون الثوة، والآن برداء التقوى. صدقني أنا لا أفهمك"

عاد للتوتر غير المفهوم، لكنه قال في ثبات: "قصدك إيه؟"

قلت في بساطة: "يعني "حسام" صار شيخاً يحمل بكالوريوس الطب، فطبيعي أن تصير أنت رجل أمن فقيه. ماذا تحاول أن تثبت؟ ولمن؟ كنت معنا في "محمد محمود"، وكان حماسك طاغياً حتى كدت تموت غير مرة، كان ذوى اللُحَى ضدنا وسخروا من نزولنا، باعونا يعني، والآن أنت معهم. لا أريد أن أعرف شيئاً عنك أو عن حياتك قبل أن نتعرف إليك، أثق في أن بها كثير من المخازي، لكنني أعجب لمن عاصر النيران مثلك، ونام معنا وأكل من قصعتنا وشرب من مائنا، ماذا تقول لنفسك

ليلاً قبل أن تنام؟ صدقني أنا أسألك بدافع الفضول. كنت صدقت أنه لم يتبق لديَّ منه الشيء الكثير. كأنك تثبت لنفسك أنك لم تخطيء، وأنك كنت على صواب عندما تركتنا وانضممت إليهم. لماذا لم تخبرنا أنك "تبعهم"؟ هل خشيت ألا نصدقك؟ هل آمنت أنه ضد مبادئك أن تعترض على رؤسائك؟ كل الأمور كانت تشير إلى أنك صادق، ونحن صدقناك بالفعل، فلماذا تركت الميدان وعدت إليهم؟ ولماذا ترتمي الآن في أحضان من كنت تلهب ظهورهم قبلاً بالسياط؟"

تفرس في ملامحي كأنه يبحث عن شيء ما ثم تمتم: "رومانسي ممتاز أنت يا دكتور. أتراك كنت تظن أنني سأبقى معكم وأبيع عملي وأصدق أنني الثوري "الصايع" الذي رأيتموه؟ أم هل كنت أخرب البلد وأستمر أفسد عقول الناس كما فعلتم؟ مالنا إحنا كنا عملنالكم إيه؟ وكل هذا لِمَ كان أصلاً؟ أنتم الذين يجب أن أسألكم" هل صدقتم بالفعل أنكم ثوار وأنها كانت ثورة؟ قول لي حماس، قول لي احتفالية زي بتوع ماتشات الكورة وشغل فرحة الجماهير بانتصار المنتخب والكلام ده، أقول لك ماشي. لكن ثورة وعدل وحرية والكلام ده؟ هل صدقتم فعلاً أنكم كنتم مقهورون؟ أننا قمعناكم وافترينا عليكم؟ انت يا دكتور يا كبير كنت مقهور؟ مستشفى وهيلمان وعيلة كبيرة وحماك راس كبيرة في البلد، ومقهور؟ انظر الآن لحال البلد، هل تستطيع بلوغ بيت الملاحدة ومباشرة عملك بدون توصيلة من سيارة الجماعة، ودون أن تتعرض لسطو ما، أو اعتداء أو

حادث؟ أردتم حرية وعدالة وخبزاً، فماذا فعلتم من أجله؟ هل رأيت الناس يمشون على الأرض بأخلاق الملائكة حتى يرجموا الشياطين ويلعنونهم ويطالبوا بسقوطهم؟ أم رأيتهم يكدون في العمل من أجل الرزق ولا يستلقون في الشمس ويشكون من الفاقة؟ من الذي تسبب في انهيار البلد قبل يناير؟ حكومة فاسدة كانت أم كنتم ذات أنفسكم شعباً من التنابلة معدومي الأخلاق؟"

سكت لوهلة ثم أفاق من استرساله وحدجني بنظرة دهشة وسأل: " هو ده إللي كنت تقصد تقوله، مسألة "المسرحية"، وعندما قلت أنني كنت ثورياً وتلونت؟ بس كده؟"

قلت وقد ظننت أنه يتعمد إدارة دفة الحديث بعيداً: "لا مش بس كده! أنا أريد منك أن تراعي ضميرك يا "أكرم". لا أصدق حتى الآن أن "أكرم" الذي كافح معنا في الميادين، وكاد أن يموت بالرصاص عشرات المرات، يصير ذلك الوحش الذي حدثوني عنه، وتبريراتك برمتها لا تهمني، كما أنك تهرب من مقصدي وأعلم أنك استوعبته. الولاد دول لازم يطلعوا.."

ضاقت عيناه في شراسة وهو يتأمل ملامحي في شرود، ندمت أنني لم أشرد مع نظرته تلك اللحظة في خاطر وذكرى ألحَّا عليَّ في غموض فلم أستوعب منهما شيئاً. ربما لو تذكرتها في حينها لفهمت أشياء كثيرة، لكنه قام من مكانه بغتة وهو ينهي المقابلة وقال من بين أسنانه: "أنا لا أفهم لعبتك، لكنني أفهم شيئاً واحداً: لا تفتح ذلك الموضوع مرة أخرى".

* * *

منزل مدينة نصر، القاهرة في أبريل 2025..

اتصلت بأهلي لأطمئن عليهم، كما دأبت منذ إفاقتي. في المساء حضرت أختي إلي القاهرة، وتوجهت إلي منزل والديَّ الذي صار ملاذي. بكينا كثيراً على حالك يا "أدهم". أقسمت لي أنها لم تقطع اتصالها بك، لكنك كنت – بحسبها - أهوج وأرعن. قالت لي أن آخر شيء كانت تتصوره أن تصبح ملحداً. حاولت أن أشرح لها ما حدث، لكنها تطلعت إلي بعينين خاويتين وقالت أن "إسراء" جلبت علينا شياطين في حياتنا، واحتدت عليَّ وقالت أنني برغم كل شيء لازلت أرفض الاعتراف. قالت أنني لم أُرَاعِ أهلي ولم أهتم بأي شيء سوى نزوتي ورغبتي فيها. تركت الإسكندرية وعملي وأصدقائي من أجلها، ولم أحاول نهرها عن معاملتهم بهذا الجفاء. "الآن انظر ماذا انتهينا إليه؟ تركتك وتزوجت بغيرك وأهلها باعوك وباعوا ابنها منك ورحلوا. الآن أنت تكرر نفس الشيء. تذهب إليه وتزوره وتحاضره؟ طيب عقله؟ اشخط فيه؟". كانت ثائرتها قد ثارت ولم يفلح معها أي شيء. عندما هدأت كنت قد تماسكت من أثر لومها، لكنها ربتت على كتفي معتذرة. قالت أن أبي كان أكثرنا تأثراً، وأنه قال عندما علم بذلك كله إبان غيبوبتي، أن "مصطفى" يستاهل أحسن من كده. وجدت نفسي أقول لها في انفعال، أن هذا غير حقيقي. قصصت عليها ما كان بيني وبين "أكرم"، قلت في ضيق أن حتى هذه الرسالة البسيطة، فشلت في إرسالها أو

الحصول على إفراج عنهم. أدارت النقاش حتى تخرجني من انفعالي، فقصت عليَّ قصصاً عن ارتباط البنات، وعن زواج بنتها الكبرى منذ عام. لم يزدني ذلك كله إلا ألماً، إذ تذكرت كيف فاتني فرحها منذ سنوات طويلة.

* * *

بعد رحيلها إلي منزلها.. شردت مرة أخرى معه..

أحمد هريدي كان لينقصني في هذا الموقف..

اتصل بي "عزمي" وقال أنه سوف يمر عليَّ بعد ساعة.. عدت لهريدي..

* * *

القاهرة بعد منتصف الليل، فجر أحد أيام أبريل، 2008

بعد أن سلمت الصناديق الثلاثة الحاوية للأمبولات لبيت "هريدي" و"إيمان".. نمت في منزل "مدينة نصر". صحوت بعد كوابيس متتالية نسيتها فور أن فتحت عيناي، لكن واحداً منها تذكرته بعدها بساعات فسرت قشعريرة في بدني من هوله. كان أبي هو أول من هاتفته. ردَّ عليَّ بفرحة لسماع صوتي وسألني عن أخباري وعن "إسراء"، لكنني تجاهلت كل هذا وكنت أريد ان أسمع أخبارهما وأن تكون أخباراً جيدة. شعرت أنه لم يصدق مسألة أنني أتصل بلا سبب، ربما لقلة اتصالاتي لكنني قلت أنني رأيت كابوساً أزعجني، فطمأنني وقال لي في تشكك أنهم بخير طالما أنا بخير. أمي لم ترد مكالمتي فاتصلت

بأختي فرد زوجها وحمل صوته دهشة لاتصالي هو الآخر لكنه كان شديد التهذيب فتظاهر بالترحيب رغم أنني أعلم أنه لم يبتلع بعد مسألة غيابي عن الفرح. سألته عن حاله وعن عمله بالكلية فأجاب بتفاصيل صغيرة وصوته تغسله الدهشة المشوبة بالامتنان الزائد، كمن يحادث غريباً لا ينتظر منه ذلك. لم أكد أنهي المكالمتين حتى اتصل "هريدي" وأتاني صوته المرح ساخراً من صوتي المهزوم قائلاً: "يا صباح المزاج العالي!!" سارعت بمقاطعته خوفاً من المراقبة التي أشار إليها "سعد". قلت في وهن وحزم أقنعاه بأن يمتثل فوراً: "لا تقل شيئاً ولا أي تفاصيل، ليس في التليفون يا "أحمد" أرجوك. المرضى الثلاثة بخير؟ أم حدث لهم شيء ما؟". صمت وغمغم شيئاً بمعنى أن "هل وصلت الأمور لهذا الحد؟"، ثم استدرك ليواصل في مرح مفتعل: "كل هذه الهدايا يا دكتور؟ يا أخي، تغيب عنا كل هذا الوقت ولا أراك، ثم تسألني فجأة مثل هذه الأسئلة المفاجئة؟ صحيح، ذكرتني: نسيت أن أشكرك على مجاملتك للمرضى الذين أرسلتهم لك من بلدنا، اطمئن.. كلهم بخير. "إيمان" وأنا نجلس منذ ساعة ونصف ننظر إلي بعضنا ونخشى حتى النزول من المنزل دون أن نستوضح منك كيف نرد لك جمايلك!! "

اعتذرت له عن ظهوري المفاجيء فجر اليوم، فقال في جدية: "خلينا في المهم، أنا سأكون على قهوة في وسط البلد بعد ساعة من الآن، و"إيمان" سوف تجهز حالها للسفر، سأخبرك بالتفاصيل عندما أراك، المهم لابد أن أقابلك اليوم."

كان يجلس مستمتعاً بسيجارته كما هي العادة، يرتدي قميصاً فاتح اللون بدا جديداً ولائقاً به، ويلتفح بشال عليه النقش الفلسطيني الشهير. عندما رآني دعاني للجلوس بسرعة وأخذ يحملق في وجهي غير الحليق والمنتفخ من أثر السهر والإرهاق، وهو يتلو الشهادتين في اندهاش قلق: "ماذا حدث؟". كنا نجلس إلي منضدة قصية بداخل القهوة متوسطة الحال، لعله اختار البقعة الأهدأ بالداخل حتى لا نضطر لرفع أصواتنا أثناء الحديث مع ضجة الزبائن وصوت الأغاني الذي طغا على الخلفية. قصصت عليه ما حدث. كان صوتي يرتفع منفعلاً في بعض الفقرات، وأرتعش فيربت على كتفي. يقطب جبينه وينظر حوله ليتأكد أنَّ أحداً لا يتابع حديثي ويشير لي برفق بأصابع مضمومة تتلاقى لأعلى، تهبط وتعلو، وترتد جيئة وذهاباً من أعلى لأسفل بمقدار يتسارع مع ارتفاع صوتي مشيراً بأن أخفضه. لما انتهيت كانت عيوني قد اغرورقت لكن الملح لم يعد يؤذي جرحي كنا كان يفعل منذ ساعات. عقد الملعقة مع "باكت" الشاي في عناق إجباري وأسندهما إلي جار كوبه، ثم قال وهو يميل نحوي في تركيز وبصرامة: "سيبها يا مصطفى!!". لم أتفاجأ برده، لكنني لم أقوَ على التفكير في ذلك. هناك ولد صغير بيننا، وأهل أمه سوف ينشئونه على كراهيتي والأهم من ذلك أنني لن أكون هناك لأكبر معه، ولا لأطمئن على ما يفعل، لن أشاهده وهو يؤمن بقناعاته ولا يرفضها أو يقبلها، والأسوأ أنني لا أريد لهزيمتي أن تجبرني على ذلك كله. قلت ذلك

بكلمات واثقة حاسمة كأنني لا أريد تشكيكاً في ذلك كله. قال في اقتضاب: " الموضوع انتهى. إمَّا أن تعود إليهم وتكسب مستشفاك وتخسر نفسك للأبد، وإمَّا أن تكون حراً". صمت ثم عاد ليقطع كلامه صوت دقات الملاعق على أطراف الأكواب ويمتزج بصوت ضحكة مجلجلة من منضدة قريبة لبعض الجالسين: "أسألك سؤالاً: هل تريدني أن أخبرك حلاً للمأزق الذي أنت فيه؟ موضوع الأمبولات والبلاغ وكل هذا الكلام؟ أنا درست حقوق انتساب على فكرة وأنهيتها العام الماضي الحمدلله، أي محامي يستطيع أن يؤجل ويمط في الأمر ويشكك في الأدلة ويخرجك منها كالشعرة من العجين، هناك أيضاً أساليب أخرى لمواجهتهم، وعموماً المشكلة ليست القضية. لو لم تكن تعلم هذا لما سعيت إلي الإمساك بدليل براءتك ثم جافاك النوم برغم ذلك. بقية سؤالي لك هو الآتي: تضمن الناس دي بعد ذلك يا "مصطفى"؟ يا أخي والله أنا لست أفهمك، هل صدقت فعلاً أنهم أسدوا إليك خدمة ورفعوك إليهم فصرت عظيماً بهم؟ من الذي أسدى خدمة لمن؟ لا تغضب مني، لكن لا تضع نفسك في الثلاجة كسلعة تباع وتشترى، اخرج من "السوبر ماركت" الذي تعيش فيه، ولن تندم".

طال صمتي. نظر إلي ساعته في قلق ثم نبهني سريعاً كأنه لا يريد أن يقطع حديثنا، أنه لو حضر ثلاثة من الشباب لاصطحابه الآن للسفر فلا أتعجب. قال أنه مسافر الليلة إلي المحلة للاشتراك مع اعتصام شركة غزل المحلة هناك. قال كلاماً

كثيراً عن 6 أبريل وكانت عيناه تلمعان بشدة. أبديت قلقي عليه من باب التأدب لكن ذهني كان مشغولاً ولم يلمح هو ذلك فاندفع يشرح في حماس أن الظلم قد بلغ بالبلد مبلغه، وأن مثل هذه الاعتصامات هي التي سوف تحرك الحجر الساكن في البحيرة. بدا لي أكثر تفاؤلاً وظهره مشدود في قوة. لوهلة ظننت أن لمعة عينيه المعهودة قد عادت إليه، لكنني فقدت تلك الخاطرة على الفور، فقد كنت متكدراً بما يكفي ليفوتني ذلك. قال مازحاً أنه لو قبض عليه هذه المرة فلن يزعجني باتصال. سوف يتصل بفؤاد مباشرة ويرجوه أن يتقبل أن يُسجَن هو مكاني و"يشيل" قضية المخدرات هو هذه المرة، "وآهي بجميلة يا درش". ضحكت رغماً عني وتنفست هواء بارداً، اختلط بدخان سجائره وابتسامات جيراننا من المناضد الأخرى في وفرة. قال لي أن "عزمي" سيكون معهم، رغم أنه ليس من شباب 6 أبريل، لكنه يغطي الخبر لجريدته. أعطاني رقمه فسجلته على عجل والشباب الثلاثة الذين ذكرهم قد حضروا لاصطحابه وهم يوزعون الابتسامات المجاملة بيننا، ويرمقونني ببعض التشكك الذي تسكبه عيونهم الذكية على وجهي. أوصاني أن أفكر فيما قال، "ولما تفوق شوية ابقى كلم "عزمي" أو كلمني، ده لو ماجالكشي خبرنا في الجرايد".

بعد أن رحل، تسكعت قليلاً وحدي في وسط البلد. كنت قد نسيت هذه الأماكن "البيئة" كما تسميها "إسراء"، وكان عملي يجعلني أشاهد ملامحها عن بعد من خلف زجاج مغلق وتكييف

سيارة قوي فلا أرى فيها إلا "ديكور"، لا يهمني من صممه ولا من وضعه هناك. أحسست بشعور عميق من الراحة وأنا أتمشى علي قدمي فأشاهد واجهات العرض في اهتمام بالتخفيضات التي بدا لي أنها صارت طوال العام، وبائعي الكتب المفترشين الأرض، و"سريحة" الخردوات بتصفيفاتهم الغارقة في "الجل" المبلل وبرائحتهم التي اختلط بها البخور بالعرق، بالأمل المنعش الذي لا تدري له سبباً ولا ترى له أمارة. صوت المقاهي وفيشات الطاولة تصدح بالدق المتتابع الذي يبقي أثر المفاجأة فيك حياً وقد قاربت على نسيانه، وبالحملقة في الزبائن الذين كانوا يلجون للمحلات تتعثر أقدامهم في الأرض وتحلق عيونهم في لافتات الأسعار في قلق. أسمع الهمسات من حولي عن البضاعة وعن الإكرامية المطلوبة والرد الثابت عن المكسب الذي هو "يادوب طالع لي فيها جنيه والله العظيم" فأبتسم وأنا أتذكر أسعار المستشفى الخيالية. لابد وأن هذه المرأة المكتنزة التي تصحب ابنتها النحيلة وتنهر البائع وتستصرخ ضميره فتنهاه عن الجشع، لابد وأنها كانت لتسبني وتسب الجميع بأقذع الألفاظ لو أن حظها ساقها إليَّ بعد حديث في التليفزيون أو مكالمة شاء نصيبها التعيس أن أكون أنا الذي على طرفها الآخر.

لكن في المساء، وبعد تسكع طويل وغداء قصير ومكالمات من أمي وأختي أخفيت فيهما قلقي عنهما برغم أن إحساسي المتأزم لم يفتهما. نصحانني بتلقائية ألَّا أجعل إسراء وأهلها

يضايقوني في شيء، هكذا خمنا من معرفتهما بالأمور عامة، دون أن يسألا عن التفاصيل لأنني كنت أبدو بلا رغبة في الكلام. كنت قد عرفت بالضبط ماذا أفعل في الغد. بعد العاشرة صباحاً بقليل توجهت إلي "فؤاد" لأقابله. تجاهلت نظرته الشامتة ولفت نظري أنه ينقل بصره أحياناً في اضطراب بين شاشة التليفزيون المعلق على حائط مكتبه الفاخر وبين وجهي بشكل يحرص ألَّا يبدو معه أي أثر لانصرافه عن كلامي. كنت قد عقدت العزم أن أواجههم رغم أنني قلما أفعل، لكن لعله الخط الأحمر الذي شعرت بهم يعبرونه: كينونتي، شخصية المجتهد المتميز بداخلي، الطبيب الذي أفنى عمره وجهد عقله ليصير ما يريد، تركت جانباً كلام هريدي عن مدي قدرتي في الوثوق بهؤلاء الناس مرة أخرى، أو عن قدرتي أن أكون "أنا" وحدي دون الحاجة إلى مساعدة، وظننت أنني آخذ من الكلام روحه، أن أواجههم وأصر على النجاح. لم أفهم وقتها بالطبع أنني اخترت الاختيار الأسهل، رغم ما قلت لنفسي أنه الاختيار الأصوب. لم يتبادر لذهني ولو للحظة، أنني اخترت أن أكون مثلهم، بشكل ما، على طريقتي، أو بمنطقي الذي هو أسوأ من منطقهم.

بالغ في ترحيبه بي واندهاشه المفتعل بحضوري إليه. أضاف سريعاً ملحوظة ودودة منه ـ غلفها بابتسامة مصطنعة ـ عن البيت الذي يفتقدني وعن ولدي الذي يسأل عني منذ الأمس وعن لومه لي لِمَ لَمْ آتِ إليه لو كانت هناك أي مشكلة بيني وبين "إسراء" ليحلها بنفسه. كان يؤدي دور حمامة السلام بأداء

أمني بامتياز. ينظر إليَّ بثبات متشكك ويعطيني الفرصة بين سكتاته أن أعلق فأصمت. يواصل المعسول من الكلم، يأمر لي بالقهوة فيهرول المجند المنوط بمكتبه لإحضارها في سرعة. يدعوني لاحتسائها ثم يوجه رأسه للشاشة البعيدة لكنني ألمحه يختلس لي نظرات صارمة جانبية، ما إن تلتقي بنظراتي الصاعدة من فوق حافة الكوب حتى يستدعي صفار أسنانه، ويعيد الترحيب بي في مكتبه ويتشاغل بإغلاق حافظة أوراق هنا أو هناك من الأكوام المبعثرة فوق مكتبه. أنهيت قهوتي في بطء مقصود، ثم قلت مباشرة أنني أعلم أنه يراقب مكالماتي وأعلم بموضوع "سعد". لم يهتز رجل الأمن بداخله، لكنه ابتسم بشراسة وثقة من لا يأبه بعواقب أي شيء ودعاني بلهفة أن أكمل حديثي. قلت له أنه لو أراد أن يحول المسألة إلي حرب فليفعل، لكنني أستطيع أيضاً بوسائلي أن أحيل المشروع كله إلي خراب. قال ببساطة: "يا دكتور أنا أراعي أننا أهل، فلا تضطرني أن أسقط ذلك من حساباتي أرجوك. مسألة المكالمات هي أمر طبيعي، أنت شريك بمجهودك في عمل وأمرك يهمني فاعتبرها حماية أو فضول، ومثل تلك الخدمات – كالمراقبة – تأتيني دون أن أطلبها، وعموماً ليس لديك ما تخفيه لتقلق، أما "سعد"، فهو "كارت" محروق. أعلم تماماً ما حدث، لن يعود مرة أخرى لهذا المكان. لا تتصور لحظة أنني من دبرت ذلك. هو لص كأي ممن مثله، امتدت يده لتسرق هذا وذاك. لم يفتني ذلك، بل وسويت لك المسألة، الصيدلي سحب البلاغ. ليس تسوية أمر

كهذا بعسير على من كان مثلي، لكن أسلوبك هو الذي يدفعني – لا قدر الله – ألا أهتم بمثل هذه الأمور في مرة قادمة، ولعلها آتية!! ". ابتسمت في سماجة فاتسعت عيناه لحظة ربما لأنه توقع مني نكوصاً. قلت له أنه يضعني بكلامه وبمسألة الطبيب اللبناني في ركن الحجرة، ظهري للحائط، وأنه يجب أن يحذر مني إذا واصل ذلك. واصلت بعد أن بدأت نظرته المتحدية تهدأ أنني متزوج من ابنتهم وهذا قدري، لكنني أتعامل مع قدري بشكل عملي. مستشفاي، عملي، وكل شيئ آخر سوف يستمران كما كانوا، لكنني لن أسمح لهم ولا لأحد من كان أن يكون جزءاً منه أو أن يحددوا ملامحه وقواعده. أجابني مباشرة بحزم تخلى عن وده أن أمر التوسيعات لا يعنيني، أسهب في أن المشروع الاقتصادي من وراء المستشفى يتنافى مع مسألة أن نضع البيض كله في سلة واحدة: "أنت اليوم مشغول، غداً مشغول أكثر". أسهب – كأنه يعرف – في إدراكه للتنافس المريض بين الأطباء، وأن هذه المنافسة لا تخدم أحداً في النهاية. "مستشفى دولي بتخصصات كبيرة وأسماء رنانة لكل منهم مريدوه ومرضاه المتشيعون له، لو أنه مشروعك أنت يا دكتور هل كنت ترفس الفكرة والفرصة إذا جاءاك يسعيان؟ فلماذا تستكثرها علينا؟". عاد للصلف في القول وقال أن هذا هو أول الغيث ويفضل أن أعتاد عليه، وأن الطبيب اللبناني الجديد سيبدأ عمله في الوقت المحدد منهم، وأن أطباء آخرين سوف يأتون ويذهبون كما يقولون هم وكيفما اتفقوا معهم، ليس عليَّ أن

"أقلق" بشأن ذلك. ضحك في سخرية وأضاف أنهم "يتفضلون عليَّ" عندما يخبرونني بكل التفاصيل، رغم أنني لست معنياً بها، لكنهم يفعلون – فقط - لأننا أهل كما يقول!!. "إحنا مش بنشغلك بالمسائل دي، خليك انت في شغلك يا دكتور، وخلينا احنا في شغلنا". لم يكن هذا هو هدفي من اللقاء. كنت عقدت العزم على طرد الطبيب اللبناني نهائياً. لكنني أقنعت نفسي أن الكلام يحمل وجاهة ما، وأنني بمجهودي سأطرد تلك العملات الرديئة، وأنني ربما أيضاً أستفيد من الإقبال المتزايد للمرضى على المكان فيصيبني منه خير. ربما راق لي أن أقنع نفسي أن هذه هي الحياة، وهذه هي المواءمات التي تفرضها، أو ربما ارتحت لأنني "ألعب" بقواعد السوق التي لا تحمل الكثير من الاحترام للمشاعر أو الكبرياء، وأن هذا ما يجب أن يكون عليه "الرجال". هكذا أحلت جهدي إلى المواجهة في طريقي المفضل الذي رُسِمَت على واجهته علامة الهروب بحروف عملاقة تجاهلتها كأنها لم تكن، وتركت الطريق الذي اصطبغ بلوني وسمتي كما قال "هريدي"، وتعاميت عن ذلك الطريق الآخر الذي عزمت على سلكه وأنا في الطريق إلي "فؤاد"، لأن تصميمي اصطدم بصخرة صلفه المتعقل الودود كالموج العالي الذي يبطش في نزوله رغم ما يثيره من شبهة الحنين على شاطيء حائر، يبحث عن الأمان وهو لا يلمسه في ذرات نفسه وأحجار ساحله.

تسألني ما إذا كنت قد نجحت في مسعاي؟ أجيبك هل فهمت أنت ما هو مسعاي؟

ظننت أنني أسعى للنجاح.. لكنني وجدت بعد سنوات، أنني كنت أسعى ألا أفشل. فارق كبير، كالفارق بينهما: بين النجاح والفشل. معاركي كلها أعلنت فيها الهزيمة قبل أن أبدأها. كنت بنفس النفير الذي أعلن به دخولي الحرب، أدق به طبول جندلة جزء جديد مني. لكن الجديد هذه المرة، أن العدو كان مني، زوجة ظننتها من ضلعي، وأهل خلتهم كذلك. الجديد أيضاً، أنهم كانوا لا يحتاجون لهزيمتي. احتاج "حسام" زميلي الأكبر مني في "الإسكندرية" أن يحسم التنافس بيننا لصالحه، أن يشعر بالفضل لسنه أو لعلمه أو لاجتهاده، لكنني رأيت أنني كنت لأفعل نفس الشيء لو صرت مكانه وصار مكاني. ربما اختلف أسلوبي، وربما لا، لكنني كنت في الحالين لأشعر بنفس الغيظ ممن يصغرني سناً أو قيمة أو كليهما، ويحصل بلا تعب على ما شقيت من أجله. لكن فيم احتاجت "إسراء" إلى هزيمتي؟ وفيم احتاج "فؤاد" إلى قهري؟ فيم قرروا سحقي إلا لربطي بساقية طموحهم باسم الحب تارة، والولد تارة، والبطش تارة، والعقل والمنطق تارة أخرى، فلا أنفك أدور في فلك أطماعهم طريقاً مرسوماً بقدر، ومقصوداً بدقة؟

*** * ***

منزل مدينة نصر، القاهرة، مايو 2025..

دق جرس المنزل.. نظرت لساعتي فوجدت أن "عزمي" قد جاء مبكراً عن الساعة التي حددها معي موعداً. فتحت الباب فإذا بإمرأة ممتلئة تلبس النقاب وتتشح بالسواد، تقف قبالة الباب. كان يقف إلي جوارها طفل أصلع الرأس، واسع العينين يضحك في خجل جدير بفتاة صغيرة وهو ينظر إليَّ. هذا هو كمال، لا شك. أما المرأة، فقد أزاحت نقابها وابتسمت قائلة في جذل: "دكتور مصطفاااا.. سلامات والنعمة."

دخلت إلي المنزل وكأنها تعلم بتفاصيله. كمال التصق بذيل ثوبها فبدا مدللاً أكثر من اللازم ولم يعد بضحكته الصافية يشبه مرآه الكئيب في بيت "عماد". قالت أن "سعداً" أخبرها بالعنوان، وأنها طارت من السعادة عندما علمت بعودتي. واصلت الولولة على أيام المستشفى وعلى أيام الست "إسراء"، لكن لما بدا عليَّ الانزعاج، انطلقت فوراً تسب أيامها وتنعتها بالقسوة وتسأل عن إبني وكيف أخباره، وهل أراه. لما لم أرد، تمنت له السلامة مع أمه، فعرفت أن سعد لا يعلم شيئاً عن علاقتنا أنا وأنت.

جاء "عزمي" أخيراً وأعلن أننا بصدد زيارة مهمة، فأنقذني من حديثها الذي بدا بلا نهاية، وصار ودوداً كثر من أن يحتمل. قالت بأن عليَّ أن أتأخر ما استطعت في العودة ريثما تنتهي من إعداد الطعام وتنظيف المنزل. تركت لها نقوداً فتمنعت في البداية لكنها قبلتهم ورأيتها تحصيهم بعد دوراني ناحية الباب ويبدو عليها الرضا.

"هبة"..

كانت تلك هي نفس الأيام السوداء.. !!

* * *

القاهرة، بعد جلستي مع "فؤاد"، 2008..

عدت للعمل كطبيب بالمستشفى. كنت قد انتقلت للعمل وقد امتلأت ردهاتنا بملوك الجناح الفاخر الجديد من الأطباء الجدد الذين غزوا المستشفى كالجراد، حتى لم أعد أحفظ اشكالهم. ساقت خبراً إلي ممرضة من اللواتي كُنَّ ذراعي اليمني في العمليات. قالت أن "سعد" قد قبض عليه للإتجار في المخدرات. قالتها وعيناها تبتسم وتلمع في خبث وكأنها تنتظر رد فعلي على ذلك الذي فضلته عليهم، ورفعته لأعلي منهن زمناً. كدت أسخر منها وأكاشفها بما فهمت حدوثه، لكنني جبنت، وقلت لنفسي أنَّ لديَّ ما يشغلني أكثر. لم أعد النجم الذي يعدو الجميع من طريقه فيفتحون باب حجرته ويلبون إشارة عينيه. عملياتي باتت تنتظر خلو حجرة العمليات، أو عودة الآلات من عملية التعقيم بالبدروم، أو استراحة الممرضات المنهكات من العمل المتواصل مع غيري من جراحين الجهاز الهضمي، أو المسالك البولية أو من سيل المرضى المتراصين أمام أبوابهم لتلقي الكشف والمشورة في عياداتهم بالجناح الجديد المهيب، الأكثر فخامة وتأسيساً عن القديم الذي لم يعد به سواي. كنت أدخل إلى حجرة عيادتي فيرقص قلبي للأعداد المتراصة بانتظاري في صالة

الانتظار الفسيحة امامها. أنتظر دخول "هبة" –الممرضة التي صارت هي مساعدتي عوضاً عن "سعد" الذي لم يعد أبداً بعد ما حدث – فلا تدخل إلا على استحياء بعد أن أستدعيها بدق الجرس الخاص، ونظراتها المرتبكة تتنقل بين أركان الحجرة ممسكة في يدها حفنة رفيعة من أوراق المرضى التي تحمل معلوماتهم. تتعثر في حروفها وهي تخبرني بعدد المنتظرين الذي صار فجأة لا يتجاوز أصابع يد واحدة، تُسارِع بإلقاء اللعنات على "مخ الناس التخين" الذي جعل كثيرين منهم فور أن رأوني يطلبون الطبيب اللبناني الذي رأوه على شاشات التليفزيون ويتساءلون في دهشة عمَّن أكون أنا بالضبط. تسألني هل أخطأت في إرشادهم للجناح الفخم الآخر أم أنه "صح كده؟". تُنبئني ابتسامتها المرتاحة وتنهيدة المرح بعدها أنها لم تكن تخشى غضبي إلا كما تخشى المطر في غير موعده، أو الصواعق التي تهبط عليك بلا استئذان، فلا أنت تستطيع لها صداً ولا أنت راضٍ باستحقاقك لها: مجرد حادث أحمق تسعد بنجاتها منه وخروجها من بين شقي رحى الصراع الذي لا يهمها أساساً. تهرول لإحضار قهوتي بسرور يشي بعدم اكتراثها بمن يقصدني أو يولي وجهته عني، ثم تواصل طحين حديثها الممطوط الذي لا يؤدي لشيء ولا يسري عني كما هو منوط به بحسب ما أظن من نيتها. تيأس من شرودي وتجهمي فتصمت وأخالها تهمس لنفسها: هو عمل وكفى!! ما الفارق بينها وبينهم؟ هم على الأقل أهلي أو هكذا يزعمون. لكنها مثلي وهي

الفاجعة: كلانا نعمل، وكفى. كلانا نكد في غير ملكنا، ونشقى في غير أرضنا.

لكن الأمور تطورت بعد ذلك بسرعة..

كان التوتر يملأ أرجاء منزلنا طول الوقت. هي تلك الأيام يا ولدي التي كنت أنت بدأت تدرك فيها ما حولك، ولعلك تذكر أننا أنا وأمك لم نكن نجتمع معك في مكان واحد إلا نادراً. سألتني يوماً، بعينين واسعتين تملؤهما البراءة والأمل، عن السبب الذي من أجله لا أجلس معكما ولا تجلس أمي معنا أنا وأنت أبداً، حتى صار شغلك الشاغل أن تجمعنا. أجبتك بالتشكيك في ذلك لكنني أعرف أن صمتك كان يحمل يقيناً أكثر بصحة الأمر. عرفت ساعتها أنك مختلف عني، لكنني لمست ذلك بنفسي فيما بعد، وأظنك تعلم الآن أنني فعلت كل ما بمقدوري لحماية ذلك فيك ولك.

"فؤاد"، خالك العتيد كان قد تسلم الراية تماماً من جدك الذي رحل عن عالمنا قبيل الثورة بعام كامل، وأصبح غياب "فؤاد" عن منزله أمراً عادياً لأيام طوال، يعود بعدها مرهقاً منتفخ الوجه يسب ويلعن بغير سبب. صارت أحداث الاعتصامات تؤرقه فأسمعه يشكو من "ولاد الـــ..." إلي أخته التي لا تقوى حتى على أن تنهاه عن التلفظ بذلك أمامك. ألمح "فؤاد" مرة ومرات إلي أن الأسوأ من هؤلاء "الصيع" هم أولئك الذين يتعاطفون معهم في صمت. كنت لا أحتاج إلي أن ينظر إليَّ مباشرة لأفهم أنه يقصدني، وقد باتت مكالماتي مع "عزمي"

و"هريدي" بين كل حين وآخر سبباً كافياً للتسليم بأنني على علاقة بهؤلاء، لكنني لسبب ما لم أعد أهتم. كانت "أحداث المحلة" الأخيرة قد تطورت إلي إسقاط صورة "مبارك" وإلي اعتصام طال لعمال المصنع. بالطبع كان "هريدي" من بينهم وكان "عزمي" يكتب مقالات ملتهبة لتغطية الأحداث في جريدة المعارضة التي تبنته. تحققت نبوءة "هريدي" وتم القبض عليه لكنه لم يلجأ إليَّ هذه المرة ولا اتصل بي أحد من أهله. تجاسرت واتصلت بـــ "ندي" وقتها لأسأل عنه، فرد علي صوت رجولي لا أعرفه فأغلقت الخط مفزوعاً مثل المراهقين وصرفت نظر عن الأمر برمته، لكنني سأعود لتلك النقطة لأشرح لك كيف وأين قابلتها بعد كل تلك السنوات. قابلت "عزمي" أخيراً، بالصدفة، في وسط البلد التي صرت أقطعها في مشاوير غامضة، يشدني إليها حنين غير مفهوم لذكرى تلك النزهة المترجلة التي قطعتها يوماً بعد صدمتي في "إسراء" و"فؤاد" وما كان من "سعد". كانت معه فتاة متوسطة الحجم ترتدي ملابس بسيطة وبنطالاً من الجينز وعوينات غالية الثمن وتشف تقاطيعها وحركاتها عن رقي، قدمها لي على أنَّها "شاهي"، مراسلة صحفية بالجريدة و"ناشطة" سياسية. ضحكت فبادرتني بسؤال عن سبب ضحكي، فقلت بصراحة أنَّ تعبيرات كهذه لم أتخيل انتقالها من شاشات "قناة الجزيرة" إلي الشارع، لكنني شددت على أنني لم اقصد سخرية ما. تبسمت وعلقت بقولها أن مصر تتغير، وأنَّ هذه الأمور ستأخذ وقتاً حتى يتقبلها الناس.

* * *

موعد هام، القاهرة مايو 2025..

عندما مر "عزمي" عليَّ أخبرني أننا ذاهبان لموعد هام..

قاد سيارته في الشوارع التي تعج بالمتاريس التي أقامتها لجان شعبية كما أخبرني. "لم يعد الأمن مجاناً"، قالها في مرارة وهو يوضح: "عاوز تعيش في أمان؟ لديك طريقان، إما أن تكون من علية القوم، يعني واحد من "جماعة الحق"، أو من جهة أمنية، أو معك مال وفير بحيث تشتري حراس لك يؤمنون لك المكان. أما غير ذلك، فأنت وحظك، بعض الأماكن آمن بطبعه، وبعض الأحياء تعج بالقلق الدائم".

لاحظ دهشتي وصمتي فعلق بأن الناس تعودت. كان ذلك هو شغل الناس الشاغل، قبلها كانوا يتحدثون عن العمل والبطالة والأجور، قبلها كانوا يتظاهرون من أجل أهداف الثورة، وقبلها كانوا يقيمون الدنيا ولا يقعدونها من أجل حكم براءة هنا أو هناك. لكن "الناس تعبت يا مصطفى، ولما الحال ساء على الآخر، كل واحد حط ولاده تحت رجليه وقفل عليه باب بيته وخلاص. كمان الحكومة تلعب على ذلك بمهارة، في كل مكان تجد وعود بتحسين التعليم وزيادة مخصصاته، لكن لا حديث عن الأمن إلا "الحوادث التي تحدث في كل مكان في الدنيا، ومعدلات الجريمة الأقل من نيويورك"، لكن لا المعدلات تتغير ولا شيء يتحسن على أي حال".

قلت: "لكن هذا كلام مبشر منك، على غير العادة. هم لو كانوا مهتمين بالطفل، كحكومة أقصد، فهذه علامة جيدة، بل ممتازة أيضاً، وهو فكر ينبيء بأمل رغم كل شيء، أزمة وتمر يعني؟"

ضحك في فتور وقال: "أمل؟ طيب والأطفال البنات دي مش أطفال؟ لا تنظر لي هكذا، أنا لم اقص عليك كل شيء بعد. ثم يا أخي "الكبار" حالهم يصعب على الكافر، هو يعقل إن الحكومة همها النشء الجديد، وبتعمل كده في الأب والأم؟ ثم شوف، "عماد" تعلم كم هو قريب من هؤلاء ويجالسهم، وآخرون أعرفهم أيضاً يقولون نفس كلامه: لا توجد إمكانية صرف مليم واحد على أي شيء. "السمان" يلعب على عواطف الناس: إنشاء مدارس أكثر، توسعة فصول، تحفيظ القرآن، حتى تعريب العلوم بدأوا فيه منذ زمن، لم يلتفت أحد بالطبع إلى أن هذه وعود لا تحسن من الأمر شيئاً، بقي المدرسون كما هم، لا مستوى أفضل ولا حافز جديد. كل ما في الأمر أن "السمان" وضعهم في خانة العدو ودفع بغضب الناس ناحيتهم. كلما تظاهروا أو طالبوه بتحقيق وعود حكومته خرج إعلامه يتهمهم بالعمالة وبطلب أجر على زيادة ساعات تدريس القرآن، ويذكر الناس بمزايا التغيير وفوائد التعريب وما إلى ذلك.. هيييييه.. أمل؟"

* * *

قلت في ضيق: "طيب، المهم حتودينا فين؟"

غمز بعينه في غموض وقال: "حنروح معرض رسم!!

* * *

"هي.. هي، صارت شبيهة بالكرة القصيرة تحملها قدمان سمينتان تحت تنورتها الطويلة، وعقصت شعرها بنفس الشكل، امتلأ وجهها قليلاً، لكن نظرتها عندما تتفاجأ، وصوتها.. كل ذلك أدهشني وأنا أناديها باسمها..

قالت "شاهي" في مرح وهي تتأبط ذراعي في مودة وتسير بي بين حوائط معرضها: "انت فين يا راجل؟ عرفت من "عزمي" أنك عدت سالماً، لماذا لم تسأل عني؟ منور والله يا "مصطفى"، أخبارك؟"

كانت لوحاتها من النوع الذي لم أفهمه أبداً، لكنها كانت تشرح وتشير لتلك البقعة أو هذه في حماس وتسحب يدها للخارج لفراغ غير موجود بالرسم، وتحلل المعنى وتوضح المقصود من الألوان واختيار الظلال، فتحس أنك من المفروض أن تكون قد فهمت الآن!!. ضحكت مرة على منظر وجهي الممتقع بعد أن فرغت من شرح إحدى اللوحات، وقالت شيئاً عن اللوحة القادمة التي سأفهمها أكثر، لكنني بقيت على حالي البائس. قالت لما انتهت، أنها على وشك الانطلاق إلي الجامعة، حيث لديها تذاكر لدخول مسرحية الليلة. حاولت التعلل بالإرهاق فأبت وقالت أنها تعرف أنني لا أحب الفنون ولا أفهمها، لكنها تعدني أن أستمتع حقيقة بشيء أفهمه أكثر من لوحاتها هذه المرة، فضحكت.

* * *

عندما وصلنا استقبلنا شباب أنيق على الباب. عرفوها وعرفوا "عزمي" على الفور، وإذ قدماني إليهم، تحولت نظرات الفضول إلي شد على الأيدي وتربيت على الأكتاف وحماس في الترحيب. بينما ينعتونني بالبطل، ساقونا إلي أماكن شرفية في الصف الأول وأعادوا الترحيب مجدداً.

كان من غير الممكن أن نرحل بعد العرض الشائق، دون أن أتعرف أكثر عليهم. قلت لـ"عزمي" و"شاهي" أنهم يبدون كطاقة ضوء وسط ظلام حالك، وأنني تعجبت من وجودهم وسط هذه الأجواء وفي نهاية مشوارنا في مثل هذه الشوارع، وأن يوجد من يفكر في مثل هذه الأمور التي تحتاج في رأيي إلى بال رائق. ابتسما ونظرا لبعضيهما ثم اقتاداني إلي غرفة خلف المسرح، جلس بداخلها العديد منهم. كانت المسرحية عملاً عن مظاهرات يناير الشهيرة، كتبوه وألفوه ومثلوه كاملاً باللغة الإنجليزية. كان العمل مبهراً، لكنني تحفظت على مسألة اللغة. ظهر على أحدهم بعض الضيق لكنه قال متفهماً، أن الوقت لا يسمح إلا بذلك، وأن اختيار اللغة كان مبنياً على "الفلترة" التي يسمح بها هذا الشرط في المتقدمين للتمثيل ولورشة العمل التي كونوها لإنتاج اعمالهم. أخذ يداعب طرف عويناته في توتر وهو يضيف: "يا دكتور إحنا في زمن له متطلبات معينة. لا أحد يسمع، ولا يقرأ، والقراءة والسمع يحاربان، المطلوب نسمع ونطيع فقط، والأمر لا يسلم من حذر مطلوب". لم يبدو علي

أنني فهمت، لكن "شاهي" قالت في هدوء: "شباب الجامعة قرر انتهاج طريق آخر. معظم الشباب دول يعرفوا "أدهم" و"غادة" كويس، وكانوا زملاء في الحركة، إما منذ يوم إنشائها أو فيما بعد أو قبل جمعة الحجاب. بعد موضوع بيت الملاحدة، "ماجد" كان صاحب فكرة المقاومة الثقافية. نعرض أعمالاً مسرحية باللغة الإنجليزية، نضمن بذلك تجنب الدخلاء من جواسيس "السمان" وجماعة الحق. قد تتعجب، فهؤلاء لا علاقة لهم بأي لغة، وحتى أولئك المتعلمين ممن يجيدون لغة أو أكثر، ممن يجندونهم أمثال "حسام" وغيره، هؤلاء نكشفهم بسهولة، هم مطيعون لأقصى حد، لكنهم تنقصهم قراءات وخلفيات كثيرة تكشفهم. حتى لو كانوا يتحدثون الإنجليزية أو الفرنسية، فهم يتعاملون معها كلغة، لكن ليست وسيلة قراءة أو معرفة، بذلك بقينا مجموعة واحدة دون دخلاء. الوباء معدي يا "مصطفى"، متى سلمت ذقنك لذقونهم، تفقد قدرتك على الإحساس. بعد انتهاء عرض كل مسرحية، نحولها لنسختها العربية، ونعرضها على مسارح صغيرة في أي مكان. لا تتصور كم إقبال الناس على عروضنا، ربما كان ينقصهم أن يروا منا جانباً آخر غير الوجوه العابسة والحناجر الملتهبة في المظاهرات".

تحسس "عزمي" مقدمة رأسه في ألم تظاهر به، فضحك "ماجد" الممتليء الوجه كأنه فهم، وقالت "شاهي" بنفاد صبر مصطنع: "ماكانوش غرزتين دول ياعم المفكر!!". نظرت إليَّ

وقالت في سخرية وهي تشير عليه: "صاحبك تلقى "علقة سخنة" عندما هجمت "جماعة الحق" على المسرح منذ ستة أشهر. هو الحقيقة أبلى بلاء حسناً، لكن لم ينسَ لي أنني لم أدافع عنه، وأنني كنت أهرب حاملة معدات للمسرح، ومن يومها وهو "بيذلنا"".

قلت باسما": ماهو "عزمي" خبرة في الهجوم إللي من النوع ده!!".

قال بجدية: "أماال؟.."

لكن ضحكاتنا خفتت وتركزت أنظارهم عليَّ وقد اكتسى وجهي بحزن لم أستطع إخاؤه. قال "ماجد" قاطعاً حبل الصمت الذي امتد بيننا: "أنا عارف إنك تقول لنفسك ان ما نفعله لا يفيد "أدهم" و"غادة" في شيء، لكنني أؤكد لك أن ما يحدث حله ليس فردياً. زمن المظاهرات والاعتصامات لم يعد مناسباً، والمسألة على كل حال صارت أصعب عن ذي قبل. البلد صارت تحتاج لحل جذري، بطيء، لكن شامل ونابع من الكل وليس من فرد أو حتى آلاف".

قال "عزمي" مؤمناً على كلامه: "كلام "ماجد" سليم. ما فعلته حركة " مش عاوز إسلامكم" كان أثره أكبر بكثير مما تتصور. رغم الفقر، رغم المعاناة، لكن الناس لم ينسوا هؤلاء. لا يغرنك تجاهل الناس لما يحدث، فعندما كانت الأمور أفضل، تفاعلوا معهم طويلاً. لكن "السمان" لم يترك لهم الفرصة. طول ما الهم الشخصي أكبر، عمر ما حد حيبص لهم غيره. هدفنا هو

إن الناس تخرج من همها الشخصي لشيء أرحب، فضاء أوسع، جمال وبهاء، سمو في الروح. كل ذلك سوف يأتي من ثقافة، تفكير، مسرح زي بتاع "ماجد"، رسم "شاهي"، وقراءة وجدل مثلما أفعل أنا وغيري. ساعتها سوف يفيق الناس، ويعرفوا أن في الدنيا ما هو أرحب، وأجمل".

لكنني لم أقتنع..

سألت نفسي في عجب: هل فقدوا القدرة على الملاحظة والاندهاش بالفعل؟

صارحتهم بأنني لا أراه حلاً.. قلت أن دورهم قد يأتي عندما يفيق الناس على القبح أولاً. تعجبوا فقلت أن الناس صارت تعيش في قبح كبير. البعض لا يراه ويتعايش والسلام، والبعض مثلكم يغرق نفسه في نقيضه. النتيجة أن أياً من الجانبين لم يعد يحس أن حياتنا امتلأت بالقبح، ولم يعد يفكر في كيف يغيره. جفل "عزمي" وقال ما معناه أنها نظرية جديرة بالاهتمام. عدت معه للمنزل وقد سكت تماماً، بينما غرقت أنا في ذكرياتي مرة أخرى..

قبل أن أنصرف، وبعد أن قلت لهم رأيي هذا، علقت "شاهي" تعليقاً مبتوراً فقالت: "ماهم بيخافوا من أي حاجة حلوة". كنت في قمة ضيقي من أسلوبهم واقتناعهم بجدواه، بينما أنت يا ولدي ملقى في سجن مقنع، وهم يدعون أن هذا سينقذك. كنت مشغولاً بذلك لذا لم أسألها عمَّا تقصد. عندما تذكرت ذلك ونحن في سيارته عائدين، سألت "عزمي" فقطعت

عليه شروده، تبسم وقال أنها ربما تقصد مسألة "دستور المصريات"!!. دارت بي الأرض وهو يشرح لي كيف صدر دستوران، واحد للرجال وآخر للإناث، كما أطلقن عليهن. مرة أخرى كان "حسام" يلعب دور "مهرج الملك" ببراعة. دستور المصريات اشتمل على "كراهة" العمل، ووجوب ستر الوجه، وجواز تحديد سن الزواج بوساطة مسئول حكومي "مرخص". أخبرني مخلصاً وهو يخشى غضبتي أن الجميع قاوموا هذا الدستور، لكن أقصى نجاح كان في تعديل مسألة الزواج، فقد كان السمان يرغب في تخفيض سن الزواج، لكنه بعد اعتصامات لشابات في الأسكندرية والمحلة، جعله في يد هذا "المرخص". في باديء الأمر فهم الجميع أنه سيكون "المأذون". لكن جماعة الحق وضعت تلك المهنة نصب أعينها، فكثر منهم من يحصل على الترخيص المطلوب ليؤدي هذا العمل في شهور. "أصبحت حاجة الأسر للمال واستغلال ذلك هي المشكلة. لكن "أرحم" مما كان بالطبع. "شاهي" لها نظرية أنهم، أي إللي زي "السمان" وبتوع الجماعة، يكرهون البنات والأنثى عموماً. لها مقالة مشهورة سمتها: مش لعبتكم، ولا عمرها هتكون. قالت فيها أن من درج على الفظاظة وليس فيه ما يغري أي أنثى بالارتباط به، ما عساه أن يفعل إلا أن يغلق عليها البيت ويزوجها وهي طفلة، ثم يسدل عليها الستار بحجة أن وجهها فتنة؟ هذا هو القهر الكامل وعقابها على نفورها منه من قبل، لكن المرأة ليست لعبتهم، وعمرهم لن يتقنوا لعبة

التعامل القويم معها على أساس أنها إنسانة مثلهم. أنا عارف انت بتفكر في إيه: إحنا مش مندهشين، صح؟ لك حق!! بس مش عارف أقوللك إيه.. إللي يغيظك أكتر من الغبي، والجاهل، هو اللي موافق على كلامه وبيهلل له، شعبنا كله بيهلل، تسمع في كل مكان إن جواز البنت سترة، وإن نزولها الشارع مدعاة للشباب إنه يتحرش بها. أقول إيه؟".

لكنني كنت أفكر في أمر آخر. تذكرت "ندى"، وكيف رفضت "السمان" لأنه "قفل". خطر لي خاطر مزعج، هي التي تزوجت سلطوياً بامتياز، لماذا لم يضمها "السمان" إلي نسائه قسراً؟ يستطيع؟ طبعاً! أتراهم صارا صديقين، هو و"حسام"، من أجل أن يصل "السمان" لـ"ندى"؟ طردت الخاطر عن فكري، لكنني لم أدرِ كم كنت قريباً لحظتها مما سيحدث بالفعل..

لكن، ما الذي حدث للناس؟ "عزمي" بدا وكأنه خائف، أو كأن الفشل نال منه كما يتهم الناس بأنه نال منهم. طول عمره يؤمن بأهمية ما قاله لي الآن، ولكنه، وياللغرابة كان أيضاً يظن في نفسه أنَّه تغير، فلماذا لا يلحظ مثل ذلك الآن، وهو أكثر وضوحاً في عيني؟. ماذا حدث لكلامه معي عن هذه النقطة بالذات؟ يبدو لي أنني أنا الذي تغيرت.

كلامه كان أكثر انطلاقاً.. راجعت كلامه والسيارة تنطلق بنا، فعدت مرة أخرى إلى ذلك اليوم الذي التقيت فيه "عزمي" و"شاهي" في مقهى بوسط البلد..

* * *

وسط البلد - القاهرة، 2009

جلسنا على مقهى هاديء وتحدثنا في أمور عامة، لكن "عزمي" صمت قليلاً، وبادرني فجأة بسؤال صريح عمَّا إذا كنت مازلت غاضباً منه. لم أكن كذلك، لكنني لم أنسَ موقفه معي يوم أن ذهبت إليه في مسجد الكلية وشكك في شرف "إسراء" وسب أهلها. قلت بصدق، أنني لم أعد نفس الشخص الذي كنته يومها، وأضفت ضاحكاً أنني ربما كان من الأفضل لو استمعت إلي تحذيره يومها رغم ضيقي من رأيه. عض على شفته السفلى في ألم سريعاً، ثم اعتذر في بساطة وهو يقول: "كلنا تغيرنا يا مصطفى، أنا أيضاً لم أعد نفس الشخص". قالت "شاهي" محاولة كسر الجمود – وقد صارت ببساطتها ومباشرتها أقرب لنفسي من أي غريب أقضي معه دقائق يسيرة – أنَّها تظن أنها رأت إعلاناً للمستشفى في جريدتهم، بل وأنها تذكر تماماً حديثي في برنامج شهير منذ أسابيع. ندت مني ابتسامة وقلت في مرارة أنَّ هذا يسعدني لكن "عزمي" قال في قلق أنني لا أبدو كذلك، فوجدت نفسي أقص عليهما ما كان كله، منذ يوم أن انقطعت أخبارنا عن بعض. كان يستمع في اهتمام ولا يقاطعني إلا نادراً ليكمل جملة أو يشاركني في نطق نفس الكلمة في نفس اللحظة، بينما تفاعلت "شاهي" معنا كثيراً برفع أو خفض حواجبها، أو استيضاح نقطة ما مني، فيرد عزمي عني ويستحثني على أن أكمل. قلت بعد أن أنهيت حديثي، أنني

أخطأت كثيراً، لكنني لم أعد أعلم متى وأين بدأ الخطأ، كأنني أعيش سلسلة من التفاعلات التي يفضي كلٌ منها إلى الآخر، فلا تملك إلَّا التعايش معها وارتكاب الخطأ التالي.

قال بعدها في إخلاص وهو يميل نحوي: "انت ماغلطتش يا مصطفي. أنت فقط لم تقاوم، أو انتهت مقاومتك مبكراً لأنك كنت ذكياً بما يكفي لأن تدرك أنه لا فائدة من استمرارك في تجاهل الواقع. لو كنت إنساناً غبياً، لاكتفيت بالجامعة والدراسة والاجتهاد، يمكن كمان كنت اخترت طريق الكفاح والسكة الدوغري في كل شيء. من داخلك، فهمت أن مش بلدنا إللي بتاعة كده. ماهو لا تطلب من نفسك إنك تكون محترم وتلعب بقواعد اللعبة النظيفة، بينما اللعبة لا قواعد لها من الأساس. امشي عدل يحتار عدوك فيك قال!! لأ، هي بقت "امشي عدل يتصعب عدوك عليك". أنظر حولك جيداً، لقد صرنا مجتمعاً لا يقدر الفكر ولا الأخلاق ولا الثقافة أساساً. معاك قرش تسوا قرش. واخد بالك من المثل؟ ماقالكشي القرش دا جاي منين؟ المهم إنه معاك، إللي طلع المثل ده مصري صميم. المجتمع بقي طبقي، وعينه علي المثل ده طول الوقت، مجتمع طبقي لكن له مقياس واحد للطبقية: الفلوس. يعني تجتهد وتبقي محترم؟ ماشي، لكن انت وحظك بقي، لأن في أي بلد في الدنيا دي سكة النجاح، إلا مصر. مش شرط أبداً توصل لحاجة. آخرك تقعد انت والمستقيم والدوغري اللي زيك تتصعبوا علي حالكم وتمصمصوا شفايفكم وخلاص. أنا مش بقول إننا كلنا نعمل كده،

أديك شايفني أهو، حالي من حالك. بس أنا بقوللك إني فاهم كويس إن واحد زيك فهمها بدري، أو فهمها بعد ما حاول كتير وشاف آخرها مش جايب همه. انت اتصرفت بما يضمن لك النجاح، ده مش عيب يا مصطفي.

-"بس انت معملتش كده يا عزمي؟ أنت حالك ليس من حالي بالتأكيد، أنا قرأت مقالات لك، على القل اراك تكافح وتجاهد في طريق المعارضة بشكل عميق، لا ارى أنك فهمت ما تقول أنني فهمته، على الأقل أنت لم تنهار مقاومتك بعد"

-"مش عشان مش عايز وحياتك. أنا الدنيا اتهدت فوق دماغي وكنت لسه بحاول اطلع من تحت الأنقاض. قضيت كتير من عمري بحاول يادوبك أقف علي رجليا، ولسه بحاول. يمكن نعمة ويمكن نقمة، لكن انت بتلاقي نفسك في طريق، يفرض عليك سلوك معين وفكر معين. طريقي اللي اخترته أو اخترني، مش حتفرق. أنا إللي ممكن أعمل الفرق. لكن طالما أدوات النجاح عندي مش كتير، يعني لا وظيفة مرموقة ولا فلوس ولا مستقبل واعد، يبقي لازم أستخدم كل المتاح لدي، أكيد بحاول أعمل كده. يقيني في الله إني حنجح، ويقيني في عقلي إني أقدر"

-"كلامك يجعلني أفكر أينا أكثر حظاً. ربما لو لم أسلك طريقي لوجدت الحياة أكثر تحفيزاً"

-"مشكلتك ليست في الحافز يا مصطفي. مشكلتك أنك دائماً تخشي التجربة وتهاب الفشل. لذلك اختياراتك هي اختيارات واحد خايف. إياك أن تغضب مني. عارف انت لو مش مميز؟

كانت اختياراتك قضت عليك من زمان. يعني كان مالك انت ومال الناس دي بالمستشفي بتاعتهم والهيلمان إللي فرحت بيه ده؟ اللعب علي المضمون اختيار عاقل وذكي جداً، لكن ليس لمن يمتلك الذكاء ويمتلك الهمة مثلك. انت عارف انت كنت علي بالي طول الفترة اللي فاتت ليه؟ أنا أيضاً كنت ألعب علي المضمون، لكن بمقياس آخر."

ابتسمت "شاهي" وحاولت تخفيف حدة الحديث قائلة وهي تتظاهر بتدوين ما نقول في "دفتر" صغير أمامها: "اعترافات خطيرة دي يا دكاترة، أكتب أنا بقي واتكلموا براحتكم"

واصل عزمي وهو يشير لها سريعاً ثم يعاود الالتفات إليَّ: "ليس هناك ما لا تعرفينه في ما سأقول يا "شاهي". "مصطفى"، أنا بعد فترة طويلة من الاعتقال والسجن والفترة المريرة التي قضيتها وحدي، أفكر فيما صرت إليه، وصلت إلي نتيجة مخيفة: أنا فعلاً كان قصدي خير!! عارف ليه خفت لما فهمت كده؟ لأن اكتشفت إني اخترت الخير إللي علي مزاجي، مش الخير المطلق. أشرح لك أكتر: أنا كنت عايز أقرب من ربنا، وأكون مطيع له وأدخل الفردوس الأعلي، وأكون في كنف رسول الله صلي الله عليه وسلم. كل ده جميل. بس إيه الفرق بين الدافع لو كنت عايز أقرب من ربنا علشان أدخل الجنة، ولو كنت عايز أقرب من ربنا علشان أنا أريد فعلاً أن أعبده هو وحده، لأنه الخالق العظيم الذي أغرقني في نعمه؟

فكرت كتير في القصة دي. فوجئت إن هذا الأمر عمره ما خطر علي ذهني ابداً. تأملت أكثر، فوجدت إني كنت باهرب من النار وبحاول أدخل الجنة، أكثر من الطاعات وأقلل من المعاصي وأفرط في حساب نفسي وأنشغل بهداية الناس وإقامة شرع الله حتي أضمن مكاني في الجنة. أحفظ كثيراً من الأحاديث والأدعية. من قال هذا أو ذاك كتبت له مائة شجرة بالجنة، من قرأ كذا، كأنما كتبت له حسنات أو كتبت له أجر كذا. سهلة أليس كذلك؟ أنا لا أشكك، لكن أنا – بصراحة – لا أعرف فعلاً ماذا أفعل بمائة نخلة في الجنة؟ مائتين.. ألف..؟ هنا بدأت أفكر ماذا لو لم أكن محباً لهذا كله؟ ماذا لو لم تكن سعادتي في امتلاك النخل والحدائق في الجنة؟ ماذا لو كنت أكتفي بحديقة واسعة جميلة والنعيم المقيم والراحة النفسية مثلاً؟ أنا مبسوط كده يا أخي؟ هل يكون وعد الله "غير مناسب لي"؟ وهل هذا معقول؟ أسهل شيء أن تكفرني لكن الأصعب أن تفكر مثلما أفكر، وتقول لنفسك بصراحة كما قلت لنفسي: "الخير والشر وقيمة الدين نفسه كلها أمور ثابتة، لكن ماذا لو كان كل ذلك الوعد مجازاً؟ يعني الوعد أن تصبح لك واحة رغدة جميلة، شيء ترتاح فيها وإليها، جو يعيد إليك سلامك النفسي كما تفعل مائة شجرة أو ألف؟" سألت نفسي ماذا يوجد من المجازيات هناك أيضاً؟ ، قادني ذلك إلى أن أسأل نفسي السؤال الآخر في إلحاح: لماذا كنت أحفظ هذه الأشياء وأحرص عليها؟ لماذا تعلقت بكل ذلك دون غيره؟ لأنها سهلة، هناك أمور أسهل كثيراً من جهاد النفس بأن لا أنظر

نظرة محرمة لهذه الفتاة الجميلة مثلاً، فكنت أستبدلها بأن أطالبها بالحجاب، وأخطب فيكم بأن الحجاب فريضة، وآتي بكل ما يدل على ذلك، ثم أتناقش مع من ينكرون ذلك فأكفرهم، وأنا أظن أنني أحصد الحسنات، حسنات ثم حسنات ثم حسنات. حسنات الحصول عليها أسهل من تحري الصدق مثلاً، أو من كظم الغيظ، أو الدعوة لسبيل الله بالحسنى، أو معاملة المسيحيين في دفعتنا بشكل لائق، الأسهل أن يكونوا كفاراً، يجب جهادهم ومن ثمَّ الحصول على أجر الجهاد، يعني باختصار: كنت بالعب علي المضمون زيك يعني. لكن أكثر ما أرعبني وأحزنني هو الذي فهمته عندما سألت نفسي عن السبب في ذلك؟ وجدت الإجابة كما يلي: أنني في طريقي للطاعات والتقرب من الله كنت حريصاً جداً علي التنفيذ، لدرجة أنني ألغيت عقلي. طبعاً هو غير معتاد ولا مقبول أحياناً مسألة التفكير في الأساسيات أو حكمة الأوامر الإلهية، أو جدوي الإيمان أو وجاهة الدخول في الإسلام أساساً. حرام، حرام، حرام. كنت سأجد العشرات والمئات يكفرونني وأولهم أنا نفسي، لو كنت فكرت بهذا الشكل.

قلت في جدية خلطتها بالهزل الخفيف لأخفف اختناق صوته: "أخشى أن تكون قد تركت الطب لهذا السبب يا "عزمي"؟ تعرف أنني ذهبت لأسأل عنك في المستشفى فعرفت من "السمان" أنك قد تركتها وسافرت للقاهرة؟ كان على كل حال غامضاً معي في رده وقال أن للدعوة 100 طريق وطريق،

فظننت بصراحة أنك ذهبت تفجر نفسك في نقابة الأطباء بحزام ناسف أو شيء من ذلك".

ضحكت "شاهي" في جذل وابتسم هو قائلاً كأنه تذكر: "تعرف إن كلامه كان ينسحب على ما حدث فعلاً؟ لكن ليس كما تصورت أنت. التحقنا معاً بالمستشفى بعد أن تم رفض طلباتنا للنيابة بالجامعة. تعاملت مع الموقف بواقعية ونظرت أمامي وكنت قد وطدت نفسي على متابعة حياتي ومحاولة أن تكون طبيعية. كنت قد تعبت من مشاكل الدعوة وغير السجن الكثير من أفكاري، وكنت مضطرباً بشأن أمور كثيرة ومصدوماً من عدة أوجه، فقررت أن أعطي نفسي راحة وأجرب الحياة الهادئة. جاءت مقابلتنا معاً لرئيس قسم العظام معاً للتعرف علي طموحاتنا. تذكر بالتأكيد أن مناظير الركبة كانت صيحة جديدة وقتها، وكان أملي أن أكون واحداً من هؤلاء الذين يتقنون القيام بها. ما أن أتيت على ذكر ذلك، حتى تغير وجه رئيس القسم، ورفض قبولي بقسمه، وأجبرني على أن أتخصص في الأمر الوحيد المتاح: العلاج الطبيعي. لامني "محمود" على تسرعي: "الراجل كبير في مكانه وانت جاي تقول له أنا حشيلك من مكانك واتخصص وأكون أعلم منك في مجالك؟". لم افهم منطقه أبداً. كل ما أردت أن أفعل شيئاً أحبه وأستشعر فائدتي فيه. لكنني قبلت النيابة التي لم تخطر لي على بال، وأصروا هم أن أسجل نفسي لدرجة الماجستير في طب الطواريء. لا تسأل عن علاقتي بالطواريء، فهي لم تتعد تواجدي الإجباري بالنوبتجيات،

إعطائي مسكنات للمرضى، فلم يكن لدينا غيرها على أية حال، ثم القضاء على المرضى وكتابة شهادات الوفاة. لم أتحمل كثيراً، فقدمت شكوى لنقص إمكانيات القسم والطوارىء. أرسل لي "رئيس القسم" "محمود السمان" "ليعقلني"، لكنني لم أرتدع. في النهاية أثمرت الشكاوي المستمرة عن الموافقة على شراء عربات إسعاف وتجديد الطوارىء. خمسة ملايين، خمسة ملايين جنيه.. تم صرف أكثرها على تجديد القسم وطلاء حوائطه. نفس الحوائط التي انهارت بعد شهر ونصف، بينما استمرت عربات الإسعاف تنقل ضحايانا غلي المشرحة أو تنقل الأطباء في منتصف الليل للقيام بعملياتهم الخاصة."

-"وماذا فعلت؟"

-"لا شيء، كانت مقاومتي انهارت، وقد أدركت أنه لا فائدة منهم، وقررت شكواهم إلي الوزير شخصياً وأخذت أبحث عن وسيلة للوصول إليه. "محمود السمان" قال لي أنني لا يجب أن أغضب، فقد فعلت ما بوسعي. "لا يكلف الله نفساً إلا وسعها". قالها في خشوع أثار ضيقي فجأة. صحت به أنه منافق، وأنه كان ضد طلباتي من البداية، وأنه لم يستفد من الدعوة والجهاد أي شيء. قلت أن الجهاد والإصلاح في الأرض لا يتم باتباع قوانين ودمغة وطلبات رسمية، عندما تفشل نكتفي بهذا القدر ونسترخ في مقاعدنا قانعين أننا فعلنا ما يريح ضمائرنا. قال أنني لن استفيد شيئاً مما أنتويه، وأن كل ما سيحدث أن الإدارة سوف تستبعدني وتضع بقية الأطباء الصغار – وهو منهم – في

"دماغها". أصررت على رأيي واتهمته بأنه "عرضحالجي جهاد"، فلما استغرب كلامي شفعته بأن قلت أنه يتذاكى على الله، وأنه ليس هكذا تكون الدعوة ولا الدين ولا رد الظالم. ابتسم ابتسامتنا التي أحفظها من باب "إذا خاطبهم الجاهلون" فغاظني أكثر.. قال في برود باسم أن للدعوة طرق كثيرة ولا داعي للتعصب لواحدة على حساب الأخرى، لكنني تجاهلته. كان هذا موقفاً فارقاً لي معه".

-"هل حدث ما أخشاه بعد ذلك؟"

ابتسم في سخرية وقال:"وماذا تتوقع غير ذلك؟ هو كان الوحيد الذي يعلم بنيتي، ولم أكن قد فعلت شيئاً بعد يستحق ما سيحدث، لكن في اليوم التالي جاءني قرار بنقلي للقاهرة. لم أندهش ولم أصدم. لكنني رفضت تنفيذ قرار النقل فقد أدركت أن سجن الوظيفة يقيدني. استمريت رغم ذلك في حساب نفسي وعدت إلى ما خطر ببالي بشأن تلك الشدائد، عندما تم الاعتقال: هل كنا نعترف تحت تأثير التعذيب بأسماء رفقائنا لأننا لا نحتمل التعذيب؟ طيب ما أصحاب رسول الله تم تعذيبهم؟ هل أنا أضعف من "عمار بن ياسر"؟ دول ثبتوا علي موقفهم رغم ما لاقوه من أهوال. طيب نحن، إللي بنجاهد علشان الدعوة ونقتدي بالناس دول، هل إيماننا ضعيف حقاً؟ كنا ننظر في عيون بعضنا في الزنزانة عندما ينتهي التحقيق ونخفض عيوننا، كل واحد عارف إنه ضعف واعترف، لكن كلنا نعلم أننا فعلناه تحت لهيب النار وقضمات الكلاب وصعق الكهرباء، نعزي أنفسنا بذلك

ونتحاشي الكلام فيه وعنه، حتى ذلك التبرير والسلوك من أساسه، كان لعباً على المضمون: اعترفت لأنني مضطر، وليس عليَّ حرج. لكن الحقيقة أن كل واحد كان قد اكتفى من جهاده بما حققه في مخيلته: ذلك كتب له أجر مجاهد، وهذا ضمن الجنة، والآخر بات يحلم بحدائقه الغناء فيها، فلماذا المزيد؟ فهمت المأساة؟ فهمنا العنوان ولم نقرأ الشرح!! "عمار بن ياسر" فهم أنها النية، وأن النية لا تنتهي أو لها "تاريخ صلاحية"، وليست وسيلة، النية غاية. فهم أن حدائقه مجاز، ومكافأة لمجاز، وتتويج لثوابت إذا زالت أو عفت أووهنت، ضاع كل شيء. فهم ذلك رغم أن الوعد نزل في عصره، وشاع بين قومه لكنه فهمه على وجهه القويم، وبجوهره السليم.

رغم ذلك كانت نظرات الانكسار تعذبني، وتدشن السؤال المخيف: هل كان ضعفاً أم عدم اقتناع؟ انهيار لأساس متين، أم أنه كان هشاً من البداية؟ طيب خد عندك الأصعب: كيف يكون هشاً، ألم نكن مقتنعين بالدعوة؟ هنا فزعت، هل نحن مقتنعون بالإسلام أم الدعوة إليه؟ هل يمكن أن نكون مقتنعين بالدعوة لشيء لم يدخل قلوبنا ولعقولنا؟ من يفعل ذلك؟ مندوب الأدوية؟ مندوب الدعاية، وفتاة الإعلانات، أتراهم يحبون المنتج؟ هم يكذبون، يداهنون، ويرقصون من أجل المال، المكافأة، أو المائة نخلة؟

هل فكرت يوماً لماذا أنت مميز كمسلم، عنك لو كفرت بالله؟ لا أتحدث عن الفوز في الآخرة ولا عن الجنة والنار، أنت بذلك

تتحدث فقط عن كيفية النجاح في امتحان للجراحة دون أن تتعلم إلا الخطوة الأخيرة فيها وهي استئصال الورم، دون أن تتعلم سبب الاستئصال، ولا الفوائد التي تعم على المريض من العملية، ولا حكمة تعقيم الآلات الجراحية المستخدمة. تفعل ذلك كله لأنها الخطوة الهامة التي تظن بها أنك تنجح في الامتحان. أوليس جراح الأورام يعني باستئصالها؟ ماذا تقول أنت لو قالها لك أحدهم؟ ألن تتهمه بأنه دخل هذا التخصص بطريق الخطأ؟ أنه لا يفهم قيمته؟ أنه فاشل ولو حادت الأسئلة عمَّا يحفظ لرسب رسوباً شنيعاً؟ الأهم من ذلك كله، هو أنَّه في الأغلب لا يفهم قيمة العلم الذي يدعي أنه تعلمه، ولا يعرف أنه هناك اورام استئصالها اخطر من تركها، وأن هناك وسائل أنجع للعلاج من الجراحة، أنَّ هناك تخصصات أخرى، وأن هناك مشعوذين محترمين جداً يعالجون بالسحر مثلاً، ماذا عساه أن يقول في هؤلاء، وما تكون قيمته أمامهم إذا ما تواجها؟ علاج وشفاء؟ كلاهما فعل، لكنه لا يفهم أن المسألة ليست في الخطوة الأخيرة، ولا في جمع الدرجات والحسنات، وليست بالنتيجة فقط، بل في كيفية الوصول إليها، ليس الطريق، لكن كيف تسلكه. ربنا قال "فينظر كيف تعملون"، "كيف" يا مصطفى، مش "ماذا" خللي بالك!! بمعني أنك لو شكوت رئيس القسم للوزير بغرض الإصلاح، كان حيكون عمل كويس، عمل يراد به الإصلاح، ونابع من ضمير يبحث عن إرضاء أمر الله في تعمير الأرض، مش عيب بقى ومايصحش وحتقلب علينا الناس. وإلا، يكون

عملك، أي عمل له غرض حميد، مربوط فقط بالآخرة والحساب، فتلاقي نفسك حولت العمل إللي ربنا بيحاسبك على "كيفيته" إلي عمل السؤال عنه يبدأ بـ"لماذا". فاهمني؟ إذا نظرت فقط للحساب والعقاب، يبقي المعاملات والعبادات وكل الأوامر والنواهي كلها أدوات في إيدك تدخل بها الجنة أو النار لكن معقول إنه مالهاش فلسفة دنيوية اصلاً؟ هل معقول إن الدين وتعاليمه كتالوج علشان بعد ما نموت؟ ولا الأجدر إنه يكون كتالوج لدلوقتي وإللي حيسمع الكلام حيبقي كويس ويعيش سعيد ومفيد لنفسه ولغيره، وبعدين يري الجائزة الكبري بعد الموت؟ هل يعقل أن يقول لنا الكتالوج ان الله جاعلنا في الأرض خليفة، ثم لا يكون هناك حكمة دنيوية من الأمر كله؟ هل يعقل أن يأمُرنا الدين بزرع فسيلة حتي لو قامت القيامة، ويوجهنا الدين لتعمير الأرض، ثم نحصر أنفسنا باللعب علي المضمون علشان خايفين من النار؟ ولا يكون ضرورياً أن نفهم هذه الحكمة؟ طيب، وهل ننفذ الكتالوج بس من غير ما نفهمه؟ لو نفذناه من غير ما نفهم الفقرة دي سببها إيه والفقرة دي حكمتها إيه أليس ذلك أفضل؟ أليس ذلك ضمان أن ننفذ ما جاء به بوعي؟ مش يمكن نكون بننفذ غلط؟ أو بنكون بنطبق غلط؟ انت لو قريت كتاب صيني، حتفهم حاجة؟ ولو ترجمته كلمة كلمة حرفياً من القاموس حيوصللك المعني الحرفي بس ولا روح الموضوع والإحساس كمان؟ إذا كنا بنعمل ده في الكتب والشعر، فين المعني إللي في بطن الشاعر هنا؟ تفتكر ليه مش بتفهم الكتاب الصيني من غير

روحه والمعني وراء الكلمات؟ لأ بجد والله مش باكرر نفسي، لأنك لم تتعلم المعاني الخفية وراء التعبيرات، مش لازم تدرس صيني، ممكن تترجمه كلمة كلمة، وممكن مصحح معاك ولا برنامج كمبيوتر يرتب لك الجملة زي ما بيقولوها، لكن حتفهم منين لماذا لا يضعون رقم "أربعة" ابداً كرقم لأي حجرة بالمستشفيات؟ مش لازم "تقرأ" كي تعرف أنه ينطقونه مثل كلمة "موت"؟ تشاؤم يعني، هذا يقودك لفهم انهم يتشاءمون كثيراً، ومن أشياء عادية، ويقودك لفهم الشخصية التي خرج من عقلها شيء مثل التقويم الصيني وما وراؤه. كنت حتفهم نفسيتهم إزاي وبالتالي كتاباتهم إزاي؟ الدين مش محتاج إننا نحفظه ولا نردده وخلاص. الدين يحتاج إلي أن نفهمه. ساعتها سنكتشف أنه مانزل إلا لنكون أفضل، مانزل إلا لنفهمه ونتدبر في معانيه. رأيت لأول مرة أن هذا قد يكون هو التكريم الذي أراده الله للإنسان، وليكون هذا العالم أفضل. ساعتها ـ هكذا فكرت ووضعت نظريتي قيد الاختبار ـ سنكون قد أطعنا الله، وساعتها أيضاً سنكون في الآخرة من الفائزين "

تنهد كأنه بذل مجهوداً خارقاً ومسح عرقه، قال في ضعف كأنه يمنع نفسه من البكاء: "أنا اخترت إني ألعب علي الشيء المضمون يا مصطفي، وفي سبيل ذلك ألغيت عقلي، لأن هذا كان أسهل وكان يجعلني أعمل الصح أسرع، من غير بقي ما أسأل نفسي في كل خطوة ليه؟ طيب وحيفيدني كإنسان وروح بإيه؟ طيب ما هو المغزي من ده ولا إيه إللي ربنا يقصده أعمق من

مجرد الشكل؟ يمكن كنت خايف إن هذا التفكير يشغلني عن طاعة الأمر والانتهاء عن النهي، بإني أنشغل بالتفاصيل دي، أو كنت أصدق أن التفكير من ذلك النوع قد يؤدي للاعتراض أو الكفر. لكن، اتضح إن العكس هو الصحيح. بعد كل السنين والكفاح ده، مع أول تجربة صعبة وأول بهدلة وأول مضايقة، صبرت شوية وبعدين بعت كل حاجة."

قلت في إشفاق حقيقي: "لكن يا عزمي أنت رأيت أهوالاً. لماذا تحمل نفسك فوق طاقتها؟"

تابع وكأنه يكمل كلامي: ".. ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها وكل إنسان طاقة.. ماشي، معاك. لكن أكيد فيه حاجة تجعلك تثبت علي إيمانك. ده حتي اسمه "إيمانك".. يعني من عقلك مش من قلبك. خللي بالك إن "لا يؤمن أحدكم حتي يؤمن بقلبه".. بس دي مرحلة متقدمة.. "حتي"!! فهمتني؟ يعني فيه قبلها خطوة، سَمِها إيماناً آخر.. لكن أكيد إن الجزء الذي سيؤمن منك هو ليس يدك أو قدمك اللتيان تتلقيان التعذيب أو جسدك الذي يصعقونه بالكهرباء، أكيد انه إيمان ليس بالجسد ولا بالكلام، لكن أكيد أن المقصود هو إيمان بالعقل. صحيح أن القلب هو الهدف، بس من الذي يدعمه ويضبطه؟ من الذي يقنعه، وهو موطن الهوى الذي لو قنع واقتنع بإيمانك فقد آمنت حقاً؟ بعد أن خرجت من المعتقل، عزمت علي العودة من بداية الطريق بغرض الفهم. علي أمل اليقين. صار الطب أضيق بالنسبة لي من أن يمنحني ما أسعى إليه. زملاء المعتقل انقسموا ما بين من هاجر وهرب،

ومن "وفق أوضاعه". لكن أيّاً منهم لم يراجع نفسه حقيقة، دعك من المراجعات مع الحكومة، أعلم أنها كلها غير حقيقية. عندك "محمود السمان" على سبيل المثال. فكره لم يتغير قيد أنملة، الفارق هو أنه كان يأمل في تغيير المجتمع للأفضل بطريق الدعوة والتلقين، فصار مصمماً على التعايش ليغير نفس المجتمع ليصير مثله، لكن خللي بالك!! لو المجتمع ماسمعش كلامك تعمل إيه؟ يا إما تسكت وتيأس وتقول أنا عملت إللي عليَّ، يا إما بالعافية والكره وسواد القلب، إللي زيه ماعندوش الحل التالت: "كيف تعملون". هو عنده "ماذا" بس. أنا والله قلت لهم يارب، وماسمعوش كلامي، دلوقتي بقى حادديهم بالجزمة، عداني العيب صح؟. "محمود" استمر يحس بالمرارة من الكفار الذين يمسكون بالدولة ويحكمونها. تلك هي كلماته بالمناسبة. لم يخطر على باله أنه يحتاج لمراجعة من نوع آخر، مراجعة لإحساسه بالمرارة ذاته، تفكير في الدعوة ككائن حي يخاطب عقولاً، وليس كنص يخشي عليه من الضياع أو يسعى لنشر التلقين كسياسة حياة. أريد أن أفكر، وأصل بتفكيري وحده لهدفي. الحكمة ضالة المؤمن.. لم تعد بالنسبة لي مجرد كلام، أنا لم أترك الأساسيات ولا يمكن أكون زي ما كتير فهموني. أنا الكاتب المتحول الليبرالي المتعفن العلماني، خذ من ده كتير وانت أكيد سمعت أو قرأت تعليقات اللجان الإلكترونية على مقالاتي. طالب شهرة وطالب مال" وضحك وأشار لما حوله مازحاً: "كنا عزمناك في مكان أغلى قليلاً من ذلك المقهى لو

كان كذلك، لكن ماذا تقول فيمن نصب نفسه ملكياً أكثر من الملك؟ ربنا نفسه لم يطلب أن ننقل ونحفظ ولا نفكر، هي أول آية نزلت في القرآن كانت بتقول إيه؟ طيب بلاش، أنت تذكر طبعاً حكاية "التحضير" للدرس قبل أن يشرحه الأستاذ؟ كنا نؤمر بأن نقرأ عن درس الغد حتى نفهمه أكثر، كم منا كان يفعل؟ دعك منك أنت، أنت طول عمرك شاطر، لكن المقصود من ذلك هو المهم. الأستاذ الذي كان يطلب ذلك ويصر عليه كان يريد لنا أن نفهم الموضوع ونستوعب فلسفته، وكان غالباً من طراز مختلف من الأساتذة، لا يهمه الحفظ بقدر ما يقلق على الاستيعاب والعمل به"

قلت محاولاً تلطيف ضيقه: "أنا كنت أقوم بـ"تحضير" الدرس كي أظهر بمظهر الشاطر بس، لكن انت كنت أشطر، وكنت تذاكر في النهاية من كتبي وملاحظاتي فتحصل على نفس التقدير تقريباً"

قال في مرارة لم تخففها مزحتي: " لكن ربنا حيكون حسابه أكثر دقة من حساب الأستاذ بالتأكيد. هي ثقافة التلقين مرة أخرى، كتبت ملاحظاتك، حفظت كتابك، فنجحت بتفوق. لكنني أرفض أن أستند فقط للحفظ والترديد مرة أخري مع كتاب أول حروفه "اقرأ". في المرة القادمة سأكون قد فهمت، وساعتها سيكون عقلي سندي، وإذا قبضوا عليَّ فلن يقبضوا معي على فكرتي. لن أنهار وأبيع قضيتي مرة اخري، لن أكون ثانية من هؤلاء العاطفيين الذين أحبوا الدين وتشنجوا في

التشيع للمقدسات، لأنهم ليس لديهم قوة للدفاع عنها سوي الصوت العالي والعصبية، فلما جاءت أمور دنياهم، فشلوا حتى في القيام بدور الطبيب ورضوا بالمسخرة لأنهم قرروا أنهم غير مكلفين بما ليس في وسعهم منها، وما يضرهم منها. لن أخدع عقلي ثانية، فقد فعلتها مرة واكتشفت أن قضيتي ليست بالقوة التي تدفعني للدفاع عنها لأن قلبي أضعف من أن يحتمل الأذي، فكما اختار الحق، فزع من الألم في سبيله. أما عقلي فكان طول الوقت ينفذ أمر قلبي، لأن القناعة لم تصل إلى فكري بعد. فلما تحول قلبي، تحول عقلي معه لينقذه"

* * *

إذن فهو القبح !!

إذا كان الناس اعتادوا عليه تدريجياً في شوارعهم فلم يعد أحدهم يلقي إليه بالاً، في مستشفياتهم التي تحولت لأماكن لاكتساب خبرة كتابة شهادات الوفاة، في أمنهم الذي صار مزحة، في فقرهم الذي صار واقعاً حميماً، في أبنائهم الذين صاروا مطاردين ما بين الجامعات أو التضييق على الرأي، فهل عساهم أن يروا القبح الحقيقي فيهدأ بالهم ولا يبالون؟

وماذا هناك أقبح مما أنت فيه؟ ماذا هنالك أقبح من "بيت الملاحدة"؟

لكن هل هذا ممكن؟ استولى عليَّ الخاطر اللحوح كثيراً. استمر ترددي على "بيت الملاحدة نمرة تسعة" أسابيع طوال. استمر "سعد" في مساعدتي، "غادة" في تجاهلها لي

ونظراتها الحانقة، أنت في استماعك لي بنصف أذن عن حكاياتي عن شباب الجامعة وكلام "عزمي"، سخريتك من "النخبة" الحالمة كما سميتهم، وحيرتي في الخطوة القادمة.

ثم جاءتني سيارة "جماعة الحق" يوماً ما من أيام أكتوبر 2025، فاصطحبوني إلي مكان جديد.

داخل الفيللا الأنيقة، جلست في صالون فاخر، أنظر إلى وجهه، ووجهها في ذهول.

أما هو، فهو هو، بسماجته وحراسه، ورذالة تعليقلته.

وأما هي، فكانت الحاجة "ندى"!!

* * *

كنت في غاية الغضب لرؤيتي "حسام" وهو يجلس قبالتي واضعاً يده أسفل ذقنه ويتأملني في تشفٍ كعادته. غضبي من أحوالكم المتدهورة في بيت الملاحدة، ومن نسيان الناس لكم، ومن حال الأمن في البلد، ومن قصص التنكيل المختلفة التي تصدرها اسمه دائماً، ومن جلوسه بجانب "ندى"، ومن ظفره بها. لكن هذا الشعور داخله شوش على صوته شعور آخر بدقات قلبي. ملهوفاً، داهشاً وخائفاً، جعلني أختلس النظر إليها فوجدتها في خمارها الفاخر جالسة وعيناها مصوبتان إلى الأرض. كانت قد امتلأت قليلاً، نفس الوجه المنير، نفس الأنف التي تحمر أرنبتها عند كل غضب أو كل فرح، وتحمر الآن فلا أدري لحمرتها تفسيراً. لكنها كانت لا تنظر إلي بعينيها اللتان لم تغبا عني لحظة. خطر ببالي لوهلة أنني لم أحس بأنني افتقدت

رؤيتها منذ زمن كما حدث لي مع الجميع، وابتسمت في قرارتي وأنا أطرح الأمر بمنطقي الذي يجنح لتفسير علمي كالعادة، فتساءلت عما إذا كان ممكناً أن حضورها القوي في ذهني لم يغب عني وقت الغيبوبة أيضاً، فلم يغب عني شعور ألفتها؟ أعلم أنه مستحيل، لكنني لا أعرف أيضاً كيف أفسر ما أنا عليه، ولا ما قد يكون أول ما نقوله لبعضنا. لكن "السمج" قاطع أفكاري وقال في بساطة: "اعذرني يا دكتور، فقد أخذناك اليوم من فرضك المسائي في بيت الملاحدة. الحاجة "ندى" أصرت على دعوتك لتناول الشاي معنا، وأنا لا أستطيع أن أرفض لها طلباً".

صوبت إليه نظرة سريعة ملؤها الدهشة واللوم، لكن زوال نظرة اللوم سريعاً، وتحولها للأرض فيما بيننا في لمح البصر أنبآني الكثير عن قسوته معها ورفضه لأي نقاش. شفعت بالدليل دليلاً آخر عندما خرج صوتها وكأنه يخرج من بين نفس الشفتين اللتين عشقتهما منذ عشرين عاماً فقالت: "أهلاً بك في منزلنا دائماً يا "مصطفى"، لعلك بخير؟".

قال في ثقة وكأنه يلقي خبراً عادياً: ""مصطفى" بيه زي الفل، خصوصاً أنه يساعدنا في مشروع استتابة الملاحدة. أترين كيف تعودين منهكة من كل زيارة لهم؟ هو أكثر ما كان يحتاجه هي الراحة، لكنه جاء من المطار ومن الغيبوبة إلي العمل مباشرة. حقيقي طول عمرك بطل.. خاصة وأنك لم تتردد في التصدي للأمر بدون أي مشاعر. تصوري إنه يزور إبنه؟ لأ ومش بس كده، حتى الآن لم يبح له بحقيقة أنه أباه بعد. وكمان

هو يؤدي خدمة جليلة لـ"غادة" بنت "أحمد" الله يرحمه، ماهي كمان منهم، وفي نفس البيت. لكن حقيقي المؤمن لا يعرف إلا بالشدائد".

لم يفتني نظرة الذعر على وجهها وهي تتمتم مذهولة باسم "غادة". نظرت له في دهشة وبدا عليها الغضب، لكنه بادلها بنظرة خاوية تحمل زجراً ما. فسكتت.

قام من مكانه فقمت، فصافحني وقال كلاماً عن موعد لديه، فعرفت أن موعد انصرافي قد حان. تركت المكان ونظرة "ندى" الذاهلة الزائغة تطاردني.. وعقلي يبحث عن الجملة المناسبة التي أذيل بها موقفاً كهذا.. حتى وجدتها..

"بضهر إيدك وعلى وشه عدل، انت لسه حتفكر"..

الله يرحمك يا أحمد..!!

* * *

لكنني بعدما هدأت.. كنت أعرف ماهي الخطوة التالية..

بعد ان أنهيت محاضرتي، دخل إلي "سعد" مبتسماً كعادته ليسألني هل يبدأ في إدخالكما إلي. لم ألقي بالاً إلي ملامحه المنهزمة ولا إلي انخفاض صوته الواضح في استسلام. سألته بلهجة حادة عمَّا يبلغه من أخباري. أدهشني أنه لم ينكر شيئاً وقال في استسلام أنه "حسام" الذي أخبره منذ البداية بطبيعة علاقتي بك يا "أدهم" وحذره من أن يبدو عليه أي شيء، ثم حاصره بأسئلته عني وعن كل شيء أفعله، فعلم أنني لم أصارحك بأبوتي لك بعد. فجأة صرفت نظر عن خطتي في

محاصرته بالأسئلة والضغط عليه، إذ قال في صدق أنه لم ولن يخبره بأي شيء آخر، لا عنايته الخاصة بالأولاد ولا مسألة الهاتف السري ولا أي من ذلك. بدأ في البكاء والنحيب وإبداء ندمه بشكل بدا لي مبالغاً فيه. وجدت نفسي أربت عليه وأسأله عما به. وسط نشيجه وتحت إلحاحي، قال بأنه "كمال"، ففهمت بأنه يقصد ولده، ذلك الصغير الذي يعمل عند "عماد". نفى أن يكون مريضاً، لكنه قال بأنه "ياريتها ماتت قبل اليوم ده". حاولت أن أفهم شيئاً، وأن أعرف من هي التي يقصد، فلم أفهم. جال بخاطري أن أسأله عن "هبة" زوجته، لكنه لم يرد أيضاً، وعلا نحيبه. خرج مسرعاً هارباً من حصار أسئلتي، وأنهيت مقابلاتي معكم يومها على عجل. بحثت عنه فلم أجده. عدت إلى منزلي، فبحثت في قلق عن "هبة" التي تركتها تنظف المنزل قبل نزولي. جاءني صوتها من الحمام وهي تخاطب طفلاً. خرجت من الحمام فاصفر وجهها وصكت صدرها لرؤيتي. تلعثمت وأنا أسألها عن الطفلة التي تلبس النقاب من خلفها وتمشي في خوف ملتصقة بذيل ثوبها، وعن آثار الدم من خلفها على ارض الحمام. بعد صمت انهارت وهي تلتقط يدي لتقبلها في أمل ورعب، وهي تخبرني بأغرب وآخر ما كنت أتوقعه.

* * *

قال "عماد" في لهجة العليم ببواطن الأمور: "هو أنا ماقولتلكش؟" وضحك على "الإيفيه" الذي بدا وكأنه يقاوم

الزمن. ثم تنحنح في إحراج إذ رأى نظرتي اللائمة وقال، طيب قول له انت يا "ماجد"..

تنحنح ماجد بدوره، واهتز وجهه السمين وهو يقول في توتر:" الموضوع كله بدأ بدستور الإناث، ثم توالت قوانين تفصل وتفسر مواده بعصا السمان السحرية، واختراعات "حسام" التي لا تنتهي..".

قال في تركيز وهو يعد على أصابعه: "بنت خالتي كانت من هؤلاء، ذهبت للجامعة ممتطية دراجتها، اعترضتها "جماعة الحق". كانوا سبعة سيدات يتشحن بالسواد في ملابسهن وقلوبهن. أنزلوها من على الدراجة وأوسعوها سباباً وضرباً. طبعاً لم نسكت، صعدنا الأمر من خلال حملات التوعية في المدن والقرى. كلها من مكتسبات شبكة الاتصالات على الأرض، بداها "أدهم" وغيره من حركة "مش عاوز إسلامكم" أثناء انشغالهم بمساعدة قضايا الناس الخاصة والعامة. الناس تعاطفت معنا جداً، لكنهم كالعادة لم يحركوا ساكناً. بدأت حملة الدعاة الدينية التي اشتهرت بتصريح معروف عن "خدش حياء" المجتمع، وصار الكلام عن "التفسير العصري لخدش الحياء"، سمعت قبل كده عن (الأشياء التي تقوم بها الأنثى لتجبره على النظر إلي محرمات الله)؟.. جملة شيك مش كده؟ دي كانت في خطاب رسمي لجماعة الحق بعد الموضوع ده، منها مثلاً إن البنت تكلم الراجل في الشغل، الكلام المثير ده إللي كله إيحاءات مريبة، صباح الخير مثلاً، ناولني الملف ده من عندك يا أستاذ فلان،

هات لنا كوباية شاي يا عم "سيد"، إلي آخر التلميحات الإباحية دي!!. والراجل من دول يفضل يخزي الشيطان ويقبض على دينه وحياؤه، فيقاوم ويقاوم يا عيني، ويحاول مايضعفشي يا قلبي، لكن في النهاية حياؤه – اسم الله عليه وعلى حياؤه – ينهار أمام سحر صوتها الفتان وهي تصبح عليه، أو نظراتها المعسولة من فوق كوباية الشاي. طيب والله العظيم أنا مش ببالغ، مالك مستغرب كده؟ أنا أقص عليك قصصاً سمعتها بنفسي، في مناقشات وخناقات وخطب في مساجد. ومن ناس كنت تظنهم محترمين ويتعاملون مع من حولهم كأنهم محترمين هم كمان، فإذا بك تفاجأ أنهم يتخيلوننا جميعاً نجلس في فيلم جنس كبير، وخيالهم يعمل طول الوقت في صنع مشاهد وتحليل كلام وخلق أحداث، والاسم تقوى وورع وحماية واتقاء وكلام أزرق كتير وكبير. المهم، حكومة "السمان" عقدت اتصالات مع طلبتها في اتحادات الطلاب، وهم بدورهم انتشروا في أروقة الجامعات. توالت عبارات التأييد من الطلبة الإسلاميين، بينما هاجمت أنا وبعض زملائي الحكومة بعنف. كان لابد وأن يحدث الصدام، وحدثت مناوشات بين طالبات إسلاميات وبعض من طالباتنا نحن."

أكمل عزمي في برود: "تستطيع أن تتخيل هذا الجزء طبعاً يا مصطفى؟ كي تخمن ماذا خرجنا به من هذا التصادم، فكر كالعادة في ماذا حدث حقيقة، ثم اقلب المنطق تحصل على المطلوب. بدأ الأمر حقيقة بمنصة الإسلاميات وتوعية في

صورة منشورات ضد السافرات اللاتي يلبسن ملابس خليعة، مع رسومات توضيحية وصور لطالبات بعينهن. اشتعل فناء جامعة القاهرة بالغضب وأحرق شباب الجامعة ومنهم "ماجد" وكثيرون ممن تضامنوا معهم مثلي ومثل "شاهي"، هذه المنشورات. هجم علينا طلبة "جماعة الحق" وممثلو اتحاد الطلبة، بالعصي والجنازير. يبدو لي أن الجنازير باتت تطاردني في كل مكان!!.

امتقع وجه "شاهي" بينما أشار "ماجد" لها إشارة فهمت منها أنه يشفق عليها من ذكرى ما، لكنها أوقفته بإشارة من يدها، وقالت في لهجة منكسرة: "لازم يعرف إللي حصل. في اليوم ده وبعد أن اعتدت علينا الطالبات بالضرب، استطعت تجميع الطالبات وعدد غير قليل من الناشطات اللواتي جئن سريعاً من كل حدب وصوب للتضامن معنا، فوقفنا متراصات بجانب سور الجامعة. رفعنا لافتات تندد بالتشهير بزميلاتنا وأخواتنا في منشورات رسمية. هل تستطيع أن تتخيل؟ كل ما فعلناه أننا قلنا: إزاي ترضى تطبع اسم وصورة أخت لك في ورق وتكتب تحتها أنها متبرجة وأنها مارقة وأنها صنيعة إبليس؟ خللي بالك، نحن لم ندعم حرية العري ولا حرية اللبس الخليع، أساساً هن لبسهن كان عادياً جداً، بل إن بعضهن كن محجبات كمان، بس حجاب (الكاسيات العاريات)!! يعني باختصار مش لابسة خمار ولا نقاب. على فكرة، "ندى" أخت "أحمد هريدي" الله يرحمه كانت معانا. ده طبعاً قبل زواجها من

سي "حسام المنزلاوي"، الذي لا أفهم حتى الآن كيف ولماذا حدث. لم تغب عن لقاءاتنا مع الشباب، وكانت عضوة معنا في جمعيات كثيرة لحقوق الإنسان وتوعية الناس بحقوقهم. المهم، كنا نقف أنا وهي كتفاً بكتف، نهتف معاً وتردد وراءنا الشابات، ضد التشهير وضد الظلم. فوجئنا بشباب هجم علينا في دقائق، طوقونا وبدأوا يقتربوا مننا. وجوه أول مرة نراها، لهجاتهم ريفية، يغلقون أزرار القمصان حتى أعلى زرار، رغم أننا كنا في "مايو"، حاولوا لمسنا، البعض كان يشتبك مع البنت فيشدها من ملابسها، وقعت فتاة ثم تلتها أخرى، مزقوا لوحاتنا، اندفع الشباب من "شباب الجامعة" لإنقاذنا، لكن أعداد المهاجمين وتنظيمهم كانا غالبان، فحالوا بيننا وبينهم. أنا كان لي نصيب وافر من المضايقات. نظر أحدهم في وجهي وتعرف عليّ، وصرخ مشيراً عليّ لبقية زملائه: المسيحية بتاعة الحجاب أهي. أمسكوني كيفما اتفق، أنفاس حارة ثقيلة وروائح عطنة ووجوه كئيبة، أوقعوني أرضاً وأياديهم تعبث بي في جنون، وأنا أقاومهم وأصرخ، على الأرض حيث الأحذية هي منتهى أفقي، رأيت زميلات يسحلن على الأرض، وتشدهن أذرع معروقة من شعورهن، ويتم البصق عليهن، ثم شعرت بيد تشدني. كان "عزمي" و"ندى" بمعاونة شباب الألتراس الذين انضموا إلي شباب الجامعة. هذه هي الحادثة التي صورت فيما بعد على أننا (شابات الجامعة وبعض "القبطيات" – يقصدونني أنا طبعاً – اللواتي آثرن تطبيق مقاومة سلبية بخلع ملابسهن احتجاجاً).

طيب تتصور انت واحدة محترمة ولا حتى غير محترمة، تقف تحتج على إهانة زميلاتها، قوم إيه؟ تيجي المحتجة دي في وسط حرم الجامعة، وإيه؟: عند السور، بحيث إللي رايح وإللي جاي في الشارع يتفرج، وتقوم "هووب"، تخلع ملابسها؟ ماحدش جاب سيرة المتحرشين دول وشهاداتنا كلها لم يؤخذ بها، وكانت هناك شهادات ضدنا بالطبع، مع صورتي منورة كل الصحف وأنا هدومي متقطعة، والكلام إللي بقوللك عليه ده تحت الصورة. بعدها قفلولي الصفحة إللي كنت بكتب فيها، وبقيت باكتب على مدونتي على الانترنت بالعافية، وبقيت مشهورة في الشارع بتاعي قوي. يا راجل دا البواب ماكانشي يعرفني، وكان دايماً يقول لي يا ست "شاهين"، مش "شاهي"، دلوقتي بقى حافظني. أول كام يوم كان بيقف لما أدخل عليه، لحد ما اتنرفزت عليه مرة وقلت له انت بتقف ليه لما أدخل؟ ما تعاملني زي بقية سكان العمارة؟ كنت منهارة بعد إللي حصل. انت عارف إني ساكنة قريب من الميدان، الراجل قال لي "يا بنتي، أنا عارف إن إللي حصل لك ظلم. الجماعة دول أنا عارفهم، وأيام المظاهرات بعد "هوجة يناير"، ياما كنت بقفل العمارة دي من جوه بسلاسل حديد، وياما علقت جلاليب الولية على المسمار الخشب إللي على طرقة السلم، أداري بيها البنات ولا الجورنالجية إللي بيتضربوا في المظاهرات. أنتوا إيه إللي بينزلكو الحاجات دي بس؟ الناس دي مش ناس يا بنتي، دول يا إما مايعرفوش نعمة البنت المتنورة المفتحة، يا إما خايفين منها لا تاكلهم في الكلام

وكل واحد فيهم عامل دكر يتفقس ووشه يبان، بس بقول لك إيه، القصد، ما تبعدوا عنهم؟ دي ناس نابها أزرق يا بنتي، ومش حيسيبولنا غير الحيط نمشي جنبه". تصدق يا مصطفى؟ أنا عمري ما عيطت في حياتي قد اليوم ده؟ طيب ده أنا ماعيطتش لما ضربوني ، ولا لما قطعوا هدومي، ولا في تحقيقات النيابة، ولا حتى لما الجرنان رفدني. لكن لما عم "أيوب" قال لي الكلمتين دول انهرت من العياط، لحد ما الست مراته ما خرجت على صوتي وهي مخضوضة على الآخر وقعدت تطبطب عليَّ. تصدق إنه كلامه صح؟ المشكلة مش فينا، المشكلة إنهم بييجوا على أضعف ما في الناس، فيتهيألك إنهم مايقدروش على الجامد، القوي، لكن الغريبة إن ده بيدي رسالة للجامد، إن المعتدي ده قلبه مات. نابه أزرق زي ما بيقول عم "أيوب". ساعتها خفت على بكره، ولسه خايفة لأنه لسه الأسوأ ماجاش".

تنهد "عزمي" وتابع ليخرجنا من الجو: "بعد الاعتداء على "شاهي" وزميلاتها، تدخل أمن الجامعة وأرسل "أكرم" بفرقة كاملة من الجنود، أحاطت بأسوار الجامعة وقبضوا على الطالبات وكنا معهم. بعد ذلك بدأت القوانين تصدر بالتوالي.."

قال "عماد" في حماس: "تعال لي أنا.. أحفظ هذا التسلسل جيداً وأعرف خباياه. اجتمع "السمان" مع الحكومة وقرر اتخاذ موقف حاسم، لكنه كان يحتاج إلى غطاء شرعي وأعذار لخداع الجماهير وإلهائها بوجاهتها. كانت القنوات والدعاة في المساجد

قد ركزوا على التحرش الذي تجلبه الفتيات على أنفسهن بملابسهن الخليعة، واستشهدوا بصور "شاهي" ومصادمات الجامعة. انهال الكل تقريعاً على الألتراس والطالبات واتهموهم بالمجون والزندقة إلى آخر ذلك مما نحفظه من هذا القاموس. لكن الأمر لم يمنع الناس من التعجب من المنطق، مع انتشار صور بعض الذين قبض عليهم "أكرم" من المتحرشين، ذراً في العيون، ولم يلبث أن أفرج عنهم لشيوع الاتهام، فثارت ثائرة الشارع، خاصة بعد نشر قصص بعض الفتيات عن وحشية الهجوم. في وسط ذلك كله، تفتق ذهن "حسام" عن فكرة عظيمة. كان هذا هو قانون منع الطالبات من الاستمرار في الدراسة إذا ما رسبت عاماً أو رسبت في أي مادة من المواد. مسودة القانون استندت للدستور الذي أعلن من قبل "كراهة عمل المرأة"، وساعتها حذر "شباب الجامعة" منه، ودعا الجميع للقتال من أجل منعه، لكن لم يلتفت أحد لهم، وظل الليبراليون يتناقشون عن قيود الحرية أو إطلاقها وتأثير العمل على الفكر وعلاقته بهما. قال "السمان" في خطبة العيد التالي – وتلك الفقرة كتبها له "حسام" بنفسه - أن جامعاتنا محدودة الموارد، وأننا بلد يود لو ينتشر التعليم كالماء والهواء، لكننا لا نتحمل تعليم من لا يتحمل مسئولية نفسه، أو من يتسبب في إثارة الفتنة بسلوكه أو مظهره، وأن هذا القانون يحمي موارد الأسرة البسيطة في استهلاكها فيما لا يفيد من تعليم البنت التي هي عماد الأسرة المسلمة، وقوام المجتمع السليم، ويريحها من

فشل مسعاها فيما يؤخرها عن أداء دورها في الزواج وإنجاب رجال الغد. من المذهل أن هذا الخطاب قد لاقى قبولاً من الناس. نفس نظرية عم "أيوب" يا "شاهي"، متزعليش مني أنا عارف إنه راجل جدع. بس هو رأى أن الحل "انتو إيه إللي بينزلكم"، وهو حل "ترييح الدماغ" المعتاد، نفس الحل الذي ألقاه "حسام" في مهارة للسمان فتلقفه الناس في ارتياح، وكأن هذا هو الحل، لا تجعلوا البنات تنزل أساساً من البيت، و"قصوهم" بدري بدري"

قلت في ذهول: "طيب، والطلاب الأولاد؟ هل تم أيضاً منعهم من الاستمرار في حال الرسوب؟ وغير المسلمين؟ يعني الناس دي مش حيعملوا دور في "إنجاب رجال الغد"؟ أخبارهم إيه؟"

* * *

ضحكت "شاهي" وقالت في مرارة: "الولاد؟ وهم دول دورهم الإنجاب برضه؟ هو صحيح (لا علم إلا القرآن، ولا معرفة إلا الدين)، على رأي "محمود السمان"، رئيسنا وحبيبنا كلنا، لكن يمنع الأولاد ليه؟ هم ضايقوه في حاجة؟ هي البنت إللي واقفة لهم زي اللقمة في الزور. أما غير المسلمين يا حاج "مصطفى".. ولا بلاش أحسن!! الناس الكفرة زي حالاتي إللي بتجيب سيرتهم دول، مالنا ومالهم بس؟ حقول لك بعدين، أساساً لم يعد الأقباط ولا غيرهم من الكفرة زي ما بيسموهم من تحت لتحت وفي المساجد، لم يعد أي منهم يسبب مشكلة، إللي هاجر هاجر، وإللي فضل مستني، ساكت، وعندي إحساس إنه زهق.

مفيش كتير مثلي: كل يوم والتاني في القسم ولا ممسوكة من أمن "السمان" و"جماعة الحق". أنا كمان "واجهة" مهمة، بيقولو للدنيا كلها إنهم بيسمحوا بحرية الرأي. أهي: مسيحية وبنت كلب آه، لكن إحنا سايبينها تقول إللي هي عايزاه، على النت بقى ولا في الجرنان ولا ندوة في جامعة ولا على هامش مسرحية، ولا في بير السلم حتى، هو صحيح مايمنعشي اعتقال على كام قلم ولا بهدلة، لكن بتتكلم ولا مش بتتكلم؟ بتشتمنا وبتهاجمنا في كل حتة ولا لأ ؟ حد ليه شوق في حاجة تاني؟"

تنحنح "ماجد" كأنه يذكرنا بأنه كان يحكي القصة منذ البداية وواصل وهو يعد على أصابعه كعادته: "كانت سلسلة من الأحداث أدى بعضها لبعض: كراهة عمل المرأة أدى لصدور قانون استبعاد الطالبات من التعليم بعد رسوبهن في أي سنة دراسية، ثم في أي امتحان، ثم إعفاء السيدات من "ملاحظة الصلاة" وتهمة "فوات الصلاة في المسجد" لأن صلاتها في بيتها أوجب، طبعاً كل ذلك كان سلسالاً واحداً: "وقرن في بيوتكن"، سمعناها كل يوم ولا 100 مرة. تلا ذلك إعفاء النساء أيضاً من الالتزام بالذهاب والحضور في المصالح الحكومية، لكنهم خشوا من قطع المرتبات اتقاء لغضبة الأسر الفقيرة وهن كثير، ثم بدأت قوانين "الكفاءة المهنية" في الظهور.."

قلت في عجب: "الكفاءة المهنية؟ يبدو لي أمراً إصلاحياً. أليس هذا ما كنا ننادي به منذ زمن؟ الأكفأ والأصلح وكده؟"

قالت "شاهي" في سخرية: "إصلاحي جداً!! القانون نص على عدم تعيين أنثى في أي وظيفة، إلا عندما تتفوق على نظيرها الرجل في المؤهل العلمي والشهادات والكفاءة. واخد بالك من حتة "الكفاءة" دي؟، الأمر صار إجبارياً في القطاع العام، وفي القطاع الخاص ترك حراً في الظاهر، لكن من تحت لتحت، أمورك كلها تمشي أو تقف حسب ما "جماعة الحق" راضيين عنك أو لأ"

قلت مكملاً بصوت عالٍ كأنني فهمت: "يعني عندما تحدث المعجزة وتظهر فتاة لم ترسب في أي عام دراسي ولا اي امتحان، وترقت وحصلت على أعلى شهادات ومؤهلات وسط هذه الحرب، ببساطة تطلع مش "كفء"!!"

تابع "ماجد" في سلاسة وهو يلتقط مني الخيط: "بالضبط!! هم بالشكل ده قفلوا أي شغل مستقبلي لأي بنت في أي حتة، لأن التعيينات كان يتم مراجعتها فنياً من إدارة الداخلية وأمن الطواريء وكل ما يتبع "السمان"، وإللي مش حكومة حيمشي هو كمان جنب الحيط. خلصوا من المستقبل، وبدأوا يتعاملوا مع الواقع ببناته الكتير ونسائه العاملات البعيدات عن أيديهن. كله تبع "الكراهة" يا دكتور، انت مش واخد بالك ولا إيه؟ ظهرت بالتزامن مع تلك الاعتراضات نغمة الإحصائيات الجديدة. فجأة بدأ خطباء المساجد يتحدثون عن نسبة البنات اللواتي يتم رسوبهن في الجامعة، وعن ارتفاعها لأن النساء "ناقصات عقل ودين". طبعاً لم يتحدث أحد عن التعنت الذي تم

اتباعه في الجامعات والرسوب بالآلاف الذي حدث. بنت خالتي كانت طبعاً من أول الضحايا. كانت في تالتة "إعلام" وقت موضوع الدراجة، اقترب منها أحد أعضاء "جماعة الحق" وهي في طريقها للمنزل وحاول التحدث إليها بسماجة وإقناعها بالحجاب وترك الدراسة والزواج. (أعتقد انك تعلمت من الدرس الذي لقنته إياك "الأخوات الفضليات"، البيت هو مكان أمثالك من السافرات، ولعل الله يرزقك بأخ صالح يهديك الله على يديه للإسلام). قالها في ثقة وهو يسير بجانبها، لكنها صمتت وسارت في طريقها غير مبالية، فقال لها أنه ينصحها حتى الآن بالحسنى، وأنه عن قريب سيرسل لها من يؤدبها مرة أخرى إذا لم تترك الدراسة بنفسها وتتزوج وتلتزم بما قال. تلك حادثة عادية جداً على فكرة، وتكررت كثيراً مع أخريات. عندما بدأ يعدل من نغمة الزجر والنهر، بدأ يمتدح جمالها ويقول عن نفسه أنه ليس بهذا السوء وانه لا يرى مبرراً لماذا لا ترد عليه. نظرت له باحتقار وأكملت سيرها على أمل أن يمل ويتركها لحالها، لكنه سألها "هل لو كنت واحداً من هؤلاء الزنادقة الذين يتشدقون بالحرية والكلام الفارغ، كنت رديتي عليا؟ ماذا يفعلون ولا أستطيع مثله؟ أم أنكم لا تعرفن إلا لغة العيون والتسبيل والانحلال؟" قالها بصفاقة وهو يتلمز ويأكلها بعينيه، فنهرته وسبته، لكنه حاول التعدي عليها بالضرب. صرخت فخف الناس لنجدتها فهرب، لكن في اليوم التالي جاءتها من تهمس لها من طالبات الجماعة بأنها يجب أن تصرف نظر عن امتحانات هذا

العام، توفيراً لوقتها. بعد رسوبها، أصيبت باكتئاب حاد، وتمزق منزل خالتي ومنزلنا بين الأطباء والمصحات. لم نستطع إثبات شيء على أستاذ المادة الملتحي ذو النظرات الغاضبة، وتم فصلها وقد كانت من أوائل البنات ومن أنشطهن في الأسر الجامعية. لكن مشكلتنا كانت جزءاً من كل، وواحدة من مثيلات كثيرة".

غمز "عزمي" بعينه ناحيتي وقال مفتعلاً الجدية: "طبعاً نبوءة الأخ الفاضل بتاع "جماعة الحق" تحققت، ربنا رزق بنت خالة "ماجد" بواحد ابن حلال حيهديها للإسلام. مش تبارك للبيه؟ اتخطبوا الأسبوع إللي فات، وأول حاجة طلبها منها إنها تقعد في البيت وتروح وتيجي من المطبخ بنفس العجلة، وإلا حيجيبلها "جوز" من الأخوات الفاضلات يدوها درس تاني!!"

ضحكنا مرغمين على مزحته، بينما ابتسم"ماجد" قائلاً أنها سوف تكتب مقالات بانتظام في صحيفة ليبرالية تصدر في بلد عربي بدءاً من الشهر القادم، وأكد على أنه يشجعها على النزول للعمل في القريب، لكنه ينتظر ريثما يجد لها عملاً كمحررة أخبار في صحيفة يعمل بها قريب له كصحفي حر.

بعد هنيهة، تابع "عماد" في ثقة: "كل ذلك كان يتزامن في دقة مع مسألة "ناقصات العقل والدين". كان الناس يتم إقناعهم بأن تعليم البنات غير ضروري، بينما انهمك الليبراليون في الدفاع عمَّن فُصِلن دون ذنب ولم ينتبهوا للخطوة التالية. بين يوم وليلة أعلنت الأغلبية الأسلامية في مجلس الشعب تطبيق

القوانين نفسها على طالبات المدارس وامتدحت الصحف القرار لأنه سوف يخفض أعداد الطلبة ويؤدي لارتفاع مستوى التدريس لأعداد أقل!!. بدأت أكبر حملة فصل طالبات في تاريخ البشرية. أصاب هذا الأمر الكثيرات من طالبات المدن، وبدأت سفريات الأغنياء خارج مصر حرصاً على تعليم بناتهن. القرى لم تتأثر كثيراً، ومن تم فصلهن من التعليم لاقين الكثير من المساعدات المالية لأهاليهن في البداية تحت شعار "سترة البنات". كان "حسام" وعدد من قيادات الجماعة قد خططن لهذا الأمر منذ زمن، ولم ينتبه الناس إلا وقد انخفض سن الزواج في القرى لأول مرة بشكل شرعي، وقد انتشر "ملاحظو الزواج" وصار المأذون في القرى غالباً من "جماعة الحق"، فلم يعد قانون الحد الأدنى لزواج أي بنت يمثل مشكلة. خذ عندك طبعاً الكلام الكبير بتاع إن "السيدة عائشة" تزوجت عند سن التاسعة، وأنَّ من حق البنات أن يقمن بتكوين أسرة مادمن يرغبن بذلك، وأن هذا حقهن الطبيعي وما إلى ذلك"..

* * *

عندما ظهر على "هبة" هذا الانزعاج لدى رؤيتها لي، أحسست فوراً أن في الأمر شيء غير طبيعي.

حاولت التهرب من أسئلتي لكنني كنت قلقاً ومتوتراً وظننت أنها تخفي أمراً صحياً ما جعل "سعد" يقول قولته المخيفة "ياريتها ماتت". جفلت جزعاً عندما أعدت عليها جملته، قالت أنها بخير لكنها صمتت عندما سألتها عن سبب نحيب وبكاء

"سعد" إذاً؟. قالت أن ابنتها أيضاً بخير لكنها مضطرة للرحيل الآن. سألتها عن الدم على أرضية الحمام والذي لمحته من خلفها فقالت أنها سوف تزيله الآن. نظرت إلي ابنتها التي لا يظهر من وجهها شيء وسألتها عن اسمها فلم أحظ بجواب. نظرت لـ"هبة" فوجدتها ترتجف، ثم انهارت ونزلت على ركبتيها تصرخ وتولول وتستعطفني أن أداري عليهم ولا أتكلم مع أحد وأسمح لهما بالرحيل على ألا أسمع عنهما أبداً. تعلقت طفلتها بذيل ثوبها فخطر لي خاطر مزعج. نزعت النقاب عن الطفلة ذات الطول والجسم اللذين بدا لي معروفين، بحركة حادة من يدي، فظهر الرأس الأصلع والعينين الواسعتين لـ"كمال"!!

تراجعت مصعوقاً بينما "هبة" تولول وتلطم خديها في إخلاص. فقدت القدرة على التفكير فجأة، لكنني تذكرت مشاهد متفرقة..

"كمال" وهو ينظر إلي مبتسماً من المطبخ في بيت "عماد" ويبدو عليه السعادة بما أقول دفاعاً عنه..

"عماد" وهو يبدو عليه التوتر وهو يقول أن "كمال" لا يسمع، ونظرات القلق التي تبادلها مع "عزمي"..

واصلت "هبة" كلامها المنتحب دون استيعاب مني لسبب ذلك. قالت أنهم مضطرون إلي الهروب من القاهرة الآن، وفوراً، بعد افتضاح أمرهم، وأن "سعد" نصحها بأن تقوم بتوصيل "كمال" إلي أحد أقربائهم في "بنها" الآن. ألقت بقنبلتها التي

تركتني ذاهلاً حتى لجأت إلي "عماد" و"عزمي" لأفهم منهما ماذا يحدث، فدعياني لهذه الجلسة مع "ماجد" والآخرين..

قالت بأنها جاءت اليوم وفي نيتها النزول بـ"كمال" فور خروجي لموعدي في بيت الملاحدة، لكن عودتي مبكراً، ونزول دورة "كمال" الشهرية أفسدا الأمر..

دورة "كمال" الشهرية؟

الدورة الشهرية؟؟

هل قالت ذلك فعلاً؟؟؟

* * *

قال "عماد" في أسف: "معلش يا دكتور. من ناحية أنت كنت متوتر ومتلخبط بعد الغيبوبة، ومن ناحية تانية أنا كنت وعدت "سعد" إني أحفظ سره، وكنت أجنب البنت الحديث أمام الغرباء، بادعائي الدائم أنها ولد صغير لا يستطيع الكلام. كمان لم أجد داعياً لإخبارك بصراحة. كثيرون من المقتدرين يتحملون هذه الأمانات خصوصاً في القاهرة. لما بدأت جماعة الحق في إعطاء أموال "سترة البنات"، والتي بدت أموالاً لا تنتهي، كانت الاستجابة في القرى بشكل خاص مرتفعة. بدأت حملات تزويج البنات الصغيرات بعد الابتدائية أو حتى بعد أول تلات أربع سنين تعليم. بمرور الوقت، بدأت الأسر تلاحظ انقطاع المال بعد تزويج البنات مباشرة، بعس ما تم وعدهم به، وبدأت حالات الطلاق تتزايد. كثيرات عدن للبيت الذي تركنه أطفالاً، يحملن طفلاً آخر على أكتافهن. طبعاً كانت قيادات "جماعة الحق" في القرى لا

تتوسط للصلح أبداً، وكل ما كن يرددنه هو (الست مالهاش إلا بيت جوزها وإلا تبقى ناشز). تخيل أنت طفلة عندها 12 سنة، مطلوب ترضع طفلة عندها شهرين وكمان مطلوبة في بيت الطاعة لشيخ عنده خمسين سنة؟ بدأت المحاكم والقضايا وبدأت المآسي تغير من رد فعل الأسر. الفقر شديد هذا صحيح، لكن كان لا يزال هناك الكثيرون ممن لن يزوجوا بناتهم لمجرد الحصول على أموال، على الأقل لم يعد هؤلاء متحمسون لزواج لأطفال بعد ما رأوه. هنا بدأت "جماعة الحق" حملات التزويج بالقرى. تظهر سيارات الجماعة وبها الأخوات السود، يطفن بالقرية بيتاً بيتاً، يوزعن الأموال والمنح بسخاء مهول، ويزوجن البنات الصغيرات لشيوخ وكهول، عرب ومصريين، أجانب وغير أجانب. البعض كان يضعف، والبعض طردهن من بيته، لكن البعض تهور ولم يتمالك أعصابه واعتدي عليهن بالضرب. كانت هذه هي انتفاضة قرية من مراكز "الصعيد"، عندما تم ضرب وسحل إحدي الأخوات بواسطة نسوة القرية، لكن الرد العنيف جاء من "السمان" بعدها بأيام قليلة. توجهت فرقة خاصة لمكافحة الشغب ونزل على رأسها أحد مساعدي "أكرم" المعروفين، قبضوا على الرجال فقط، وألقوهم بالمعتقل. هناك مقاطع شهيرة جداً لهذا اليوم الأسود، انتشرت في كل مكان وتصور لك عملية إحراق البيوت على سكانها وسحل الرجال وولولة النساء. جاءت الحملة بأثرها، لكن جماعة الحق طورت أسلوبها وبدأت في تزويج بنات هذه القرية بالعافية.

خرجت مظاهرات مسلحة في قرى مجاورة للاعتداء على نقطة الشرطة، لكن تم سحقها بقوات الشعب في عنف لا مثيل له. لكن الناس هدأت قليلاً ثم بدات حملات "خبي بناتك"."

تابع "عزمي" في حماس: "هذه الحملات التي حملت اسم "خبي بناتك" والتي قام بها شباب الجامعة على فكرة لاقت نجاحاً بشكل عفوي. بدأ الكثير من الأسر يستجيب للحملة التي كانت تقضي بأن يتم تسجيل كل المواليد الإناث على أنهم ذكور، قرى بأكملها فعلت ذلك. تأتي عربات جماعة الحق لتبحث عن البنات فتخبيء الأسرة بناتها اللواتي يصلحن لزواج الأطفال هذا، أو يهربنهن إلى بيت قريب أو صديق، وتتحسب للمستقبل فتسجل المولودات بجنس الآخر. لكن كانت الأخوات السود اللواتي يسكن في قرية ما ويعرفن بيوتها وقاطنيها بالاسم، يقتحمن البيوت تحت حراسة الشرطة، الموتورة من الناس الذين كسروها وهاجموها طوال السنوات السابقة في أكثر من موقع وغير مناسبة، فيسألن عن الأطفال الموجودين، ويقمن بشحنهن للزواج ويلقين بمظروف فيه معونة الزواج للأهل المفزوعين!! تخيل أنت ابنتك تأتي من تسأل عنها بالاسم، وتختطفها من بيتك لبيت رجل غريب!! صارت مسألة إخفاء البنات أو تهريبهن مسألة غير مضمونة، فالتي تهرب في القرى تفقد سمعتها للأبد، ثم أن هروبها "مفقوس"، يعني أكيد عارفين هي حتروح لفين أو لمين، لبيت عمها ولا خالها. مرت سنوات والأمر كذلك، لكن لكل شيطان، شيطان أقوى وأخبث. بدأ

الأطباء الموالون لـ"جماعة الحق" في المستشفيات يصدرون إحصائيات دقيقة عن المواليد الإناث على مدى سنوات سابقة وفي كل منطقة ومدينة، فتأكد لدى الجميع أن في الأمر خدعة. هنا تفتق ذهن الجماعة عن فكرة "فحص النوع" الجهنمية".

تابعت "شاهي": "في البدء كان "فحص النوع" يتم عشوائياً، في أي مكان وفي أي وقت، ثم زاد الأمر شراسة وانتشر. صارت مسألة تزويج البنات المبكر سوقاً رائجة لها مريدون وزبائن ووسطاء وعمولات، وكان فناؤها بهذا الشكل يضر بمصالح كبيرة وشبكة واسعة مصممة على الدفاع عن بقائها بأي ثمن. بدأ الناس أولاً بإطلاق أسماء الذكور وحلق شعور بناتهن. تأتي الأخوات السود ويرحلن ولا يقعن في أيديهن، لكن حتى هذا لم يجدي لزمن طويل. بدأ أمر "فحص النوع". أسر كثيرة عانت من هذا الأمر، وأطفال كثيرون تشوهت نفسيتهم، والله أعلم بما خلفه هذا في صدورهن، لكن الأدهى أن التفاوض كان ممكناً.. وياله من تفاوض عجيب!!"

* * *

قالت "هبة" بوجه دامع: """سعد" كان يعرف الأستاذ "عماد" من زمان. لما "كمال" اتولدت، خبينا إنها بنت طبعاً. أبوها خاف عليها من إللي بيجوزوهم بالفلوس بالعافية. سميناها "كمال" وماقلناش لحد على الحقيقة، حتى أمه كانت فاكراها ولد. لبستها لبس إخواتها الصبيان، ودخلت مدارس عادي والأمور كانت مستورة. لكن موضوع الحملات ده كان

بيقلقنا. في يوم، أبوها قرر إنه ينزلها "مصر"، لما أخوه خدو بنته من قدام عينه ورمولو 500 جنيه. الست اللي لابسة أسود زعقت في مراته وقالت لها لو تحبي مانكشفش علي عيالك واحد واحد ونعري كل واحد أدام إخواته، سلميينا بنتك بالذوق، إحنا عارفين إن عندك بنت. مرات أخوه عيطت ولطمت ولافيش فايدة. الست الي لابسة أسود دي من البلد عندنا وكانت بتخبز عند أول الشارع وكانت غلبانة وياما "سعد" إداها فلوس لما كان بينزل البلد، لكن تقول إيه في الافترا؟. بعد الحال لما وقف رجعنا البلد واتجوزنا، بس لما الناس اتجننت والجماعة إللي بدقون مابتدوا يعملو عمايلهم دي، وبعد إللي حصل لبنت أخوه، "سعد" قال إن بقى مافيش أمان. كان لسه لاضم في شغلانة "أمين بيت الملاحدة" دي قريب، قاللي نسيب البلد وننزل "مصر"، ونخبي "كمال" عند "عماد" بيه، أهو منه نسترزق ومنه بنتنا تبقى تحت عينينا. إمبارح بس زاره أخوه، وقال له إن الستات اللي لابسين أسود مروا عليه، وقالوله إنهم عرفوا مكان "كمال" وإن عريسها مستعجل عليها، وإذا ماكناش حنوديهالهم بكره، حيموتوها لأننا عاوزين نفقد أملها، ومنزلينها مصر علشان تطلع صايعة، تعاشر ده وتنام مع ده، وتمشي على حل شعرها!!"

نظرت لوجه "كمال" المذعور بعينيها الواسعتين وهي تتابع أمها وتبكي على بكائها، هالني وجهها الجاد الذي يبدو الآن بأكبر من سنها. أخذت أفكر، هل تفهم هذه الطفلة أساساً

ماذا نقول؟ تضاعف ذهولي إذ تذكرت فجأة عندما احتلت صلعة "كمال" مجال نظري للحظة، البواب، وارتباكه عندما سألته عن ابنه الصغير الأصلع!!

أفقت من شرودي على "هبة" وهي تسألني: "هو يا بيه صحيح إحنا كده بناخد ذنب لما مابنجوزهاش بدري؟ طيب وإيه إللي يضرهم لو استنينا عليها شوية بس؟ طيب هي لسه مش فاهمة يعني إيه جواز، ولا تعرفش تقوم ببيت وراجل وعيال، والعرسان إللي بيشتروهم دول، مزاجهم مش جاي غير على البنات الصغيرة ليه؟ هو ربنا يرضيه إللي بيحصل ده يا بيه؟"

* * *

قلت لـ"عزمي" أنني أريد أن أشتم هواء نقياً. أشفق على منظري فخرجنا مع "شاهي" إلي مطعم قريب لتناول الغذاء. كنت في حال سيئة جداً بعد ما سمعت. قلت لهما أنني منذ يوم أن عدت إلى الحياة وأنا استمع لأخبار سيئة، ولا ارى إلا غماً. دارت ببالي مشاهد عديدة. ابن البواب، "كمال"، "غادة" وهي تسب وتلعن في "مصر" التي لا تحس بهم، أنت يا "أدهم" وأنت تكظم غيظك فيظهر في احمرار وجهك وأنت تستمع لكلامي المتعقل أكثر من اللازم. ضاق صدري بشدة إذ جاء النادل الأصلع يحمل زجاجات المياه ويضعها أمامنا. تأملته في إشفاق، وهالتني سنه التي لا تتجاوز الإثني عشر عاماً، فخفض بصره إذ التقت عينانا وتشاغل بلملمة بقايا الطعام من أمامنا وتنظيف المنضدة، ففهمت أنه منهن هو أيضاً. سكتت "شاهي"

وقد أيقنت ما فهمته وقالت في تعاطف شيئاً بمعنى أن أتحكم في انفعالي.

اتصل بي "سعد" يشكرني على إصراري على استضافة "كمال" لدي في منزلي. كنت قد منعت "هبة" من النزول بها. قلت لها أنني بحكم صلتي بمشروع الملاحدة، فإن منزلي آمن بالتأكيد اكثر من أقاربهم الذين قرروا إخفاء "كمال" لديهم. طمأنتها فحاولت تقبيل يدي مرة أخرى، وانهالت دعواتها وامتنانها في صورة كلمات. كان المنزل كبيراً فلم تكن هناك مشكلة إطلاقاً في بقاء "كمال" لدي، وكنت لا أعود غالباً إلا للنوم، فسمحت لـ"هبة" بالبقاء في المنزل طول اليوم، والمبيت غذا أرادت، لكنها رفضت وقالت أنه يكفيهم هذا الجميا الذي لن ينسونه، وأنها "مسافة الليل" وتعود لنا في الصباح لتعنى يومياً بالمنزل. أنكرت شكر "سعد" لي، وطمأنته بكلمات حاولت ملؤها بثقة غابت عني، وهدوء فارقني بعد ما هزني ما سمعت. تناولنا الطعام في صمت غلفه الحزن والإحراج من جانبهما. كان "عزمي" يعلق أنني لابد وأن ألقي باللوم عليهم الآن، وعاد ليؤكد أنهم لم يكن بيدهم شيء يفعلوه، فقد كان الناس لا يمانعون فيما يحدث، وكان صراعهم بداخلهم بين رغبتهم في رفض القهر، وبين حيرتهم في طاعة الدين واحاً، لكن "جماعة الحق" حسمته ببراعة. ظلت خطوة تسلم الأخرى حتى وصلنا إلى هذا الوضع المزري. قالت "شاهي" أن الغريب حقاً أنك تحس أن الناس ربما لا يمانعون كثيراً فيما يحدث. عندما قالت

في ثقة أن هذه هي المشكلة، فقدت أعصابي فلم أعد أحتمل. قلت لهما أن البلد "راحت في داهية"، وأن النتيجة أن حتى حبس "أدهم" و"غادة" صار أمراً طبيعياً، مجرد حادث عارض لا يلقى سوى التندر والحوقلة وكفى، وأن تنصلهما مما يحدث لا يقنع أحداً. سالت "شاهي" ماذا تفعل هي في مصر بعد كل ما حدث لها؟ هل تستعذب البكاء على أكتافنا من الظلم الذي حدث لها؟ "عيطي يا "شاهي" كمان، قولي أنا مسيحية ومظلومة، وخللي "ماجد" والشباب إللي معاه يصقفولك ويقولولك: يا حرااام!! هو دا إللي رجعتي "مصر" علشانه؟ دراسة إيه وتعليم إيه إللي اتعلمتيه؟ ولا طول ما الموضوع بعيد عنك "أوكيه"؟ مش انتي واجهة كويسة ومحدش بيقرب لك؟ أكيد بتكوني مبسوطة جداً كل ما يتقبض عليكي علشان كده بتحسي إنه دورك بيكتمل وبتعملي إللي عليكي، مش كده؟ تفرقي إيه عن إللي بيعملوه هم؟ وانت يا "عزمي" بيه؟ كلام؟ كلام.. كلام.. وبس؟ زمان كنت بتنبسط قوي وتفرح لما تضرب "أعداء الله" بالجنزير. كان هو ده "الجهاد" في نظرك، جهاد سهل وثواب كبير. هو ده كان دورك، لكن لا المجتمع انصلح، ولا أعداء الله اختفوا، ولا أنت فهمت حاجة. ودلوقتي بتعمل إيه؟ الناس أغبيا وولاد كذا وكذا، وبعدين؟ سهلة برضه، صح؟ عملت إللي عليك انت كده؟"

احمر وجه "عزمي" في انفعال، وقال في غضب: "لأ اسم الله عليك انت!!. إوع تفتكر إنك علشان ماكنتش هنا لما حصل ده

كله، إنك كده بريء ومش مسئول عن حاجة!! لا يا أستاذ، انت نسيت لما كنا بنبوس إيدك علشان تنزل معانا الميدان؟ فاكر إنك انت لما نزلت لك يومين ولا أسبوعين يبقى عملت إللي عليك خلاص، وراجع بعد السنين دي كلها تحاسبنا إحنا، على أساس إنك عملت إللي عليك قوي ؟ إحنا اتضربنا من زمان وطول السنين إللي فاتت بنحاول نلم الدور ونعوض إللي فات؟ إنت شفت إيه؟ نسيت إللي حصل في المجمع العلمي ولا أفكرك؟ ولا لسه برضه حتعمل نفسك مش فاكر؟"

رأيت "شاهي" وهي تنهره بشدة وتنظر لي في قلق. داهمني الصداع العنيف الذي كان قد توقف لشهور، وظلت جملته ترن في أذني بقوة. شيء ما اعتصر قلبي وأنا أوقن أن عقلي يحاول تذكر ما يقصده، وأوقن أيضاً أنني لا أستطيع تبين ملامح الصورة، وألعن تأرجحي بين يقيني من أن كلامه اصاب ذكرى مبهمة، وبين إلقائي لحمل تنوء به خلايا مخي على كاهل "الديجافو". رأيت "عزمي" المذعور أمامي وهو يعتذر ويناديني في قلق، ثم وصوته يخفت، وجهه يغيب بعيداً، والسواد يحيط به من كل جانب، ثم يغشاه.

* * *

عندما عدت إلي وعيي كنت في منزلي وقد أحاطت بي "هبة"، تحكم الغطاء عليَّ، و"عزمي" بوجهه الذي كساه الندم، و"شاهي" وهي تبشرهم بأنني عدت لوعيي. اطمأنوا علي وأرادوا البقاء أكثر، لكنني طمأنتهم وصرفتهم لمنازلهم.

أكد عليَّ "عزمي" ألا أفكر اكثر من ذلك وأن أخلد للنوم. سألته في صوت واهن عما كان يقصد بما فعلته يوم المجمع العلمي، فتردد وتبادل نظرة مع "شاهي" ثم قال بسرعة أنه كان اليوم الذي تأخرت فيه عليهم في "محمد محمود"، وأنه كان يلومني على تأخيري. قال أنه يعتذر بشدة عن انفعاله وأن لنا بالتأكيد كلاماً آخر فيما بعد، وقبلني على جبهتي ورحل مصطحباً "شاهي" و"هبة" التي أصرت في البداية على البقاء، لكنهما أقنعاها بحاجتي للهدوء.

* * *

في اليوم التالي صحوت متأخراً، فوجدت أن هاتفي الصامت قد تلقى عشرة مكالمات إبان نومي. سمعت جلبة بالخارج وصوت حركة، وشممت رائحة طعام يطهى، فعرفت أنها "هبة" و"كمال" يعنيان بنظافة الشقة. اتصلت بالرقم فإذا به "سعد" يطمئن على ما حدث لي، وينبئني أن سيارة جماعة الحق تنتظرني بأسفل المنزل. عندما وصلت إلي هناك دلفت في حراسة ذوي الجلابيب واللحى كالعادة. كان ترددي قد طال على المكان فصاروا أكثر وداً في التعامل معي. أحدهم ويدعى "صابر"، عرفني بنفسه أنه مشرف على عنبر الملحدات وحراسته، ابتسم في وجهي وقال بأن "ابنتي" عنيدة لكنها فتاة ذات معدن طيب وأنها لا ينقصها الكثير لتهتدي. خمنت من وصفه أنه يقصد "غادة"، فلم اصحح له معلومته، لكنني قلقت من انتشار خبر أن لي أبناء هنا في البيت. كنت لم أزل أطمع في

أن أكون أنا من يخبرك بنفسه ذات مرة، ولم أدر ما الذي يمنعني. الموقف درامي بامتياز، لكنني لا أجنح للحلول الشبيهة بما يحدث في السينما.

قابلت "سعد" عند دخولي فخف لتحيتي في احترام وقال أن التصوير معطل قليلاً لعطل في استديو الهواء. رأيت رجل الكاميرا يحاول عبثاً الاتصال بالاستديو من هاتف صغير، فحييته بابتسامة وسألته لماذا لا نسجل الحلقة الآن ويذيعونها فيما بعد، أجابني بنظرة شبه هازئة وقال أن الرئاسة تتابع بنفسها البث المباشر من هذا البيت وبعض البيوت المختارة، وأن ما يجري الآن هو محاولة الحفاظ على وظائف الفنيين الذين هم على وشك الاستبعاد، إذا لم يعد الإرسال فوراً. تركته ومشيت مع "سعد" فجلست على أقرب كرسي قدمه لي في حجرة جانبية ريثما ينتهي إصلاح العطل. بادرته بسؤاله عما إذا كانت مشكلة "كمال" قائمة، فأكد لي أنها انتهت بحمد الله، وأن جماعة الحق ونساءها السود لم يجدن أية بنات حينما جئن لفحص النوع، وكان إخوة "سعد" قد تجمعوا لحماية البيت، فلم يتم فحص أي من الأطفال. كانت النساء السود قد أحبطن من عدم وجود "كمال"، فلم تعد بهن رغبة في إجراء أية كشوف وانصرفن لحال سبيلهن. قال "سعد" في شرود: "والله يا دكتور الواحد مش عارف هم بيعملوا كده ليه، يعني هم لهم أمور كثيرة جيدة وأفعال خير عديدة، لكن أمر الزواج في مثل هذه السن؟ صعبة شوية.. التربية هي الأساس لو سألتني رأيي". هالني ما أراد أن

يسميه رأيه فاستوضحته عما يقصد، فتابع موضحاً: "يعني هم معاهم حق في حتة ان البنت خطر شديد عليها تنزل الشارع يا بيه، بعيد عنك الناس بقت بتاكل في بعض. لكن، طول ما أنا ربيت بنتي كويس، أخاف عليها ليه وأجري بسرعة أجوزها من أي حد؟ طيب ما نصبر شوية عليها ونجوزها من حد نعرفه؟ الجواز سترة للبنات، أينعم، لكن هي يعني لا حتروح كده ولا كده، ولا حتنزل ولا تطلع لحد ماتروح بيت جوزها، ومش بالشكل ده نديها لشيخ عربي منعرفوش وياخدها بلاد غريبة". تنحنح في إحراج كأنه يقاوم حيرة بداخله ثم قال وهو يقلب كفيه باستسلام: "ما هي مسيرها تتجوز برضه وتقعد في البيت، لكن مش غصب يا بيه".

سألته لماذا لا يرسل "كمال" إلي المدرسة، وعرضت عليه أن ألحقها بمدرسة حكومية قريبة عن طريق اتصالات "عزمي" أو "عماد"، وأن أتكفل بمصاريفها اللازمة، لكنه قال في ثقة: "وعلى إيه يا بيه؟ ما هي أول امتحان حتسقط فيه حيرفدوها!! حضرتك ماتعرفش القانون الجديد ولا إيه؟ لأ كده رضا. الجماعة بس يحللو عننا، إحنا صحيح بنغضب ربنا كتير، ونفسي أرضيه وأستر البنت بدري بدري، بس قلبي مش مطاوعني، وعقلي بيقول لي إن مافيهاش حاجة إني أستنى شوية، الضنا غالي يا دكتور، مافيش حاجة تاني نعملها نبقى كويسين مع ربنا غير حكاية البنات الصغيرين دي؟".

قطعت حديثنا "غادة" إذ دخلت علينا وحيتني بشبح ابتسامة اعتبرتها علامة مُرضِية لتحسن علاقتنا. لمحت من خلفها "صابر"، حارس عنبر "بنات الملاحدة"، وهو يختلس النظر إلينا في غضب. اقترب مننا ونبه عليها بغلظة أن تنضم لزميلاتها في قاعة المحاضرات ولا تخالف التعليمات. أطاعته رغم نظرة الاحتقار التي صوبتها إليه. للحق نظر إليَّ في احترام ثم عاد أدراجه ليحرس مدخل الممر.

* * *

بعد ذلك الحدث بأيام، جاءتني مكالمته..

طلب لقائي في مكان عام، ذهبت في الموعد المحدد، جلست في الكافيه الفاخر بداخل الفندق العملاق بوسط القاهرة أنتظره. جلس "حسام" قبالتي بعد أن وصل باصطحاب حراسه. تركونا وحرسوا مداخل الكافيه. رحب بي كثيراً وقال أنه ظن أن لقاءنا هنا أفضل، بعيداً عن الرسميات. كان يتحرق شوقاً لبدء حديثه لكنني كان لدي ما أقوله أيضاً. رجاني بلزوجته أن أتحدث أولاً، فقلت أن الأوضاع في "بيت الملاحدة" لا تطاق، وأن هؤلاء الأولاد والبنات يقضون أوقاتاً من السجن المقنن. حدثته عن حالات الانهيار والأوضاع الصحية السيئة وغير ذلك. قلت أن أمر الاستتابة قد زاد عن الحد، وألمحت إلي أن من أقره يستطيع أن يعود عنه. ابتسم في خبث وقد أدرك تلميحي، لكنه قال بهدوء أن الزمن تغير. "فيه النهارده ألف عين وعين علينا، الشعب المصري اتغير وخلاص لم يعد يقبل من يضحك عليه أو يخدعه.

إذا عدنا عما قلناه بالأمس فيجب أن يكون لذلك سبب وجيه، لا يمكن أن نلغي مشروعاً ملأنا الأسماع والأبصار بفائدته وأهميته، وإلا اتهمنا الليبراليون وشباب الجامعة بالزندقة وبالنفاق. قدرُنا أن هؤلاء شوكة في ظهر الديمقراطية والبناء، لكننا لابد وأن نحتملهم، وألا نسمح لأفعالنا أن تخالف أقوالنا أبداً". دار بخلدي قولة "هريدي" الشهيرة، وتحسست "ظهر يدي" وابتسمت لنفسي فلمعت عيناه وقال: "لا تقيس أفعالنا بمنطق الصدق والكذب، إنما قسها بمنطق السياسة التي يفيد فيها الصدق في موضع لا ينفع في غيره، وتفيد فيها الجرأة في القرار، أو التراجع الذي، في موضع آخر، يسميه البعض كذباً. أي من كان في مكاننا كان سيفعل مثلنا وأشد". صمت قليلاً ليستمتع بأثر الخيبة على وجهي ثم قال بابتسامة مرسومة: "لكن موضوعك برغم ذلك ليس مسدوداً، وله عندي حل".

* * *

قلت في لهفة صبغتها بالاحترام قدر استطاعتي وأنا أبتلع لزوجته وأشجعه على المواصلة بدون أن يناور أكثر: "ما هو هذا الحل؟ صدقني سأساعدك في أي حل تقترحه".

مال إلي الأمام في دهاء وقال: "الاستتابة! كلمة يقولها "أدهم" أمام الكاميرا، ليس هو فقط، بل كل من تستطيع إقناعه في الواقع. ما إن ينطقها حتى نفرج عنه، ولك عندي مكافأة كبيرة يا دكتور".

- "أنا لا أريد شيئاً منك".

– "لا تتعجل الرد. إذا استطعت إقناعهم جميعاً بالاستتابة، أفرجنا عنهم جميعاً، وأعدنا إليك المستشفى. هذا وعد مني".

* * *

عام 2009..

في خضم تلك الأحداث، انقطعت "هبة" فجأة عن العمل. بعد يومين بادرت بسؤال زميلاتها عنها، ضحكن ونظرن لبعضهن في تساؤل، قبل أن تبادر عينان خبيثتان إلي سؤالي عما إذا كنت حقيقة لا أعرف؟. قالوا أنَّ "الهانم" اكتشفت أن "هبة" نصحت مريضاً بأن يتلقي علاجه لديَّ، فاقتنع المريض واسترجع بالفعل ما دفعه من قيمة الكشف لدى الزميل اللبناني المتصابي الأصلع. اعتبرت "إسراء" ذلك سرقة وعدم أمانة، كما قالت العينان في وجل، يمزج بتشفٍ في "زوج الهانم" الذي صار يستقي معلوماته من "الممرضات" وأحاديث الشاي في استراحة بين العمليات!!

* * *

هكذا صار الأمر إذن؟ "سعد" الذي ألقوه في غياهب جب السجن، ثم "هبة" التي قررت أن تنحاز لي ربما من باب التعاطف. لكن الدرس بات واضحاً. عندما تركت "هبة" قناعتها وصارت جزءاً من الصراع، عندما حاولت أن تفتح عينيها ولا تكتفي بالشكوى من قلة الرزق، عندما بدأت تسعى للأفضل وتكسر القيد المفروض عليها، كان جزاؤها الإقصاء فوراً. كذلك

كان "سعد" من قبلها، إذ صار "كارتاً" محروقاً بعد أن انتهت الحاجة إليه، وخرج عن دوره المرسوم له. صارت عيادتي أشبه باستراحة هادئة، يعج الجو من حولها بطنين أحاديث المرضى المنبعثة من عيادات الأطباء الآخرين، وتتنافس الممرضات على الفكاك من "نوبتجياتهم" معي عند تقسيم العمل. صارت لعنة مصاحبتي مقصورة على المعينين حديثاً، أو المغضوب عليهن، أو اللواتي نبذتهن "إسراء" فحكمت عليهن بالنفي معي، حيث لا مرضى ولا "بقشيش" سخي من الذي تتهافت عليه الممرضات كالضباع.

غير أنني لم أشكو. حاولت "إسراء" أن تفتح معي الحديث في الأمر فأظهرت زهدي في الحديث. قالت أن "صلاح الكواوي" مستثمر مثل أي مستثمر آخر، يريد مكسباً سريعاً، وأنني لا يجب أن أنظر لمصلحتي فقط. "المكان مكاننا ونستطيع في أي لحظة أن نوجه المرضي بالدعاية والوسائل الأخرى إليك متى شئنا، لكن الجدد أولى حالياً، فمتى استنفذوا غرضهم بدأنا نوزع جهدنا على الجميع، وأولهم أنت". ختمت حديثها بملحوظة عن الجهد الذي لابد وأن أبذله أكثر مع المرضى ليزداد إقبالهم عليَّ وأنني يجب أن "أساعد نفسي"، فسحقت نبتة القناعة التي كادت تنبت في قلبي تجاه حديثها المعسول، ولم أسمع الباقي.

* * *

بيد أنني كنت قد كونت شبكة كبيرة من المعارف. اتصلت بعدد من البرامج التي اختفيت منها فجأة، وصار الأطباء الجدد هم نجومها الدائمين. جاءتني الردود الفاترة من معظمهم، لكن "شاهي" و"عزمي" ساعداني على الوصول لأسماء شابة متحمسة، ربما من هؤلاء الذين لا تعرفهم "إسراء" ولا يأتمرون بأمرها ولا يرتادون نواديها. بدأت لعبة الإعلام التي حفظتها طويلاً، وآتت ثمارها سريعاً. تزامن ذلك مع إخفاقات متتالية من الطبيب اللبناني. مات مريضان متتاليان، لم تكن الجراحة هي حلهما الأوجب، لكن سعار الربح السريع كان قد بدأ يؤتي أكله. لم يكن نفوذ "فؤاد" ليكفي لدفن المشاكل كلها، فأحد هذين المريضين كان شخصاً قريباً من أحد الوزراء. كنت أستمتع من داخلي وأنا أقف متفرجاً صامتاً وعقلي تُلِح عليه مقولات محفوظة عن العملة الجيدة التي تطرد الرديئة، وقد انتقل طنين النحل إلي جوار بابي وبدأت أستعيد نشاطي وحماسي للعمل الذي جاءني يتدفق. صارت الممرضات يتنافسن على المساعدة لدي واستمر منوالي الهاديء في القرارات، لا آبه بالربح ولا أُعنى إلا بالنتائج وأتوخى الشفاء بأكثر الدروب أماناً وضماناً. عادت "إسراء" إلى الرقابة على العمليات والدخل وإلي التذمر من إعفاء المريض من الجراحة. كنت لا أهتم بتذمرها ولا بتلميحات "فؤاد" العصبية، عدت لأكون سيد المكان مرة أخرى، وعادوا إلي الغليان. ظننت أن الأمر قد استقر، لكنه لم يتوقف عند ذلك.

بين يوم وليلة فوجئت بالطبيب اللبناني على شاشة فضائية شهيرة، وهو يقص قصة نجاحه في المستشفى. كان ذلك غريباً على أذني وأنا أعيش تحقيقات الشرطة مع طاقم الممرضات ومع الأطباء الصغار ومعه شخصياً بشأن المريض المتوفي "المهم". لكن المذيع بادره بالسؤال عن تلك الحادثة فأجاب في صفاقة وهو يبتسم ابتسامة خجلى أنه لا يريد التحدث عن الزملاء وأن الخطأ المهني وارد في أي تخصص!!. أشار المذيع في سلاسة أنه على علم بالتفاصيل وأنه يحترم فيه "ترفعه" عن ذكر اسم الزميل "القاتل". تمنع عليه الطبيب في براعة ممثل محترف وتحفظ على ذلك الوصف، غير أنه أكد أن إدارة المستشفى منعت ذلك الطبيب من الممارسة لحين انتهاء التحقيقات وللحفاظ على سمعة المستشفى، وقبل ذلك كله لأنه – أي الزميل – رفض أن يستمع لنصحه هو، ألَّا يقوم بهذه العملية، لأن المهنة "إنسانية" قبل كل شيء"!!

هكذا تم إيقافي بقرار النقابة. وأغلقت عيادتي أبوابها نهائياً بقرار مباشر من "فؤاد". غَيَّر الشهود شهاداتهم بسرعة البرق، وبدأت التحقيقات الهزلية معي، بينما استمر الأطباء الجدد يعملون بكل نشاط، وحافظت "إسراء" على الدخول العالية، واستمر "الكواوي" على رضاه عنها وعن "فؤاد". ظهرت الصحف والبرامج الصفراء وهي تنهش لحمي بكل حماس، واستضافوا أطباء عديدين، منهم طبعاً "حسام المنزلاوي". ألمح إلي أننا كنا زميلين، ولهذا فهو لا يستطيع أن

يتحدث عني بصفة شخصية "حتى لو كانت لي مآخذ، فالهجوم على شخص في ورطة غير مقبول"، لكنه بدهائه ولهجته الموحية ضغط نصل السكين في قلبي أعمق وأعمق. كان الغليان ضدي في قسمي قد وجد متنفساً، فارتفع غطاء القِدر وتمخض عن شكوى لإهمالي العمل في القسم، لكنها كانت أهون من أن تجد أذناً صاغية، فقد كان الكيد والسماجة هما الهدف. هل قلت لك من قبل أن المصائب لا تأتي فرادى، ولا الأفراح أيضاً؟

صاحبني "عزمي" و"هريدي" منذ أول يوم في التحقيقات، بينما حضرت "شاهي" مع أخيها المهذب. "باسم"، كما قدمته لي، وكما بدا عليه. شاب ذكي ومنظم التفكير جداً. هو محامٍ متمرس في مثل هذه القضايا، كان له الفضل في إخراجي بكفالة هائلة منذ الجلسة الأولى. رفض تقاضي أي أتعاب، قال لي وهو يضحك في مرح أنه يبدو له أنه دخل مهنة المحاماة "غلط"، فهو يؤمن أن المظلوم لابد وأن يدافع عنه "حتى آخر نفس"، وأن هذا هو واجبه، وليس يستحق عليه أجر.

* * *

لم أعد منذ ذلك اليوم إلي الفيللا الأنيقة في المعادي، وصرت أراك لماماً من بعيد عند خروجك من المدرسة، قبل أن تلتقطك مدرعة خالك إلي منزل العائلة. عشت العام التالي، باستثناء أسابيع معدودة عدت فيها إليكم، وحتى نوفمبر 2011، في شقة عائلتي في التجمع الخامس. لن أسهب عليك في وصف الانكسار الذي عشته، فقد كان انكساري أقل من اليوم الذي

حدثت فيه واقعة "سعد". لن أطيل عليك أيضاً في وصف ذعر أبي وأمي وأختي مما حدث، ومقدار اللعنات التي لابد وأنك تفهمها الآن، التي صبوها على رأس أمك وعائلتها. لكنني مدين لتلك الفترة الغريبة أنها أعادت اكتشاف روحي. لم اعد أقلق سوى علي عملي وعليك، وكأن ضوضاء كثيرة لفظها عقلي بعيداً فارتحت لحياتي التي صارت محكمة، ولم يعد كاهلي ينوء بأثقال لا أطيقها. كانت أخبارك تصلني من بعض المكالمات الجافة مع أمك، كانت تنتهي بأن أحادثك لدقائق كنت أنتظرها من أسبوع لأسبوع بلهفة القائظ للماء البارد. أما عملي، فلقد انتظمت فيه وقد اتسع له وقتي بأكثر مما كنت أحلم. على غير المتوقع، تعاطف معي أساتذة القسم وكثير من زملائي. كان الأمر بالنسبة لهم واضحاً كما عبر عنه أحدهم: "إحنا عارفينك وعارفين شغلك. دي لعبة واتلعبت عليك، اسمح لي ماهو البلد كلها بتاعتهم، هي وقفت على المستشفى ولا عليك أنت شخصياً؟". انتهيت أخيراً من الدكتوراه، لكنني لم أفرح بها كما كنت أتصور، برغم أنني نجحت بامتحانهم الأول، ولم أرسب مرَّات كما هي عادة من يخوضه من خارج أبناء القسم. انتهت القضية الخاصة بي وحصلت على حكم نهائي بالبراءة. عندما أكد "باسم" لي الخبر، حاول "عزمي" أن ينشر الخبر في مكان بارز، لكن رئيس التحرير تلقى تهديداً مباشراً من "فؤاد"، فنكص عن الأمر وعذرته. لم تعد سمعتي تهمهم، ولم يعد ذلك يدهشني. كنت قد قطعت علاقتي بالماضي وكفى. غلفني شعور

بالرضا والسكينة، لكن هزيمتي كانت لا تزال تؤرقني بشدة، حتى لو لم أبُح بها لأحد.

ثم كانت تلك الليلة من نوفمبر 2010

لم أكن يوماً سمعت باسمه، لكن "باسم" كان يبدو مهموماً بالأمر وكأنه قريب له. "عزمي" كان ثائراً ولكنه كان يكظم غيظه فتتحرك نواجذه ضاغطة على بعضها باستمرار وهو يطلق تعليقاً نارياً تلو الآخر ثم يعود ليغرق في صمت هادر، بينما كان "هريدي" و"شاهي" يقودان الحديث طول الوقت. كنا جميعاً في نفس ذلك المقهى الأثير في وسط البلد، عشرون أو يزيدون من شباب 6 أبريل وكثيرين غيرهم ممن أراهم لأول مرة. الوجوه عابسة والسحنة تشعرك بوقوع كارثة. خبر "خالد سعيد" الذي قتل البارحة كان صدمة لي أنا شخصياً. دعك من الكلام الكبير عن بطش النظام وعن التهم الملفقة وعن تضارب أقوال الشهود وعن تراخي الشرطة في تحرير المحضر، لقد هالني شيء آخر تماماً احتل فكري كله بطيئاً كأنه يزحف على عقلي فيكبله عن التفكير في غيره. أسرتني صورته فأطلقت بداخلي خواطر مريرة لم يعد بعدها شيء بداخلي كما كان. أتعلق بحديث الجالسين حولي فأحاول الهرب من الخاطر اللحوح، لكنني أعود لصورته فأدقق النظر: هذا هو أنا، أو يكاد!!

لم تكن أول مرة أسمع فيها عن حوادث للتعذيب، لكن كلها كانت بعيدة عني. هذا إسلامي متطرف، جلبه على نفسه.. هذا مدمن مخدرات، أو بلطجي أو سارق أو متحرش، مجرم: "أياً

كان يعني". نعم، هي وحشية وجبروت، وكل الأوصاف التي تريدني أن أقولها، أحفظها مثلك عن ظهر قلب، لكنني، وهناك في أعماقي، كنت ربما أقول لنفسي أن هؤلاء بشكل ما "يستحقون" ما حدث لهم، هم سعوا لطريق لا يجلب عليهم سوى الخزي والفشل، فما الفارق لو كان فشلاً اختلط بالتنكيل أو سحقت عظامه معه؟ لكن هذا الشاب هو "أنا".. وجهه أو نظرته أو ملابسه، عرفت مرة أنه صاحب شركة وقالوا مرة أنه طالب وأن أهله معروفون وأنه إنسان عادي جداً ولكن لفقت له التهم، فشعرت بغصة في قلبي. شقيق يحمل الجنسية الأمريكية، وشقيق آخر، وأم تشبه أمي. نظرت إلي صورته مرة أخرى مختلساً نظرة أخيرة وهي تستقر في يد "أكرم"، شاب متحمس كثير الكلام جاء بصحبة "هريدي" ويسكن في نفس شارع "خالد سعيد". دققت النظر. لم أرَ وجهاً مليئاً بندوب الإجرام ولا عينين لسفاح. الأسوأ من فزعي هو ما خلصت إليه وأنا أستمع لثورة الحاضرين وكلماتهم تتراوح بين الأسى والغضب والتشاور عما يجب فعله: فجأة زال الحاجز الذي كنت أضعه بين عقلي وبين تلك الحوادث، فجأة اكتشفت، أن ذلك لا "يحدث للآخرين فقط"، وفجأة شعرت أنه قد يحدث لي، قد يحدث فعلاً، يقيناً لا افتراضاً، واقعاً وليس شعارات، وداهمني شعور بالخوف الحقيقي الذي كنت ألمسه من قبل في كلام "عزمي" و"هريدي" عندما يتحدثون عن الكرامة والحرية، فأشعر أنهم يبالغون. أحسست أنني ولأول مرة قد بدأت أفهم إصرار

"هريدي" و"عزمي" على خطهم الذي انتهجوه، ونظرت في عيون من حولي، فقرأت فيها نفس الكلام، نفس الذعر وذات الشعور. دار بخلدي كم هم كثيرون، كل هؤلاء فهموا مبكراً ما لم أفهم؟. أين كنت؟. تأخرت كالعادة، لكنني لم أسمح لنفسي بعدها بأن أظل بعيداً مرة أخرى. بدأت أقرأ انتقادات أحوال البلد بشكل أكثر تفهماً واستمرت متابعتنا للأحداث طويلاً، نجتمع كل يوم ويتصل بي "هريدي" في حماس ليخبرني بكلمات قصيرة عن المكان والزمان اللذان يتغيران كل يوم. نتجمع ونتفرق على لقاء، لكن الحلول لم تعد موجودة. وجه "باسم" المحتقن كان يحمل هَمْ الدنيا وقد عاد من سراي النيابة متطوعاً للادعاء، وإرهاقه البادي من السفر اليومي اجتماعات مع المحامين الآخرين المنقسمين على أنفسهم والساعي بعضهم للشهرة، يحملهما إلى جلستنا لكن الجميع يستمعون إليه بصوته الواهن وكلماته المخلصة في اهتمام. لم أفهم كيف انتهت حالة الغليان إلي إنشاء صفحة على الفيسبوك، وإلي وقفات احتجاجية بالإسكندرية. شعرت أن هذا غير كاف وصارحت "هريدي" بذلك، لكن عيناه التمعتا وقال في اقتضاب كعادته في الآونة الأخيرة ما معناه أن أصبر، فليس بين عشية وضحاها يعود الحق.

ثم جاء أول يناير من 2011

أيقظني "عزمي" من النوم في الخامسة فجراً وأخبرني بالمأساة. قابلته مع "هريدي" وتوجهنا إلي منزل "شاهي"

بالمهندسين. وسط النواح والصراخ حاولنا إنهاء إجراءات سفرهم إلي الإسكندرية، وقسمنا أنفسنا إلي فرق. كان الطريق طويلاً وهمومنا تحاصر الهواء المطبق على صدورنا في جو السيارة الكئيب وسط النشيج والعويل من "شاهي" وأمها. استلمنا جثة "باسم" المتفحمة في الثالثة عصراً وبعد عراك لفظي حاد بين "هريدي" و"عزمي" من ناحية ومعهم شباب 6 أبريل، وبين المستشفى والأمن من ناحية. كانت المدافن بعيدة، لكن ضحايا آخرين من ضحايا كنيسة القديسين كانوا يوارون التراب مع "باسم". رفض اللحاد بإصرار غريب أخذ مقابل مننا رغم إلحاحي المستمر، فتذكرت وجه "باسم" لأول مرة وهو يرفض أتعاب عمله، وبكيت بحرقة حاولت إخفاءها تحت ضغط نظرة "هريدي" المحذرة حتى لا تلاحظني أمه المكلومة التي نجحنا بالكاد في جعلها تسيطر على انفعالها. موت "باسم" ومن قبله "خالد"، جعلني أنظر لما حدث لي نظرة مختلفة. كنت أظنه ظلماً، تجبراً وافتراءً، لكنه ظل في عقلي في إطار من الموضوعية لو كنت تفهم ما أعنيه. حتى الظلم يا ولدي به أحياناً قدر من الموضوعية، من العقلانية، المعقولية، أو بالأحرى هدف "مشروع" من وجهة نظر "غير مشروعة". خلاف على مال، أو نفوذ أو جاه. يجور هذا على ذاك فيسلبه حقه أو ينكر عليه ملكه، لكن الأمر لا يصل لروحك، لكيانك، أو هكذا ظننت. رأيت لأول مرة أن هناك ما يفوق الظلم. هناك من يقتلعك من الأرض كأنك لم تكن هناك من الأصل. هناك من يتلذذ بسحقك

فجأة.. ودون أي سبب، من يمضغ عظامك ويتلمظ بمذاق لحمك ويمصمص شفتيه ويمسح آثار دمك عنهما بطرف كمه، ثم يستدير إلي الواقفين معتذراً عن صوت تجشؤه المزعج!! هناك من يقتلك، دون أن تدري لماذا ومتى وكيف. دون أن يحتاج إلي أن يظلمك، أو تفرضه عليه ظروف "معقولة"، سوى أنه "يستطيع أن يفعل".

بالتدريج تسلل الشعور إليَّ حتى امتلكني، وأدركت أن هذا هو ما حدث لي، وما سيستمر يحدث لي ولنا جميعاً، مرات ومرات.

لكنني عدت لحياتي الطبيعية قدر استطاعتي. نصحني "عزمي" بأن أفتتح عيادة خاصة بي لأعوض ما فاتني، فوعدته بالتفكير في الأمر. كنت قد بدأت أحس بالهرم، وبأنني قد زهدت في الحياة وأنا لم أكمل عامي الأربعين بعد. سلسلة الإحباطات والإخفاقات بدا وكأنها قد نالت مني، وكلما استعرضت ما حدث وأنا مستلقٍ على سريري آخر اليوم بين نومي ويقظتي أغرق في التفاصيل أكثر، وتختلط الذكريات ومشاعر الضيق والخوف: "إسراء" و"فؤاد" والمستشفى، وجه "باسم" المرهق في مقهى وسط البلد، ووجه "خالد سعيد" الباسم في صورة فوتوغرافية حملت لي كل تاريخه الذي مات لحظة ولادته. كانت أختي وأمي أكثر من تسألان عني، وتفكران في حلول لإخراجي مما رأتاه أزمة عابرة. اقترحت أختي عليَّ أن أتزوج وبدأت تعرض عليَّ أسماء لبعض زميلاتها في العمل وأخت زوجها

العانس، فضحكت مستبعداً الفكرة. لكنني وعدتها كما وعدت "عزمي" بمسألة العيادة، ولم أفعل في كلا الحالتين شيئاً. كنت أنتظر شيئاً مبهماً، كأني حاولت أن أرسم خطاي بنفسي ففشلت، فقررت أن أنتظرها لترسم نفسها. "هريدي" صار نجماً مطارداً من الأمن، وفشلت وقفات احتجاجية كثيرة قاموا بها. رغم القبض عليه ثانية، وبعد خروجه، بدا متحمساً أشد التحمس ومتفائلاً بشيء مبهم. عندما سأله "عزمي" عن الخطوة القادمة، أجابه في اقتضاب غامض أنها قريبة. تحدث بإسهاب عن ضرورة تكرار تجربة وقفة 25 يناير 2010 بعد أيام حين تحين ذكراها الأولى، ولم يُعَلِق بأكثر من ذلك. كنا على اتصال بـ"شاهي" طوال الوقت، لكنها كانت انضمت مع "هريدي" لمجموعته، فصرنا نعرف أخبارهم لماماً عندما زاد اختفاؤهم. أما "عزمي" فاستمر دفاعه عن الإسلاميين وهجومه العنيف على الحكومة والنظام. كانت مقالاته قد اتسعت لتشمل بعض الصحف الأجنبية ومقال ثابت في صحيفته الشهيرة، وكانت كلها تزعج النظام بشدة. لمست ذلك في مكالمتي الأسبوعية معك، التي كانت تفتتحها أمك بالسلام البارد المعتاد. فقدت أعصابها ساعتها، فتخلت عن حرصها على عدم الصدام معي والذي اتبعته منذ فترة، وهي تسألني عن "الصحبة المشبوهة" التي أرافقها، و"الصحفي العميل" الذي أجلس إليه، فعرفت أنه كلام "فؤاد" كالعادة. لكن "عزمي" لم يبدُ عليه أي تأثر عندما حذرته. قال أن مقالاته التي يدافع فيها عن الإسلاميين هي التي

تُقلِقُهم، وأن تلك مظاهر مبكرة للانهيار. لم أرَ أي انهيار من وجهة نظري، لكنني خوفته من وصول هؤلاء للحكم، ربما كان ذلك هو كلام أبي أو أفكار "فؤاد"، لكنها خرجت مني عن قناعة، كما أبديت اندهاشي من تحيزه لهم وهو يعلم أنهم ليسوا بالملائكية التي يبدون عليها، فاستمع لي باهتمام ثم لدهشتي وافقني. قال بأن دفاعه عن حقوقهم، وليس عن أفكارهم، ولم أفهم ذلك في وقتها أبداً، فقد كان "عزمي" دائماً يغمض على فهمي حديثه.

* * *

ظل كلام "حسام" معي يملأ عليَّ فكري لأيام طويلة. شرح لي كيف أن "صلاح الكواوي"، ذلك المستثمر، قد نجا من جميع القضايا التي رفعوها عليه، إلا أنه قد هجر مصر كلها واستقر بالخليج. وجد طرقاً عديدة لإخراج أمواله وبدء حياة جديدة هناك، لكنه ظل يرسل أموالاً منتظمة للتبرع للجماعة، مقابل أن يغضوا الطرف عن الدعاوى الجديدة ضده. بشرني أن أمواله جاهزة لتمويل المستشفى، وأن عليَّ ألا أقلق بشأن شيء. أعرف فيم تفكر، وأعلم أنك تظنني فعلت كل ما فعلت بعدها من أجل مجدي الشخصي. لكنها مستشفاي التي تعبت من أجلها، وعملي الذي أحببته وحاربوني من أجله، فلم أر وعد "حسام" سوى استرجاعاً لحقي الطبيعي، ولا أموال "الكواوي" إلا "كفارة" لذنوبهم، ولم أر الاستتابة إلا وسيلة لإنقاذك، وإنقاذ "غادة". هذا رأيي، وهذا اختياري، وكفى.

كنت قد عدت من "بيت الملاحدة" بعد جلسة مطولة معك. كنت قد قررت أن أهاجم، بعد أن استمعت لكما طويلاً. تجهمت "غادة" عندما بدأت حديثي، لكنني لم أغضب منها. كانت تحملق في فراغ ما بين ساعديها المعقودتين أمام صدرها والمائدة الصغيرة بيننا، فتذكرني بأمها "إيمان"" وهي جالسة في النادي بيني وبين "إسراء" تحاول التوفيق بيننا، غير أن "غادة" كانت غاضبة وكأنها تركت لك الرد والحديث معي. قلت لك أن كلامكم عن البوصلة أربكني، لكنني أرفض أن تزجوا بقناعاتكم الخاصة في الدين. تحملتني أنت وشبح ابتسامتك يتراقص على شفتيك صامتاً، وأنا أذكرك بأن للدين رجاله، وأنكم تعممون أحكامكم على الجميع، حتى وصلت إلى ذلك الجزء الذي اتهمتكم فيه بأنكم تنكرون من الدين أشياء، وتدعون لأنفسكم فهماً وأنتم لستم أهل علم. اعلم ياولدي أنني كنت أحاول إقناعكم بأن تعودوا عما في خيالكم من مقاومة ألمحها تتكسر على واقع مرير، وأن أفقدك بعد أن وجدتك بعد تيه. لكنك قلت لي وأنت تحاول أن تبتلع احتقارك لي: "لن أحدثك عن كلامنا، بل أتكلم معك عن حديثك. يا الله! يا الله! نفس الخيال المحدود الذي يحدثوننا به، يا سيدي أنت من الواضح أنك منفذ جيد لتعليماتهم، لكنك حتى لا تبذل جهداً في الابتكار، بل تصدق ما قالوه لك حرفياً. جاءنا رجالات كثير من شيوخ يتبعونهم، ومن أزهريين مستنيرين، ونحن نعلم الفرق. "السمان" وجماعته عاوزين يفسروا الدين على مزاجهم، ويفسروا بيه الدنيا، ويفهمونا إن

ده صح. يعني قول لي حضرتك، مثلاً يعني: مين صح، إللي بيتخرج ويشتغل في تخصصه ولا إللي بيدور على أول شغلانة علشان مايبقاش عاطل؟ أنا بضرب لحضرتك أمثلة حقيقية، يعني الكلام ده حصل فعلاً. الدنيا كلها بتحسبها حسب المنطق، أو الواقعية، أو الإمكانيات، أو حتى حسب الشخص نفسه محتاج فلوس ولا لأ. لكن هنا بقى، مرة قالوا يعينوا الناس إللي تبع جماعة الحق، في كل الوظائف إللي شالوا منها الستات في الوظائف الحكومية، حاول الناس يقولوا لهم إنهم دبروا الحكاية دي مخصوص، لكنهم طلعوا تصريحات ينفوا فيها كده، وقالوا إنهم معينين ناس أكفاء، اشمعنى الأكفاء كانوا منهم هم بس ومش من أي حد مش تابع للجماعة؟ ماتسألش طبعاً، لأ دول كمان استشهدوا بالآية "وفوق كل ذي علم عليم"، وكده كل واحد لازم يشتغل شغلته، ده علشان هو عليم فيها أكتر من ذي العلم العادي إللي رفدوه، ومرة تانية لقينا الشيوخ بيحكوا القصة المعروفة، إن إللي اعتكف في المسجد وأخوه كان بيصرف عليه، أخوه كان خيراً منه. التصريح الأخير ده طبعاً كان أيام مظاهرات الشباب المتخرجين حديثاً، أنا نفسي كنت منهم ووقفت أطالب بتوفير وظيفة، للناس مش ليا، طبعاً حضرتك عارف إني من أسرة ميسورة، وماكانشي عندي مشكلة، لكن إيه رأيك؟ طبعاً كل مرة كان ليها مناسبة مختلفة، فكانت الفتوى أو التفسير مناسب للظروف. علشان كده، سيدنا "علي" رضي الله عنه نهانا عن إننا نجادل بالقرآن، لأنه حمَّال أوجه. يعني إيه برضه؟

يعني إحنا مش بننكر النص، ولا إحنا شيعة بالمناسبة، ماهم تلاقيهم جهزولك التهم وقالولك العيال دي يا إما عاملين فيها معتزلة، أو شيعة، ماهم لازم يلهوك ويجيبوا إللي فيهم فيك، المهم، إحنا مش بننكر النص، ولا بنقول إنه لو ماوافقش العقل مانقبلوش، لكننا بنقول وبنسأل: أنهي عقل؟ ومش عايزين عقل واحد يقول لنا إنه هو الوحيد إللي فاهم كل حاجة، بوصلة الفهم على مقاسه، وهو بس إللي معاه، بينما لو قعدنا وفهمنا الموضوع إيه، وناقشناه في النور، أي نتيجة بعد كده حتكون في مصلحة الناس، وأي نتيجة حنتفهمها ونقبلها كمان، ومش مصرين على تفسير معين حتى لو التفسير فاجئنا أو كان جديد على مسامعنا، طالما جاء بعد مناقشة منطقية وفهم واسع. أقول لحضرتك على حاجة بسيطة جداً، توضح لك إللي أقصده أكتر؟ هو مش الرحمة ربنا جعلها مائة جزء، وأعطانا جزء منه ترفع الفرسة ساقها عن وليدها، واحتفظ لنفسه بتسع وتسعين جزء؟ يبقى لما نقول إن ربنا عاوز لنا الخير، وإن الدين بيحرص على مصلحتنا ده مايبقاش غلط ولا حاجة. طيب يعني شرع الله المليء بالرحمة بالضرورة، حريص على مصلحة الناس كلها ولا ناس معينة؟ يعني المصلحة إللي كلنا متفقين عليها ولا إللي ناس بعينها بس شايفاها مصلحة؟ يعني المصلحة دي إللي يحللها هو الشرع، ولا مزاج أي حد؟ طيب كل ده مش المفروض يبين لك، إن الدين مش ممكن يعمل حاجة تضرنا، ولا يرضى بإننا نعيش مش كويس، ولا إننا نُهَان علشان من دين تاني، ولا

بنات، ولا مش تبع ناس معينة؟ يعني لو فهمك للنص قادك إنك تفهم إن الدين بيظلم الناس، أو بيحلل حاجة مش في مصلحة الإنسان، مش يبقى لازم تفكر تاني، وتتدبر أكتر، فهمت بقى بوصلتنا، إللي في الحقيقة تعتمد على إن الكل يتناقش في المعنى ويجتهد فيه، في ضوء إن ربنا عاوز لينا الرحمة، من بوصلتهم إللي مش شايفة غير اتجاه واحد؟ ولو إني مش حاسس إنها حتفرق بعد كل الشرح ده معاك".

* * *

أذكر أنك غضبت مني كثيراً عندما سألتك بعدها ثانيةً، وكأنني لم أسمع منك شيئاً، لماذا لا تستتابون، حتى ولو بشكل صوري أمام الكاميرات، فيصفح عنكم "السمان" وينتهي الأمر؟. عرضت عليك أن أدبر لكما ملاذاً آمناً، وقد أتصرف وأقوم بتسفيركما للخارج. ثارت "غادة" في وجهي ولكنك أسكتتها، وبان عليك الغضب الشديد. قلت لي بلهجة كساها الضيق أنك لن تهرب مما تواجهه، وأن عرضي لا يختلف إطلاقاً عما عرضوه عليك مراراً. قلت أن "مثلي" هم من يعمقون رأي بعضكم، والذي تعارضه أنت بكل قوة، الرأي الذي يقول أن الدين في حقيقته هكذا: طول لسان عن "الأنجاس"، سخرية عن الأعراض، مظاهر كاذبة، لحي عاجزة عن الطحين، لكنها بارعة في الضجيج، وتوافقات ومواءمات وصفقات لا تنتهي.

كانت أول مرة ألحظ من كلامك أنكم مختلفون عن بعض، جلست مع زملائك غير مرة في اللقاءات الفردية إياها، استمعت

لهم وخمنت أن بعضهم أشد صرامة أو أكثر ليناً، لكنني لم ألتفت لذلك لأن الألم كان يعتصرني وأنا أحاول إقناعك. الآباء على هذه الحال يا ولدي. مرة أخرى هي الحفرة التي نراكم تندفعون إليها، رآني أبي أهرول تجاهها ومنعني عن الاستمرار قدر ما استطاع، لكنني تجاهلته. أردت أن أوفر عليك مصيراً أراه أمام عيني ولا أعرف كيف أمنعه. لكن صدامنا كان حتمياً.

قلت أنت في عصبية هادئة كما بدا لي أنه ديدنك، أنكم لستم ملحدين، أذكر أنك أضفت: "إللي بيعمله "السمان" ورجاله، هو ما قد يمهد الطريق يوماً لأفكار مجنونة مثل هذه. كفاية إن إللي عملوه فينا خلى ناس كتير تعتبر الاعتراض عليهم بطولة. إحنا مش بندور على بطولة، لكن حييجي بعدنا لو استمر الوضع كده، ناس حتعتبر معارضتهم واجب، وعمل شجاع، وطول ماهم مش فاصلين بين كينونتهم وكينونة الدين، حتلاقي الاعتراض عليهم من ناس ليها غرض سيء، تلقائياً حيروح في سكة رفض عقيدتهم، هو ده الخطر، بس انت حتصدقني ليه؟ تلاقيك برضه شايف إني مُغَرَّر بي، وملحد على صغير".

أعدت سؤالي عليك، لكنك قلت في ضيق أنني لو أصررت على كلامي، فالأفضل ألاَّ آتي مرة أخرى. حاولت إقناعك بأن هذه فرصة، وأنك لا يجب أن تغير قناعاتك. انفد بجلدك من هذا المستنقع، و"المهم النية". إذ قلت ذلك، سخرت مني بشدة، وقلت أنك تستطيع إكمال بقية الاسطوانة عني بأن "الله لا يكلف نفساً إلا وسعها"، وأنني "أحسبك على خير"، ثم قلت لي بأن

كلامي عن "بيع القضية" كان ليكون أكثر إقناعاً لو أن "زبيبة صلاة" نبتت لي الآن، أو لو أنني "سحبت سجادة وادديتها ركعتين يا عم الشيخ".

* * *

على مقهانا المفضل في وسط البلد، القاهرة، أكتوبر 2025

خرجت من عندك مهموماً ولا أرى إلا السواد. اتجهت للمقهى واتصلت بـ"عزمي" لكنه كان مشغولاً. اتصلت بـ"شاهي" فأتت على الفور. ما أن قصصت عليها ما حدث، حتى واستني في إخلاص وأكدت أن كل هذا طبيعي. لم تندهش لعرض "حسام"، وقالت أنني كان يجب أن أتوقع ذلك، فهو لن يفني مشروع عمره بدون نجاح واحد، وحتى الآن لم يستتاب أحد على مستوى مصر كلها. قالت أنني ربما أوذيكم بأكثر مما أفيدكم بفعلي ذلك لو أقنعتكم به، وأن المسألة لا تحسب بهذا الشكل. كانت لدي أسئلة كثيرة لم أجد الوقت لطرحها عليك في جلستنا، لكن "شاهي" استمعت لي في اهتمام ثم التقطت طرفاً وقالت في فتور: "ممكن أقول لك حدوتة؟ شوف يا "مصطفى"، أنا طرف مهم في القصة، ولا أحد يفهم تفكير هؤلاء مثلي. نعم، ما هو أنا "بنت الكلب" إللي قامت الدنيا علشانها في "مصر"، وبعدها حدثت "جمعة الحجاب" وغيره من الذي قصوه عليك. عايز أقوللك إن لا شيء يقلقهم مثل هؤلاء الملاحدة. الموضوع

هزهم حقيقي، وما يغركشي كلام "حسام" المتعالي ولا خطب "السمان" الواثقة. الناس البسيطة ممكن لو فهمت الحقيقة، من غير كلام "الكفرة" ومشاريع الاستتابة وغيره، ممكن "السمان" يبقى في مشكلة فعلاً. لكن أنا حقول لك إيه المشكلة فعلاً من منظور تاني، أنا كنت في "ألمانيا" ساعتها كما تعلم. قررت بعد أيام من القهر الطويل ومتابعة ما يكتب عني في "مصر"، إني أتوقف عن ذلك كله. ساعدتني صديقة ألمانية وصديقها الذان كانا يحضران المحاضرات معي، وتعاطفا معي جداً. بعد أيام من البكاء، والتوضيح من جانبهم أنه لم يكن أكثر من سوء تفاهم، جاء الدور على وجعي الخاص ليحتل عقلي ويعتصر فؤادي. أنا؟ أخي الذي مات في كنيسة القديسين، وقريبتي التي ماتت بعدها في أحداث ماسبيرو، وأنا نفسي التي كنت سأموت في الميدان ويوم موقعة "الجمل" وفي "محمد محمود" غير مرة، يقولون عني مثل ذلك؟. المسألة تطورت سريعاً. كانت الأمور قد تحولت في مصر إلى اتجاه آخر، وصارت مسألة "بنت الكلب" مجرد ذكرى. حشد الإعلام الناس بعدها في اتجاهات أخرى بواقع الأحداث، لكن أصدقائي لم ينسوا. في ليلة جاءتني "هايدي" و "فولكر"، وهذان اسمهما، وأبشراني، وهما باسمين في بلاهة، بأن الأمور قد تم حلها وأنني لا يتحتم عليَّ العودة لمصر. كان أستاذنا الجليل محاضراً شهيراً في العلوم السياسية وكانت صلاته واسعة. تقابلا معه وحادثاه في مسألة حصولي على اللجوء السياسي. كانت

مشاعري في أدنى حفرة للإحباط، فقبلت وأنا لا أعرف إلى أين تسوقني الأقدار. مسألة العيش خارج مصر بشكل دائم، ليست جديدة على عائلتي ولا في محيط أسرتي ومعارفي. عمي وعمتي وثلاثة من أخوالي يعيشون في "كندا" والولايات المتحدة منذ عشرة سنوات، لكنني لم أفكر بذلك من قبل، ولم أكن أبالي في الحقيقة. أنا والمرحوم "باسم" والكثير من أصدقائنا كنا نفكر بشكل مختلف. أذكر أن "باسم" قال لأبي يوماً، أن ما فعله عمي لم يحل مشكلته. سيظل غاضباً على البلد، وعلى من ضايقوه، وعلى أشياء أخرى كثيرة، وسيظل قلقاً لا يجد الراحة، يقنع نفسه أنه لولا هذا ولولا ذاك، لظل وسط أهله وناسه. كنا نعتبر من يفعلون ذلك هاربين، وفي بعض الأحيان كنا نحس أنهم جبناء، لولا أنهم أقرباؤنا ولولا بقية حياء من أبي وأمي لصارحناهم برأينا. البلد في النازل؟ طيب ولما نسيبها حتتحسن؟ ولا حنقول لنفسنا إنها ماتهمناش؟ كان هناك أيضاً إحساس خفي، أظنه لم يكن مقتصراً عليَّ وحدي. أبي كان دائم الشرود قبل سفر عمي وصار يفضل الجلوس وحده. قال لأمي ذات مرة أنه لم يكن يظن أن "العشرة" تهون بهذه البساطة علي أخيه، وكان يتمنى أن يفضل أن يبقى إلى جواره، طالما يرى أن الظروف سيئة لهذا الحد، فلماذا يتركه فريسة لها ويرحل ويتركه ليواجهها وحده؟"

التقطت نفساً عميقاً وقالت وهي تتذكر ذكرى دفعتها للابتسام: "لما "باسم" مات، عمي اتصل يعزيني. كان دائماً ما

يدعونا للهجرة إليه، وكان "باسم" يدخل معه في نقاشات عديدة طويلة. عمي كان يحب "باسم" أكثر من أولاده، وكان يخطب ابنته له علناً ويقول له أن عملاً جاهزاً له في شركته بالولايات المتحدة ينتظره. لمحت في صوت عمي انكساراً، لكنه بشكل ما كان يقول لي من بين سطور كلماته في أذني وعقلي: "ألم أقل لكم؟"". عقلي ظل حائراً بين تصديق عمي وتكذيب شعوري، لكن عندما قامت الثورة تحولت حيرتي ليقين. (البلد صارت بلدنا)، فاكر الكلام ده؟ إحنا كنا طيبين قوي يا مصطفى!!"

سحبت منديلاً لتجفف دمعة من طرف مقلتها وواصلت بنفس الصوت الثابت: "شيء من ذلك تذكرته بعد الكلام عني إثر "موقعة الحجاب". هاهي ذي السنون قد مرت، ولم يحدث ما يبشر بخير. مازالت البلد لهم، وليست لنا. كل ما حدث هو أن "هم" تغيروا. بل اتحد "هم" مع "هم"، وصاروا معاً. أما نحن، أما أنتم، أما الميدان وأجراس المجد التي دوى صوتها في أرجائه يوماً، وآذان الحرية الذي علا صوته فوق رءوسنا، فقد بدت وكأنها دقت في عقولنا نحن فقط، وبدا وكأن كل من احتفوا بها قد حلت بهم لعنة ما، ستلاحقهم حتى آخر عمرهم مهما فعلوا. سواء في ذلك لعنة القتل، أو التنكيل، أو الاغتراب أو الوحدة. تذكرت وذهبت لمقابلة أستاذنا في الجامعة. تحمس الرجل لمشكلتي وعرض عليَّ تسهيل اللجوء السياسي. كنت مضطربة، لكنني قست الأمور بمنطقهم: توفى والديَّ منذ زمن، ولم أتزوج، وصار أقربائي خارج مصر أكثر بكثير من داخلها.

تذكرتكم وتذكرت أصدقائي من أيام الكلية والمدرسة والشارع الذي كنا نسكن فيه، فلم أجد ما يجعلني أعود، رغم الاشتياق، لأنني أدركت ان الأيام لم تعد هي الأيام، وربما لم يعد الأشخاص هم الأشخاص. وافقت، فتبسموا في سعادة ووعدني بتبني طلبي في أقرب فرصة. افترقنا على لقاء. قمنا للانصراف، فسلم عليَّ بيده فمددتها إليه، فضمني إليه ليحتضنني في مواساة، لكنني جفلت وابتعدت عنه. بان الذهول على وجهه واستنكر ما حدث، لكنني اعتذرت بأنني لا أسلم بهذه الحميمية على رجل غريب. نظر إلي نظرة طويلة، ثم هز رأسه كأنه تفهم، لكنني أدركت انه لم يفعل"

* * *

قلت في تغابِ: " "شاهي"، مش غريب شوية الكلام ده؟ هل معقول أن الرجل عدل عن مساعدتك لأمر كهذا؟"

قالت في صبر: "لأ. هي أنا التي عدلت عن الأمر كله. جاءتني "هايدي" وبيدها "فولكر" بعدها بيومين، يخبرانني أن أستاذنا يود أن يجلس معي جلسة أخرى يتحدث إليّ في شئون عامة. كنت قد أحسست بأن في الأمر شيئاً، فوافقت وسألتهم أهو السلام الذي لم يتم بيننا، فأكدا أنهما لا يعرفان، لكن شيئاً في نظرة "الاستغراب" وطريقة الرد أنبآني بأنه يكذبون. قابلت الرجل في "مقهى" صغير يبعد عن الجامعة قليلاً. حدثني عن رغبته في معرفة ظروفي في "مصر" أكثر، ولماذا أظن أن عودتي إليها لم تعد آمنة. قلت أنني لم أعتقد ذلك من الأصل،

وأن كل ما في الأمر أنني أظن أن بقائي خارجها في ذلك الوقت أفضل، وأن "ألمانيا" سوف تكون مناسبة لي بحكم دراستي الآن أكثر. تعجب وسألني ما إذا كان ذلك يعني أن "ألمانيا" كاختيار، مكان وارد تماماً مثل غيره؟ لما أجبته بنعم، قال أن هذا ليس ما تريده "ألمانيا" في المهاجرين أو اللاجئين إليها. سكت قليلاً وقال بابتسامة، أن حتى هذا الشرط يمكن تجاهله، وأنه سوف يدربني على الردود المناسبة حتى أعرف كيف أتصرف عندما يسألوني في المقابلة الرسمية.

قلت: "أرى أنه حاول أن يساعدك حتى النهاية"

-"هذا ما تظنه. دخل بعدها مباشرة في ما أزعجه. سألني لماذا جفلت عند سلامه الحميم عليَّ، ففوجئت وأنكرت السؤال. قلت كلاماً كثيراً عن حريتي الشخصية وأن هذا الأمر لا علاقة لأحد به غيري. قال قولته التي لم تفارق أذني حتى الآن: (لكن الحرية الشخصية لا تكون كذلك، حريتك يجب أن أقبل كل تفاصيلها وتتفق مع حريتي أنا). رغم دهشتي سألته سؤالاً تبادر فوراً إلى ذهني فقلت: "ولماذا هذا "الأكليشيه"؟ لماذا لا تعتبر أن لي فكراً من وراء رفضي لهذا السلام؟ أنا لست متزمتة، لكنني تربيت بشكل معين، لا أسلم هذا السلام على أقربائي أو أبن عمي أو ابن خالي مثلاً، لا لأنني أراه تحريماً إلهياً، لكن أنا تربيت في مصر على ذلك، عندنا هذا شيء ننفر منه، ولا ننظر إليه أنه "عادي" مثلكم. قال لي (نحن مجتمع متناسق، كلنا يفكر بنفس الأسلوب، ولنا نفس الثقافة، وما نراه صحيحاً فيجب

على كل المنتمين إلينا أن يروه كذلك، وإلا نصير جزراً معزولة).
قلت ساخرة، أن مسألة "الوجوب" غريبة على أذني من أستاذ للعلوم السياسية، يتحدث طول الوقت عن تطبيق للسياسة في ثقافات مختلفة، وكان حرياً به أن يدرك أننا في "مصر" غيرهم.
أجابني أنه عندما يقصد الثقافات فإنه بالتأكيد كان يشير إلى هؤلاء الذين لديهم "ثقافة" وفكر حقيقي، وليس من يصفون المرأة بالتخلف، ولا من يسبون دينها وعرضها من أجل إرضاء العامة وكسب موقف سياسي، وأنه حري بي أن أفهم ذلك أكثر من غيري. تبادلنا نظرات متحدية فسألته هل سلامي عليه شرط للجوء السياسي. سكت، وداعب شاربه في عظمة وهو يضطجع بظهره للخلف، وراوغ بكلام كثير عن العادات المختلفة التي تمنع شخصاً من الاندماج، وأن هذا قد يكون مؤشراً سيئاً للجنة التي سوف تستمع إليَّ. قلت أنني صديقة لفولكر وهايدي منذ أسابيع، وأنه يستطيع أن يسألهم عن عاداتي هذه أكثر، ويعلم أنها لم تمنعني بأن أكون شخصاً يفكر ويحس مثل كل الناس، هذا إذا كانت "ألمانيا" تهتم بالتفكير أو الإحساس وليس بالأحضان. قال محاولاً إدارة دفة كلامه أنني ينتظرني مستقبل باهر، وأن قصتي مع قمع النساء في مصر يمكن أن تصير أطروحة علمية هائلة، يضمن هو لها النجاح سريعاً، بل والتعيين بالجامعة لو أردت. قلت مختبرة فكرته أن هذا لا يثير اهتمامي، وأن تجربتي من شأني وحدي، وأنني لا أرى فائدة من مناقشتها في أطروحة يقرأها الناس فيرون وجهاً واحداً من

مصر، ثم لا ينسون ذلك الوجه أبداً. سخر من كلامي وقال أنني يبدو أنني أتغابى عليه، وأنني لو تصورت أن الجنسية هدية وتعاطف فأنا أعيش في عالم افتراضي من خيالي، ولا أقدر اليد التي تساعدني. قال في صفاقة وقد قرر التوقف عن المراوغة، أن "ألمانيا" التي أتحدث عنها تهتم أكثر بأن لا يدخل أراضيها من لهم خلفية تستمريء القمع، أو أفكار لا تقاوم التيارات الإرهابية أو سلوكيات غريبة عليهم. قال أنه بدأ يعتقد أنني أستحق ما حدث لي، أو أنني على الأقل لا أملك الشجاعة الكافية لمقاومته من داخلي"

-"هذا هو سبب عودتك من ألمانيا؟"

-"لم أكن مقتنعة بالشكل الكافي بالبقاء. طبعاً أنت لم يحدث معك شيء من ذلك، لكنك مع ذلك اختبرت ذلك بشكل مبسط: كنت ترساً في آلة، احتاجوا إليك وظننت أنت أنهم قد احتووك وقربوك. لكنك عندما قررت إطالة بقاءك تم رفض طلبك. هناك الكثيرون يبقون هنا أوهناك، أكثر من نصف عائلتي أقاموا هناك منذ زمن، لكنني على ثقة بأنهم يخسرون كل يوم خيطاً يربطهم بمصر. اكتشفت يا "مصطفى" أننا لسنا بالبساطة التي يرسموننا عليها. لما حصلت مشكلة "أمستردام"، كانت نفس المشكلة بتاعتي، لكن على مستوى أعلى. ديمقراطية؟ ليبرالية؟ تمااام. لكن بشروطنا، يجب أن تكون ليبرالياً كما نفهمه، أو ديمقراطياً كما نعرفه، حراً لكن تسلم علينا بطريقتنا وتؤمن بنفس ما نؤمن به. لكن حذاري أن تتدخل في شئون غيرك، أو

تدعي ثقافة مغايرة أو تعلمني سطراً لم أفهمه في كتابي؟ لاااا.. هذا ما لا يمكن السماح به. تفتكر انت إن المظاهرات التي قامت كانت هي فقط السبب فيما حدث من محاربة لهؤلاء؟ كانت التحقيقات قد أظهرت كل شيء، من وراء الأحداث وكيف ولماذا. غير أن هذه الأخبار لم تنتشر في مصر طبعاً. لماذا منعتهم تلك الحكومات من ندواتهم وتقطعت كل الاتصالات فجأة؟ أدركوا فجأة أننا خرجنا عن النص، وأن خروجنا لن يوافق الكتاب، ولن يسير وفقاً للقواعد، وبعدها قرروا أن ينتقموا من تلك البلاد التي صارت صداعاً لهم، والتي بدا وأنها "صدقت" و"حتعيش الدور". ما حدث كان شيء مهم جداً يا "مصطفى"، سواء ما حدث لي أو في "أمستردام"، شيء أثبت أن المجانين موجودون على الناحيتين، وهدفهم في كل حال واحد. أن يحرق كتاب الآخر ويتشدق بروعة كتابه وإحكام معانيه. "السمان" و"جماعة الحق" شايفين إن الذي تعلم الدين فقد تعلم ما يؤهله للأمر والنهي في كل شيء، ووصف الآخر بالتخلف والغباء. كذلك رأى أستاذي أن من آمن بالحرية كما آمن بها هو، فقد شرب التقدم وامتلأ بالتنوير، واستحق أن يأمر وينهى أيضاً في كل شيء".

قلت في تفكير وكأنني أحدث نفسي: "أظن أن الأمر ليس بهذا الوضوح يا "شاهي"، حتى داخل الملاحدة كما يسمونهم، هناك أولاد وبنات آمنوا فعلاً بأن الدين هو الأصل وأن ما يحدث شيء آخر بعيد، وهناك من باتوا يتساءلون عمّا إذا كان ما

يصدره "السمان" ورجاله هو الحقيقة؟ ليس الكل متفقون على حقيقة واحدة ولا هم على قلب رجل واحد كما تصورين"

قالت بعد لحظات في تردد: "والحقيقة أن هذا التقسيم نفسه يثبت ما أقول. بس سيبني أكمل لك!! بعد أسبوع أنبأتني "هايدي" أن أستاذنا أخبرها أنه صرف نظر عن مساعدتي. لامتني بشدة على ما فعلت وعلى كلامي "العدائي" معه. سخرت منها ومن كلامها، وقلت لها أنها تصدق أستاذها دون أن تسمع مني، فقالت أنها تفعل لأنه أستاذ كبير وشخص مشهود له بمساعدته الدائمة للأجانب وهي تعلم كم كان متعاطفاً معي. علقت بأنها رغم ذلك لا تعلم كيف يفكر، ولا تعلم كيف يرانا لمجرد انه يظن أنه أوسع قراءة وأكثر ثقافة. هذا بالضبط ما حدث هنا. الأولاد امتلأوا بالقراءة والعلم، فواجهوا طرفاً لا يقرأ ولا يعلم. حكمهم عليه جاء من منطلق أنهم يعلمون وهذا الطرف لا يعلم، وأن علمهم بالضرورة أعلى من مستوى عقله، بص بذمتك لكلام "جماعة الحق" والدعاة في البرامج؟ أنا "بنت كلب"؟ طيب، لما هذا هو مستوى الحوار والعقل، لذا لابد لهذا الداعية أو البرنامج أو الجماعة أو الطرف الآخر كله، أن يتغير ويقرأ ويفهم ويتعقل، يعني باختصار يكون مثل هؤلاء الشباب، وإلا فلا. دعك من التنكيل وغيره، مفهوم أنه عامل ضغط طبعاً وغير معقول أن يقتل زملاؤك ويسجنوا، ثم تسجن أنت أو من تعرفه وتظل هادئاً، ولكنني أتحدث عن الموقف الآن. معظم هؤلاء، والكثيرون من شباب الجامعة مثلهم، يحتقر الناس الذين

يسمونهم الناس العادية، يقلل من قدرتهم على التفكير، وينتقد غباءهم في تقبل نمط "جماعة الحق" في إدارة الحياة."

خطر على بالي كلامك يا "أدهم" في انتقاد النخبة، وكلام "غادة" عن "مصر" إللي بتتصعب وتمصمص شفايفها لما تأتي سيرتكم، وكلام "عزمي" عن "الغبي" الذي يهلل للغباء فيغيظه بأكثر مما يفعل الأغبياء الأصليون، لكن "شاهي" واصلت قائلة: "هذا الاحتقار هو الذي دفع الملاحدة وشباب الجامعة إلى أن ينقسموا بين رافض للدين كله، وبين من يريد أن يقبله بدون القيد الذي يفرضه عليه، وإذا وجد حجة تمسك بها وطرح السؤال الذي لاحظته أنت: هو الإسلام أو الدين بيقول كده فعلاً؟ الصلاة بالعافية ونحط لها ملاحظين، والبنات تتجوز وهي عيال صغيرة؟ والأمن مش مشكلة، والفقر بكره يحل نفسه والستات تقعد في البيت فإذا بمشاكلنا كلها تتحل علشان ربنا راضي عننا كده؟".

أنهت كلامها بضحكة قصيرة وقالت: "والله كلنا نفس الفكر!! ماحدش طايق حد، وكل طرف بيحتقر التاني وماحدش بيحاول يتناقش ولا يقيم الحجة على التاني، كل طرف شايف إن التاني مش من مستواه، أو مايستاهلش يتكلم معاه، لكن طول ما الناس عندنا بتسطح الأمور وبيلفوا اللب في ورق الكتب، سنظل أسرى لكل واحد بيصلي ركعتين في التليفزيون، وسنظل لا نعرف كيف نتكلم مع إللي فاكرين نفسهم متعلمين وفاهمين كل

حاجة زي أستاذي الألماني، ومش بيبصولنا إلا إننا حيوانات ليس لديها مخ، إلا لو لبست نفس لبسهم أو أكلت نفس أكلهم".

"قلت في ضيق:"والعمل؟"

قالت وهي تشيح بوجهها وتعدل من وضع خصلة نافرة: "ولا حاجة. كوكب الأرض ده طلع مقلب! من مصر لألمانيا لأمستردام، ياقلبي لا تحزن. لكن مع ذلك، ومع إني عارفة إن كل إللي حصل لنا متدبر، بس شوف الفرق بين إللي يقف ويقول الحق في وش الظالم، وبين الظالم نفسه، إللي الظاهر شخصيته هي هي، مابتتغيرش ولو لبس ألف وش!!"

* * *

كان أول مارأيته منه هي لحيته الغزيرة، عيناه الضيقتان تتأملاني في شغف، وابتسامته تتسع وتتسع، لتكشف عن أسنان مصفرة لثغر بريء ، كمن يفهم حل اللغز فجأة فيسخر من غبائه إذ كيف لم يجد الحل قبلاً وهو ماثل أمام عينيه!!. "أيمن" ابن خالة والدتي، الذي طالما أتحفني بنظرياته عن فساد الحكومة، وكيف أنها تتلاعب بنا، وعن الأخبار المؤكدة التي تنفيها الصحف، وعن أبي الذي يجب عليَّ احترامه رغم أنه لا يتفق معه. احتضنني في ود حقيقي لكنه لم يقبلني على وجنتي واكتفى بدفن وجهه في كتفي الأيمن ثم الأيسر، وجلس على أقرب كرسي مشمراً عن جلبابه القصير، ومباعداً بين ساقيه اللذين غطاهما سروال طويل من نفس اللون. سألني عن حالي فلم أجد الكثير لأرد به عليه. أبلغني سلام الجميع وفرحتهم بعودتي،

وحرص على أن يسب "إسراء" وينعتها بالفاجرة النذلة، والتي لم تراعِ غيبة زوجها وتزوجت عاماً واحداً بعد غيابي وكأنها "ما صدقت". قص عليَّ كيف أن إصابته في "محمد محمود" على فداحتها لم تؤثر به، وكيف أنه كان بعد ساعات يعمل في تضميد جراح المصابين بالمستشفى الميداني في الميدان. انتقل في سرعة محسوبة إلى أخباره الأخرى، لكنني لاحظت مقصده فلم أقاطعه. كانت أحوال البلاد قد اضطربت بشدة بعد الثورة فلم يعد يجد دخلاً كافياً من عيادته الخاصة، وتحطمت أحلام زيادات الدخول كما تعرف، وكان قد زهد في الثورة وبدأ يعزف عنها. "أنا بعد إللي شفته يوم المجمع العلمي، وأيام مجلس الوزرا، والقصر العيني والبلطجية وقلة الأدب، حسيت إن فيه حاجة غلط. لا دول إللي نعرفهم ولا ده إللي نزلنا علشانه. ماتقولليش بقى طرف تالت ولا رابع، النهاية: مابقاش ييجي منه". قال أنه فكر في الأمر كثيراً، وأنه حقيقة لم يجد تفسيراً مناسباً سوى أن كل ذلك مقصود. "كلما اقتربنا من تسليم السلطة، أو من خطوة مهمة لاستقرار البلد، قامت مشكلة هنا أو أخرى هناك. أنا فاكر كويس إني كنت زعلان جداً من "محمود السمان" إنه مابينزلشي معانا وحتى صاحبك "عزمي"، فاكره؟ آه، هو الذي استقبلك واصطحبك بنفسه من ألمانيا؟ والله فيه الخير برغم كل شيء، باقول حتى "عزمي" كان زعلان منه جداً لنفس السبب، ورأيت وقتها أن الحق معنا". قال بعدها بكلمات جهورية ولهجة حماسية أن الأمر كله كان مؤامرة أمريكية ملعوبة بإحكام،

وهدفها منع الإسلاميين من الوصول للحكم. "محمود وإللي معاه، الله يكرمهم، ما كان لهم مصلحة في وصول أي طرف للحكم، لكنهم كانوا يدعمون شرع الله، ومن اعتقدوا أنه سوف يطبقه، أو على الأقل ينادي بذلك. لذلك كان واجباً ألا يدعموا تلك الاعتصامات الخائبة. أنظر بنفسك، ما هو أنا كمان تورطت في هذه الأمور وكنت هناك، لا أنكر أنني كنت ضالاً أنا الآخر، لكن ماذا جنينا منها؟ قتلى ومصابين، وفي الآخر لا شيء. ومرت سنون، وسبحان الله، يثبت ادعاء وزيف هؤلاء وهؤلاء، ناس جابت للبلد كلها مشاكل، سواء بره، أوجوه، ونشروا الكفر والإلحاد كمان، وناس تانية، كانوا بيفاصلوا في شرع الله ويداهنوا المنافقين والكفرة الغربيين، لحد ما ربنا نصر عباده المؤمنين. صحيح: ويمكرون ويمكر الله، والله خير الماكرين".

سألته ورأسي تتقاذفه عدة خواطر للرد على كلامه الذي لم أعد استطع الرد على جزء جزء منه مرة واحدة، بينما أشير بيدي إلي زيه الخاص الذي ذكرني بشيء ما: "وهذا ما أقنعك بالانضمام لـ"جماعة الحق"؟"

ضحك وهو يعدل من وضع طاقية صغيرة على رأسه وقال: "أنا؟ ياليت يا أخي!! أنا يشرفني طبعاً الانضمام إليهم، لكن التبعات والواجبات بعد ذلك كانت لتكون صعبة عليَّ. أنا أعمل طبيباً كما تعلم، ولا أعرف لي مهنة أخرى، وأمور الدعوة تحتاج لعزيمة قوية، ووقتي مشغول مع "أشرف" ولدي كثيراً، فلم

اتزوج بعد طلاقي حتى اليوم، أخذتني الإعارة والعمل بالخليج سنوات وسنوات حتى عدت، لكن هذا أمر يطول شرحه".

* * *

الصداع..

تفاقم الأمر كثيراً في الأيام الماضية..

كانت رأسي مشغولة بألف أمر، "عزمي" الذي لم أره منذ عدة أسابيع وكنت أبحث عنه أريد استشارته، وأمر الاستتابة، وغضبكما مني أنت و"غادة" بشأن عرضي عليكما.

في وسط هذا الأمر قررت الذهاب لـ"عماد".. شيء ما في شخصيته أنبأني أنه سيحسب الأمر ببساطة، دون تعقيدات "شاهي" واستسلامها، أو أحلام "عزمي" الثورية. "هريدي" ليس هنا للأسف، وإلا لما احتجت لسؤال أحد سواه.

فاتحت "عماد" في الأمر مباشرة عبر الهاتف. سكت قليلاً ثم سألني: "والباقيين؟". اندهشت وقد أدركت ما يرمي إليه، قلت في بساطة: "أنا مافكرتش كده خالص"

-"لأ، لازم طبعاً تفكر كده. الشباب دول مرتبطين ببعض. صحيح "أدهم" و"غادة" شخصيات لها وزنها وسط المجموعة، علشان كده "حسام" عاوز يستغلك بإنك ترغم إبنك بالذات على إنه ينكسر ويذلك بالمرة، لكن تراجع الباقيين يمكن يخفف العند شوية، ويمكن "حسام" يقتنع بإنه يفرج عن الولد لو الباقيين تابوا زي ماهو عاوز. انت عاوز مصلحة الولد وشايف إنه لازم يخرج من هناك ولا لأ؟"

-"بكل تأكيد"

* * *

-"خلاص، يبقى اعمل إللي باقوللك عليه.."

* * *

هكذا بدأت أركز على زملائكم..

قاوموا كثيراً في البداية، لكنني كما قلت لك مقنع، وأعلم ذلك. وجهي الهاديء وخلفيتي كبطل للثورة جعلاني أنجح في إقناعهم بنيتي الطيبة. قلت كلاماً كثيراً عن الضرورة التي تجعلنا نتخذ طريقاً جديداً لنحاول الوصول لنفس الهدف، وعن الريح التي يجب أن ننحني لها، حتى لا ننكسر. حكيت قصصاً عن علاقتي بشباب الجامعة وعن كفاحهم في التنوير والذي- بحسب روايتي لهم - قارب على أن يثمر وعياً جديداً كافحوا من أجله وحلموا به طويلاً، وعن أهمية تواصلهم معهم لتصحيح الفكرة الخاطئة عنكم، من أجل مصر التي تفتقدهم. أنت قلت لي رداً على ذلك يوماً، بأن "من لا عقل له سينتقدنا مهما فعلنا، وسيرفضنا دون تفكير من الأساس"، وأن التواصل الذي أتحدث عنه "ينفع في عزومة غدا، لكن في بناء وطن وتنوير عقول، التواصل بييجي لوحده، مش لازم له استتابة وإننا "نطاطي". السكة دي سكة اتجاه واحد، لو بدأنا الطريق ده واتنازلنا وكدبنا، لا حنرجع نناضل، ولا حنكسب غير احتقارنا لنفسنا، ولا حنفتح عينين الناس ولا أي شيء. عارف إيه إللي مخلينا عايشين؟ إننا

متسقين مع نفسنا. مش زيك. عاوز تساعدنا قول إللي بيحصل هنا، اصدم الناس، مش تنافقهم وتنافق إللي مشغلينك".

كأنك كنت تقرأ عقلي وترى دخيلة قلبي. "مش زيك". رنت في عقلي مرة ومرات، لكنني لم أعبأ بكل ذلك..

* * *

ماذا فعل الجميع من قبل؟ كلام، نظريات، صراعات، هذا لا يقبل ذاك، تشخيصات كثيرة، ولا شيء يتغير، بالعكس، حالة المريض تسوء، الكل يسوف الجراحة، وكل الأيادي ترتعش. جاء دوري لأحاول، لأشرع في شق صدر المريض بمبضعي حتى لو كان ثلماً. لأنقذك من نفسك كما كنت أظن، ولأكسب شيئاً لنفسي كما كنت أنكر بوعيي، لكن أعترف بذلك وأسعى له في اللاوعي. بدأت ألعب على كل الأوتار المتاحة، في قسوة وإخلاص!!

بكت إحدى زميلات "غادة" عندما ذكرتها بأن أهلها من الأكيد أنهم يفتقدونها فقالت من بين دموعها، أن أمها مرضت مرضاً شديداً ولم تتمكن في الآونة الأخيرة من زيارتها كل شهر كما هو مسموح. رجتني أن أفعل شيئاً فقلت بوجه متعاطف أن الإجراءات قد تطول، وأنني أظن أنها لو تابت سيكون ذلك أفضل وأسرع. وعدتها رغم ذلك بأن أحاول، لكنني لم أكن أنتوي شيئاً من ذلك. تركتها عامداً، وأنا أعلم أنها ستبيت ليلتها وتأتي بغد يوافق ما أسعى إليه.

هكذا جاءت الاستتابة الأولى في تاريخ الملاحدة!!

كان حدثاً تاريخياً. أبلغت "حسام" باتصال هاتفي، فجاء شخصياً إلي بيت الملاحدة ومعه طاقم حراسه. أعد رجل الكاميرا عدته، ونظر إلي في احتقار لم يفتني، لكن "سعد" كان في منتهى السعادة والفخر. كان يربت على ظهري طوال الوقت ويهمس في أذني بكلمات المديح، بينما "حسام" يقف بجانبي ويبدو عليه الانتشاء والفخر، بينما تجمع "الملاحدة في الطرف البعيد عن عدسات التصوير، وخارج نطاق وقفتنا مع "المستتابة" التي بدا عليها الندم من نظرات زميلاتها النارية. رأيتك تنظر لي في دهشة، لكنني تفاديت نظرتك، وقلت لنفسي أنني سوف أصلح من ذلك يوماً ما، وأقنعت نفسي أنك لا تفهم. داهمني الصداع مرة أخرى واكتنف عقلي السواد ورأيت ملمحاً من ذكرى بعيدة، رأيت نفسي واقفاً فوق سطح بيت ما، ورأيت عينا "هريدي" تنظران لي في دهشة مثل التي في عينيك. عدت لوعيي على أثر هزة من يد "سعد" وهو ينبهني إلي بدء البث المباشر. ألقى "حسام" كلمة قصيرة عن طريق الحق وعن مشروع الاستتابة الذي لم تدخر الدولة وسعاً في الاستثمار فيه من أجل هداية المواطن الذي هو لبنة المجتمع، وأشاد بفكر الرئيس في أن مصلحة المجتمعات تأتي قبل مصلحة الفرد، ثم أشاد بجهدي المخلص كبطل للثورة التي قامت من أجل مصر. قرأت الفتاة رسالة الاستتابة من ورقة دسها في يدها أحد مساعدي "حسام" وانخرطت في بكاء عنيف، لكنهم أشاحوا بالصورة إلي الواقفين من حولها، "حسام" المبتسم في ظفر،

و"أنا" الذي صرت نجم الحدث في لحظات. ضجت الغرفة بالتكبير من حلوق حراس العنابر الملتحين، وابتسم "صابر" في جذل وهو يختلس النظر إلي "غادة" في حنان لزج. أطال النظرة كأنه يظن أنها سوف تستجيب لعينيه فتتوب هي الأخرى على الهواء، لولا أن حدجته بنظرة اشمئزاز، قبل أن تخرجوا جميعاً إلي عنابركم تسوقكم فوهات مدافع الحراس في آلية.

في الأيام التالية، صرت مشغولاً جداً..

تغيرت حياتي فجأة، صرت أُحمَل إلي "بيت الملاحدة" بسيارة فاخرة، مختلفة عن "الميكروباص" المعتاد، بل وصارت السيارة تدخل بي وتحملني إلى داخل أسوار البيت وحتى مدخله الرخامي العتيق كأي زائر رفيع. تهافتت البرامج الدينية لدعوتي. كنت لا أعرف ماذا سأقول في مثل هذه البرامج، لكن المعدون طمأنوني بأن حديثي والأسئلة الموجهة لي سوف تقتصر على تجربتي كبطل للثورة، وجهدي المحمود في الاستتابة. استضافني برنامج ما مع نفس الفتاة التي استتبتها، فقالت أنها عدلت عن موقفها وارتدت الحجاب، فدعا لها الشيخ مقدم البرنامج بالهداية، ثم حدج الكاميرا بنظرة قاسية وقال: "وعقبى لكل الأخريات وربنا يهدي". كانت هادئة الوجه، لكن كلامها كان خالياً من الانفعالات. امتدح الشيخ مجهودي في إعادتها لطريق الصواب، وسكت ناظراً إليها لعلها تؤمن على كلامه، فنظرت إليه في استنكار وقالت بضيق: "عاوزني أقول إيه يعني؟". ابتسم في خبث ثم أعلن عن فاصل إعلاني. لكن،

وإذ انقطع البث الحي لإذاعة الفاصل انهال عليها بالتوبيخ. أطلق سبة بذيئة تطال أمها، أدهشتني في قسوتها، وأمرها بأن تتأدب في حضور العلماء من أمثاله. لم أكن أعرفه لكنه كان مخيفاً بحق. نظر لي في ود نجح في رسمه في ثوان ببراعة، وقال بأنني يمكنني الانصراف قبل عودة البث. قمت واتجهت للفتاة لأسلم عليها فأشاحت بوجهها بعيداً وقالت في فحيح محذرة: "ابعد عني لو سمحت".

* * *

ربت "أيمن" على صلعة "كمال" في حنان وهو يناديها بالولد اللطيف، لم اشأ تصحيح معلوماته، وهي سكتت كعادتها إلا أنها منحته نظرة غيظ عجبت لمرآها في عيني طفلة مثلها. سألته عن أحواله ورحبت به كثيراً، لكن تناهى لمسامعنا أصوات الموسيقى الصاخبة في البيت المجاور، فاستعاذ بالله من الشيطان وأخذ يسب بصوت خفيض وهو يختلس النظر لـ"كمال" حتى اطمأن أنها رحلت، فقال لي "الله يلعنهم هؤلاء الكفار، كيف تتحمل السكنى في هذا المكان يا أخي؟"

-"والله أنا لم أختره، كما أن ليس لي غيره الآن. بعض الموسيقى لن يزعجني كثيراً، هم على أية حال سيتوقفون على الأغلب بعد قليل، كما يحدث كل يوم".

-"كل يوم؟ لا إله إلا الله. أتدري شيئاً؟ هذه هي الطاقات المهدرة التي تأسف عليها بحق. شباب "زي الورد"، وكل ما يفكرون به هو الرقص والغناء والعربدة. طبعاً بنات وأولاد

يتمايلون معاً في تلك الحفلات بلا ضابط ولا رقيب. شيء "يغم". وفي النهاية يقولون "حرية رأي" وفن وكلام فارغ، ويقيمون الدنيا ولا يقعدونها عندما يداهمهم الإخوة أو يقبضون عليهم ليودعوهم بيتاً من بيوت الملاحدة".

-"يا أيمن لا تشغل بالك، هو طيش شباب ويذهب لحاله، ماحدش قال إنه صح، ولا إني مبسوط من الإزعاج على الأقل، لكن ربما يكبرون ويهدهم الله. أصلاً لا أرى داعياً لمثل ردود الأفعال هذه. لماذا تريد لهم أن يكون جزاؤهم عنيفاً بهذا الشكل؟ ألا يكفي هؤلاء الملقون في بيوت الملاحدة بلا ذنب حقيقي؟ ربما لا تعلم أن "أدهم" ابني و"غادة" بنت "أحمد هريدي" من بينهم؟"

-"لا يا "مصطفى"، أويصدر مثل ذلك منك أنت؟ أنت الذي تؤدي خدمة جليلة للشباب في بيت الملاحدة تقول ذلك وتوافقهم على هذا السلوك؟"

-"ما علاقة ذلك بما أقول؟ أتراك تنتظر مني أن أهلل فرحاً لمحبس الاثنين؟ أم لمحبس الآخرين وإلقاء غيرهم هناك أيضاً لتهمة هنا أو هناك؟ أنا لم أوافق أحداً على عربدة أو إزعاج، لكنني أراك تضخم الأمر وتنظر من وراء حجب الغيب، فتبصرهم يتراقصون ويتمايلون، ثم تحكم عليهم بالضلال وتبيح التنكيل بهم. طيب التانيين قالوا إحنا مش عاوزين الإسلام، أو انتوا فهمتوها كده، طيب دول كمان ليه؟ ماهو نفس الطريقة تتكرر

تاني أهو، أي كلمة أو حركة ماتعجبهمش، يبقوا كفرة وملحدين على طول، مرة موسيقى ومرة سياسة، والله أعلم إيه تاني"

-"وهل نتركهم حتى يصيرون منهم؟ هل تنتظر حتى يجاهروا بالكفر والإلحاد ويصدعونا بالنقد والتقريع فيستميلوا أناساً آخرين، وتبدأ دائرة الفتن والتجرؤ على الحاكم وهلم جرا ؟ معظم النار من مستصغر الشرر يا مصطفى، وإذا سكتنا اليوم، فماذا عسانا نطفيء به النار في الغد؟".

لم يبدو عليَّ أنني قنعت بحديثه، فتفرس في ملامحي لبرهة، ثم عاد لحديثه عن عملي فقال: "بس برضك أنا عايز أقول لك، ربنا إن شاء، سيثيبك أجراً عظيماً على ما تفعل. لو الشباب دول فهمناهم غلط زي ما انت بتقول، سوف يعودون لرشدهم مرة أخرى. وعموماً، إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء، بس انت بتسعى، والله يسعى معك. إن شاء الله يهديلك أدهم وغادة، لكن الأمر خطير فعلاً، العيال دي فعلاً كانت لازم تتقتل زي ما دكتور "حسام" ما قال، بس ربما كان الله رءوفاً بك وبروح والد الفتاة. فكرة الاستتابة أشد قوة، وكان لها بعد سياسي عظيم، ودهاء دعوي كبير"

قلت متعجباً مما ظننت أنه يقصده: "إذن فأنت تعلم أنها كلها لعبة سياسة لا أكثر؟"

قال بنفس عجبي: "لعبة سياسة؟ أنا لا أفهمك تماماً! كل ما في الأمر أننا نعيدهم لطريق الله، ربما بالضغط أو الترهيب أو الترغيب، لكن ثوابنا على هداية نفس واحدة عظيم، والسياسة

التي أقصدها موجهة ضد الكفرة من الليبراليين والعلمانيين، الذين كانوا ينتظرون أن نسلك معهم مسلكاً عنيفاً، فيقيموا الدنيا ولا يقعدوها. حكمة المؤمن أن يختار وينتقي معاركه، ويحسن توقيت رمي سهامه"

-"بُص يا أيمن. أنا صحيح لسه راجع من غيبوبة والكلام ده، وأكيد حتقول عليا معرفشي حاجة، بس إللي حقوله لك ده مش أي كلام، وعندي معلومات أكيدة تشير إليه. موضوع الاستتابة ده كله على بعضه لعبة سياسة بين "السمان" وحكومات أمريكا وأوروبا. ورقة ضغط حب يلعب بيها، بس مانفعتش. هم ودول تانية انت عارفها كويس، وتقدر تخمنها، منعوهم إنهم يمسوا شعرة من الولاد دول. آدي كل الحكاية، ولا انتقاء معارك ولا يحزنون"

ظهر على وجهه الغضب وقطب حاجبيه، فانكمشت علامة الصلاة على جبهته بشدة وقال في ضيق محذراً بإصبعه: "أهو ده كلام العلمانيين إللي حيودونا في داهية. انت لحقت تتأثر بكلام إللي اسمه "عزمي" ده؟ الناس دي ربنا طمس على قلوبها وأبصارها، فهم لا يفقهون. يأكل الغل نفوسهم فلا يتصورون للحظة أن "ذوي اللُحى"، كما يسموننا في سطحية، قد يقبع في داخل أي منهم "إنسان" حقيقي، يتعاطف مع هؤلاء الأولاد، ويبغي مصلحتهم. كرههم لشرع الله أدى بهم إلى إنكار وجود الرحمة في هذا الشرع، "أكلشيهات مقرفة"، يرموننا بها بهتاناً وزوراً. مسلم ملتزم؟ يبقى انت أكيد متخلف وبتدور على الحدود

وماتقبلشي تفاهم، طيب ولو تهاودت وبحثت عن درء المفسدة كوسيلة لجلب المنفعة، لأ، تبقى انت 100 في الـ 100 متواطيء ومضغوط عليك ومنسق مع الغرب. مع العلم بقى: هم دول أول ناس بيلجأوا للغرب علشان يتدخل في بلادنا ويمنع شرع الله، يعني "عزمي" و"شاهي" والأشكال دي كلها، ما هي عاشت بره واتعلمت بره وكانوا بيمرنوهم على الديمقراطية وإسقاط نظم الحكم، والتغيير، والكلام الفاضي ده كله، طيب ليه؟ مش علشان يرجعوا ويبقوا جنودهم في الداخل، ولا علشان سواد عيوننا؟ سألت ابنك بيجيبوا الفلوس غللي كانوا بيضحكوا بيها على الناس ويبنولهم مدارس ومخابز منين؟ والكلام ده شغال من يوم الثورة زمان لحد النهارده، ومُنَى عينهم إن مخطط إسقاط الإسلام والإسلاميين ينجح. يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون"

قلت وأنا في حالة ضيق من منحى نقاشه: "والله يا "أيمن" أنا احترت، "عزمي" و"شاهي" إللي انت بتقول عليهم دول إحنا كنا معاهم كتف بكتف، ولم نر معهم لا دعم غربي ولا يحزنون. "شاهي" نفسها اتبهدلت آخر بهدلة، وأخوها مات ولا حدش جاب حقه، وهي اتقال عليها إللي ماتقالشي على يهودية بتحارب المسلمين على الجبهة، مع ذلك رجعت مصر ورفضت تترمي في حضن الناس بره، أدهم بقى، مش عارف أقول لك إيه، كان سافر مع أمه بره واتنعم بالفلوس إللي بجد لو كانت الحكاية فلوس، ولا كانوا خرجوه من القرف

إللي هو عايش فيه، مش فاهم فعلاً قناعاتك دي جايبها منين؟ الغرب إللي بيحاربنا زي ما أنت بتقول، دفع تمن الفوضى إللي اتهيألهم يوم إنها حتصب في صالحهم. لما لقوا نفسهم بيتعاملوا مع قنابل موقوتة، ساعات تنفجر في وشهم، وساعات انفجاراتها بتولد شظايا توصل لحد عندهم، قرروا يستغلوا القنابل دي في إنهم يحيدوها عن إيذائهم هم الأول، وبعدين يرموها علينا تاني. دعموا خناقاتنا وصراعاتنا وحطوا عليها قفل كبير اسمه الغطاء الديني. بص لكلامك، انت رافض أي مناقشة في نية حبايبك، "السمان" و"حسام" والجماعة، على طول الخط. لو كانوا يهود ولا ناس مش بتتكلم باسم شرع الله كنت فكرت وشغلت مخك، لكن القفل الكبير، مخليك مقتنع ومصدق وساكت. الغرب إللي بتقول عليه ده، لما لقى إن الحكاية قلبت عليه، وإن الشعوب إللي هي زينا، بتتخم في أي حد بيصللي ويصوم، وإننا لسه في "كي جي وان" ديمقراطية، و"كي جي تو" جدل ومنطقية، قرر إنه يستغل الفرصة دي، وينتقم من التيار الديني إللي آذى الغرب كتير جداً وضرب له مصالحه في كل مكان، بس الأذية دي جت بصورة عبقرية جداً: أقنع إللي زيك إن الناس دي مافيش منها، وسايبهم يعملوا إللي هم عايزينوا وهو عارف إنهم لسه ماخرجوش من القرن الرابع. أيامها كانت المعزة المربوطة جنب الخيمة والشيخ قاعد على الرمل بيخطب في أطفال وهم يهزوا روسهم، كانت هي دي النموذج، والعصر الذهبي. ذهبي ليه؟ علشان الشيخ بيتدخل في

كل حاجة، في الطب والهندسة، وفي الجواز والطلاق، والتعليم والصحة، لكن ماحدش يقدر يتدخل في أي حاجة في الدين، ده سيدنا الشيخ يا عم!! نفهم إيه إحنا في الدين زيه؟ لكن هو طبعاً بيقول لنا إنه الدين بيفهم في كل شيء، وإنه هو نفسه الأدرى والأعلم بأمور دنيانا، وهو كده، وإن كان عاجبك. كان لازم العصر ده ينجح علشان حبايبك يتحكموا، وعلشان الغرب يحقق انتقامه بأنه يرجعنا 10000 سنة لورا. إحنا بقينا مسخرة الأمم يا "أيمن"، وانت لسه بتتكلم على المخططات وعلى كسر شوكة الإسلام؟ يابني إحنا كده زي الفل، تيار إسلامي إيه إللي يحاربوه ويجندوا له جنود؟ يخافوا من مين؟ من التقدم والرخاء إللي إحنا فيه؟ ولا من تأثيرنا الحضاري المخيف، إللي ضروري حيسحب من تحتهم السجادة؟"

-"انت بتصدق الناس دي؟"

-"أنا طول عمري باصدقهم، إيه إللي يخليني أتوقف الآن؟"

-"إنك تُعمِل عقلك يا أخي!! إللي بتقول لك إنها سابت الغرب ورجعت مصر حباً في مصر، ورفضت تبعيتهم، دي واحدة "لَبَط"!! كفاية دليل على كده إنها أقنعتك بالكلام الساذج ده، وأنت متعلم ومش صغير ومع ذلك صدقتها!!. زعلان قوي إن الإعلام هاجمها؟ أنا نفسي هاجمتها في برنامج التوعية الصحية بتاعي إللي بقدمه كل جمعة في الفضائية الدينية. ربنا سخرها لنا لكي يقع بينها وبين الكفرة الغربيين خلاف ما، أوغر

قلوبهم على بعضها، فحمانا الله من كيدهم، وكفى. لكن دي واحدة لازم تاخد بالك منها، لو أتحت لها جو الجدل في الداخل، فهي كفيلة بخبثها ودهائها أن تستغل طلاقة لسانها في إثارة الفتن من جديد، هذا النوع يجب أن تقطع ألسنته، لا تنس أنها مسيحية موتورة، يحقدون على المسلمين وهي بالذات: مصرع أخيها الذي هو في النار إن شاء الله، ربما أصابها بلوثة ما، فجعلها تضمر حقداً فوق حقد، وناراً فوق نار. ثم يا أخي، هي الناس كانت اشتكت لك؟"

-"برضه انت مش بترد على كلامي، لكن أنا حاجاريك: وهل هجرة الناس من البلد، وضياع الأمن، وزواج الأطفال، والبطالة، وإعادة النساء للمنازل وحرمان الطالبات من الدراسة، ومسخرة "دستور الإناث"، ومصائب سيناء، كل ذلك أمور ننتظر استفتاء شعبياً لنعرف الشكوى بشأنها من عدمها؟"

حرك يده بانتظام كأنه يسكتني وبان على وجهه الاشمئزاز قائلاً: "يا ساتر عليك!! لقد ملأوا رأسك بالسفسطة مثلهم. لا حول ولا قوة إلا بالله يا "مصطفى"، يا أخي أراك تنحى مناحي فرعية لا علاقة لها بما نقول. يا أخي شرع الله هو الأساس. ما يضيرك يا أخي في أن تقر النساء في بيوتهن؟ نحن نريد أن نصلح المجتمع فكيف ينصلح؟ بالبنات اللواتي يدرن على حل شعرهن؟ أم الموظفات اللواتي يتلمزن ويغمزن لهذا ولذاك؟ ثم يا أخي العبادة راحة المؤمن وسلواه، انزل للناس في الشوارع وتحدث معهم، من أراد ترك البلد فليرحل وأرض الله واسعة،

لسنا نحجر على أحد، ولو فعلنا لملأوا الدنيا صياحاً، لكننا ندعو لسبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة، فمن لم يعجبه طريقنا ورحل ابتغاء طريق شيطانه، فما عسانا أن نفعل؟ أنصحك بأن تصلي أكثر يا "مصطفى"، ربما يمن الله عليك بزوجة صالحة، ويهدي ابنك على يديك، فيجمعكما بيت واحد بلا صوت يناكفك من زوج سليطة كتلك التي أراحني الله منها قبل أن ألتزم وأجد سلواي في كنفه، ولا ولد عاق مثل ذلك الذي سيهديه الله علي يديك إن شاء الله"

طال صمتي وقد آثرت أن أكتم غيظي ولا أهاجمه، خاصة بعد أن جنح لوجعه الخاص دون أن يدري. قال بعد هنيهة: "ثم يا أخي، مال الصحة؟ هو إن شاء الله مسألة الانسولين اتحلت أهي"

تذكرت مسئول السفارة المصرية ببرلين، وهو يطلب أمبولات الإنسولين لنفسه، والطبيب ينهره ويلمح له بزيف الروشتات، ويرمقه باحتقار، ورغماً عني انطلق السؤال على لساني كالببغاء:

-"الإنسولين؟"

* * *

تقرير أمني رقم 64789 د.م. القاهرة – قصر النيل- نوفمبر 2025

خاص وعاجل

السيد اللواء أكرم بك الشاهد..
بعد التحية..

يطيب لنا أن ننهي إلى علم سيادتكم نجاح أجهزتنا الأمنية في تجنيد العنصر "أيمن حلمي السيد" ويرمز له بالكود "قاهر-13" –ميداني- متعاون- بوزارة الصحة المصرية ويشغل منصباً متوسطاً في وزارة الصحة كطبيب، كما يواظب على تقديم برنامج للتوعية الطبية في القناة الفضائية التابعة للجهاز. انتهت تحريات مصادرنا إلى أن العنصر قد عاد من إعارة طويلة إلى المملكة العربية السعودية حيث تأثر خلالها بالعديد من الجماعات الوهابية هناك وعرف عنه نشاط دعوي إيجابي وتعاون مثمر مع ضباط الاتصال التابعين لنا حيث كان منوطاً به متابعة نشاطات الملاحدة الهاربين إلى هناك أو الذين يخططون لإثارة الراي العام عبر شبكات التواصل الاجتماعي.

هذا وقد اضطلع العنصر "قاهر-13" بأولى مهامه بعد عودته لأرض الوطن في إطار خطة الجهاز لإحلال وتوفير حقن عقار الإنسولين البديل عن العقار المعتاد والذي رفض الاتحاد الأوروبي تصديره لبلادنا نقمة منهم على حركات الإصلاح الدينية وغيرة على انتشار الفكر الإسلامي المستنير الذي من شأنه تهديد حضاراتهم الهشة التي ما قامت إلا على حرب الأديان، ذلك المنع الذي جعلوا حادث حرق السفارات الأخير منذ

سنوات وحملة مقاطعة البضائع الأجنبية شرارة له وذريعة لتنفيذه.

وفيما يلي تفاصيل مهمة "قاهر-13":

أولاً: قام ضباط الجهاز والسيد العقيد "..." بالاتصال بنظرائهم في السفارة الأمريكية لتسهيل الوصول إلى الشركات الدوائية المتخصصة بالولايات المتحدة الأمريكية

ثانياً: تم إيفاد "قاهر-13" ضمن وفد التبادل الأمني والتشاور السياسي الدوري لشهر مارس إلي الولايات المتحدة حيث تم تدبير لقاء سري جمع الوفد بممثلي معمل "إكسبيريمنتال فارماسيوتيكال يونيتد" المتخصص في أبحاث الدواء والتابع لوكالة المخابرات المركزية هناك، حيث تم الاتفاق على تدبير كميات وطلبيات مفتوحة من عقار تجريبي للإنسولين. نظراً لحساسية الوضع الأمني في مصر، والذي رأيتم سيادتكم أن توفير الإنسولين يقع على رأس أولويات إنقاذه، اقترح الوفد المصري توريد العقار

ثالثاً: أصر ممثلو الشركة على عدم توريد العقار بصورته الحالية إلا بعد التأكد من انخفاض نسبة السموم في الجرعة إلى درجة لا تهدد الحياة، لأنها -وحسب زعمهم- تظهر في صورة أعراض جانبية خطيرة ولم يتم تجريبها إلا على بعض الحيوانات الصغيرة التي تختلف عن التمثيل الحيوي المنتظر في الإنسان.

رابعاً: اقترح "قاهر-13" على أعضاء الوفد استيراد الدواء برغم ذلك والاكتفاء بطرحه في الأسواق لفترة محدودة،

لا تسمح باستخدامه إلا لتلك الفترة فقط وذلك لتجنب التأثير على حياة المواطن البسيط.

خامساً: بعد إبلاغ القاهرة، تدخلت مؤسسة الرئاسة ممثلة في السيد الرئيس حفظه الله شخصياً، والذي أتم الصفقة عن طريق اتصالات الرئاسة بمندوب وكالة المخابرات المركزية الأمريكية على وعد باستخدام العقار لأمور بحثية بكليات الطب البيطري بالجامعات فقط.

سادساً: تم تسلم العقار على هذا الأساس وبدون مقابل كمساعدة بحثية من مؤسسة "إكسبيريمنتال فارماسيوتيكال يونيتد" وتم إتمام الصفقة وتوريدها إلى مخازن قطاع الأمن العام تحت حراسة مشددة وتوزيعها على مؤسسات الدواء والتأكد من عمل الدعاية الإعلامية اللازمة عن طريق عناصر الجهاز بالصحف والإعلام المرئي والمسموع، مع إبراز دور مؤسسة الرئاسة والرئيس – حفظه الله – وجماعة الحق في توفير الدواء بسعر زهيد، مع ضمان حصة الجهاز من عائدات البيع.

سابعاً: تم التأكد من نزع كل بطاقات الهوية وتحذيرات الاستخدام الدوائية (النشرات) المصاحبة لعبوات العقار، وإبلاغ مؤسسة "إكسبيريمنتال فارماسيوتيكال يونيتد" بتوزيعها على كليات الطب البيطري بالجامعات المصرية لغرض البحث العلمي وتسجيل عدد منها مع دراسة الدواء الجديد على مستوى العالم.

ثامناً: مرفق لسيادتكم خطاب من مؤسسة "إكسبيريمنتال فارماسيوتيكال يونيتد" والذي تم استلام نسخة منه مرسلة إلى عدد من كليات الطب البيطري بالجامعات المصرية اليوم، حيث تسأل المؤسسة عن نتائج الأبحاث حتى الآن وتطلب موافاتها بنتائج التجارب على الحيوانات الكبيرة، وقد تم التعامل مع الموقف بما يتيح استمرار إرسال شحنات جديدة تغطي حالة السوق المصرية.

تاسعاً: تم التنبيه على إدارة مخازن الأمن العام على فصل عقار الإنسولين الشعبي عن مخازن عقار الإنسولين الأصلي الذي يتم استيراد الأعداد المطلوبة إليه بموجب المرسوم رقم 43701 م.د.و. بتاريخ 18 من مايو 2018، عن طريق اتصالات مندوب الجماعة بالإدارة والاستمرار في التشديد على عدم صرفها إلا لحاملي تصاريح الجماعة الخاصة أو لمندوب الرئاسة شخصياً.

برجاء من سيادتكم التكرم بالتنبيه باتخاذ اللازم.

مقدمه لسيادتكم،

ع. (...)

الإدارة المركزية

* * *

في الأسابيع التالية دخلت أجهزة التلفزيون إلي بيوت الملاحدة لأول مرة، وكانت تعرض كلها، وفي كل البيوت بنظام دقيق، برامجاً تشاهدونها إجبارياً. إنجازات "السمان"، مشروع

الاستتابة وهدفه، ولقاءات مع زميلتكم المستتابة، تشيد فيها بوجهها الخالي من الانفعالات بالمشروع، وتشكر "حسام" والسيد الرئيس على خروجها لتتمكن من دفن أمها!! هالني ذلك الخبر، لكنه أعطاني فكرة عن سبب فظاظتها معي. لابد وأنها وجدت أن خروجها كان بلا فائدة، وبلا ثمن.

لكنني لم أبتعد كما طلبت مني، ولم أتوقف..

انهار شاب آخر. ثم تبعته فتاتان. ثم بدأت الأعداد تتزايد، والحالات المستتابة تتكرر في "بيوت ملاحدة" أخرى. لم يحضر "حسام" هذه الاستتابات بنفسه، لكنه اتصل ذات مرة ليشكرني وأغلق الخط سريعاً بعد أن ذكرني أن ولدي لم يكن حتى الآن من المستتابين، وأن ذلك هو المراد أساساً لتكتمل الصفقة، حتى لو لم يستتاب الجميع. لم أنف عن نفسي تهمة أنني أريد المستشفى هذه المرة، وأقنعت نفسي بان ذلك ليس في بالي، لكن الأمر كان يروق لي في خيالي كثيراً، حتى أنني تخيلت "هبة" وقد عادت للعمل معي، بإخلاصها الدءوب، وعزمت على أن أجعل لـ"كمال" وظيفة ما عندي، بل وساورني القلق بشأن إعادة توظيف "سعد" معي مرة أخرى، لكنني كتمت أفكاري وركزت في الاستتابة اكثر وأكثر.

* * *

جاءت زيارتي لكما في أواخر "ديسمبر" باردة كجو الشتاء المحيط، أنبأني "سعد" أنك ترفض مقابلتي. وجدت أن كل ذلك طبيعي، ولم أعترض على تعليق "سعد" على موقفكما أنه

"لعب العيال"، مُشِيراً إليك وإلي "غادة"، التي تلقفت موقفك فنسخته كما هو. كان عدد الملاحدة قد بدأ يقل كثيراً في "البيت نمرة تسعة"، حتى أن العدد المتبقي لم يعد يزيد على أربعة فقط، منهم أنت وغادة، وحتى أن الحراسة على البيت قد تم تخفيفها بشكل ملحوظ. في ذلك المساء حدثت المفاجأة، انهار الاثنان الآخران، طلبنا رجل الكاميرا فاجرى اتصالاته، وانهمرت التكبيرات من كل مكان في البيت. نظر إليَّ "صابر" في بلاهة وقال أنني سوف يكون لي من الأجر إن شاء الله ما لهؤلاء على استتابتهم، لكنني لم أسعد بهذا المديح، لا أدري أهو إحساس بنقصان إتمام المهمة بعدم انهيارك أنت و"غادة" بعد، أم عدم اقتناعي من داخلي بخلاص نية دوافعي. تذكرت "عزمي" وحديثي معه عن "خلاص النية". طلبته فرد باقتضاب واتفقنا على لقاء. طلبت تدبير لقاء معكما لكن بشرط رضاكما فتطوع "صابر" بحماس لإنجاز المهمة والتحدث إليكما. جاءني بعد نصف الساعة، وهو يقتادكما أمام فوهة مدفعه، فنهرته ولم تعجبني نظرته لكما ولا رده عليَّ بأن هذه هي المعاملة التي تليق بـ"الأسرى والسبايا"، لكنني استجمعت أفكاري لجلسة خططت أن تكون حاسمة.

لكنكما كنتما في منتهى العناد معي، كالعادة..

كنت قد صرفت الجميع وتأكدت بأنه لا توجد مراقبة من أي نوع، وقلت لكما أن كل هذا الأمر أبسط مما تجعلان منه. صارحتك مباشرة بأنك ولدي، ثم قلت لك ما لابد وأنك تذكره، أن

الأمر كله "كلمتين" تقولهم أمام الكاميرا وينتهي الأمر، وفور خروجك سأسافر بك إلي أي مكان تختاره. حكيت لك كثيراً عني، أنا أبيك، وحاولت استمالتك بالعذاب الذي أعيش فيه وأوحيت إليك أن المهمة التي قبلتها والمجهود الذي بذلته في مداهنة "حسام" و"أكرم" ورجال "السمان" كان كله من أجلك أنت. قلت لك أن اللحظة حانت كي تتنازل عن كبرياء زائف لم يفض بك إلي أي مكان، وأن الناس الذين تكافح بصمتك وإصرارك من أجلهم سوف يحسون بك أكثر إذا خرجت، وليس إذا أصررت على بقائك في هذا الحبس. نظرت إلي "غادة"، وقد عقدت العزم على إقناعها كمدخل آخر لقلبك. قلت لها أن أبيها لو كان حياً لم يكن ليرضيه كل ذلك. "إيمان" – المرحومة أمها – كانت لتسعد برؤيتها حرة، هانئة سعيدة، وأنها منذ أعوام طويلة نزلت بها تحملها على كتفها وهي لا زالت طفلة، إلي الميدان لتثور في وجه الظلم على الأرض، وليس من وراء قضبان. ساعتها أحس بهم الناس وخرجوا وراءهم.

سكت أنا عن الكلام ظناً مني أني أعطي لكلامي الأثر المطلوب ليتفاعل مع أفكاركما. كنت أظن أن وقع المفاجأة عليك سيكون عنيفاً. كنت أخطط لهزك من الداخل، وكنت أُعَوِل كثيراً على استمالة مشاعر "غادة" التي أعلم كم هي مرهفة برغم ما تخفيه هي بصلابتها الظاهرة. بكت "غادة" في صمت، لكنها أشاحت بوجه غاضب بعيداً، وكأن كلامي فجر رفضها بشكل أكبر وأوضح من أن تستشيرك بنظراتها فيه، تكلمت أنت وسألتني

سؤالاً غريباً: "انت حضرتك متأكد إنك كنت بطل في الثورة بتاعة يناير؟ يعني انت فعلاً كنت نازل الميدان وبتنضرب علشان خاطر البلد؟ انت بتعمل كده ليه؟". حاولت ان أخبرك بأن حبي لك وخوفي عليك هما دافعي لذلك، لكنك قاطعتني بأن نظرت إلي طويلاً بوجه غاضب، تبادلت نظرة متوترة مع "غادة" الدامعة المصدومة، ولم تعلق. أطرقت برأسك للحظات ثم عاودت النظر إلي وقلت بلهجة مخيفة: "اتفضل اطلع بره".

* * *

كنت في قمة ضيقي لأيام..

"هبة" لاحظت، وحاولت التسرية عني بحكاياتها التي لا تنتهي.. لكن الصداع كان يزورني أكثر وأكثر.. وضيقي يزيد..

* * *

قررت أن أصطحب "كمال" معي للتنزه قليلاً..

كنت شارد الذهن في الأيام الأخيرة، كلماتك اللائمة الأخيرة لي عن حقيقة كوني بطلاً ثورياً كانت ترن في عقلي، فأسترجع مشاهد، منها ما أراني إياه "عماد" و"عزمي"، ومنها ما تجود به خلايا مخي، فيزداد الصداع. كان العصر قد ألقى بأشعته من خلف ستائر صالة المنزل لينير مجلسي عندما أرسلت "هبة" ابنتها "كمال" حاملة الشاي إلي. وضعته وهمت بالانصراف فسألتها عما إذا كانت تود بعض الحلوى. ابتسمت في حذر وعيناها الجميلتان تدوران في وجهي وكأنها تتأكد من مقصدي. ناديت على "هبة" لأستحثها على إقناع "كمال" بالموافقة،

فقالت أنها تخشى أن يرانا أحد أقربائهم، لكنني طمأنتها اننا سوف نذهب بالتاكسي ولن نتأخر للظلام. اتصلت بـ"أيمن" فضربت له موعداً على قهوة وسط البلد المعهودة عندي. بعد ساعتين كنا نجلس أنا و"كمال"، أنا وقهوتي المخففة باللبن، وهي تلتهم "ارزاً باللبن" بملعقة صفيح لامعة، في نهم غريب دون أن ترفع رأسها. دخل علينا "أيمن" وهو يعتذر لتأخره بسبب عطل فني على الهواء أثناء برنامج التوعية الصحية الخاص به. قال أن المخرج اكتشف عدم تعطيل اتصالات المشاهدين على الهواء بعد أن كان ذلك مقرراً، فاضطر أن يتأكد من ذلك أولاً مما أدى لضياع الوقت. ضحك بقوة وهو يتندر بأن حملة "جوعوا تصحوا" لم تنته بعد، ولم ينتبه الفنيون إلى خطورة عدم تعطيل المكالمات، وظل يلهج بحمد الله على تنبههم لذلك الخطأ في وقته، وإلا لصارت مشكلة عنيفة مع إدارة القناة. عندما أبديت دهشتي، قص عليِّ أن سيدة ما، اتصلت منذ شهرين ببرنامجه هو بالذات وسألت عن السبب في تشوه جنينها بعد ولادته رغم أنها واظبت على الإنسولين كما وصفه الطبيب. "أيمن" من جانبه قال أن ذلك يرجع غالباً لعدم ضبط نسبة السكر في دمها، لكنها انفعلت عليه وقالت أن"السكر كان مظبوط، بس انتو إللي منزلين إنسولين بايظ ومنتهي الصلاحية". كان إحراجاً على الهواء، لكن "أيمن" بـ"توفيق وإلهام من الله عز وجل"، سألها عن وزنها، فقالت أنها تفوق المئة والثلاثون كيلوجراماً، فما كان منه إلا أن قال لها "جوعوا

تصحوا". صارت هذه الجملة شعار حملة واسعة للتوعية بأسباب إجهاض الحمل، وتحمس لها مندوب الجماعة بالفضائية كثيراً. قال "أيمن" في جذل وهو يداعب لحيته في فخر: "تصور أنت؟ جاءني اتصال من "حسام المنزلاوي" شخصياً؟ كنت أعطي لأمي جرعتها اليومية من الإنسولين أيضاً، لكن من الأصلي، فضل من الله ونعمة أنهم يعطونني منه، عندما جاءني اتصاله. اتفق معي أن هذه المتصلة المأفونة لابد وأنها مدفوعة من التيار الليبرالي أو من أحد الملاحدة لإحراجنا وإثارة بلبلة بالأمر. تسعة أشهر غير كافية إطلاقاً لتشويه الجنين عبر دواء فاسد أيًّاً كان، ثم أنترك السكر ومضاعفاته ونلقي بكل اللائمة على بضعة حقن؟ الناس لم تعد ترضى بنصيبها في هذه البلد!!"

حانت منه التفاتة إلى "كمال" التي لم تعد تشعر براحة في مجلسها منذ حضوره وتوقفت عن الأكل تماماً وعلقت بصرها بي وكأنها تتحين رحيلي لترحل معي، وقال محاولاً التربيت على "صلعتها" كعادته وهو يظهر صفار أسنانه: "انت اسمك ايه يا حبيبي؟". حركت رأسها بعيداً في ضيق وجمعت كل غيظي من حديثه وقلت:"على فكرة اسمها "كمال"، وهي بنت، مش ولد".

تراجع في مقعده مصعوقاً وحملق فيها وكأنه ارتكب خطأ ما، وقال متمتماً: "بنت؟.. يا الله، انت عندك بنت يا مصطفى؟"

-"لأ، بنت واحد بيشتغل معايا، بس أهلها سايبينها عندي أمانة، المعايش صعبة زي ما أنت عارف".

نظر لي في شك قصير ثم قال باهتمام: "والله ربنا يكرمك. بس هي شكلها كده من ولاد الناس الضعيفة النفوس إللي بيخبوا بناتهم عن الأخوات، ولا إيه؟"

-"وافرض يا أيمن؟ أمانة برضه. حتبلغ عننا يعني؟"

-"حاشا لله يا أخي. بس أنت حاول تقنعهم ربنا يهديهم ويستروا بنتهم، أنا مش عارف الناس دي بيكرهوا أمر الله ليه؟ البنت دي نفسها لو تفهم إللي بيحصل لها، كانت قالت لهم إن إللي بيحصل لي ده ابتلاء، ستثاب عليه، وأنهم بفعلهم هذا يمنعونها أن تنشأ في طاعة الله، وفي كنف زوج يحميها من مجتمع علماني فاسد يبث فيها الأفكار إياها، إشي حرية وبتنجان، وفي الآخر يخلوها تلبس على مزاجها وتتكلم على مزاجها، وتحط راسها براس الرجال"

-"طيب والرجال يخافوا ليه يا أيمن؟ ده الستات كانوا بينزلوا المعارك أيام فتوحات المسلمين، ولا لما يبقى فيه حاجة الرجالة مايحبوش يعملوها بس سيقى حلال شغل الستات، وغير كده يبقى يحطوا راسهم براسك؟ والنبي يا شيخ بطل القوالب إللي انت حافظها دي. يعني عاجبك الرعب والمنظر إللي هي فيه؟ ده أنا قلت أخرجها تشوف الشارع شوية"

قال وهو يشير إلي وكأنه وجد منفذاً إلى منطقي: "حلو قوي الكلام ده!! لو كل حاجة حتقيسها على زمان، أقول لك، كانوا بينزلوا أرض المعركة للسقيا وعلاج المصابين، ولا كانوا بيبقوا صحفيات ومهندسات ووزيرات؟"

-"يعني هو انت عاوزنا كنا نعيش أيامهم زمان، ولا عايز الزمن بتاعهم يمتد لدلوقتي؟ يا أخي مش الرسول عليه الصلاة والسلام بلغ الرسالة؟ هي الرسالة دي مش تتفهم ولا مالوش داعي المخ أساساً؟ يعني الستات اللي كانت بتنزل المعركة مش كانت بتشارك في العمل العام ولا دي مش مفهومة؟ نجيب لك منين مهنة الصحافة ولا المهندسة أيام الرسول علشان تقيس عليها وترتاح؟ أنا مش باقول لك حلال ولا حرام، بس باقول لك خدها بالمنطق يا أخي، وخللي الدين في بالك في كل خطوة وراعِ ربنا، هو حد قال غير كده؟"

-"يا مصطفى، أولادنا علشان يعيشوا حياة كريمة، محتاجين إنهم يلاقوا بنات تجعلهم يتفرغون لطاعة الله وأن يكون خليفة في الأرض، يا أخي علشان "أدهم" و"أشرف" يبقى حظهم أحسن من أبوهم."

-"طيب و"كمال" مش ممكن تساعده إلا كده؟ تتجوز بدري وبالعافية؟ وهو بس إللي حيبقى خليفة في الأرض، وهي لأ؟"

-"لا إله إلا الله يا أخي!! بالعافية إيه هو إحنا بنقتلها؟ هي مش في الآخر حتتجوز ولا حتعيش لمزاجها؟ الستات ناقصات عقل يا مصطفى، لو سبناهم لدماغهم مش حيفلحوا، وممكن نخش في فتنة ونبقى زي ستات الغرب والعياذ بالله، الست القوية بقى إللي تقول لك أبقى وزيرة ومهندسة ومحامية، وبعض النفوس فيها مرض، والشيطان مش بيلعب، حيقول لك كلم دي، وبص لدي، وهزر مع دي، مش أنت يا مصطفى، بس

فيه ناس كده. والست بتموت في المناكفة والجدل، ولو فتحنالهم الباب لا حيتجوزوا ولا يتهدوا، وإحنا يعني لما نفرغها للبيت والأولاد ونريحها من السعي في الأرض يبقى وحش؟"

* * *

استمع "عزمي" لحكايتي عن التطورات في بيت الملاحدة في تثاقل وقال في لهجة رتيبة لم أعتدها منه: "وانت عايز إيه يا "مصطفى" دلوقتي؟"

قلت في تفهم: "أنا عارف إنك لا يمكن تكون موافق على إللي أنا بعمله في بيت الملاحدة. لا تظن أنني لم أفهم تهربك مني طول الأيام السابقة، أعلم أنك لا تريد أن تواجهني باحتقارك لاختياري. لكن ما حدث قد حدث."

-"طيب. خلاص كده أمشي، ولا عايز حاجة تاني؟".

-"يا عزمي أرجوك. أنا في أزمة"

صاح فجأة قائلاً في غيظ: "أنت في أزمة؟ وإحنا مالنا يا أخي؟ ما أنت بتعرف تحل أزماتك زي الفل أهو. مش بقيت حديث الساعة وحبيب الحكومة والملهم لمشروع الاستتابة؟ شوف بقى حتحل أزمتك إزاي. زعلان إن "أدهم" طردك، وإنه مارماش نفسه في حضنك لما عرف إنك أبوه؟ والله ده أقل واجب. انت عارف انت عملت إيه؟ الإعلام كله دلوقتي بيتكلم عن نصرة الدين وملاحقة جيوب الملاحدة في كل مكان. "ماجد" و"شاهي" وأنا كنا في التحقيقات بقالنا أسبوع. أكرم، حبيبك طبعاً، كان بيحقق معانا بذات نفسه شخصياً. قالوا لنا مش

الملاحدة تابوا خلاص؟ طيب انتو ضد الإسلام ليه بقى؟ حتى منظمات حقوق الإنسان ماوقفتش جنبنا ولا بقت فارقة مع "السمان" في حاجة. انت سمحت لهم يسجلوا صوت وصورة إن موضوع الملاحدة كان أساساً صراع ديني، وبكده مسألة إنه كان ضد النظام المستتر باسم الدين دي خلاص، ماحدش بقى يصدقها لا جوه ولا بره. الناس كانت عارفة إن الولاد دول مظلومين، مابيتكلموش آه، خايفين آه، لكن كان حييجي الوقت ويتكلموا. بدل ما نقول لهم إن الولاد دول زيهم زي "شباب الجامعة"، رافضين التمييز وضد حكم جابنا ورا، بدل ما نركز على كده، ونعمق صلتنا بالناس على الأرض زي ما كنا بنعمل علشان يعرفوا الفرق بيننا إحنا إللي عايزين ننور عقولهم وبين إللي مايعرفوش إلا كلمتين حافظينهم، الناس دلوقتي بيبصولنا إننا كفرة، وبيسألونا انتو مش حتتوبو بقى؟".

لم أعرف كيف أرد. زفر زفرة حارة وهو يهز رأسه في ألم: "ألن تتعلم يا "مصطفى" أبداً! قلت لنفسي كثيراً أن أسامحك. ظننت أنني فعلت، واعتبرت كأن شيئاً لم يكن. لكن، اعذرني فلم يعد بي قدرة على تحملك أكثر. تريد مني كالعادة صكاً للغفران. بالأمس بحثت عن غفران لذنب آذيت به نفسك، الآن تبحث عن غفران ذنب اقترفته في حقنا جميعاً. يا أخي متى ستفهم أن لا أحد يملكه؟"

قام غاضباً وتركني مذهولاً.. وصفق باب منزلي من ورائه في عنف.

دق جرس الهاتف، فجاءتني الأخبار المزعجة..

* * *

برغم أن "ماجد" في اتصاله بي، كان أكثر حلماً من "عزمي"، برغم أنه أكد لي أن الصورة ليست بالقتامة التي صَوَّرها لي، وبرغم أنه قال ان "الملاحدة" على اتصال به وأن الحركة سوف تنحى منحى آخر عن قريب، برغم كل ذلك فإن الخبر كان صاعقاً لي. قال أن القناة الأولى تذيع الآن تحقيقاً عما حدث، فسارعت بمطالعة الأخبار، وهالتني جثة الفتاة المستتابة، أول فتاة أقنعتها بالخروج، تلك التي قابلتني بعدها في البرنامج ورفضت السلام عليَّ.

قال التقرير أنها وجدت منتحرة بمنزلها. قال أبوها من بين دموعه أنها دأبت في الفترة الأخيرة على قراءة القرآن، والانزواء بعيداً عنهم، وأنها كانت تعاني اكتئاباً حاداً منذ دفن أمها الذي كان أول ما حدث بعد خروجها، ودون حتى أن تأتي لها الفرصة لمقابلتها أو رؤيتها بعد كل تلك الفترة. كان أثر "المونتاج" واضحاً على شريط التحقيق، وقدرت أن الرجل ربما أشار لحادثة الاستتابة ورأيها فيما حدث، وربما رأيها فيَّ أنا. انبعثت تكبيرات المحاور في صفاقة وهو يشيد باعتكافها لقراءة القرآن قبل انتحارها بليلة واحدة، وبالابتسامة التي تحجرت على وجهها حتى بعد أن فاضت روحها، فظهر الغضب على وجه الأب، لكن "المونتاج" حرمنا مرة أخرى من معرفة ما فعل أو قال بعدها. جاءنا صوت المذيع يقول بأنها ماتت

ونحسبها على خير، لكن صوت "هبة" التي كانت تشاهد الأمر من خلفي جاءني وهي تتصعب على القتيلة وتقول "ناس ماعندهاش دم، ماتت مقهورة يا عيني". سألتها في عصبية ولدتها مفاجأة التحقيق عما تقصد، فتراجعت في حذر وهي تقول أولاً أن البنت "شكلها كده حاولت تقبل الوضع الجديد إللي هي فيه، لكن ماستحملتش إنها ضيعت شبابها يا عيني في موضوع ماجابش همه، أهو ماحدش حاسس بيها أهو، والقنوات شغالة تشتم فيهم ولسه بيقولو عليهم كانوا كفار وتابوا"، لكنها لما طال تحديقي في وجهها مذهولاً، أضافت ثانية أن "البلد حالها يصعب على الكافر، فما بالك بالشباب إللي زي الورد دول". أحست انني مازلت غاضباً فسارعت تقول أن وفاة أم الفتاة هو ما تقصد. صرفتها في عصبية واختليت بنفسي. كلام "هبة" ذكرني بكلام "هريدي" لي عندما انفصلت عن "ندى". " عارف يعني ايه تتكسر يا مصطفي؟ يعني تحس إن اللي بتحلم بيه راح خلاص وإنك مش ممكن مهما عملت حتعوضه، فتبدأ تدور علي حاجة تانية خالص وتقنع نفسك إن ده هو اللي انت عايزه". هل ما فعلته خطأ أم صواب؟ هل لي علاقة بما حدث؟ ألم يكن الأفضل لها وللشباب الآخرين أن يخرجوا من سجنهم؟ ماذا فعلوا لأنفسهم وللناس بموقفهم؟ لا هم أضافوا شيئاً ولا الناس تحسنت أحوالها. هل حدث لها ما حدث لي؟ هل انكسرت؟ تركت حبيبتي في لحظة طيش، فظللت أندم على ذلك وأبحث عن

سلواي في غيرها؟ في حياة أخرى بمعطيات أخرى؟ قبلت أنا ذلك ولم تتحمله هي؟

راودني خاطر مزعج آخر، بأن تكون أنت في مكانها يوماً إذا ما أخرجتك، لكنني خرجت من مخاوفي مرة أخرى بخاطر مريح. لن أجبرك على أن تخالف قناعاتك. هاهوذا "ماجد" يطمئنني على أن الملاحدة اندمجوا مع شباب الجامعة، وهاهو ذا الأمل موجود. برغم أنف "عزمي" و"شاهي" ورجل الكاميرا و"هبة" وأي أحد آخر.

لن أجبرك..

لكنني برغم ذلك سأخرجك من هناك..

* * *

لي كلام قبل ذلك مع "أكرم"، كلام مهم!!

* * *

لكن دعوة غريبة جاءتني بالبريد في الأيام التالية.

حملت "كمال" إلي خطاباً تركه ساعي البريد إبان تسكعي في وسط البلد صباحاً. ابتسمت وهي تضعه أمامي على منضدة قريبة وانسحبت لغرفتها. كان أنيقاً ويحمل شعار سفارة غربية بالقاهرة، وبه دعوة لحضور احتفال رأس السنة، مع تنويه بأن "السيد رئيس جمهورية مصر العربية" سوف يحضر الحفل، وكذلك العديد من المسئولين المصريين الآخرين، وأن اسمي كان ضمن لائحة الضيوف الذين يصطحبهم الرئيس بنفسه كضيوف شرف له شخصياً، تتولى السفارة دعوتهم نيابة عنه.

هكذا ذهبت وأنا كلي أمل أن أراها هناك.

دخلت إلي البهو الفاخر والذي يعج بالمدعوين الرسميين. ألقى السفير كلمة ترحيبه، أشاد فيها بسياسة مصر الحكيمة في احتواء الاختلافات الفكرية، وأهمها سياسة "الاستتابة" الناجحة التي كادت تنجح تماماً، فانتفخت أوداج "حسام" وألقى نظرة امتنان إلي سيده الواقف وسط حراسه يداعب لحيته في عظمة. اختتم السفير كلامه بالتأكيد على العلاقات المميزة مع حكومة "السمان"، ودعا الحاضرين للاستمتاع بالحفل. رأيت "أكرم" فحياني فقلت له أنني أريده في أمر هام، رد بأن أشرفه في مكتبه متى أشاء وأغدق عليَّ بالثناء لكنني بقيت واجماً. توتر وجهه لدى رؤيته "حسام"، وندت منه نظرة كراهية تجاهه لم أفهمها، واستأذنني في الانصراف للترحيب ببعض معارفه، ولم يمنحني فرصة للاعتراض.

* * *

انهمك "حسام" في توزيع نظراته على المدعوات، تاركاً "ندى" بجانبه تتجاذب حديثاً رسمياً مع زوجة السفير. ندت منها نظرة إلى "حسام" الذي تركها وركز نظراته على صدر زوجة أحد مسئولي السفارة وهو يبتسم لها بلزوجة ويتبادل معها المزاح. تلاقت نظرتي مع "ندى" التي لم تكن قد تخلصت من نظرة الاحتقار لـ"حسام" على إثر انشغاله عنها بزوجة المسئول بعد، فابتسمت لي بأريحية واستأذنت من محدثتها واتجهت صوبي مباشرة.

يا الله..

نفس خفقان القلب، والنفس المنبهر. نفس العينين المبتسمتين حتى وفمها مغلق وحتى وهي غاضبة. وقفت بجانبها وسألتها عن أحواله فقالت بمرح أنني أجلستها بالمنزل، فلم يعد لها عمل بعد نجاحي في استتابة البنات. نظرت إليها في حذر لئلا تكون غاضبة كالآخرين، وأيقنت من صمتها ونظرتها الثابتة أننا نلف وندور حول الماضي، هي تريد أن تقرعني باللوم، وأنا جاهز لتلقيه، لكن تركيزنا تشتت للحظة بمرور "السمان" بنفسه بجانبنا بموكب حراسه وهو يتجه للناحية الأخرى من القاعة في وقار.

كانوا قد أخبروني أن "السمان" يغضب جداً ممن لا يخاطبه بلقب الرئيس. تحدث إليه أحد مساعدي "أكرم" يوماً بحسن نية بلقب "الشيخ"، وشفعها بلفظة "مولانا"، فجُن جنونه وأمر بإبعاده فوراً. فيما بعد، كما قالت "ندى"، تم نقل هذا المساعد ثم لقى مصرعه في مطاردة مع شباب الجامعة. قالتها بلهجة خاصة وهي تضغط حروف كلماتها الأخيرة فجزعت للمعنى. سرعان ما أفقت من ذلك على حقيقة أنها تحادثني بأريحية. "حسام" يقف بعيداً وينشغل بالحديث الودي الزائد مع زوجة المسئول الغربي، ويولينا ظهره فيكفيها ويكفيني القلق بشأنه وبخصوص مظهرنا معاً. عادت هي "ندي" التي أنسى معها الدنيا، ولا أعود راغباً في شيء آخر سوى المزيد من كلماتها. سألتني عمَّا إذا كنت سوف أواصل تنفيذ أوامر "حسام" باستتابة ابني أم لا. أتبعت

سؤالها بسرعة برغبتها في أن أقنع "غادة" أيضاً، ووصفتها بالعنيدة زي "أحمد" الله يرحمه. قلت في صدق أنني سوف أفعل لها ما أفعله لإبني تماماً، وأن الأمر متوقف على قدرتي على الإقناع، وأظنه يحتاج وقتاً، لكنني لم أصارحها بما انتويت. سألتها ما إذا كان زوجها جاد فيما يقول عن المستشفى، فابتسمت في مرارة وقالت أنه حكى لها الأمر بالأمس وعلقت بأنه فعلها خصيصاً لتسربها إلي، ولتقنعني باستمرار المحاولة. عرفت هي ذلك دون أن يقول، لكنها خلصت ايضاً إلي أنه يعرف بتأثيرها عليَّ. قلت وأنا أتفرس في وجهها أن تأثيرها دائماً ما كان كذلك، وترددت قبل أن أسكت. لمحت اقتراب ظل من وقفتنا، فدست ورقة عليها رقم هاتفها في يدي وقالت أن لهذا الحديث بقية، ابتسمت حتى لمحت غمازتيها الجميلتين، لكنها عادت لوجه مكفهر مع اقتراب الظل.

اقترب منا "السمان" ببطء وهو يرفل في عباءته المذهبة. فصمتت "ندى" وخفضت عينيها في خفر امتزج بضيق مباغت، فضحتها "رمشة" عينيها أكثر من مرة في توتر. وضع يده على كتفي وأشار لحارسه المتأهب من خلفه بالابتعاد، فتراجع العملاق في ضيق كأنه منعه من الفتك بي وشرب دمي في تلذذ. حييته بقولي: "سيادة الرئيس، كل عام وانتم بخير". قال في مرح: "وانت بالصحة والسلامة يا دكتور.. ها؟ هل أعجبك الحفل؟ أراك ايضاً قد تعرفت إلي عِليَة القوم. "الحاجة ندى" أخت فاضلة وداعية كريمة، لكنها تبخل علينا بالعطاء. بس بسم

الله ما شاء الله، ده كأنه احتفال بدفعتنا، أنا وأنت والحاجة. كانت أيام. سبحان الله، شوف بعد زمن طويل، أراد الله أن يكافئك إزاي؟. رغم أنك لم تمتثل لدعوتي إليك بالانضمام إلينا وقتها، لم تأتِ معنا لدروس القرآن. طول عمرك مميز يا دكتور، كنت أظن أنك لولا رفضك لصار لك شأن عظيم، لكن الله له تصاريف أخرى، صرت طبيباً لامعاً، وثائراً عظيماً، وحتى عندما ابتلاك الله بالغيبوبة، فربما كافأك عليها ومنع عنك الزلل. من يدري؟ ربما لو بقيت حياً واعياً لانجرفت إلي ما يغضب الله ورسوله. لا نزكي على الله أحداً، لكنك كسبت ثوابات كثيرة بمجهودك المحمود في مشروع الملاحدة. ياسلام، ربنا أراد أن يهدي على يديك الشباب الضال، ويهديء النفوس القلقة ويعيدها لطريق الرشاد. وقريباً نسعد بك وبنشاطك الطبي مرة أخرى. ألم أقل لك من قبل؟ الدعوة لها 100 طريق وطريق؟؟ ".

حاولت أن أتمتم بكلمات شكر قصيرة بينما نظرت "ندى" لي غير فاهمة. تجهم وجهه فجأة ونظر لي بعينين غائرتين وقال: "لكن أنا لي عتاب عليك يا دكتور. أفهم أنك رجل واسع الصلات، لكن كان حرياً بك أن تتخير معارفك وتنتقي صلاتك، خاصة الآن وقد صرت معنا." أطال نظره إلى وجهي وتوقفت مقلتاه عن التراقص وهو يحدق فيَّ بغضب مكتوم، فاستفسرت عما يقصد فقال: "يعني، صلاتك بشباب الجامعة وبعض الذميين، أمثال تلك الصحفية، فضلاً عن "محمد عزمي"، كل ذلك يثير البعض ضدك. أنا لست ممن يعطون أذنهم لأي عابر

سبيل أو ممن يتأثرون بالتقارير بسهولة، لكن اعلم يا دكتور أن لك أعداء. نجاحك وحده كفيل بحشد الكثيرين ضدك في الواقع. البلد تدور في دوامة، والناس لم تعد تتحمل تنوع الخطاب. يعني إللي بنصلحه من هنا في شهور، يأتي هؤلاء ويهدمونه في أيام، يثيرون البلبلة ويشغلون الناس عن دينهم، طيب ماذا جنينا بذمتك من هذا كله؟ هو النظام إللي أصبح مسئول عن كل شيء؟ أنا يعني السبب في كل المشاكل؟ والله، بعقد الهاء، لو أعلم أن في تركي لأمور العباد خيراً، لما ترددت في الجلوس ببيتي، مع زوجاتي وأطفالي. يظنون أنها تشريف، وهم أول من لا يقدر المسئولية. انظر لمَّا تركنا لهم الحبل على الغارب ماذا فعلوا؟ جعلونا أضحوكة الأمم ولم يقدروا حساسية كلامهم، وفي الآخر، ييجي يقوللك آدي الإسلام وآدي المسلمين!! ليست هكذا تكون الدعوة، ولا الثورة. أنا متفهم تعاطفك معهم، لابد وأنهم قصوا عليك قصصاً كثيرة عن اللحى الظالمة والعقول الضيقة والإسلام الظاهري. حجة البليد إذا أردت رأيي. هم مرفوضون من الناس، ويرقصون رقصة الموت الأخيرة."

استجمعت شجاعتي وقلت في هدوء: "لكن الدعوة تكون بالحسنى يا سيادة الرئيس. ربما لا تعلم بما يلاقونه من عنت، لكن "شاهي"، تلك التي كانت معنا في الميدان منذ سنوات، مثال على ما أقول. ألم يكن رد فعل الصحافة والإعلام قاسياً بعض الشيء؟ أيضاً مشروع الملاحدة نفسه، ألم يكن هناك طريق آخر لهداية هؤلاء الشباب؟ ربما تندهش مما اقول، لكنني

لم أجد منهم إلحاداً كما فهمتم. أفكارهم، سواء في ذلك "شاهي" أو "عزمي" أو الملاحدة كما تسمونهم، أفكار غير مألوفة، هذا صحيح، لكن هل وجدوا من يستمع إليهم؟ وهل كان ينتهي بهم الأمر إلى ذلك السجن لو حدث؟"

قال وهو يبتسم في إشفاق: "مهذب أنت يا دكتور طول عمرك. حتى عندما رفضت طريق الحق زمان، كنت مهذباً في رفضك وحرصت على تطييب خاطري، لكن دعني أخبرك بشيء. ما تسميه أنت أفكاراً غير مالوفة، يعرف في الشريعة بالكفر. هناك أمور لا يصح النقاش فيها، هل أستطيع أن أناقشك الآن في مدى صحة أننا نقف قبالة بعضنا ونتحدث سوياً؟ هل يصح أن أخبرك أنها وجهة نظري أن هذا لا يحدث الآن ثم أطالبك باحترام وجهة نظري وأغضب إذا ما نعتتني بالجنون المطبق؟ هل تطلب مننا ان نتسامح في شريعة الله، أو مع من يشكك في صفاقة، في وجود الله؟ أما بالنسبة لـ"عزمي"، فلا أحد يعرفه مثلي. نحن أبناء مدرسة واحدة إذا كنت تفهم ما أعنيه، لكن "صوابعك مش زي بعضها". هل يسعدك أن نعطي أذناً لمن يتلاعب بالألفاظ مثله، ليدخل من باب "وجهة النظر" هذه إلى الإلحاد والكفر؟ إذا سمحنا بالنقاش، نسمح إذن بمن لا يسعفه تفكيره لفهم كل شيء بشكل صحيح، ثم نسمح بالتأويل، ثم بالتحريف، فلابد أن نسمح غداً بالشذوذ والكفر والفسوق في الشوارع والبيوت، فكلها أيضاً "وجهات نظر". انظر حولك وأخبرني كم من الناس فهم رسالتهم التي تريد أن تدعي لنفسك فهمها؟"

قلت في غباء وكأنه سيفهمني: "لكن النقاش ليس حراماً!! رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يجادل الكفار، بالتي هي أحسن، ولم يخش على قلوب صحابته أن يهتز إيمانهم"

قال في قسوة: "رسول الله؟ ده على أساس إنك الوحيد إللي تعرفه؟ ثم إن هناك زمن تغير، وعقول تنورت. إحنا لسه حندعو للإسلام؟ ناقص تقوللي زي ما صاحبك صدعنا بمقالاته، إننا نقتدي بـ"عمار بن ياسر"؟ لا، هذا زمن وفات، والدعوة كائن حي، له عمر بقدر عمر الدنيا، ويتكيف مع الزمن والأجيال. زمان عندما كان النظام الباطش الكافر يلقي بنا في غياهب السجون، كانت لذلك طريق للدعوة. كنا نفعل ما يبقينا أحياء، ولم نكن لنسمح لهم بإطفاء نور الله، فلم نعطهم حجتهم التي انتظروها للفتك بنا. قاومناهم بطريق الدعوة المناسب، سمها مراجعات أو سمها مواءمات، لكن لكل مقام مقال. الآن وقد مكننا الله في الأرض وأسكننا مساكن الذين ظلمونا، فما يصلح لزمانهم لا يصلح اليوم، والعكس صحيح، ولا هو التطور إن ما كانشي في القرود والبني آدمين مايعجبشي العلمانيين والملاحدة؟ جرالك إيه يا دكتور؟ أراها "سقطة" أولى لك"

قلت في إحراج وأنا أتجنب زيادة غضبته: "أنا كل إللي باقوله إن نيتهم سليمة، وإن دفعهم في طريق الاستتابة حولت جزء منهم إلي الإلحاد بالفعل، ربما لما كان يحدث ذلك لو أن الأمر تم بشكل مختلف."

قال مقاطعاً وهو يشيح بيده علامة الرفض: "النية نحن أعلم بها. لا تنس أننا تعاملنا مع كل صنوف البشر في هذه البلاد، ونعرف خبايا ونيات كل التيارات، وهؤلاء جزاؤهم القتل شرعاً. "يحمدوا ربنا" إننا خليناهم عايشين. ثم إذا كان على النية يعني، إحنا نيتنا سليمة وهي الهداية."

سكت فجأة، وانقلب وجهه إلى الود الخالص بغرابة وأطال النظر لوجه "ندى" وقال وهو يخاطبني رغم أنه لم يرفع عينيه عنها: "والنبي يا شيخ توصي علينا الحاجة. انتو برضه معرفة قديمة وهي أكيد تثق في كلامك. جايز هي لسه شايفة إني "قفل" ولا حاجة، بس والله العظيم قلبي لا يحمل سوى الحب والخير".

نقلت بصري بين وجهيهما غير فاهم، لكنها وجلت وقالت بوجه محتقن ما معناه أنها لا يمكن أن يدور بخلدها مثل ذلك أبداً. واصل مزاحه الثقيل وربت على كتفها بحركة عفوية لكنها انسلت خطوة للوراء وهي تداري ما يشبه الاشمئزاز من على وجهها بابتسامة مصطنعة. أخيراً مازحني بشيء ما عن ولدي الذي لابد وأنه طرب فرحاً لمرآي في بيت الملاحدة، وانصرف ليوزع ابتساماته ونكاته على حلقة قريبة من الواقفين.

حينما رحل سألتها عما يقصد، لكنها حاولت الانتقال لحديث آخر فلم أرد وصوبت لها نظرة لائمة. خفضت من نظرتها وارتسم حزن دفين على وجهها وهي تقول، أن "السمان" طلب يد ابنتها من "حسام" منذ شهور. "ندى" رفضت، أما

"حسام" فتحمس كثيراً ووعد "السمان" بإتمام الزيجة ريثما تنتهي امتحانات الثانوية العامة. كانت تقص عليَّ ذلك بينما أتابع السمان وهو يحاول ملاطفة ابنتهما - هي و"حسام" – في سماجة بينما تلتصق ذات السبع سنوات بساق أبيها الذي تبرم من مقاطعة غزله للأمريكية، وهي يبدو عليها ملامح نفور وخوف طفولية مرعبة. سألت "ندى" في دهشة، عن رأي البنت نفسها، فكيف لهذا الجيل أن يتزوج مبكراً هكذا وهي لم تدخل الجامعة بعد؟ واصلت سؤالي ووجهها يمتقع أكثر وعيناها تنظر إلي غير مصدقة، فقلت أن "حسام" لابد وأنه قد جن تماماً، فكيف لابنتهم أن تتزوج بلا استكمال لدراستها؟. صمتت وهي تتابع ابنتها المذعورة من مزاح "السمان" وتهليل الواقفين لنكاته السخيفة، ثم عاودت النظر إليَّ في ذعر انتقل إلي في سلاسة. أخيراً سألتها السؤال المخيف، فأجابتني أن لديهم ابنة واحدة، ليست في الثانوية العامة، بل إن ولدها الأكبر هو المقصود بما قالت. عاودت النظر إلي الصغيرة المذعورة وهي تلتصق بساق أبيها المنتشي بمزاح سمج من ولي نعمته..

قالت بدمع ساخن حاولت مداراته: "هي دي العروسة!!".

* * *

في اليوم التالي اتصلت بها.

أجابتني بصوت ناعم أنها ستقابلني في مكان عام، وحددت الساعة والمكان كأنها كانت تنتظر مكالمتي. كنت ممزقاً بين قراري، ومكالمات "سعد" المستمرة عن اتصالاته بمندوبي

الأدوية والشركات التي عرضت تجهيز المستشفى قريباً، وبين لقائي الذي أسعى إليه بـ"أكرم"، وبين أنباء القبض على بعض "المرتدين" من الملاحدة الذين قررت مصادره أنهم كانوا غير جادين في استتابتهم، وأخفوا الأمر حتى عرفته من "ماجد". لكن لقائي بها لم يكن مبهجاً كما كنت أتوقع. هي الأخرى كانت تحمل هموماً كثيرة.

عندما هلت على مجلسي وقفت مبهوراً من جمالها. لم ينجح الخمار في إخفاء فتنتها في عيني. كدت أصارحها بذلك لولا أن تعمقت الغمازتان فجأة إثر نظرتي المبهوتة، حول شفتين تقاومان ابتسامة خجلى، وسألتني ألن أدعوها للجلوس، فانتبهت وسارعت بتمالك نفسي. بدأت بتعزية متأخرة في موت "هريدي" فجفلت وكأن الذكرى لم تنمح أبداً وقالت بلهجة ذا مغزى أنه مات من قبل أن تصبه الرصاصة، معنوياً على الأقل. قلت محاولاً التخفيف عنها، أن الثورة آلمتنا جميعاً، من عاش إحباطاتها ومن فاته الأمر مثلي، وأوضحت أنني مازلت لا أستوعب ما يحدث، وأوله ارتباطها بـ"حسام". نظرت إلي في دهشة لم أفهم سببها، وتفرست في ملامحي كأنها تبحث عن شيء ما، ثم غيرت الموضوع واطمأنت على حالي وسألتني عن أمر عودة نشاطي الطبي الذى أتى "السمان" على ذكره، فشرحت لها الصفقة ولم أبْدِ لها حماساً، خلافاً لقلبي الذي كان يختلج كلما مر به الخاطر. غاصت نظرتها في عينيَّ مباشرة كأنها تفهمني وعلقت بأن هذا سيكون رائعاً، لكنها لم تبد

متحمسة. قصصت عليها كل ما مر بي من بعد الغيبوبة وكانت على علم بالكثير. انفعلت وأنا أذكرك أنت و"غادة" فتأثرت وقالت أن أكثر ما يعذبها هو بعد "غادة" عنها، فطمأنتها وأعطيتها رقم "غادة" الذي أحتفظ به. بان الامتنان في عينيها، شكرتني بحرارة ونظرت لي نظرة الحنان التي لم تفارقني سنيناً. ربتت على كتفي في عفوية، انتبهت بعدها وأدارت بصرها فيمن حولها خشية أن يكون قد لاحظها أحد. تلاقت نظراتنا فضحكت في خجل وسألتني عن حال أهلي لتغير من جو الجلسة. بدت غير منصتة لكلامي وشردت بعينيها في وجهي وابتسامتها تنير المكان، وعندما انتهيت لم تسألني إلا عن "إسراء" وكيف لم أتصل بها منذ أن عدت للحياة؟. قلت في حماس أردت به تضمينه اعتذاراً عما كان، أن "إسراء" لا تستحق عما فعلته بي أي اهتمام أو وضع في حياتي، وأن كل ما كان يربطنا هو أنت. لم تسعد بكلامي كما تمنيت، لكنني كسرت الصمت وسألتها عن مشكلة ابنتها. قالت أن "حسام" متحمس للأمر، وأنها بُح صوتها من التحدث إليه. سألتها لماذا لا تترك له المنزل وتهرب بابنتها، فقالت أن أباها وأمها توفيا منذ زمن، ولم يعد لها ملجأ تهرب إليه. أضافت أن "حسام" سيأتي بها، مهما هربت وأين ما كانت. انقلب وجهها صورة من الاشمئزاز وهي تذكر "السمان"، وتقول بأنه وجد ضالته في التمكن منها أخيراً في صورة ابنتها، وأنه منذ أول يوم وقعت فيه عيناه على ابنتها وهو لا ينفك عن التعليق بأنها نسخة من أمها، ولا يتوقف عن

إمطار الطفلة بنظرات تكاد تذهب بعقل "ندى". "تصور إنت لما تضطر تتكلم على بنتك إللي لسه مركبة تقويم أسنان وتتناقش مع حيوان زي ده عن "المفاخذة" وعن حكم التقبيل والزواج والحُلُم؟ تصور انت إنه "حسام" بيكلم الناس في المجلس علشان يتصرفوا بقانون ولا أي مصيبة جديدة، تخللي الموضوع شرعي وقانوني؟ كنت فاكرة إن ده بيحصل مع الناس إللي محتاجة فلوس بس، وإن كوني زوجة رجل تبع السلطة زي "حسام" يخليني في أمان من المشاكل، لكن أهو بيحصل معايا أنا كمان. المشكلة إن الفتاوي جاهزة بس منصب الرئيس يمكن حساس شوية والناس ممكن تتكلم، وقريب حيبقى كل ده قانوني، علشان محدش يقول إن الرئاسة بتخالف القانون. تصور إن أب، يكون كل إللي شاغل فكره هو الناس حتتضايق ولا لأ؟ سألته انت مش متضايق على بنتك طيب؟ بص لي باستغراب وقال لي وأنا أزعل ليه؟ حد يطول بنته "تتستر" وتتجوز بدري قبل ما عينيها تفتح ومانعرفش نلمها؟ لما قلت له إني مش باكل من الكلام ده، ولمحت له إني فاهمة إنه مش قطة مغمضة ولا متدين ولا نيلة، اتعصب عليا وقال لي إن الخلاصة إن الدنيا فيها ناس بتتعب وناس بتاخد نتيجة تعبها، وهو تعب في حياته كتير، فلازم ولاده يرتاحوا، ولما البنت تبقى زوجة رئيس جمهورية وفي بلد زي مصر، ده مش يبقى نجاح ومستقبل محترم؟ سألته إذا كان البنت مش من حقها هي إللي تقرر امتى ومين تنجح معاه ولا ترتبط بيه؟ طبعاً لم أحصل إلا

على سخرية وكلام سخيف". قلت لها مخلصاً، أنها ليست في مكانها الذي تستحقه بهذه الزيجة، اعتذرت مباشرة بعدها لتهوري لكن الوقت كان قد فات. صمتت وهي تنظر إلي في لوم وسخرية، فعرفت أننا سندخل في الأمر الذي أخشاه.

قلت أنني نادم على ما حدث، وأنني لا أتصور أن أنا الآن، هو أنا، الذي تركتها تضيع مني. حاولت الاسترسال فمنعتني وذكرتني أنها متزوجة، وأن هذا لا يصح. لم أدرِ ماذا أضيف فتوقفت عن الكلام، لكنها نظرت إلي فجأة في غضب، وتحجرت نظرتها على وجهي، وبدأت عيناها في الرقرقة. تلفت حولي محرجاً وقد بدأ نحيبها هادئاً وهي تخفي وجهها بمنديل صغير تجفف به سيلاً تدفق بلا إنذار. قالت بعد أن تماسكت أنها لم تفهم حتى الآن كيف يفكر شخص مثلي، وأن ما حدث انتهى وذهب لحاله، لكن حيرتها بشأني أثرت على ثقتها بنفسها سنيناً طويلة. قصت عليَّ كيف أنها لم تترك العمل مع الشباب منذ غيبوبتي وحتى سنوات قريبة، وكيف كنت ببالها في أي وقفة وأي اعتصام. ارتعدت وهي تذكر لي قصة مصادمات الجامعة وتمزيق الملابس ولزوجة الأيدي المعروقة على جسدها. بكت في حرقة وهي تذكر كيف عنفها أبوها على موقفها وقال لها أنه سوف يزوجها لأول طارق على الباب، لأنه يفضل أن يراها حية ترزق على أن يدفنها بيده في لحد بارد كالذي احتوى أخيها من قبلها. كان "حسام" قد تقدم لخطبتها منذ أسابيع فرفضته، لكنه عاد ليظفر بها وقد انهارت رغبتها في المواصلة. نظرت إلي في تأثر

وهي تشرح لي كيف أنني لم أغب عن بالها برغم الغياب، لكنها لم تعرف كيف تسامحني، ولا كيف تكرهني وتغضب عليَّ. "أنا حسيت إني مافهمتكش، وفضلت طول عمري حتى بعد "أحمد" ما مات وأنا مش فاهمة، انت عملت كده إزاي، ولا إزاي إللي يعمل إللي عملته معايا ده، هو نفس الشخص إللي ينقذني، ويبقى عايز يضحي بأي حد علشاني يوم المجمع العلمي"!!!

هنا هاجمني الصداع مرة أخرى!!

وجدت نفسي أمسك برأسي في ألم، الصور تتدفق على رأسي في جنون فلا أدري لها تفسيراً: صورة لسطح بيت الذي أقف عليه، صورة لعيني "هريدي" اللائمتين المذهولتين، صورة "لأكرم" وهو يجادلني في هيئته التي عرفناها عليها منذ سنوات، ثم أخيراً "عزمي" وهو يستنكر بغضب أنني "حقيقي مش فاكر يوم المجمع العلمي؟" منذ أيام.

سألتني في إشفاق عما بي، فلم أدرِ إلا وأنا أسألها في ضيق عما تقصد. جفلت وهي تنظر إليَّ غَير مصدقة، لكنها سألتني عما أذكره بالضبط. قصصت عليها ما أخبرتك به من قبل، ثم توقفت عند آخرلحظة أتذكرها وقلت لها أن ما تلا ذلك لا أذكر شيئاً عنه، وأن الجميع يذكرونه دون تفاصيل. عضت على شفتيها وقالت في شرود أنه ربما من الأفضل أن يبقى الأمر كذلك، لكنني ألححت عليها أن تتكلم. تحت ضغط مني قالت أن الأمر يلتبس عليها هي نفسها، لكنه أمر بسيط. أصررت أكثر على أن تتكلم، لكن حالتي كانت قد تحسنت فتمنعت ثانية وقد

زال قلقها عليَّ، وقالت أن الأمر حدث منذ زمن بعيد، لكنه ترك لها ذكرى جميلة عني، ترجو ألا أفسدها بأسئلتي. عادت للسؤال عما أنتويه بشأنكما، وكيف سأتصرف في مسألة استتابتكما، لتعود "غادة" إلى الحرية وتعود أنت إليَّ، وحياتي لسابق عهدها، فقلت لها أن لدي خطة كاملة. لما أطلعتها على ما أنتويه، كانت ابتسامتها هي أجمل هدية تلقيتها منذ زمن طويل، شفعتها باحمرار أنفها الجميل وهي تهمس في انفعال: "ربنا يخليك يا "مصطفى"، انت رجعت لي الأمل تاني".

* * *

تقرير أمني رقم 65919 د.م. القاهرة – قصر النيل- فبراير 2026

خاص وعاجل

السيد اللواء أكرم بك الشاهد..

بعد التحية..

نحيط سيادتكم علماً بأنه في إطار جهود الإدارة في مكافحة تسربات مخازن الإنسولين الأصلي بعد تعدد حوادث الاعتداء على المنوطين بحراستها إثر انتشار شائعة وجود مشاكل بالإنسولين الشعبي في الفترة الأخيرة، فقد تم في الفترة الأخيرة إحباط المحاولات الآتية:

أولاً: إحباط محاولة عصابة منظمة لسرقة مخازن الإنسولين الأصلي في مساء التاسع والعشرين من يناير 2026 والقبض على جميع أفراد التنظيم.

ثانياً: القبض على المدعو "أيمن حلمي السيد" وهو عنصر متعاون سابق (الكود "قاهر-13" -ميداني) من عناصر الجهاز. كان العنصر المذكور قد دخل إلي المخازن لاستلام عدد من الحقن الشعبية لتوزيعها بمعرفته على أصحاب الصيدليات كما ينص الاتفاق بينه وبين الإدارة بموجب تصريح محدود التوقيت يتم تجديده تلقائياً. غافل المذكور حارس المخزن وحاول الاستيلاء على عبوة بها عشرة حقن إنسولين أصلية بدعوي علاج والدته المريضة إثر نفاذ الإنسولين الشعبي من الأسواق مؤخراً ورفض ضابط الاتصال الخاص به ويدعى (...) إمداده بالإنسولين الأصلي للحفاظ على المخزون الاستراتيجي لعلاج أصحاب التراخيص وتلبية طواريء الرئاسة. هذا وقد تم تحويل المتهمين في البند أولاً وثانياً إلى التحقيق حيث وجهت إليهم نيابة أمن الطواريء تهمة الإضرار بالمال العام ومحاولة سرقة مخازن السلاح دون الإشارة في نص الاتهام إلى وجود الإنسولين الأصلي حرصاً على تفادي البلبة وإثارة المزيد من اللغط.

وقد انتهى التحقيق منذ قليل حيث اعترف المتهمون بانتمائهم لجماعة الملاحدة وحركة "مش عايز إسلامكم" المحظورة، وأنهم قاموا بفعلتهم لإحراج جماعة الحق ونشر

الضغائن ضدها بين أبناء الشعب. وقد أمر قاضي التحقيق بندب مندوب بيت الملاحدة رقم سبع وأربعين-شرق لاصطحاب المتهمين إلى هناك تمهيداً لتنفيذ العقوبة بعد تصديق السيد الرئيس عليها.

برجاء من سيادتكم التكرم التنبيه باتخاذ اللازم.

مقدمه لسيادتكم،

ع. (...)

الإدارة المركزية

* * *

في اليوم التالي، صدر بالفعل قانون لتفسير مادة زواج الإناث بالدستور، وخفض سن الزواج إلى أرقام خيالية، فشغلني عن اللوعة على مصير "أيمن" المباغت، ووفاة والدته المريضة بعدها بيومين.

دعك من التفاصيل، لكنك تعلم الآن أن السبب وراء ذلك، كانت رغبة "السمان" المحمومة في النيل من "ندى". الحاجة "ندى"، التي رفضته وهي ابنة التاسعة عشر، فعاد ليتزوجها بعد أن تعدى الخمسين، ليكافيء نفسه على صبره على خذلانها لقلبه، وليعاقبها عليه، ويتزوج نسختها ذات العشرة أعوام، وليقتلع قلبها ويدهسه بلا رحمة. اتصلت بـ"ماجد" فوجدته غاية في الاضطراب. عرفت منه أن "أكرم الشاهد" قد بدأ حملة اعتقالات واسعة النطاق بين صفوفهم، وأن الإعلام يمهد للناس من أجل توصيفهم بالملاحدة الجدد، وأن عدداً من المستتابين

ضمن المقبوض عليهم. قال "ماجد" أنهم كانوا قد بدأوا حملة لمقاومة القانون الجديد وحشد الناس ضده، لكن "جماعة الحق" قلبت المنضدة عليهم، واستغلت الحشد في التنكيل بهم أمنياً، وإلهاء الناس عن القانون نفسه. ساعتها غص حلقي من الخوف عليك وعلى "غادة"، وأدركت أن حتى خروجكم، يجب تأمينه أولاً، حتى لا تلاقوا نفس المصير ويعيدونكم إلى السجن.

اتصل بي "سعد" فاستأذنني في المرور عليّ بالمنزل قبل نزولي. تعجبت لكنني وافقت بالطبع فجاءني متعجلاً. كانت زيارتي القادمة لكما في الأسبوع المقبل، وقد خططت لها بعناية لتنفيذ ما عزمت عليه. لذا جاءت دهشتي من اتصال "سعد" بي اليوم. بعدما انتهى من الترحيب بـ"كمال" واحتضانها، جلس بعينين منكسرتين، وتأكد أن "هبة" و"كمال" لا يسمعانه، قبل أن ينهار في فاصل من الولولة واللطم بإخلاص. أفزعني بأن قال أن "جماعة الحق" بالنسوة السود قد عدن لبيته لينتقمن من غياب "كمال" عن المنزل، وعما وصفنه بتحديه لهن بإخفائها في القاهرة. قال أنهن كن في منتهى القسوة وقد اقتحمن البيت في حراسة الشرطة بلامبرر مفهوم، ووقعن "كشف النوع" على كل من بالمنزل. حاول أخوه، الذي يأوي أولاده في غيابه عن القرية طول الأسبوع حتى يعود في نهايته، أن يحمي الصغار فضربوه حتى كسروا عظام ساعده وساقه وأصابوه إصابات بالغة. تم الكشف بين صراخ واستنجاد الصغار لكن دون مجيب. أخرج محموله وأراني تسجيلاً لعملية الاقتحام فهالني

مقدار الكراهية التي تفوح منه. كانت إحدى النسوة السود تقف قبالة المصور في تحد وهي تقول من خلف نقابها بصوت شامت: "صَوَّر كمان، انت حتخوفنا ؟!! طيب ده اسمه "كشف النوع"، علشان نشوف مين في البيت ده لسه ماتسترتش، نلحق نهديها ونداري على المصايب إللي حتعملها لو اتسابت على حل شعرها". ضحك النسوة من حولها في جذل جنوني، بينما أمسكت زعيمتهم بولد صغير لا تبدو عليه ملامح الخوف، وأرقدته على سرير صديء وهي تقول في سعادة: "وآدي إللي عاملينه راجل صغير. أنت اسمك إيه ياض؟"

فوجئت بـ"سعد" يردد اسم الصغير معه. قلت في ذهول:"سامح؟ هو ده "سامح" إبنك يا سعد؟". أنبأني صمته وتحجر دمعه دون أن يحول عينيه تجاهي، بأنني على صواب، فعدت أطالع الشاشة في ألم.

واصلت الزعيمة تنمرها وقالت في فحيح بدا وكأنه من الجحيم، وهي تخلع بنطاله في فظاظة فتظهر لحمه السفلي أمام العدسة المرتعشة: "هو ده إللي عاملينه الراجل بتاعكم؟ طيب ما هو النوع ده كمان له زبونه". جاوبتها ضحكات شرسة من النسوة وصرخة لوعة من نساء البيت وغضب هادر من عم الولد في مكان ما بعيد عن المكان، بينما واصلت قولتها: "العين بالعين والسن بالسن، لكن هذا معنى جديد، لا أحد يعارض سنة الله في خلقه، الزواج سترة، وطالما اخترتم الفسق لبناتكم، فيحل الفحش في رجالكم. هذا الغلام سيكون لسيد من أشراف العرب.

ربما يستعمله، أو يجعله خادمه".. أضافت بعد ضحكة شرسة: "أو أي شيء يسعد به قلبه.". هلل النسوة بالتكبير، بينما قالت في حبور مخيف: "الله بالغ أمره!! انتو بتتحدوا مين؟ خلاص بنتكم غالية عليكم قوي؟ أغلى من شرع الله؟ أغلى من الهداية والسترة؟ طيب إحنا حناخد ابنكم مكانها، والبادي أظلم".

كانت عينا "سامح" المغرورقتان بدموع الفزع هما آخر ما رأيت في هذا التسجيل، ووجهه الخالي من الخوف، الممتلئ تصميماً على شيء ما، هو أغرب ما رأيت!!

* * *

لكن ما كان "سعد" يطلبه مني، كان شبه مستحيل.

فهمت منه أنه يطمع في كلمة مني مع "حسام". توصية لـ"أكرم"، أو "السمان". كنت أتفهم وجهة نظره، ولوعته على ولده، لكنني كنت أعلم أن أوراقي محدودة. "السمان" لن يهتم بكلامي من الأصل ولسوف يتهمني على الأرجح بالخرف وأنها سقطتي "الثانية" والتي قد يكون لها عواقب وخيمة، "حسام" لن يستطيع أن يملي على "أكرم" شروطاً بدون تدخل "السمان"، وهذا الأخير لي عنده طلب أكثر أهمية من أن أضيعه في أمر بسيط كهذا. قلت لنفسي أن تأمين حياتكما بعد الخروج له أولوية الآن، وإلا لصار خروجكما مجرد خروج من سجن، إلى سجن أكبر. أنتما قرة عيني، وأنتما أمل البلد مع أمثالكما من شباب الجامعة. إذن سمها أنانية، سمها ضيق أفق، سمها غباء، سمها انتهازية، لكن كان هذا ما قررت.

لم يكن "سعد" ليفهم أنه ليس الوقت المناسب لذلك الطلب، فألمحت إلى أنني سأحاول جهدي، فهدأ قليلاً، لكنه طلب تأكيداً لتدخلي وبدا متعجلاً للنتيجة اليوم، فقلت له بصراحة أنني لا أضمن النجاح، وأن تعجل التدخل قد يضر بولده بأكثر مما يفيده. طمأنته بأنني لابد وأنني سأعطل سرعة التنفيذ، لكنني لن أضمن أن يعيدوه إليه إلا فيما بعد. ذكرته بأن أمامنا عملاً دءوباً بإخراجكم من بيت الملاحدة، وتركيزاً عنيفاً لنجاح المهمة، وأن ذلك كله لو لم يتم الآن لفقدناه إلي الأبد، أما ابنه فلسوف ينتظر إلى أن ننقذه، ولعل مكروهاً لا يصيبه حتى وقتها. نظرته أنبأتني أنه هدأ قليلاً، وأنه انطلت عليه خدعتي. لكنني لم ألبث أن انشغلت عن ذلك كله بالنزول لموعدي الهام المرتقب..

* * *

حينما استقبلني في مكتبه الفاخر، كانت كل الأمور تشير إلى أنه هناك شيئاً غير طبيعي يحدث..

الجنود متوترون، والمقر الأمني محاصر بالعديد من المركبات المدرعة، وحتى دخولي إليه مرَّ بمراحل من الوجوه المتجهمة للتحقق من الشخصية وأسئلة عديدة كنت قد توقفت عن المرور بها منذ صرت وجهاً معروفاً. قبل دخولي لاحظت وقفة منظمة من عشرات من شباب الجامعة والألتراس وهم حليقو الرءوس تماماً. كانت تحيط بهم قوات الأمن في تأهب من ينتظر أمراً بالتعامل، لكن الوقفة الصامتة كانت تتضخم تدريجياً، وترفع اللافتات التي تندد باعتقال زملائهم في تصميم.

"أكرم الشاهد" كان هادئاً. هالات سوداء عديدة تحيط بعينيه، كوب زجاجي منقوش من القهوة يستقر في يده فتتصاعد منه الأبخرة، وشاشة عملاقة تستقر أمامه على الحائط يتابع عليها صوراً لبث حي للوقفة الصامتة أمام عتبة عرينه. استقبلني ورحب بي في جمل قصيرة ضمنها سخرية من نجاح الاستتابة على يدي، وقال بأن تعجل إنهاء المشروع لا يبره سوى غباء "حسام" والثقة المفرطة للسمان فيه. تذكرت نظراته المغتاظة لـ"حسام" ليلة حفل السفارة، لكنه ابتسم منهياً ثورته بيده في تراخٍ لم يخف قلقه ودعاني للدخول في الأمر مباشرة لضيق وقته. آثرت سؤاله عما يوتره وتظاهرت بقلقي على مظهره المرهق فانفجر وكأنه كان ينتظر هذه الفرصة. قال أن"حسام" مهرج كعهده به، وأن مسألة قانون "المفاخذة" سوف تجلب وبالاً على البلد، وأنه بدأ يمل من قدره في التقاط فضلات هذا النظام الأخرق. أضاف في غضب بأن "جماعة الحق" تتصرف وكأن البلد "بلد أبوهم"، وبات الأمن آخر من يعلم بأي شيء. جال ببالي ما حدث لـ"سامح" ابن "سعد"، فسألته إذا ما كان لديه علم بالواقعة، فلم يبدُ عليه الاندهاش وقال أن هذا مثال آخر للعند والخرق، ثم قال شيئاً عن الاستهتار الذي يجعلهم لا يبالون بأن يتم تصوير ما حدث وتسجيله!! تابع في ثقة: "شغل عيال!! عاوز تعمل حاجة زي دي، ماتحرجناش ولا تحرج الناس معاك!!. يعني إحنا في ضهركم و الأمور ماشية، ماتخليش تسجيل مايسواش جنيه

يعمل لنا مشكلة كبيرة زي دي". قال أن رجاله تصرفوا وقبضوا على صاحب التسجيل، ودمروا الفيلم، لكنه قلق من تكرار مثل هذه الأمور". لزمت الصمت فلم أعلق وأنا أتساءل بيني وبين نفسي عن "سعد" وما إذا كانوا على علم بوصول الفيلم إليه. قلت في هدوء من يحرص على ألا يثير أعصاب محدثه أكثر، أن الحل الآن ربما يكون في احتواء المشاكل قبل وقوعها، وأن القبض على الملاحدة مرة أخرى والتنكيل بشباب الجامعة ربما لم يكن أفضل حال. نبهته إلى أن الناس ربما يبدون صامتين، لكن الظلم إذا زاد عن حده، فقد ينفذ صبر الناس خاصة إذا ما قنعوا باستتابة هؤلاء، فلم يعد مقبولاً التنكيل بهم مرة أخرى. نظر إلي ساخراً، ثم قال وكأنه يحادث نفسه: "ناس؟ الناس إللي بتقول عليهم دول مش عارفين مصلحة نفسهم. لو سبناهم يعملوا إللي هم عايزينه، البلد حتخرب. أرأيت عندما نزلوا الشوارع وسموها "ثورة"؟ كانوا بالضبط مثل من قيل له بأن البيت الذي يسكن به يختبيء تحته كنز من الذهب، راح عمل إيه؟ كسر عمود البيت الرئيسي، وهده على دماغه، ودماغ كل إللي ساكنين فيه. الناس نزلت الشارع، ولم تعرف بعدها كيف تعود لبيوتها، ومن عادوا ظلوا طوال الوقت يريدون العودة إليه. أرأيت عندما نجح الإسلاميون وسيطروا على البلد؟ قلنا أن الأمر انتهى، وأن الناس سوف تهدأ. مش ده إللي كنتم عاوزينه؟ لأ، اتضح أنهم لم يكونوا راضين أيضاً. قال لك أصل مش ده بالضبط إللي طلبناه في "المنيو"!!. جاء بعدها من يقول لهم كل ما

أرادوا، شرع الله والعدل وكل إللي نفسك فيه، لكن الناس تهدا؟ ولا ينبسطوا ولا يتكيفوا؟ لأ طبعاً. عاوزين شغل وعاوزين فلوس. طيب قل لي، بأمارة إيه؟ انتوا نسيتم إن البيت أساساً ماكانشي عاجبكم لما هديتوه على دماغكم؟ الناس إللي بتقول عليهم دول مايعرفوش إن المشكلة فيهم هم. لو سبتلهم الحبل على الغارب بيفجروا. ماتنساش إننا فراعنة، وكل واحد جواه بتاع مشاكل. طلعولك بحكاية الكفر وقلة الأدب، كانوا مستنيين إيه؟ نطبطب عليهم ونبوسهم، ولا نستنى لما يقلوا عقلهم ويقلبولنا البلد تاني؟ طبعاً كان لازم نتصرف".

نظرت إليه في بلاهة، بينما تابع هو مبتسماً في تشف: "كانوا يظنون أن الندوات واللقاءات إللي بيعملوها بره، تخليهم بعيدين عن إيدينا. بس إحنا مش بنلعب. إللي حصل في "أمستردام" ده كان لازم يحصل، علشان البلد تهدأ من جوه وتتمسك تاني بإيد من حديد. طول ما الناس فاضية حيقرفوك، النهارده يقول لك فكر حر، بكره يقوللك إلحاد وكفر، وبعده يطلع إللي يقوللك "يسقط.. يسقط" وعروقه نافرة من رقبته، لكن طول ما انت شاغلهم في حاجة، خلاص. شوف انت الوقفة إللي بره، هما مش جايين يقولوا سيبو زمايلنا؟ حالقين راسهم عالزيرو ويقوللك تضامناً مع تزويج البنات عند بلوغ سن الـ 18، واعتراضاً على قانون "المفاخذة". طيب دي عالم مغيبة ولا لأ؟ إيه جاب ده لده؟ هو أي كلام وخلاص؟ ما بالمرة نتظاهر علشان نتيجة الحج ولا تحسين رغيف العيش؟".

بدأت أستوعب كلامه، لكنني كنت مازلت متشككاً في المعنى الذي وصلني. قال في تشفٍ: "إحنا من غيرنا البلد ولا حاجة. كل الأراجوزات إللي انت شايفهم دول مالهمش لازمة. "السمان" إللي عامللي فيها الريس والملهم والبطيخ، كان في نص هدومه أيام ندوات الطلبة في أوروبا، وكان بيترعش كل ماتجيله مكالمة من أي سفارة ولا أي حد، يحذروه ويقولولو إوع تيجي جنب العيال دي ولا تمس شعرة منهم. بقى إحنا يتقال لنا نعمل إيه ومانعملش إيه؟ وعايز البلد تهدا؟ كان لازم نتصرف، لكن، وحتى لما عرضنا عليه نظبط الدنيا، وافق الأول زي إللي لقى قشاية وهو بيغرق. كل الاتصالات والتربيطات خلصناها من عندنا، وما كان عليه إلا إنه يدينا الضوء الأخضر بس، لكن مع ذلك ساعة الجد كان عامل زي الفرخة المبلولة، الله يخرب بيت الأيام إللي حدفت الأشكال دي علينا يا شيخ. طيب والله حاجة تكسف. أنا أبقى قائد وبارمي رجالتي في النار بإيديا، وكل إللي معذب ضميري إني حضطر أتكلم مع ناس مش مستظرفها؟ ده أنا لو حكيت لك كان بيقول إيه، وقال حرام قال وضميري مش مريحيني إني أتكلم مع الصهاينة دول، ولا إني أسلم على واحد كافر وأتفق معاه على الكلام ده. هو ده إللي حرام، والعيال إللي حتتبهدل دي مش حرام؟ ساعة ونص وإحنا بنقنع فيه إن ده ضروري، علشان نتمم الكلام إللي اتفقنا عليه، وفي الآخر رضي بالعافية ودخل يقابل الناس في السفارة بالعافية. لأ وفي العلن يفضل يقوللك إحنا بنجاهد ونحارب

والكلام ده. الناس دي أجبن من إنها تحارب حرب بره البلد، علشان كده بيدور على حرب جوه، و"الملاحدة" كانوا هم حرب "السمان"، إللي خلى بيها الناس تسكت وتلم نفسها. لكن أديك شايف، برضه بينسى، وبيفتكر إنه هو الآمر الناهي وبيصدق إللي حواليه إللي بينفخوا فيه ومحسسينه إنه بجد ريس"

كانت دهشتي تتضاعف مع تلميحاته التي أكاد لا أصدقها، وكلام "عماد" عن هذه الفترة يتراكب مع كلامه فيحيل الصورة من قبح إلى قبح. "أكرم" وضع كوب القهوة من يده وقال في سلاسة: "الظريف بقى إن إللي اسمه "حسام" ده، نط في الصورة زي فرقع لوز. طلع له حكاية "الاستتابة" وعملهاله مشروع والبحر طحينة، والتاني مشي وراه وكبره وخلاه دراعه اليمين. مين إللي جاب له العيال دي من رقبتها من الندوات بتاعة بره وخللى نفس إللي كانوا بيحموهم يبيعوهم في ثانية، والبيه قاعد في مكانه محتاس، ومش عارف يتصرف؟ مين كان بيجمع له العيال دي من بيوتها وبيرمي البلطجية إللي بيدافعوا عنهم في السجن؟ مين إللي كان بيغطي على بلاوي بتوع الجماعة، وعلى الناس إللي كانوا بيبعتوها في كل وقفة يمدوا إيديهم على البنات ويسحلوا الشباب على الأرض؟ طبعاً إحنا، ولولانا كانت الناس أكلتهم بأسنانها من بدري، لكن حد بيشكرنا ولا بيعبرنا؟ مكتوب علينا نشيل هم كل حاجة، لكن المرة دي بقى خليهم يشربوا، وآدي مظاهرة تاني أهي، لما يوريني يتصرف إزاي".

قلت في لهجة جعلتها هادئة رغم غضبي الذي أخذ يتصاعد: "طيب والعمل؟ إنت عارف كويس إن الولاد دي مش حيهدوا، ولا يسكتوا، انت مستني إن الموضوع يوسع، والناس تكتر؟ ساعتها ممكن تبقى مجزرة!"

قال في استهتار قاسٍ:"يكشي تولع! مش حيقدروا يسيبوا الأمور تفلت من إيديهم و"السمان" وجماعته أكيد حيتحركوا ويستنجدوا بيا، لكن المرة دي أنا مش حتحرك إلا لما "حسام" ده يختفي من الصورة. عارف إن "السمان" كان معايا على التليفون دلوقتي؟ أنا بعتتلو الفيلم وشافه، اتصل بيا يسألني زيك كده تمام: إيه العمل؟ قلت له ولا حاجة، كان عاوز إننا نحرق القرية تاني باللي فيها، ويقوللك دول مفسدين في الأرض وبيعملوا فتنة. بس الحاجات دي مينفعش تتعمل كل مرة. المرة إللي فاتت عملناها لما كنا حبايب، وماكانشي "حسام" فرد عضلاته في كل حاجة بالشكل ده. إمبارح يطلع قانون الجواز علشان سيده مش قادر يمسك نفسه عن العيلة إللي أد بناته. والنهارده، الألاضيش بتوعه يمسكوا الواد ويعروه ويبعتوه لواحد شاذ يشتريه، خليهم يشربوا بقى. خلليها تولع، وشوف بقى حيعرف يطفيها إزاي. "السمان" ناوي له على نية سودا. بيقوللي اديني يومين بس وأنا حخلص موضوع كده في إيديا، وبعدين مش حتسمع عنه حاجة تاني".

كان الإعياء والضيق قد بلغا بي مبلغه، فقلت في لهجة ضمنتها كل ضيقي منه ومما سمعت: "وكل ده ليه يا "أكرم بيه"؟ علشان البلد مش بلدكم، لأ، ده انتوا البلد نفسها صح؟"

قال في استنكار من فوجيء بكلامي: "جرى إيه يا دكتور؟ انت إزاي تكلمني كده؟"

-"يعني انت إللي ورا كل ده؟ وكل ده ليه؟ علشان تظبطوا الدنيا وتفضل كل حاجة في إيديكم برضه؟ هو ده إللي فهمتوه من كل السنين دي؟ إنك كان معاك حق برضه؟ إن مافيش حد، حتى لو كانوا عيال قد ولادك، و إن مافيش أي حاجة، حتى لو كانت الأمانة أو الشرف أو الصدق، تستاهل إنك تسيب البلد للناس يعيشوا فيها زي ما هم عايزين؟ برضه مقتنع إننا ضيوف عليك؟ تدينا إللي انت عايزه، وتاخد إللي انت عايزه، تقعد معانا أو ترمينا في أوضة الفيران؟ برضه لسه عقدة يناير جواك؟ انت مش حتنضف بقى يا "أكرم"؟ أنا لغاية دلوقتي مش مصدق إنك انت إللي كنت معانا في "محمد محمود"، لكن بعد إللي قلته ممكن أفهم إزاي تبيع كل مبادئك بسهولة كده. إنت مبدأك هو كده، زي ما انت قلت، عاقل وسط الأراجوزات، وعلشان كده الأراجوزات لازم تموت، مش كده؟".

صرخ في وجهي بعصبية وقال: "ما تتلم في كلامك معايا شوية؟ انت حتعملهم عليا يا بتاع الثورة وحتعيش لي دور البطل بجد؟ إوع تكون صدقت نفسك؟ انت من ساعة ما رجعت وسلمت نفسك لينا، وماقدرتش تفتح بقك، أقنعت العيال زي ما إحنا

عايزين، وضحكت عليهم زي الأوامر تمام، وطلعتهم بلابيص أدام نفسهم، ومشيت ورا "حسام" زي الدلدول علشان ترجع المستشفى بتاعتك، و"الكواوي" إللي كان حياكل المستشفى منك في كرشه ماعندكش انت مانع النهارده ناخد فلوسه وتبقى حلالك عادي، وجاي تعمل عليا أنا دكر؟"

-"إيه علاقة ده بإللي انت بتعمله؟ ماتكلمني زي مابكلمك؟"

احمر وجهه غضباً وبلغ صوته أقصى حد له من البحة إذ قال في تعجب ساخر: "لا والله؟ بقوللك إيه؟ أنا شغل المجانين وحلق حوش بتاعك ده مش عليا. إذا كنت حتعمل نفسك مش فاكر، أنا بقى فاكر كل حاجة كأنها إمبارح. طول عمرك وسخ، بس عامل نفسك محترم وابن ناس، وأنا مابكرهشي نوع في حياتي قد مابكره إللي زيك. على الأقل انا باعمل إللي باعمله علشان مصلحة الناس إللي عامل نفسك محامي عنهم، مصلحتهم إللي مايعرفوهاش، لكن انت أناني وبتاع مصلحتك وبتعمل كده لنفسك بس يا عم الثوري. لازم تفهم، إن فيه ناس لازم تموت، علشان واحد واطي وجبان زيك يعيش، إللي يرفع راسه حنقطعله رقبته، علشان كل واحد يخليه في حاله ويحترم نفسه، وإذا كان فيه لسه ناس مافهمتش ده، وعاملين نفسهم ثورجية وكلام من ده، لازم يفهموا إنهم كانوا في اللفة، أو بيلعبوا "بلايستيشن" أو بيحبوا واحدة صايعة على الكورنيش، وإحنا كنا بننزل من بيوتنا وإحنا مش عارفين راجعين ولا لأ، وبعد ده كله ييجي يقول لك أصل البلد مش عارف إيه وإيه،

مالكم انتوا ومال البلد؟ خليكوا انتوا في سرايركم ولا شغلكم، ولا مصايبكم إللي بتداروها ومحدش عارفها غيرنا. ولا علشان مانت عامل نفسك ناسي، فاكرني حصدقك؟"

الصداع..

واصل في قسوة والأرض تميد من تحت قدمي وهو يقترب بأنفاسه الحارة من وجهي بنفس الغضب: "إن كنت ناسي أفكرك انت عملت مصايب شكلها إيه في الناس؟ ان كنت ناسي أقول لك الحتة إللي عامل نفسك مش فاكرها، ان كنت نسيت "هريدي"، ان كنت نسيت كنت بتعيط إزاي زي النسوان ومقدرتش تقف زي الرجالة، أحكي لك. واحد غيرك يتكلم، واحد يكون وقف زي ما كنت بتقف تهتف كده وعامل فيها جدع. بس أصل الكلام مش بفلوس، ولما الحكاية بتبقى جد، إللي زيي أنا بس، هو إللي بيتحمل ويقف وسط النار.. مش يبكي ويخون زي الجبان.."

النار..

قالها فأضاء بها النور في خلفية رأسي..

رأيت.. وتذكرت.. وانفك الصداع فجأة، ليحل معه الذهول والندم، والعار..

قالها فانفكت عقدة السؤال الحائر..

وظهرت له ملامح مخيفة.. ولإجابته أركان مرعبة..

رأيت.. وتذكرت..

وياليتني مت قبل أن أفعل..

* * *

اعتصام "محمد محمود" مرة أخرى، 22 نوفمبر 2011

عزمت هذه الليلة على النزول مبكراً لنجدة الشباب.. "هريدي"، "ندي"، "عزمي" و"شاهي" و"أكرم" والآخرين. اتضحت الصورة ونكص "السمان" واتباعه عن نجدتهم وتركوهم نهباً للبلطجية والرصاص وقوات الأمن. كان الجو متوتراً، "فؤاد" باتصالاته يحذرني من المزيد، ويؤكد لي أن هاتفي مراقب وأنه يعلم بكل شركائي، و"إسراء" كالعادة لا تتحدث معي، والجو مكهرب. كلام "هريدي" يعذبني، وتلميحاته بأن مشاركتي لابد وأن تكون أكثر قوة، تدفعني نحو إثبات جدارتي بالمشاركة معهم..

لكن في اليوم التالي، تم اختطافي!!

جهزت قناعاً أسبانياً ضد الغاز – كان أفضل قناع في الأسواق وقتها – وحملت حقيبة ظهر صغيرة ملأتها بأدوية مضادات الحموضة كما نشر الناشطون على الانترنت ضرورتها لمقاومة الغاز المختلف هذه المرة، فضلاً عن حقن المضادات الحيوية وبضعة لفافات من الخيوط الجراحية والأدوات البسيطة. اتصلت بي أختي لتطمئن عليَّ وترجوني ألَّا أنزل إلى هناك لكنني طمأنتها أن الأمر غير ما يقال، وأننا لسنا بلطجية. أبي اتصل ونهرني بشدة، لكنني كنت انطلقت بالفعل فلم اشأ معارضته وقلت أنني سأفكر في كلامه. انطلقت نحو المترو وتوجهت نحو "محمد محمود". كانت معركة حقيقية هذه المرة. كانت سحابات

الغاز من الكثافة، بحيث ازداد الخطر أضعافاً. لم نعد نواجه الغاز فقط، ولا الخرطوش المنهمر فحسب، بل الموتوسيكلات المنتشرة في كل مكان، تحمل المصابين بين اثنين من الجالسين عليها وتعود بسرعة نحو الخلف لمداواته ثم تعود لتحضر غيره. "عزمي" كان وسط ذلك كله أقرب الناس إلي مكاني. عرفني رغم القناع، وضحك قائلاً: "طول عمرك محترم، حتى لمَّا تعمل فيها بلطجي ومخرب مثلنا تأتي بقناع شيك". تعجبت من سخريته وسط هذا الجو وهممت بالتعليق، لكنه كان مشغولاً بالاتصال برقم ما طول الوقت دون أن يجيب الطرف الآخر، فلما حصل على إجابة، أسند ظهره لحائط قريب ونحن بين كر وفر وإلقاء للحجارة واتقاء للرصاص. كان يجادل محدثه وينهره في غيظ ويكرر سؤاله في غيظ: "تاني؟ تاني؟ لسه حتسألهم وتنتظر الرد؟". لما أنهى المكالمة بدأ يسب ويلعن وأخبرني أنه "محمود السمان". قال في غيظ أنهم مصرون على عدم المشاركة وأنهم وراء اتهام الشباب بالتخريب، وأنهم يقولون أن الأمر يراد به تعطيل فوزهم بانتخابات مجلس الشعب. قال في غيظ أنه لم يعد يفهم هل هذه هي قناعاتهم أم أنهم لهم مآرب يسعون خلفها. تذكرت ما كنت أسكت عنه بلا سبب ونطقت أخيراً فسألته في استنكار "أوليس "محمود" من الجماعات الإسلامية، ماله هو والإخوان؟". ابتسم في سخرية وقال أنني لا أفهم شيئاً، لكن حديثنا انقطع ونحن نواصل الكر. كانت عربات الإسعاف التي هاجمها الشباب في عنف، تدور كالتائهات وسط

الكتل البشرية محاولة الفرار، وبينما انتحيت جانباً لأتفادى إحداها، اصطدمت بطرف سيارة "ميكروباص" كانت قد اقتحمت الشارع من الخلف، من ناحية مكان علاج المصابين. ثلاثة رجال تبدو عليهم تفاصيل الهمة والقسوة، اندفاع نحوي في سرعة البرق، ثم مذاق الدم في فمي، والغاز الحارق في عيني. أظلمت الدنيا من فوقي وصدغي يلامس الأرض، ورأيت على مستوى رأسي المُرغَم، أقداماً ثقيلة تسعى نحوي فتحملني أياديها نحو السيارة، قبل أن تخفت الأصوات وأغيب عن الوعي.

عندما عدت إلى وعيي، كنت أجلس على مقعد وثير والصداع ينسحب عن رأسي فيخلي الساحة لدهشتي. لم أكن مقيداً إلى مكاني، ولا ممزق الملابس ولم تكن تحيط بي تلك الأيقونات التي تتبادر إلى ذهنك: لا كلاب ولا فرقة تعذيب ولا أي شيء مما كنت أنتظره. فقط غرفة واسعة نظيفة، مؤثثة بأثاث راقٍ ودافئة إلى حد ما. جراح وجهي مضمضة، ألم في ذراعي الملفوفة في لفافة طبية محكمة أنيقة من ذلك النوع الفاخر. بجانب مجلسي منضدة صغيرة عليها هاتفي المحمول. انفتح باب الحجرة ليلج منه رجل في ملابس رسمية. ابتسم، اعتذر عن العنف "غير المقصود"، ورحب بي في حرارة وجلس قبالتي وأشعل سيجارته بهدوء غريب ثم طمأنني أنني ضيفهم لساعات لا أكثر. رفض الإجابة عن سؤالي "أين أنا؟". في قدح قريب أطفأ سيجارته رغم أنه لم يُنهِها، ثم مال نحوي وهو جالس قبالتي وقال بلهجة ذات مغزى: "نحن كنا سنطلق سراحك فوراً

فور أن عرفنا من أنت، لكن "فؤاد" بيه أمرني أن أتحدث إليك أولاً". توترت لدى سماع اسمه لكنه واصل بنفس اللهجة: "شوف، هذا الذي يحدث في الشوارع من هؤلاء "الصيع" خطأ كبير. نحن نعلم من وراءه ونعلم أبعاد الموقف. لكن ما يعنينا هنا هو أن يعرف الناس أيضاً حتى لا يتسع الأمر. البلد لا تتحمل هذا التهريج، وهناك أناس كثيرون مستفيدون مما يحدث". قلت بعد أن لاحظت أنه ينتظر رداً: " قلت أن فؤاد هو الذي طلب أن تخبرني بذلك؟". ابتسم في غموض وقال: "اصبر على رزقك يا دكتور". استند بظهره لمقعده وأشاح بيديه في حركة مسرحية قائلاً: "تعلم طبعاً أننا لم نفاجأ بهذا الأمر. هناك دائماً سبب ما، وثيقة، تصريح يؤول خطأ، أو مليونية خرقاء من أجل مطلب "ثوري" ما". قال لفظة "ثوري" وهو يهزأ برفع كتفيه ويواصل في غموض: "لكن الهدف واحد، الفوضى ومزيد من الفوضى. المشكلة أن هذا لا يفهمه إلا الناس المثقفة من أمثال حضرتك طبعاً، فاهمني يا دكتور؟". قلت في إصرار: "فؤاد هو الذي لقنك هاتين الكلمتين؟ إذن فأنت ربما لا تتذكر أنك قبضت عليَّ من بين صفوف "الصيع" الذين تتحدث عنهم؟ باختصار العنوان غلط! أنا من بتوع الفوضى حضرتك!". أشار لي بإصبع محذراً في مرح وقال: "أعصابك يا دكتور. لا تتسرع وتقول كلاماً تندم عليه. من أفهمك أنك من هؤلاء، خدعك، الله يسامحه، لكن عموماً، ما انكسر يمكن أن ينصلح. يعني، حضرتك رجل ثوري حقيقي، طبيب كبير ومحترم وكان عندك أمل إن البلد

ينصلح حالها. أنا أيضاً أملي كذلك، لكن للضرورة أحكام". فرد ذراعيه امام صدره بمسرحية وقال في لهجة تحمل تعاطفاً مزيفاً: "هل تظن مثلاً أننا نتسلى أو نستمتع بما يحدث؟ كل شهيد يسقط هو مثل أخي وأخيك، لكن ماذا نفعل؟ حاولنا بالحسنى، لكننا نواجه أناساً تم غسيل مخهم بعناية، فلم يعد مجدياً معهم أي تفاهم، وإلا نعرض أمن البلاد كلها للخطر. لا تنس أننا لن نترك ذلك يحدث أبداً، علشان كده أقول لك: للضرورة أحكام."

قلت في استهتار:"الغريب أن سيادتك تظن أن هذه الاسطوانة المشروخة أسمعها لأول مرة. الأغرب هو أنكم لا تتعلمون، فعلاً إن ما حدث لكم يوم 28 يناير كان قليلاً، مفيش فايدة فيكم. ضرورة؟ أحكام؟ هل تصدق أنت نفسك بالفعل؟".

قال في صرامة وهو يضغط على نواجذه: "انتظر حتى تفهم ماذا أقصد بالضرورة يا دكتور. لكن.."

قطع حديثه والتقط هاتفي من المنضدة التي بيننا. طلب رقماً ما وانتظر ثم ناولني الهاتف. جاءني صوت "ندى" مرة أخرى!!

قالت في صوت ثابت أنهم قبضوا عليها منذ ساعات. طمأنتني بكلمات مقتضبة سريعة، أنها بخير، وأنه لا داعي أن أقلق. كنت مصدوماً وهلعاً، لكنها قالت في هدوء أنه عليَّ ألَّا أرتكب أي حماقة، وألَّا أفكر فيها فأنزلق لما أندم عليه. لم أفهم، لكن الاتصال انقطع. نظرت لمحدثي في غضب فقال: "ألم أقل لك

أن تنتظر ولا تقل كلاماً تندم عليه؟ اهدأ الآن ودعني أفهمك ما يحدث، وكما قلت لك: ما انكسر يمكن أن ينصلح!!".

* * *

24 نوفمبر، 2011

كانت أول مرة في حياتي أعلم بوجود هذا المبنى. هذا المبنى الذي يزورني سطحه مع الصداع في غزارة منذ شهور كلما قال أحدهم أمامي شيئاً ما يخص ما حدث، فأراني أقف فوقه أواجه عيوناً لائمة..

التعليمات التي ألقاها على مسامعي وأعادها عليَّ أكثر من مرة، كانت تقضي بأن أتصل بهم اولاً، وأحضرهم إلي المكان. عندما يظهرون، سيتصل بي الوسيط الذي لم يخبروني عنه. رفضوا إخباري عن شخصيته، ولكن قالوا لي أنني سأعرف أنه هو. ساعتها سيطلب مني هذا الوسيط أن انفذ تعليمات معينة.

هكذا دفعوني إلى السيارة التي أوصلوني بها معصوب العينين، مع شباب آخرين لا أعرفهم، لكنني استنتجت أنه قد جرى عليهم مثل ما جرى عليَّ. أشم روائح الغاز التي تتزايد كلما اقتربنا من الميدان و"محمد محمود"، وأستمع في فزع لأصوات القائمين على الكمائن وهم يحيون قائد السيارة ويسمحون له بالمرور وكأنهم يعرفونه، بل ويمازحونه بأن يسرع من سيره لئلا تفوت "ساعة الصفر"، ثم أتوتر كلما سمعت انفجاراً هنا أو هناك. بعد دقائق كنت أمام المبنى، مع

آخرين ذوي ملامح مخيفة، ووجوه امتلأت بالندوب والشر، يفعلون مثلي وينفذون نفس تعليماتي. أندفع بترتيب مسبق، بعدها أُلقِي بلفافة مشتعلة بيدي السليمة إلى داخل نافذة في الدور الأرضي. الشارع خالٍ تقريباً من المارة، لم يرني أحد وأنا أفعل ما فعلته ولا أثناء صعودي إلي السطح من المبنى الخالي. تلفت حولي فلم أرَ أحداً. انتظرت وأتممت الاتصالات المطلوبة. كنت أتمنى ان يفهموا خدعتي فلا يحضرون، كنت أتمنى أن يسخر مني "هريدي" وينعتني بالفرفور الذي يخاف على العلم والكتب وسط هذا الجحيم الذي يعيشونه، كنت أتمنى أن يخبرني أن هذا ليس وقته، لكن يبدو أن فزعي على "ندى" المخطوفة كان مقنعاً، فخرج صوتي يحمل انطباعاً أقنعهم بخطورة الأمر. لكنني ما أن فعلت، وما أن ظهروا – هريدي وعزمي وشاهي ومعهم العشرات- في أول الشارع، حتى اعتصر قلبي شعور قابض. "ندى" في يديهم، وصوتها، رغم ثباتها، حمل لي رعب الدنيا. "حياتها أو حياة أصدقائك، ولك الاختيار. سوف نفي بوعدنا ولن تكون لك يد في تلك الجريمة. سوف نسحبهم إلي هناك بحجة إنقاذ مبنى "المجمع العلمي"، كل ما عليك هو إضرام النار، الطلوع فوق المبنى، واترك الباقي لنا. سيتجمعون ودعنا نتعامل معهم".

لست ابالي بما تحكمه عليَّ، ولا ما تفكرون فيه ممن تقرأون هذه الرسالة. ليس من سمع أو عاش، كمن رأى أو قرأ. ليخبرني واحد منكم عمَّا كان ليفعل، لكن لينظر في عينيّ وهو

يقول ذلك. حبيبتك الرقيقة التي لم تخذلك يوماً، أم أصدقاء عمرك الذين لم يفعلوا كذلك؟ تطيع الأمر من ذوي البطش صاغراً، أم من فمها الذي يأمرك بالنكوص شجاعة والتراجع نبلاً؟ هل كانت نزعة الاختيار المختلف ثانية؟ الثورة أم المواءمة؟ الاندفاع الأهوج نحو ما يمليه ضميرك، أم التعقل في السير في كل خطوة؟ تعلمت أن أعرف اللحظة الفارقة بسمتها، اللحظة التي لا يُجدي معها العلاج، والأهم من ذلك، تلك اللحظة التي لا تُجدي معها الجراحة، ولا الكلام المعسول للمريض وأهله. لكن شجاعتي التي كنت أظنها بداخلي خانتني، وكذلك فعلت حكمتي. ظننت أن لـ"ندى" عليَّ ديناً أوفيه، وأن الأمر لن يختلف بفعلتي كثيراً ولن تتأثر النهاية. قلتها لـ"هريدي" وأنا أشكك يوماً في جدوى المليونيات والاعتصامات، فغضب مني، وقال أنني يجب أن أحب ثورتي وألا أكرهها. يجب أن أرضى بها ولا أحسبها بحسابات المكسب والخسارة. قالها "عزمي" إذ أعدت عليه نفس الكلام، سألته هل سننتصر؟ قال أن هذا ليس هو المهم، وسألني هل أستطيع أن أقسم أن تنجح كل عملياتي لمرضاي؟ صعقت لمنطقه ولم أنتبه إلا وقتها إلى أنه على حق. "ندى" كانت تجمعنا للصلاة وتتحدث عن الصلاة القادمة التي ربما لا نلحق بها في الميدان، ربما لن نكون أحياء، وعندما اختطفوها قالت أنها لا تبالي بأي مما يحدث لها وحذرتني أن أفعل ما أندم عليه، لكنني صليت معهم، ولم ألمح إلا الرعب في صوتها عندما أسمعوني إياه. فماذا فهمت أنا من ذلك كله؟

أحمق؟

هل كنت أحسبها حقاً بالمكسب والخسارة؟ هل حسبتها كذلك دائماً؟ زواجي، كليتي التي اخترتها، مواجهاتي مع أبي، اختياراتي المهادنة من وحي التميز، ثورتي، هدوئي لأبني أمجادي، مشروع الملاحدة، في كل ذلك، هل كان لي اختيار؟ وهل ألوم إلا نفسي لو كان الأمر كذلك؟

وهل هو كذلك؟

أم أنانياً كنت؟

هكذا، وببساطة؟

رن هاتفي اللعين، فرددت فوراً. جاءني صوته يسأل في اقتضاب أين أنا. أردت أن أجنبه الفخ، فقلت: "أنا في الطريق إليكم يا "أكرم"، انت فين؟ انت لو مش في "محمد محمود" خليك بعيد دلوقتي أرجوك". جاءني صوته بارداً كالثلج وهو يقول: "انت مش فوق السطح يا دكتور؟"

سقط قلبي بين ضلوعي وأنا أشاهدهم يقتربون ويشير بعضهم نحوي ويتصايحون على بعضهم لمرأى النار المنبعثة من الأدوار السفلى. رصاص لا أعرف من أين أتى، البعض يسقط ممسكاً برأسه وآخرون يسحبون المصابين. قوات منتشرة على الأسطح. كمين محكم. صوته يعيد على مسامعي سؤاله. بدأت أفهم فقال بنفس البرود أنه هو الوسيط الذي أخبروني عنه. وسط صراخي به عن السبب: "ليه؟ انت؟ ليه؟" ضحك في بساطة وقال: "انت أصلك مش فاهم أي حاجة. اسمعني يا

دكتور، أنا دقيقة واحدة وأكون عندك. على إيدك اليمين هناك صندوق أزرق صغير. رأيته؟ عظيم. افتحه من فضلك. هناك دلو به ماء، ولفافة صغيرة. ضع اللفافة في جيب معطفك الآن. لا تناقش أرجوك فليس هناك وقت. الآن أمسك بالدلو وأفرغ ماءه من السطح.. نعم الآن فالعدسات مصوبة إليك، والجماعة أصحابك شايفينك.."

فعلت مثل ما قال، فجاءني صوته من خلفي.. كان قد وصل إلى السطح ووقف بقبالتي. سحبني من ذراعي المصابة فتألمت وسببته، لكنه بدا بارداً وهو يسحب اللفافة من جيبي ويفضها على عجل.

حينما وضع المسدس في يدي، كان الواقفين من حولي قد اتخذوا أماكنهم بترتيب محكم. أخذوا يلقون الحجارة على المتجمعين في فزع أسفل المبنى. أبعدهم ذلك لأمتار، لكن تصميمهم زاد فتقدموا وتجمعوا بأعداد أكبر. البعض خلع ملابسه وبدأ يحاول إطفاء النار في أسفل الأدوار. أمرني "أكرم" أن أواجه الجموع المحتشدة بأسفل ففعلت. ارتعد جسدي رعباً، وترقرقت دمعة قهر في عيني، لكنه أمسك بي من مرفقي من الخلف ورفع يدي وصوبها ناحيتهم ثم قال أن أطلق النار نحوهم. قال في سخرية أن "حبيبة القلب حتموت لو ماسمعتش الكلام". نفضت ذراعي من يده بعصبية ودرت لمواجهته، لكن ظهري التصق بسور سطح المبنى فلم أستطع تفاديه. صرخت بأن يبتعد عني وإلا قتلته، لكنه ضحك هازئاً بي

وقال أن المسدس خالٍ من الطلقات، وأنها تصدر صوتاً فحسب. قال في شماتة: "اضرب ناحيتهم نار، وخللي الصوت يطلع بس، إحنا مش طالبين أكتر من كده، وانتو مايطلعش منكم أكتر من كده، صوت وبس، اسمع الكلام أحسن لك يا دكتور".

دار ببالي أنه يكذب، لكنه كمن قرأ أفكاري قال بأنني لو حاولت مخالفة أوامره فلسوف يقتلني هو، أتبع كلامه بأن أخرج من جيبه مسدساً وصوبه نحو رأسي وأمرني بأن أستدير لمواجهة الحشد مرة أخرى ففعلت. وقفت لأنظر لأسفل وقال وهو يتابع حركتي أن العدسات تم تصويبها بعيداً عني بعد إفراغي لدلو الماء الذي يظهرني أحاول إطفاء النيران، وأنه علي الآن أن أنفذ ما قال. ظل ترددي غالباً وأنا أفكر في ضيق ولوعة، سالت دموعي وأنا أصوب يداً مرتعشة نحوهم، فالتقت عيناي بعيني "هريدي" اللائمتين، المذهولتين. جفلت وأنا أرى "عزمي" من ورائه، يلطم خديه ويشير لي ألا أفعل، و"شاهي" تكتم صرخة براحة يدها. صوبت نحوهم وضغطت الزناد مرة ومرات، اهتز المسدس في يدي واندفع ذراعي مرغماً بتأثير الطلقة لأعلى، اندفاعة حقيقية، باردة، اندفاعة ليست لرصاصة مزيفة، فأدركت خدعته. بحثت بعيني عن "هريدي" فوجدته قد اختفى، و"عزمي" ينظر ناحيتي ويهز رأسه أسفاً، بينما يجري لحمل جسد "هريدي" المسجى بعيداً، وتصك مسامعي أصوات الرصاص من حولي يطلقها شابان آخران يبدو على ملامحهما التصميم والقلب الميت، ولا يبدو عليهما أي نية في التوقف. لم

أفهم ما إذا كنت أنا، أم هم، لكن ما فهمته كان كافياً لكي ألقي المسدس من يدي في فزع وأستدير لأواجه أكرم وأهجم عليه في شراسة. كان أقوى مني فلم يتأثر بهجومي، بل صده بكل سلاسة. لكمة ثم لكمتان، دوار، سواد يحيط بالأشياء.

وهذا هو آخر ما حدث، قبل أن أدخل في غيبوبتي.

* * *

نظر إلي وأنا أتصبب عرقاً ونظراته لا تحمل سوى الشماتة:

"طيب أنا كنت باعمل إللي عليا، شغلتي إني أنقذ البلد من أمثالكم، وانت؟ كنت بتعمل إيه؟ عايز تبقى ثورجي وتهتف وتتكلم زي ما انت عايز؟ بس كمان عايز العز والجاه، وكمان عايز حبيبتك، وعايز تفضل محترم بس تقتل ومحدش يعرف صح؟"

-"انت خدعتني، المسدس كان فيه طلقات حقيقية"

-"مش مكسوف من نفسك؟ طيب ما تقف زي الرجالة وتقول لأ؟ حقيقي ولا مش حقيقي، إيه إللي وداك معانا؟ انت قلت لأ مش حاجي معاكم و إحنا خدناك بالعافية؟ ماضربتش عليا نار ليه؟ خفت على حبيبتك؟ ولا على نفسك؟ أقول لك أنا خفت على إيه؟ على حياتك يا "مصطفى" بيه. على الهيلمان إللي كنت عايش فيه، "فؤاد" فهمك صح، وقال عليك إنك واطي، ومايهمكش إلا الفلوس وعاوز كل حاجة لنفسك. انتو كلكم كده، سواء اللي عاملين فيها ثورجية أو إللي مسميين نفسهم "أحزاب"، ولا مفكرين ولا صحفيين، الواحد منكم يقلب الدنيا

ويصدعنا بكلام وخطب، ولما ندوس على صباع رجله بس، يعمل "عيشة" ".

دق بقبضة يده على المائدة بيننا في قسوة وهو يهدر: "انتو بتحبو البلد آه، بتحبو الحق آه، بس مش حب لدرجة الجواز، حب وسخ زيكم، حب عايزين تنبسطوا وتتكيفوا منه وبس، وساعة الجد تهربوا من العيال إللي خلفتوها من الجواز ده. انت مش راجل يا دكتور، ولا حد فيكم راجل. ما كنت رفضت وقلت لي إللي يحصل يحصل؟ ترفع السلاح على صاحبك؟ لكن إللي زيك أصله عمره ما حط روحه على كفه ولا عرف يعني إيه خطر ومواقف مفيهاش هزار"

-"صاحبي إللي بتقول عليه ده كان راجل، ومات وهو راجل"

-"أكيد فيه استثناء، بس كمان فيه قاعدة إنت أصدق مثال عليها، وإللي زيك هم إللي بيريحونا من إللي زي "هريدي"".

مال ناحيتي أكثر وهو يقول والشرر يكاد يخرج من عينيه: "من أجل ذلك يا دكتور، وحياة أبوك ماتعملهمش عليا. إحنا عملنا إللي علينا وصرفنا على علاجك وطلعناك بطل، سنين طويلة رغم إنك كنت ميت ميت، لكن تفتكر نفسك أحسن مني، أنسفك. المشروع إللي اشتركت فيه ونفذت كل إللي إحنا عايزينه، تم خلاص، ومافاضلش غير إبنك والبنت إللي معاه، وأنا عارف إنك حتخلصنا منهم، وبعدها نرميلك العضمة إللي إنت عايزها. لكن حسك عينك تلعب بديلك. "حسام" يقول لك

إللي انت عايزه، هو كل إللي يعرفه إنك لو ماتمتش الموضوع أنا حنفخك، لكن ميعرفش حعمل كده إزاي. اسمع بقى مني، خلصت على خير، ليك إللي اتفق معاك عليه، تقل عقلك وتخل باتفاقنا، وأسمع بس، مجرد سمع، إنك مزعل "الريس" أو "حسام" منك في حاجة، أول واحد حيعرف إللي حصل منك يوم المجمع وبالصور والأفلام وكلها عندي في الحفظ والصون: هو "إبنك" المحروس الغالي!!. وخليك بقى ارفع راسك في وشه بعدها لو تقدر لما يعرف إن أبوه قاتل، وخاين، ومش راجل"

-"وكل ده حتعمله لأجل عيون "السمان" و"حسام" إللي بتقول عليهم أراجوزات"

ابتسم في سخرية وهو يقول: "شغلي، واجبي إني أحمي الدولة وألبي رغبات الريس والمستشارين. بس إللي يطلع برا حدودي، أنسفه، مهما كان هو مين. هم مش كانوا عاوزين حربهم الخاصة علشان يشغلوا الناس؟ ماشي الكلام، خدنا لنا كام شهر أهو في موضوع الاستتابة وبيت الملاحدة، وخلاص، المولد (بح). خرجوهم وانبسطوا وفاكرين إن كده الناس حتهلل لهم؟ كلها كام أسبوع والعيال دي تولع الدنيا تاني، كلها قعدة ولا اتنين مع الناس، وتلاقي إللي يقول لك دول كويسين وولاد ناس، ويااللا نقلب ولاد الكلب بقى إللي هم إحنا طبعاً. طيب، أديني بلمهم تاني، و ولا كأنهم خرجوا. إذا كان الريس مش فاهم مصلحته ومصلحة البلد، بسيطة، نفهمهاله. متقلقش عليا، أنا عارف شغلي كويس، ومتنساش إن الأراجوزات وراهم دايماً حد

بيلعبهم ويطلع صوتهم للجمهور. هم من غيري مايسوووش. أنا حفضل مع كل أراجوز، وحعلمه كويس إني أغلى حاجة يحرص عليها".

* * *

خرجت محطماً..

أنا؟

لهذا لم يذكر "عزمي" ولا "شاهي" شيئاً عما حدث.. أدرك "عزمي" منذ اللحظة الأولى عندما أفقت من الغيبوبة، أنني لابد وأنني لا أذكر شيئاً، إذ سالته عن "هريدي"، ولم يبدُ عليَّ أي تأثر بما فعلت، فتذكر لكنه ارتاح لأنني نسيت!!

لهذا قال لي أن أبدأ حياة جديدة، دون ندم على أي شيء فات..

تذكرت تلميحات "عزمي" ليوم المجمع العلمي عندما نهرته "شاهي"، وتذكرت "ندى" إذ قالت في ألم، أن "هريدي" مات من قبل أن تصبه الرصاصة، معنوياً على الأقل، فتهل عليَّ ذكرى عينيه اللائمتين وهو ينظر إليَّ وأنا أصوب المسدس نحوهم. تذكرت "هريدي" وضحكته، وانكساراته، واعتقاله، وزواجه، ودموعه إذ قابلني في "محمد محمود" عند انضمامي للاعتصام. تذكرت "فؤاد" وسخريته اللاذعة مني وهو يقول أننا أهل، ولكنني يجب أن أعود الآن وأترك هؤلاء "الصيع"، تذكرت الغاز والكر والفر، ودقات المحمول، وحديث

الـ "سي إن إن"، و"أيمن" الذي ذبحته حلقات الفشل فطلب النجاح في جانب آخر من القمر. دارت صور أيام النيابة أمامي كعرض صور مستمر، صور"حسام"، وعملي بألمانيا، وأبي وهو يعض على نواجذه إذ يوافق مرغماً على زواجي، و"هريدي" وهو يقول أن هذه الأمور تأتي معها منغصات لا تعرف من أين أتت. غص قلبي وأنا أتذكر المستشفى، والأطباء الجدد ملوك الجناح الفاخر، وقضية النقابة، و"باسم"، ومقتله، والميدان وأهازيجه، و"محمد محمود" مرة أخرى.

سخر مني خاطر "الديجافو" الذي طاردته وطاردني، وارتفع صوت ضحكه الهازيء في عقلي. لم أكن قد رأيت شيئاً من قبل كما تصورت، لكنني رأيت تخاذلي قبلاً، فاشتممت رائحته وأنا أخطو فأتلمس خطاي المتخاذلة، هي ذاتها، بتدقيق وإخلاص مقيت، لا أرى مهادنتي وقد فسدت وأفسدتني، وأسأل نفسي طول الوقت في غباء: من أين تأتي هذه الرائحة العفنة؟

اتصلت بي "غادة" وأنا أتسكع في وسط البلد لا ألوي على شيء.. منهاراً على أحد المقاعد بمقهى منزوٍ جلست وأنا أرد على مكالمتها.

ماذا قلت لك عن المصائب التي لا تأتي فرادى؟

* * *

جاءني صوتها وهي تسب وتلعن وتصرخ في وقت واحد. قالت أن "صابر"، حارس العنبر قد اعتدى عليها وحاول اغتصابها. قالت أنك حاولت الدفاع عنها لكنك أصبت بإصابة

خفيفة، لكنكم تحيطون بصابر الآن، أنتما و"سعد" و"رجل الكاميرا" الذي تصادف أنه لم يكن قد رحل بعد بعد إذاعة محاضرة لزميل آخر كانت اليوم، وأن الأمر جد خطير. سألتها عن "صابر" وأين هو الآن فقالت أن "سعد" ورجل الكاميرا وأنت تكفلتم بإلقاء القبض عليه وأودعتموه حجرة خاصة، لحين تسليمه للسلطات، لكنها انقلبت فجأة إلى لسان يهاجمني بضراوة. "انت مش حتفلت المرة دي، كفاياك مصايب عمالة تحصل لكل إللي حواليك من تحت راسك. "صابر" إحنا مسكناه، لكن إللي حنعمله حاجة تانية". قالت أنني مسئول عما حدث، إذ أغرت الأعداد التائبة إدارة البيت بتخفيف الحراسة، مما جعل "صابر" وحده المنوط بالحراسة، وانعدم الشهود تماماً. صرخت بأن عليّ الإسراع وإخراجكما من البيت حالاً، وأنهم – سعد ورجل الكاميرا- على أتم استعداد لإذاعة بث مباشر لـ"غادة" وهي تتهمني أنا بتسهيل الاعتداء عليها، وأنني دفعت "صابر" لما فعل، لأنه يتستر علي في حوادث مماثلة!!. سببتها في قسوة وأنا أترحم على أبيها الذي لا تشبهه نخوة ولا مروءة، وقلت أن هذا افتراء، لكنها ضحكت في قسوة وذكرتني بالفتاة المنتحرة وتساءلت عمن يكون "المفتري" بالضبط؟. حاولت تذكيرها بأنني أفعل كل ذلك من أجلكم، وأن الغاية إذا صحت فلا داعي لأن نختلف حول الطريقة، فهزأت بي وقالت: "كلكم زي بعض، والله ميكيافيللي بيتقلب في قبره من الإبداع إللي بتعملوه. لكن أقول لك إيه؟ حكلمك بقى بالطريقة إللي تعرفها. قدامك

ساعة واحدة من دلوقتي، يا إما تيجي وتعترف على الهوا إنك كنت مأجور من "حسام" وحكومة "السمان" علشان تعمل دورك بتاع الاستتابة، وتقول للناس إللي بيحصل هنا، وتشرح لهم فكرتنا، يا إما حنعمل إللي بنقول لك عليه"

قلت في غيظ: "يا غادة وانتوا حتستفيدوا إيه من إللي حتعملوه؟ عايزة تطلعي على الهوا وتبرأي نفسك اعملي اللي انتي عايزاه، لكن أنا ذنبي إيه أتحط في الموقف ده؟ أنا مش حيرحموني لو طلعت اتكلمت كده؟"

-"عايزني أطلع أتكلم لوحدي؟ علشان يقولو دول اعتدوا على المصور وضربوه وسجلوا معاه بالعافية؟ وطبعاً نموت في إطلاق الرصاص بيننا وبين قوة الأمن إللي حتحاصر المكان؟"

-"هم كده كده حيقتلوكو لو عملت كده، سواء أنا إللي باتكلم ولا انتوا بس، عايزة تنتحري انتحري لوحدك، إديني "أدهم" أكلمه، متضيعوش الدنيا أبوس إيديكم".

أغلقت الخط في وجهي وتركتني مذهولاً..

انطلقت بأقصى سرعة وقد اضطررت للإسراع بالمخطط الذي كنت قد انتويته الأسبوع المقبل. كانت العقبة الوحيدة هي كثرة الحراس الذين تم سحبهم من الحراسة، وإذ لم يعد غير "صابر"، صار الأمر أسهل. لم يكن هناك وقت لأضيعه، فاتصلت بـ"عماد" واستعرت سيارته على وجه السرعة، فوافق متعجباً لكنني تمالكت نبرات صوتي وأنا أعده بالشرح فيما بعد.

* * *

اتصلت في طريقي لبيت الملاحدة بـ"سعد" فأتاني صوته مهموماً وهو يرد بغير اكتراث. نهرته لموقفه مما يحدث، فسخر وقال: "لأ أصلك وقفت جنبي وقفة جامدة قوي يا دكتور، جدعنة إيه إللي جاي تتكلم عليها؟"

-"يا "سعد" مش وقت إللي انت بتقوله ده. إبنك حيرجع لك يا "سعد"، لكن كل حاجة بتحصل بسرعة جداً، لدرجة إني مش عارف أتصرف. ده مش وقت زعل يا "سعد"، إزاي ساكت على إللي بيحصل عندك؟ انت مش عارف إن "أكرم" لا يمكن يسكت على إللي بيحصل، وممكن يولع البيت بإللي فيه؟ ماتبصش تحت رجليك يا "سعد"، إبنك ممكن يرجع وكل حاجة حتبقى كويسة، إديني فرصة بس نص ساعة وأكون عندكم، وإوع تسيبهم يعملوا حاجة، ماتودوناش كلنا في داهية"

-"يا دكتور انت مش كنت بتقول لي الناس لازم تعرف إللي بيحصل في البيت؟"

-"بس مش بالطريقة دي يا سعد!! انت خايف على إبنك، يعني أنا إللي المفروض أرمي إبني في النار علشان الناس؟. أنا جاي لك في الطريق يا "سعد""

قلت له أننا سننفذ ما اتفقنا عليه ونخرجكما من البيت بالقوة. أقنعته أن خروجكما بهذا الشكل هو الضمان الوحيد لنجاتكما، ومن ثم بقاء الأمل في نجاتنا جميعاً، وإنقاذ إبنه، وأن هذا البث لن يتم أبداً. شفعت كلامي بتهديد مباشر بأن أبلغ عنه

"أكرم" الآن، ولسوف يقطع البث حتى لو بدأ، ويكون الثمن هو رأسه وحده، فلا الناس عرفت ولا إبنه رجع ولا هو طالني باللهيب الذي يوشكون على إشعاله. بدا أنه تراجع، فضغطت عليه أكثر، لكنه انهار وسلم ووعدني أن يحاول المماطلة في البث حتى أصل إليه، شريطة ألا أتأخر لأنكما تبدوان مصممين للغاية، وهو لا يضمن استمالة رجل الكاميرا ناحيته إذا طال الوقت".

كنت قد قطعت نصف الطريق عندما اتصلت بـ"ندي". شرحت لها بكلمات قصيرة ما يحدث في "بيت الملاحدة" ففزعت ونعتت "غادة" بالمجنونة وسألتني عما تفعله لمساعدتي. قلت أن عليها الاتصال بـ"أكرم" بنفسها، أو سأتصل أنا بـ"حسام" ليفعل هو، حتى لا يسمح "أكرم" ببث مباشر من البيت أبداً في الساعتين القادمتين على الأقل، فامتثلت لرأيي وقالت أنها ستتصل به بنفسها، ولا داعي لإقحام "حسام" خشية أن يثير هذا حفيظة "أكرم" تجاهه زيادة. ذَيَّلت كلامها بصوت مرتعش بأن "السمان" على وشك زيارتهم الآن وربما يطلب يد ابنتها منهم رسمياً خاصة بعد صدور القانون. تذكرت كلام "أكرم" لي بأن "السمان" قد وعده بأن يتخلص من "حسام"، وحسمت أمري في لحظة بألا أجعله يستفيد من تحذيري له، لكنني قلت لها أن نهاية "حسام" السياسية قد اقتربت وأن "السمان" ربما يكون أتى لهذا الغرض ونبهت عليها أن تأخذ حذرها، بل واقترحت عليها أن تعد عدتها للهروب

بابنتها الآن، فلن يكون لـ"حسام" أي نفوذ تخشى على نفسها منه في خلال يومين على الأكثر. شكرتني في اطمئنان ونم صوتها عن خوف دفين علي، لكنني لم أترك لمشاعري العنان، فلقد توقفت بالسيارة ودخلت إلى الحديقة، وقفزت لأدخل إلى المنزل، والباقي أنت تعرفه.

* * *

كنت أريد أن أسألها ما إذا كانت سامحتني عما فعلت..

كنت أتمنى أن أسمع منها ما يطمئنني، لكنني لم أجد لا الشجاعة ولا الوقت الكافيين..

كانت خطتي أسبق لأولوياتي، وكان كل ما أفكر فيه هو إخراجكما، وإنهاء هذا المشروع السخيف الذي ورطوني فيه..

لكن دهشتي تعاظمت عندما استقبلني "سعد" بوجه متجهم، أمسكني في قسوة من تلابيبي، فذكرني بإمساكي به يوم أن اكتشفت ضلوعه في مسألة المخدرات التي دبرها "فؤاد"، وأحاط بي "صابر"، ورجل الكاميرا وأنت..

بعد أن قيدتموني إلي كرسي بقوة وقسوة.. بعد أن أدركت أنني لا أعايش لحظة من "الديجافو"، ناءت حججي بحملها، واستسلم إنكاري للواقع، أنار عقلي دفعة واحدة، إذن هذا يحدث فعلاً.. وفهمت كل شيء..

حاولت تحذير "سعد"، أن "أكرم" لن يسمح له بذلك، وأفلتت مني جملاً عصبية قلت له في إحداها: "حرام عليك إللي بتعملو ده يا "سعد""، فضحك في وحشية وهو يقول أنه لم يعد

يهمه شيء، وأن حياته التي أضاعها في الخوف من "فؤاد" و"أكرم" و"حسام" وأمثالهما، لم تعد تساوي عنده لحظة يعيشها زيادة، بعد ما حدث لـ"سامح". قال أيضاً أنني لا يجب أن أشغل نفسي به، فقد قرر أن يتعامل مع الحلال والحرام بطريقته. قالت "غادة" في تشفٍ أن "ندى" دبرت معهما كل شيء فجن جنوني وأنا أستنكر هذا الكلام، لكنها قالت مدللة على كلامها، أن "السمان" في طريقه لخطبة ابنة "ندى" الآن، وتساءلت في سخرية أين عساني أكون سمعت هذا الكلام من قبل، فأسقط في يدي.

كنت أنت الوحيد الذي يرقبني صامتاً، بينما يسخر مني الجميع ويمطرونني بنظرات الاشمئزاز. قالت "غادة" أن "ندى" حالت بيني وبين الاتصال بنفسي بـ"حسام" أو "أكرم" وأخذت المهمة على عاتقها لتمنعني من القيام بها، وفي نفس الوقت لن تتصل هي بأحد، من أجل ألا تصل لمسامع "أكرم" أية معلومة عما يحدث، وأن "شباب الجامعة" سربوا الفيلم إلي سعد، واتفقوا مع "ندى" والمفرج عنهم من الملاحدة الذين استتبتهم على هذه النهاية. أضاف "سعد" في برود أن الفيلم سيذاع الآن على الهواء ولن يمنعه مخلوق من فضح كل شيء، وإن هي لحظات وتشتعل البلدة كلها بالنار والثورة ضد "السمان". بدأ رجل الكاميرا العمل وانتهى"سعد" من قصته وإذاعة الفيلم، وبدأت مشاهد الحرق لمقرات الجماعة تتوالى، ومظاهرات الشباب حليق الرءوس، وآلاف البنات الصغيرات

تتجمع في الميادين صامتات تحيط بهن حشود أهاليهم المكلومين في أطفالهن الخرسى قسراً، بينما يضحك "سعد" كالمجنون في جذل، وتنبعث التكبيرات من حلق "صابر" في حماس يدهشني. أحاطت مركبات صاخبة فجأة بالفيللا، وانفتح الباب في قوة، ورأيت بعيني رأسي "أكرم" يقتحم المكان على رأس قوة ضخمة، ليلقوا القبض علينا جميعاً في سرعة. وبينما أرحل بعيداً مقتاداً بين يدي الحراس الغلاظ، رأيت وجه الجثة ذات الجسد الضخم، التي يلقون بها وسط الفيللا في ضجر قبل أن نرحل جميعاً.

كانت جثة الرئيس، "محمود السمان"..

* * *

جزء مكمل للرسالة.. يكتبه "أدهم مصطفى المصري"..

أسمح لنفسي بإضافة هذا الجزء لشهادة والدي التي كتبها بنفسه. حرص هو على أن يوصلها إلي، لأحكم عليه أو له، لكنني لن أفعل. أحمل جزءاً من روحه بداخلي، شئت أم أبيت، لذلك أرفض الكثير، وأقبل الكثير، لكن هذا أمر يخصني وحدي، لا يخصه أو يخص أحداً غيري، وغيره.

عرفته منذ اللحظة الأولى!!

آثرت ألا أظهر ذلك في حينه، غير أن ضيقي مما وضع نفسه فيه فضحني، فلم أكن أتكلم معه كثيراً، في باديء الأمر، ثم قررت أن أمنحه فرصة ليفهم، فرصة ليتحرر من نفسه، وسنين

عمره التي لا تخصني، والتي جعلت بينه وبيننا حائلاً كبيراً. كنت واهماً، لكنني عرفت ذلك متأخراً، ساعتها لم أعد آبه أن يفهم أو يظل على حاله.

قرأت يوماً مقولة أن "الثورة دين جديد، يفرق بين المرء وزوجه وبين المرء وولده". أتحرج من وصف "الدين"، أكره أن أقول أنها حقيقية، لكنني أفهمها بشكل خاص، ويبدو أنها كذلك بالفعل. أفهم أبي، وأفهم جيله على تنوعهم، أفهم "عزمي" الذي ساندنا في ثورتنا الأخيرة، وساندنا الآن ونحن نفتح العيون لعلها تفهم، وننزع مكممات الأفواه لعلها تستفيق. أفهم "سعد" الذي قضى طول عمره كالسمك، يهز ذيله ويغلق فمه حتى لا ترشق به سنارة الصياد، فإذا بذيله يكون مقتله. هؤلاء اعتادوا الظل حتى خشوا من أشعة الشمس، فلما أشرقت الشمس لم يفهموا كيف يتلمسون طريقهم في ضوئها المبهر. عمت عيونهم التي اعتادت الظلام، حتى ألفته وألفها، وخبروا الطرقات تحت جنحه. لكن الطرقات اضطربت معالمها في النور، فظلوا يبحثون عن بقعة مظلمة ينسلون إليها.

أفهم "ندى" التي دبرت الأمر كله، أفهم لوعتها على ابنتها التي تساق للجحيم كقطيع الأغنام، وإلى حرف الجرف قبل أن تتعلم الطيران، يرعاها راعٍ لم يراع فيها أبوة ولا عقلاً. أحترم ندمها على ما فعلته، لكنني أفهم أيضاً صنيعتها بقتل "السمان" بالسم في العشاء. قالت في رسالتها إلى "غادة" قبل أن تهرب بابنتها بعيداً، أن أكثر ما أثار اشمئزازها هو فزع "حسام"

عندما سقط "السمان" أرضاً، وحيداً بلا حراسة في منتصف بيتها. قالت أنها طمأنته وهمست في أذنه بالحل، وأجرت الاتصال بـ"أكرم" بنفسها. اتفقوا سريعاً على ما حدث، وكان مجيء أبي لبيت الملاحدة لتنفيذ خطته مدفوعاً منها عن طريق قصة اغتصاب "غادة" التي اخترعتها، حتى يتزامن وجوده مع مقتل "السمان" والتخلص من جثته في بيت الملاحدة، فتودي به إلى حتفه.

أفهم كل هؤلاء بإحباطاتهم، وإخفاقاتهم وهزائمهم، التي جعلتهم ملحدين كفروا بربهم بعد أن نزلوا لنصرته إلي الميادين في شجاعة، وفتحوا صدورهم في وجه الرصاص، فأخطأهم الموت لكنهم، وإذ تعثرت خطواتهم، صبوا جام غضبهم علي دينهم الذي اتبعوه وعلى إيمانهم به. مزقوا كتبهم وحرقوا أزلامهم، وكأنهم ينتقمون من أنفسهم. ملأوا الدنيا صراخاً، فلم يجاوبه مجيب. أشاعوا الحديث عن الكفر بالثورة، غضبا من أن الرب لم يعطهم ما أرادوا، أو لم يستجب إلى دعوات، أو عندما ألقوا فى باطن الحوت، لم تنقذهم تراتيلهم ولا استغفارهم، وتركوا لعويلهم المستمر بلا أذن تسمع ولا قلب يجيب..

كانوا ضعفاء.. سقطوا دون أن يفهموا أن الرضا عن النفس هو الأساس، لكنهم لم يرضوا بالهزيمة وظنوا أنها لا تستحقهم، ولا يستحقونها.

والضعف أفهمه، لكنني لا أحبه..

لذلك فهمت أن أبي يجلس أمامي يحادثني عن أن أنكسر بيدي، يقنع العديدين فيضعفون بدورهم، لكن..

ما لم أفهمه، هو شيء واحد. كيف وافقت أنا على هذا الذي حدث في مشهد النهاية؟

لقد خرجنا عن ديدن الكبار في احتكارهم للفهم. خرج الثائرون منذ سنوات وقد فهموا، وخرجوا عن القالب الذي أرادوا وضع مصر به، لكنهم سرعان ما انكسروا. خرج أبي عن قالب جدي، لكنه كان خروجاً أشبه بالكفر، والكفر ميراث العند، وكلاهما لا يقود لخير. لكنني، ومثلي كثير، فهمنا القوالب وقلبناها بين أكفنا ففهمنا: هذا ما لا نطيق، وهذا ما لا يصح. ببساطة، دون تمرد منحاز، ودون معاندة أو عزة بإثم. عشت لأستمع من أمي مراراً إلي قصة أبي الذي عاش وغداً، وتركنا لينزل للشارع مع "الفوضويين"، ولكنني برغم ذلك، لم أقتنع، ولم أقنع أيضاً بالعكس تماماً، لكنني وزنت الأمر فوجدته على غير ما قالت، وعلى غير ما أراد أن يوحي إليَّ به. أعتقد أنني سمحت لعقلي أن يعمل، ولفطرتي التي حملت جزءاً من روح أبي بداخلها أن تفرد أجنحتها وتحلق نحو الشمس. تلك الفطرة التي أنكرت بطبيعتها كلام أمي، كما أنكرت نسخة الحفاظ الضيقة عن رحابة الحياة، تلك الفطرة التي أرسل لها الله دينه ونوره، لذا أيقنت أن كل ما يخالف الفطرة، وكل ما لا يفيد، هو بالضرورة من سوء الفهم، أو من شر النفوس وهواها. تلك هي قناعاتي، وتلك هي بوصلة الثورة، التي بحث أبي عنها، وحار

"عزمي" في فهمها، وأنكر "حسام"، و"السمان" وأكرم" وجودها من الأساس.

أمي من هؤلاء الذين استمرأوا الظلام، لكنني فهمت ما لم تفهم. عندما أجبرها "حسام" وزوجها على الرحيل، كان أكثر ما أزعجها أنني رفضت الرحيل معهما. لكنها حياتي التي لن تفهمها هي أبداً. قرأت كثيراً عما حدث منذ يناير، وفهمته. سيدنا "إبراهيم" حاول أن يستميل أباه إلي الإيمان بالله، وسيدنا "نوح" عليهما السلام، وقف يدعو إبنه للهداية حتى حال بينهما الموج. لا أتحدث هنا عن النتيجة، لكنني أشير إلي المحاولة نفسها، ترى ماذا فهم منها "السمان" قبل أن يقتل؟ بل انظر ماذا رسخ في ذهن "حسام" أو "أيمن" من معنى؟ ليس أكثر من أن الله يهدي من يشاء، ولكنك لا تهدي من أحببت، ثم إن عليه أن يحاول استتابتنا. كل ما فهموه أنهم في جانب الحق، ونحن على الضلال. لم يدر ببالهم أن هذا هو المنهاج، يتبعه كل من يدافع عن إيمانه، بصبر، بدون يأس وبلا انتكاسة، وأياً كان ما تؤمن به. لكننا فهمناها بشكلها الأوسع، لأن الله يأمرنا ويعلم أن عقولنا كما تعي الأوامر، فهي أيضاً تتفهم المعاني خلفها.

نحن لم تثقلنا إخفاقات ولم تهزمنا النوازل، لذا لم نعش في الظلام، ولم نرفض النور حين جاء، ولم نجلس على الأرض نبكي سهام المكذبين ونشكو من أذى المعذبين. صبرنا، وتذكرنا طول الوقت السبب الذي أوصلنا لما صرنا عليه، وأننا عندما حاولنا تنوير الناس، كنا ننشر "ديننا" الذي اضطررنا لأن

ننادي به، وحاولنا أن نهدي الكل، بيد أن كل من عادانا لم يسأل نفسه ولو للحظة: ماذا فعلوا هم بكلام الله حتى باتت الثورة ضرورية عليهم؟ لم يفهموا أبداً أنها ضدهم وليست ضد السماء؟ هؤلاء الذين دنسوا المعاني واستباحوا النصوص، حتى كرهناها وكدنا نكفر بها، لولا أن أدركتنا عناية الله فانتبهنا إلي أن ديننا هو دين الله، الله الذي أراد لنا أن ننعم بالحرية، والعدالة والكرامة كما قال الثوار منذ خمس عشرة عام، وأنها ليست مجرد وجهة نظر، لكنها النصوص التي حفظوها، وفسروا منها ما أرادوا، وتركوا ما أرادوا، ثم أنهم لم يفهموا منها شيئاً.

نحن الآن في الشارع مرة أخرى. الناس خرجت عن بكرة أبيها، "أكرم" هرب، و"حسام" لم يعثر له على أثر، ومقرات الجماعة يحرقها ملتحون وغير ملتحين، والناس تجعل البنات الصغيرات، حليقات الرءوس، في الصدارة..

سنعيش أياماً في فوضى، سيهاجمنا البعض، ويفتتن البعض ويخرجون ليداهنوا الجموع والخاصة، ويسقط البعض منا في الطريق، لكن الغد ليس كالأمس، ونحنا لسنا هم، نعلم أننا سنؤذى، ونعلم أننا سنرهق. "النية غاية". قالها "محمد عزمي" يوماً وهو يحاور أبي في غضب، لكنه لا يعلم كم كان صادقاً. ربما لم يفطن أبي أن قولة "عزمي" أصابت ما فعل بدقة، وكأنه كان ينتقد ضعفه أمام تهديداتهم، وجنوحه للحرق والقتل بدعوى الانصياع. لا أعلم ما إذا كان قد لمح التشابه بين قصة "عمار بن ياسر" التي ذكرها له "عزمي" يوماً، وبين

قصته هو. ربما فهم "السمان" زمناً أن النية وسيلتهم إلى الغاية، وربما قصد أن يلقي في روعنا أن هذا هو فهمه، ليصل لغايته التي أرادها. لكننا تعلمنا، أننا سنصل لمبتغانا مادامنا نريد نيتنا خالصة للناس، وللوطن، خالصة بمعناها الحقيقي، وليست خالصة لتحقيق المآرب الدنيوية والسلطوية باسم هذه المصالح.

سنعيش أياماً عصيبة، لكننا سنصل لما أردناه، ولما صبت إليه مصر منذ عقود، سيغيض الدم، وسيهلك الظالمون، وستستوي سفينتنا على الجودي شاءوا أم أبوا، ولسوف يستقيم المنسم في النهاية. ساعتها سيكون لنا شأن آخر. لم يعد المهم هم من، ولا أي تيار، سنكون نحن وهم، ستكون مصر.. ستكون مصر التي لم يعد فيها مكان لمن لا عقل له، ولمن يفهم أن إرهاب الأعداء يأتي من إرهاب الأبناء، وأن القوة ورباط الخيل هي سلاح وقمع، وينسى أن بين عينيه سلاح ماضٍ، وأن الله شاهد على ذلك، الله الذي يحبنا، الله الذي نعرفه ونؤمن به، ليس ذلك الذي يدعوننا إليه.

لذلك فهمت، لِمَ لَمْ أعترض على الإيقاع به وإلصاق تهمة مقتل "السمان"، هي هينة ولن تنتهي بإدانته. أمامه مشاكل أكبر بعد انكشاف أمره في الماضي، وافتضاح لقطات "المجمع العلمي" التي كان يحتفظ بها "أكرم"، والأخطر هو مواجهته مع نفسه. فلترحمه الأقدار.

فهمت ذلك، عندما فهمت أن الثورة دين جديد، وإحياء لديننا الذي أضاعوه، وأنني لن أهدي من أحب، الله وحده يهدي من يشاء.

وهذا كل ما أستطيع قوله بشأن ما حدث.

أدهم مصطفى المصري

القاهرة في 22 يناير 2026

عودة لباقي نص الرسالة، بخط "مصطفى المصري"

القاهرة.. سجن طرة، عنبر رقم واحد..

صباح الخامس والعشرين من يناير 2026، الثامنة صباحاً..

هذه الحياة يا ولدي عجيبة حقاً!!

تركتموني وحدي مقيداً، أتأمل في فزع جثة "السمان"، وعدد من الحراس الذين اهتموا بحراسة الجثة الميتة، بأكثر من جثتي الحية!!

جلست أفكر حتى اقتادوني إلى عنبري. بدأت أفهم، خلال الساعتين اللذين قضيتهما في سجني المؤقت، الذي لم أعد أفرق بين ملامحه، سجن أفكاري، أو ترددي، أو مستشفاي، أو بيت الملاحدة!! بدا لي وكأن للمكان بوصلة ضخمة أرى سطحها لأول مرة، سطحها الذي تاه من ناظري في يناير منذ سنوات، ونوفمبر المشئوم، وطوال عام منصرم حتى تركتموني فيه أتذكر، وأفكر.

لا أعرف يقيناً ما صارت إليه الأحداث إبان محبسي. أعرف فقط أن "سعداً" ومن مثله قد تحرروا من خوفهم، وأن فهمكم وموقفكم صار واضحاً، ولم يعد يحتاج إلى شرح. أظن أن "كمال" ومن مثلها سيكونون بخير، وأن "جماعة الحق" ستندحر، لكن الحق الذي نادت به ولم تدعو إلا إلى شبيهه، هو الذي سيسود.

كلنا عشنا أسرى لهزائمنا السابقة: أنا أسير لهزيمتي أمام أبي التي خلقتها لنفسي خلقاً. لم أمتلك الشجاعة لأكون مثله وأصطدم بالناس وأخاطر بحبهم لي فآثرت أن أكون نسخة محببة للجميع، يهشون لي عندما أظهر هنا أو هناك، ويبتسمون في وجهي لأني لا أعارضهم، حاولت أن أكسب الجميع، أن أكسب كل شيء، الثورة والثوار، وزيجتي الفاشلة، وأهلي الطيبين، وأصدقائي وأعدائي وعملي وتجارتي، فخسرت الجميع، وخسرت كل شيء. لم أستخدم ذكائي في أن أكون نسختي، وأستدعي نسخة أبي بداخلي عند اللزوم، بل أتبعت

عقلي لقلبي المشتاق إلي الاندماج مع من حولي بحميد الخصال، فانتهي بي الي الانعزال المتبلد والتوحد مع نفسي الأنانية في وحشية. صرت تشوهاً مما أردت، ونسخة من نفور من حولي، وهو ما كرهت. شيء من الوقوع أسيراً لإطاعة الهوى فعلته أنا أيضاً، ووضعت عقلي وسيطاً فإذا به خادم لا يفكر ولا يري إلا هواي، فصور لي أنني أتميز بالاختلاف فسرت وراء كل قراراتي الخاطئة بحماس يبغي النجاح ويرى الضوء في الشط المظلم البعيد، فغفلت عن الضوء بين قدمي وبداخلي.

"ندى"، قاتلتي في شبابي بقلبها، قتلتني أيضاً في كهولتي بعقلها، ولم يكن ذلك أيضاً إلا أنها وقعت أسيرة لي. كم هو غريب أن تحاصرك مشاعر السعادة حين تكتشف، في عز ألمك، أن من ندمت على فراقه طويلاً قد سقط أسيراً لحبك ربما بأكثر مما تخيلت أو تمنيت أنت. برغم ما فعلت، فهي أيضاً أسيرة ما فعلت بها. ربما هو شعورها أنني خنتها مع غيرها، أو أنني تركتها وذهبت، أو أنني ظللت أحبها بعد أن خذلتها، فضحيت بأخيها في سبيلها. قال "هريدي" – رحمه الله – لي يوماً أنها لابد وأنها ستتعلم كثيراً مما حدث. يبدو لي أنها تعلمت لكنها قرأت الدرس الخاطيء، الذي أفضي بها هي أيضاً لأن تكره، وقد حفظت درسها بدافع الحب، وإن كان قد طُعِن، فأحبت أن توجعني، وأحبت أن تكرهني.

كم منا يفعل ذلك كل يوم؟ كثيرون، لكن منا من لا يفعل. أنتم يا ولدي، "الملاحدة" كما يسمونكم، أنتم مختلفون. قرأتم

الدرس الصحيح، وعرفتم بالضبط ماذا تريدون من قراءتكم له، ربما أخطأتم، فقرأتم بصوت عالٍ ولم تحذروا الوحوش من حولكم، انقضت عليكم سباع الظلام تخشى على فقدان فرائسها، تلك الفرائس التي تتوق إلى نور النفق المظلم لتهرب من أنيابهم وأظلافهم، لكنكم قرأتم الدرس وفهمتموه في النهاية، فلم تستسلموا لأسر ولا قيد، ولم تصدقوا قولاً إلا بعد أن أعملتم عقولكم أولاً، فصار إيمانكم بأنفسكم وبدينكم أمضى وأقوى.

طول حياتي، سواء تلك السابقة أو أيامي التي عشتها على مدار العام المنصرم بعد الفواق، عشت لأري أناساً حاولوا ألا يكونوا أسرى ماضيهم. حاولوا، تعذبوا، غَيَّروا من أنفسهم وبدلوا قناعاتهم وحاربوا آخرين من أجل ذلك. أنا عشت لأكون غيري، فكنت في النهاية صورة مشوهة مني، صورة كتمت بركان المشاعر والرغبات دون فائدة، فلا أنا وصلت إلي لذتي ولا أنا أرضيت الناس، ولا أمسكت بتلابيب روحي التي اشتاقت إلي أن تصل إلي حلمها. "عزمي" عاش أسير فكرة أنه أخطأ في حق عقله، وفرط في جنب إنسانيته، فعاش عمره كله يحاول أن يثبت لنفسه وللناس أنه تعلم من الخطأ. لكن كلانا، أنا و"عزمي"، تاقت نفسانا إلي النبل والخلاص من الآثام، لكننا تعلمنا من عذابنا. سواء كنا نحارب طواحين الهواء، أو نحارب الوحش بداخلنا، فإن صراعنا وهيامنا على وجوهنا في أركان الحلبة لم يكن بلا طائل. بعد كل تلك السنوات وصلت إلي الحقيقة، ووصل "عزمي" إلي سلامه النفسي. كلانا فعل، عندما

رأى ما صرتم عليه. هناك مثلنا عاشوا أسرى ماضيهم، لكنهم لم يتغيروا، لم يحاولوا التغيير لأنهم كانوا أجبن من أن يفعلوا. أنظر إلى "حسام"، عاش وسيموت يحاول أن يصل للشهب، يدوس على رقاب من حوله ليصل، فاحترق بها. هو فقط لا يدرِ ذلك بعد. أنظر إلى "أكرم"، الذي لم يستطع أبداً تجاوز مرحلة الخائن. عاش أسيراً لها يحاول إثبات أنه على حق، وأن ما فعله كان من أبدع ما يمكن أن يقوم به أي ممن كان ليتواجد في مكانه. أنظر إلي "السمان"، وكيف لم يخطو خطوة خارج دائرته المغلقة على القهر والظلم. عانى كثيراً من الغبن في دراسته، كسرت "ندى" قلبه مبكراً، وتبخرت أحلامه على يدي أمن الدولة حينما رفضوا طلبه بالتعيين في الجامعة، ثم انفرطت كرامته في السجون وخلف ظلمات الحبس. لكنه عاش سجين الغبن فملك عليه حياته، وظل رهينة انكسار القلب فبحث عن قلب ليعذبه، وبات ينوح على كرامته فداسها بقدمه أكثر حينما رفض الخروج من ذلك كله. "السمان" يا ولدي عاش أسيراً ولم يحاول الخروج من محبسه أبداً، لهذا كره من قلبه كل الخارجين، المحلقين في سماء الجمال، والذين عرفوا الضياء فسعوا إليه، ومن تذوقوا حلاوة العقل فرشفوا منه زيادة، وبينما كرههم، ضيق الدائرة عليه وشد الأغلال حول قدميه أكثر. "عزمي" فهم أن الأغلال من صنعه وأن القاضي يمكن أن يخطيء. كسر القيد وجرى بعيداً ليتأمل جلاده عن بعد ويصنع لنفسه منزلاً بعيداً هادئاً فوق التل، بينما قرَّب السمان جلاده منه

وصارا ندماء خمر تغييب العقل، ورفقاء درب الطاعة بحجة الضرورة، والطمع في النعيم بعد الدنيا، لأن الدنيا لم تعد تساوي بالنسبة لهم ثمن الكد فيها والتعب. مثل هؤلاء، هم أسري الخوف من القهر والذل الذي لاقوه فحصنوا أنفسهم بالأغلال التي تحميهم بتكبيل أيدي الناس عن معارضتهم، تحصنوا بكلام السماء الذي ينصرهم وأسقطوا كرههم للآخرين فرموهم بكلام السماء الذي يشيطنهم، قصروا عقولهم على النقل فكرهوا الفاهمين لأنهم يجرونهم إلي ملعب لم يبرعوا فيه، ويضعون احترامهم لأنفسهم على المحك بعد أن فقدوا أي رغبة في التنافس على العقل إثر انتهاك الأجساد. بدلوا عقولهم من كبح الهوى إلي حمايته، فصارت الدنيا مكافأة لهم على اتباع أوامر السماء. صاروا كالعبيد الذين يطيعون مقهورين ليهنأوا بفتات العيش آخر الليل أو لتتقي ظهورهم ضربات سياط الأسياد، وصنعوا لأنفسهم على قدر النعمة أسياداً بعددها. ذلك سيد للجماعة وهذا أمير وهذا وزير، ومن فوقهم الرب يحرك الجميع وفق هواهم المختار. لكنهم أبداً لم يدركوا أنهم ما أحبوا أسيادهم ولا أن أسيادهم ما خلقوهم لهذا، فأوقعهم أسرهم من حيث لا يدرون في حبائل فخ المخالفة للسيد الذي بحبه بدأت ألحانهم فانتهت بلحن جنائزي للعقل.

لكن ما بهذا أُمِرنا يا ولدي، وما لهذا نعيش. لا تكن مثلهم، لا تكره الدنيا ولا تكره نفسك أبداً. اعلم أنك لابد وأن تخطيء، لابد وأن تعيش أسير خطأك حتى تريد أن تهرب منه. اسمعها

مني، ولا تجزع، لابد وأن تخطيء، "عادي"، "طبيعي"، صدقني.. كل ذلك لا غبار عليه فلا تذهب نفسك على نفسك حسرات كما حدث لي. لكن انظر ساعتها إلي أين تهرب، واحرص على أن يكون هروبك إلي نفسك، وليس منها.

أما أنت، وأما أنتم، فقد فكرتم واخترتم الصفحة السليمة في الكتاب، فلما قرأتموها اختلفتم في فهمكم لها، لكنكم لم تضيعوا الهدف من أعينكم أبداً. كنا نحن من حولكم، نحن الذين قرأنا تلك الصفحة وأكثر قبلكم، رفضنا وقبلنا منها ما شئنا، تقلبنا مع هوانا وعقولنا جيئة وذهاباً ثم غلبتنا عقولنا المتكلسة التي تشبعت بأسر الماضي وهوى الحاضر، حتى لم يعد يجدي معها قول أو فعل. ثم حاسبناكم لأن عقولكم لم تناسب هوانا، وفضحتنا، فطمسنا عليكم كإعرابي جاهلي يدفن ابنته إذ بُشِّر بها، فرأي في النور على قسماتها البريء عاراً أي عار، لمجرد أنها فتاة، أنثى وليدة ترى النور ولا ينبغي أن تراه، فيظل حكراً على عينيه هو. عيناه التي ترى النور فقط فيما يحب، ولا تراه فيما لا يطيق حتى وإن كان مصدر النور ذاته.

أنتم عشتم أسرى أيضاً. لكنكم أسرى البحث عن النبل، والسعي وراء الحقيقة التي أدركتموها بضمائركم والتي اتصلت بحقيقة الخلق والخالق بنورانية لا أملك سوى أن أحسد نقاءكم عليها. وإذ اخترت لنفسك هذا يا "أدهم"، فاعلم أنك تختر لنفسك إذاً مصيراً من مصائر هؤلاء. مصيراً، إما للهروب إلى

نفسك، أو للهروب منها. وفي كلتا الحالين، فأنت الذي تدفع الثمن، كاملاً!!

أما "أحمد هريدي"..

فأنا لن أمل من طلب الرحمة لي قبل أن أطلبها له..

أحمد..

لقد عرفت أنا الآن من هو "الفرفور" الذي كنت تراه فيّ، وعلمت كم كنت محقاً، ذلك الاسم الذي أطلقوه عليكم في الميدان، ونعتوكم بأسوأ منه طراً، وهم لا يعلمون أنهم لم يصيبوا ولم يفهموا. أعلم أنك غاضب مني، لكنني أنا الغاضب منك أنك لم تصارحني برأيك كاملاً. مثلك كان ليفهمني، ومثلك كان ليقومني لو أراد، بيد أنك كنت مثالياً أكثر من اللازم، وكنا نحن ضعفاء أكثر من اللازم أيضاً. ربما أردت مني أن أفهم ضعفي وحدي، ولم ترِد أن تصدمني باحتقارك لذلك الجزء مني، لكنني فهمت بعد أن كنت سبباً في موتك، موتك الذي لم أحضره، لكنه سيظل يطاردني بقية عمري، برغم أن بصماتي ليست على جثتك الطاهرة، وبرغم كل الحجج الخرقاء التي قد أقولها..

لكنني، إذ أنتظر بين لحظة وأخرى أن أرحل عن هذا العالم، أشعر بأنني سعيد أكاد أتقافز من الفرحة. كنت جزءاً من عالمك يا "أدهم"، فرحت بك رغم أنك لم تعرفني، وفرحت بأيامك القادمة وأيام مصر التي سوف تفتحون عيونكم وعيونها عليها. الآن لا أشعر أنني فشلت في الوصول لما أريد، وأنني لم أضيع

حياتي ولم تفتني الفرص. الآن وجدت "أنا" الذي بحثت عنه كثيراً، والآن فقط، أعلم أن رحيلي لن يكون بلا ثمن.

ولدي، صديقي الذي تمنيته وبحثت عنه طول عمري في "هريدي"، في "عزمي"، في "شاهي"، في "أبي"، و"أمي" وحبيبتي وزوجتي.. ولدي الحبيب..

شكراً.. ووداعاً!!

مصطفى المصري..

فجر الخامس والعشرون من يناير.. 2026..

القاهرة.. مصر (أم الدنيا)

** * **

محضر اجتماع التحقيق في واقعة بيت الملاحدة – نمرة 9، ملف المتهم "مصطفى عبدالرحيم المصري" وآخرين، وكذلك ملف مقتل السيد "محمود أحمد عبدالله السمان"، رئيس الجمهورية الأسبق وشهرته "محمود السمان".

بعد الاطلاع على كل من:

1- قانون العقوبات المصري بحسب التعديلات الأخيرة

2- تسجيل صورة وصوت لحادثة المجمع العلمي إبان أحداث نوفمبر 2011 والمعروفة باسم "أحداث شارع محمد محمود" للمدعو "مصطفى عبد الرحيم المصري" والي تظهر

بما لايدع مجالاً للشك اشتراكه وآخرين في إطلاق النار على ثوار أبرياء عزل

3- تحقيقات النيابة مع المسئولين في القطاعات السيادية والأمنية ونختص بالذكر المدعوين كل من "أكرم الشاهد"، "حسام المنزلاوي"، وعدد من قيادات التنظيم المعروف لدى العامة باسم "جماعة الحق"، وعدد من المسئولين بالأجهزة الإعلامية المختلفة بالدولة.

4- الرسالة الإلكترونية سالفة الذكر، والتي تعتبر جزءاً أصيلاً من هذا التقرير، والمتضمنة لشهادة المدعو "مصطفى عبد الرحيم المصري" ونجله "أدهم مصطفى عبد الرحيم المصري" بشأن أحداث مقتل "محمود السمان".

وبما لها من صلاحيات فوضها الشعب بشأنها، وبما تمليه عليها ضمائر الرجال والسيدات المشاركين بها من خيرة شباب هذا الوطن وفئاته من قضاة، ومفكرين وجامعيين، قررت اللجنة التالي:

أولاً: يتم الإفراج فوراً عن المدعو مصطفى عبد الرحيم المصري" وذلك لعدم كفاية الأدلة لتعضيد قرار الإعدام الذي تم اتخاذه على عجل إبان حكم النظام السابق، وتحول أوراقه إلى النيابة العامة لمباشرة التحقيقات.

ثانياً: التحفظ على كل من "أكرم الشاهد"، "حسام المنزلاوي" وباقي قيادات الجماعة المذكورة تحت الإقامة

الجبرية بمساكنهم المسجلة بالتحقيقات، على أن تباشر النيابة تحقيقاتها معهم في ما نسب إليهم من اتهامات.

ثالثاً: رفض مطلب بعض أعضاء الحركة الشعبية لإصلاح مصر بشأن احتجاز الأسماء السابق ذكرها دون محاكمة في ما يعرف ببيت الملاحدة عقاباً لهم على ما اقترفوه في حق الوطن.

رابعاً: إلغاء ما يعرف باسم دستور الذكور والإناث، وكل ما ترتب عليه من قوانين وتفسيرات قانونية وما نشأ في ظلها من أوضاع، وتشكيل لجنة تأسيسية لوضع الدستور من انتخاب مباشر في خلال أسبوعين، بعد تضمين الأسماء المرشحة من هيئات الدولة المختلفة، والمصريين بالخارج عن طريق سفاراتنا هناك.

خامساً: إلغاء ما يعرف باسم "أمن الطواريء" وحل الجهاز الإداري الخاص به والتحقيق مع القائمين عليه فيما نسب إليه من أفعال وتحقيقات شابها التسرع وعدم تطبيق حرفية القانون.

سادساً: تحويل بيت الملاحدة رقم 9 إلى نصب تذكاري لتخليد ذكرى شهداء "شارع محمد محمود".

واللجنة، إذ تتطلع إلي إقامة العدالة وتتوخاها في قراراتها، وترفض مجابهة الظلم بالظلم، إيماناً ويقيناً منها بأن العدل هو أساس الملك، يطيب لها مع ذلك أن تذكر كل من أتى ذكره في هذه الوثيقة بأن عدالة الأرض غير عدالة السماء، وأن الأولى مهما حاولنا ضبطها قاصرة، وأن الثانية مهما بدت لنا منقوصة

فهي الكمال بعينه، وكم من بريء عاش يبحث عن العدل طوال حياته فوجده في عدل الله، وكم من ظالم خرج من بين غياهب السجن فرحاً بانحراف ميزان العدالة لصالحه، فلم يراجع نفسه ولم يتعظ بما حدث، فأمهله الله حتى أخذه فلم يفلته، لكن كل ذلك دائماً وأبداً، مرهون بالعدل وإقامته على الأرض، ساعتها تستجيب السماء، ساعتها تستجيب السماء".

الله، مصر، العدل، العقل.

"وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون"

صدق الله العظيم.

القاهرة، السابعة صباح الخامس والعشرين من يناير، 2026

(النهاية)